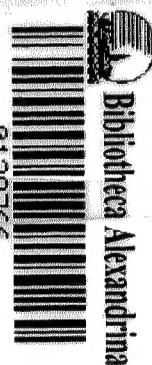
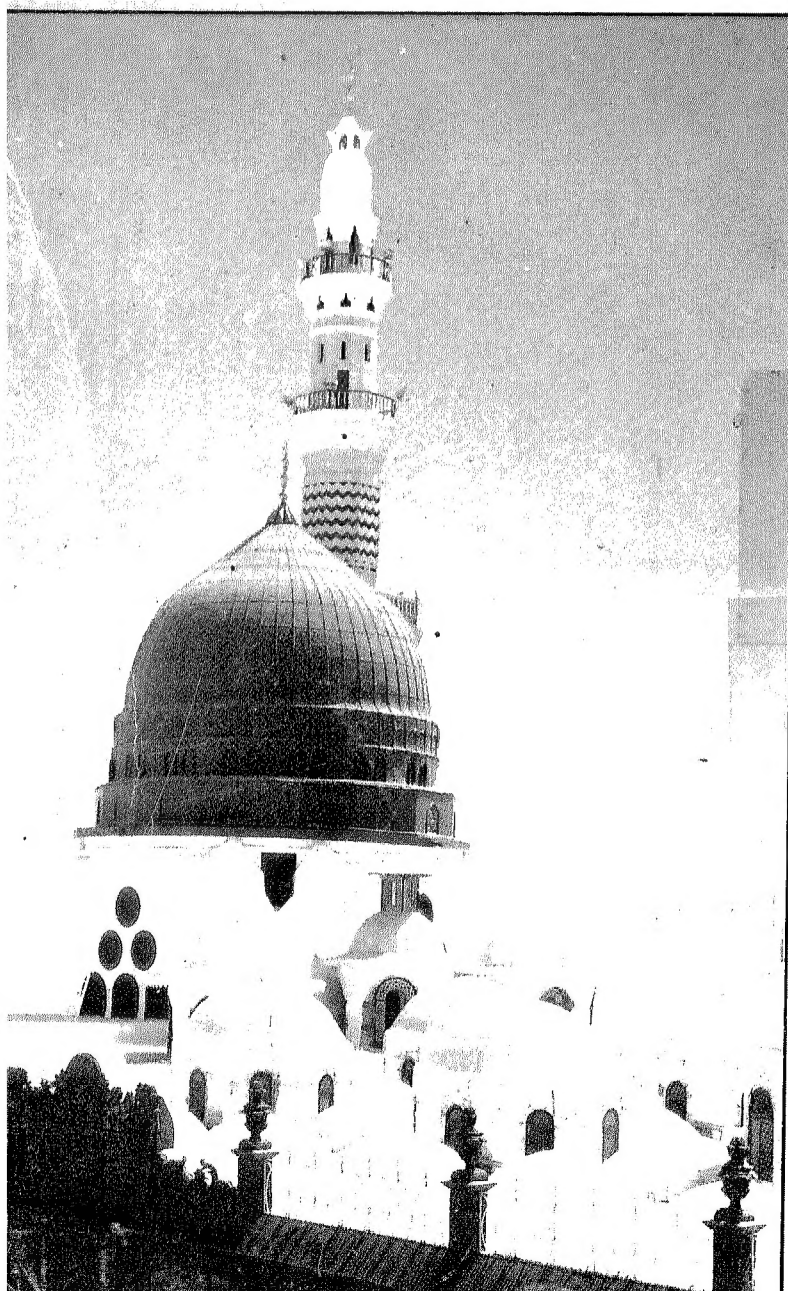
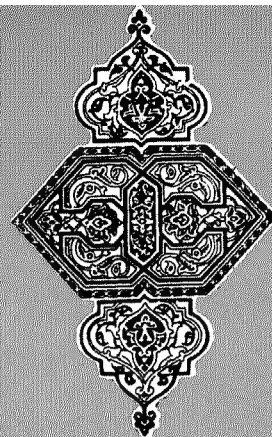


مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ سَيَرَتُهُ وَأَنْبَشَرُهُ فِي الْحَضَارَةِ



0129766

Bibliotheca Alexandrina

جَدِّ النَّبِيِّ ﷺ

الناشر
مكتبة النخاعي بالقاهرة

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
سَيَرَتُهُ وَأَبْشَرُهُ فِي الْحَضَارَةِ

رقم الإيداع بدار الكتب
٣٥٧٣ لسنة ١٩٧١

محمد رسول الله سِيرَتُهُ وَأَبْشَرُهُ فِي الْحَضَارَةِ

تأليف
General
محمد بن عبد الله بن محمد

الناشر مكتبة النخاس بالعمارة

مقدمة

عكفت على دراسة حضارة العرب والإسلام أكثر من عشر سنين ، كتبت في خلالها ثلاثة كتب في أثر الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة الأوربية . والحق أننى كلما ازددت معرفة بتاريخ حضارة العرب والإسلام وبتاريخ العلم ، ازداد يقينى بالأثر الجوهري الذى أحدثته هذه الحضارة في إبان ازدهارها في القرون الوسطى في حضارة أوربا ، ومن ثمة في الحضارة الحديثة .

ولما كان محمد عليه الصلاة والسلام هو مؤسس هذه الحضارة ، أصبح لزاماً علىّ أن أربط سيرته بها ، وأصبح ضرورياً ، بل لقد أصبح من واجبي ، أن أعود إلى النبع الذى انبثقت منه هذه الحضارة .

ثم إننا لا نستطيع في واقع الأمر أن نعى حقيقة الدور الذى أدته حضارة الإسلام للتقدم الإنساني عامة من غير أن نبحث في أحوال العالم الذى ورث الحضارة القديمة ، والذى استولى عليه المسلمون في ذلك الوقت وأثروا فيه ، وهو عالم الرومان والمسيحية في المقام الأول . يستتبع ذلك أن نعقد مقارنة بين المفاهيم التى أرسنها المسيحية في هذا العالم – والتي دعت إلى ترك الدنيا وانتظار ملكوت السماء ، أو إلى احتقار العلم والعلماء ، أو إلى غير ذلك من المفاهيم التى أدت في نهاية الأمر إلى انهيار الحضارة القديمة والقضاء على كل مظاهر العلم – وبين المفاهيم التى أرسنها حضارة الإسلام في هذا العالم ذاته بعد أن استولى عليه المسلمون ، وكيف قلبته رأساً على عقب ، وكيف نتج عن المفاهيم التى شاعت في دولة الإسلام ، مثل القول بأن الكتابة أشرف المهن بعد الخلافة ، والتي تبناها خلفاء الإسلام وحكامه وأمراؤه ، نهضة حضارية علمية عظيمة الشأن ، كانت سبباً مباشراً في إنقاذ العلوم القديمة من الضياع ،

فضلا عن ابتكار علماء المسلمين لعلوم جديدة تكمن في أساس الحضارة الحديثة بشهادة جيل من العلماء الأوربيين المحدثين أنفسهم ،

هذه النهضة الكبيرة التي أحدثتها دولة الإسلام في التاريخ الديني ، والاجتماعي ، والعلمي ، والحضاري عموماً في القرون الوسطى ، إنما يرجع الفضل فيها إلى رجل عربي أمي كانت أمه تأكل القديد ، عاش في صحراء العرب ، وخرج يوماً ما من مسقط رأسه طريداً يقاتله قومه أشد القتال ، فكافح كفاحاً بطولياً ، ثم انتصر عليهم ، وأسس في النهاية ديناً يدين به الآن مئات الملايين من البشر في جميع أنحاء العالم ، ودولة انبثقت عنها أكبر إمبراطورية عرفتها القرون الوسطى ، بل ربما لا نكون مغالين إذا قلنا إنها كانت أهم إمبراطورية في تاريخ الحضارة الإنسانية العلمية على الأخص .

من هنا بدأت أكتب سيرة هذا النبي الأُمي ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، ومعجزة الإنسانية ، وانحصرت الخطة التي انتهجتها في كتابة هذا التاريخ فيما يلي :

حافظت بقدر الإمكان على سياق النصوص القديمة التي وصلتنا عن أئمة كتاب السيرة ورواة الأحاديث . ذلك أن هذه النصوص لا تزال في الحقيقة من حيث سلاستها وسهولتها وكأنها بنت اليوم ، فضلاً عن جمالها اللغوي وبيانها . ولم أدخل عليها إلا بعض تعديلات قليلة إذا اقتضى الأمر تغيير كلمة مهجورة بكلمة حديثة . ولم أحاول أن أدخل على السيرة من الخطايات والحماسيات والنظريات التي تحتل القيل والقال شيئاً ، بل إنني تعمدت أن أترك السيرة كما وصلتنا عن القدماء بكل جلالها وروحها تعبّر تعبيراً صادقاً عن مختلف الأحوال والملابس والعقائد والأفكار التي كانت سائدة في ذلك العصر ، وبما تنطوي عليه من عبقرية الشعب وعبقرية القائد في إطارها البدوي الساذج . ثم وضعت هذا كله في إطار من أفكارى وتعليقاتي . ولم آخذ عن أحد من المحدثين شيئاً يستوجب الإشارة إليه ،

وإن كنت قد استنرت بكتبهم ولا شك . ولذلك لم أشر في هوامش الصفحات إلى المراجع ، وإنما أشرت إليها مُجْمَلَةً في نهاية الكتاب .

ثم إنى مِلْتُ مع ميزان الفكر الحديث ، وبينت بجلاء كيف أن الشعب الذى ظهر فيه محمد عليه السلام كان شعباً يتمتع بكثير من المقومات الأخلاقية الدافعة نحو حضارة عظمى ، وإن عابته بعض المثالب التى نهاها عنها الإسلام ، فأصبح به خير أمة أخرجت للناس . ولا غرو فإن محمداً ذاته كان دائماً الفخر بعروبه وبيته الهاشمى .

ولم أحفل بالرد على مهارات أعداء الإسلام الذين أرادوا الانتقاص من النبى بالشوشرة الفارغة حول بعض تصرفاته ، أو بالطعن فى بعض مفاهيم الإسلام ، واكتفيت بإظهار فكرة كبرى ، هى أن الإسلام ونبى الإسلام قد أحدثا ثورة هائلة فى القرون الوسطى فى تاريخ الفكر الإنسانى عموماً ، والفكر العلمى بخاصة ، وأنقذا العالم من عصور الظلام ، ووضعاه على عتبة العصر الحديث بكل ما تحمل هذه العبارة من معان . ماذا جنت البشرية من ظهور محمد والإسلام ؟ هل تقدم العالم تحت نظام الإسلام أم تأخر ؟ هل كان الإسلام نظاماً تقدماً بالنسبة للأنظمة الموجودة فى عصره أم لا ؟

وهنا أعتقد أنه ينبغى للكثيرين من الذين يجنحون فى مناقشتهم إلى استعمال بعض العبارات الحديثة مثل « الدين أفيون الشعوب » أن يدركوا تمام الإدراك أن الدين الإسلامى لحسن الحظ لم يكن ولا ينبغى أن يكون فى أى وقت من الأوقات ، ولا تحت أى ظرف من الظروف أفيوناً للشعوب . لأن الدين الذى يحض على الاستعلاء فى هذه الدنيا ، ويمجد الحرية ، ويشيد بالعلم والعلماء — الدين الذى تأمر روحه العام خليفة المسلمين بأن يقف فى الناس فيقول لهم كما قال أبو بكر : « إن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى . . . إن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » أو كما قال عمر : « من رأى منكم فى عوجاً جأ فليقومه » وهذه هى روح الإسلام الحقيقية ، لا يمكن أن يكون أفيوناً

للشعوب . وتاريخ الإسلام في عصر ازدهاره وقوته ، أى في عصر الرجولة الإسلامية ، مليء بمواقف لعدد كبير من الخلفاء ، والحكام ، والقضاة ، تعبر أحسن تعبير عن هذا المنهج ، وعن هذه الروح . ويكفى الإسلام أو أى نظام اجتماعى آخر فخراً أن يكون في عصره نظاماً تقدمياً لا انتكاسياً . ومن هنا ينبغى لكل المفكرين وللتقدميين على الأخص أن ينظروا الإسلام باعتباره نظاماً تقدمياً من النظم التقدمية التى أحدثت فعلاً وحقيقة تقدماً رائعاً في تاريخ الإنسان الحضارى ، في عصر كانت فيه الحضارة في أمس الحاجة إلى دفعة نورانية تزريح عنها الظلمات التى خيمت عليها .

ثم إنى شرحت في الفصل الأخير جميع هذه الأفكار ، وتعرضت للحقائق التاريخية التى حكمت عالم الحضارة في القرون الوسطى ، وبينت كيف أن حضارة الإسلام كانت في حقيقة الأمر ، وبما ليس فيه مجال للقليل والقال ، واعتماداً على أوثق المصادر العلمية والتاريخية الحديثة ، الأساس الجوهري الذى تركز عليه الحضارة الحديثة . ونحن إذ نقرر هذا التقرير لا نلقى القول على عواهنه ، وإنما يكفى أن نذكر هنا الآن أقوال عدد من كبار علماء الغرب ، تفصح أيما إفصاح عن هذه الحقيقة التى شغلتنى أكثر من عشر سنين ، حاولت فيها بكل طاقى وبما وصل إليه علمى أن أثبتها ، وأثبتها ، وأعممها في أفكار بنى جلدتى ، وأهدى بها الجيل الجديد من أبناء العرب الكرام إلى حقيقة تاريخية هامة جداً ينبغى لهم أن يعوها تماماً ، وأن يعملوا على نشرها .

يقول الأستاذ مبولد : ينبغى لنا أن ننظر إلى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية آخذين هذه التسمية من مفهومنا للعلوم الطبيعية في عصرنا هذا .

ويقول الأستاذ ليبرى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الأدبية عدة قرون .

— ٩ —

ويقول الأستاذ كارا دى فو : إن مكتشفات العرب فى الرياضيات تكون فى أساس الحضارة الحديثة .

ويقول الأستاذ نيكاسون : إن مؤلفات العرب التى اتصفت بالدقة وسعة الأفق قد استمد منها العلم الحديث — بكل ما تحمل هذه العبارة من معان — مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نفترض .

أبادر بالاستشهاد بهؤلاء الأساتذة ، وهم من كبار الباحثين الأوروبيين ، حتى أكون أقرب إلى عقول أبناء وطنى العربى الذين بلبت أفكارهم دعايات المستعمرين والمبشرين والشمعويين ، وحتى لا يظن البعض أنى أجرى وراء أوهام ، أو أنى أنساق فى دوامة من العاطفة الوطنية المتأججة . كلا ثم كلا ! فهذه حقيقة تاريخية كبرى ، إن لم يقتنع بها اليوم إلا فئة ممتازة من المثقفين الذين ألتوا بتفاصيل هذا التاريخ ، واستطاعوا أن يخرجوا من الكماشة التى ضربتها الدعاية الغربية ضد العرب والإسلام ، فلانى على يقين من أن الأيام كفيلة بتحقيق ما أرمى إليه .

جبريل مظهر

القاهرة فى ٢ من أغسطس سنة ١٩٧٠

الفصل الأول

الجاهلية

أو

فترة ما قبل الإسلام

يراد بالجاهلية زمن الفترة التي مرت قبل الإسلام والتبشير به . وفي الحديث : إنك أمروء فيك جاهلية ، أى أنك لا زلت متأثراً بالحالة التي كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع دينه ، فضلاً عن تمسكك ببقايا بعض العادات التي كانت متفشية بين العرب في الجاهلية ، والتي نقضها الإسلام . ولقد ورد ذكر الجاهلية في القرآن أربع مرات في الآيات : « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية^(١) » و « أنحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون^(٢) » و « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية مخمية الجاهلية^(٣) » و « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى^(٤) » . وأما المقصود بالجاهلية الأولى فأمر اختلاف فيه المفسرون كثيراً ، وأعتقد أن المقصود بالجاهلية الأولى إنما هو الزمن الموهل في الجهل بالأنبياء والرسول ، أى الزمن السابق على الأنبياء والرسول المعروفين . ونحن على أية حال لا نستطيع تحديد فترة الجاهلية على وجه الدقة ، إلا بالقول بأنها الفترة التي مرت على العرب وهم يجهلون الإسلام ، أى ما قبل الإسلام على إطلاق القول .

يعبر لفظ الجاهلية في عقول الناس عن حالة من القوضى والاضطراب

(١) آل عمران ١٥٤ . (٢) المائدة ٥٠ .

(٣) الفتح ٢٦ . (٤) الأحزاب ٣٣ .

والهمجية والانحطاط عاشتها بلاد العرب قبل الإسلام . ولقد درج المؤرخون المسلمون الورعون الأتقياء ، الذين يريدون إظهار الإسلام في ثوب من الإعجاز ، أو الشعوبيون الذين رموا إلى الانتقاص من شأن العرب ، أو المستعمرون المحدثون ، على تثبيت هذا المفهوم وترسيخه ، كل فئة تخدم أغراضها . ولكن الحقيقة التاريخية تدلنا قطعاً على غير ذلك ، مما يجعلنا نقرر مع عدد من الباحثين أن الجاهلية تعني أول ما تعني الجهل بالدين الإسلامي وشرائعه ، فضلاً عن بعض العادات السيئة التي نقضها الإسلام لا غير . ذلك أننا لا نستطيع أن ندعى أن الإسلام هدم المجتمع العربي الجاهلي هدماً تاماً وكاملاً وشاملاً من أساسه ، وأقام بين ليلة وضحاها مجتمعاً آخر ليكون « خير أمة أخرجت للناس » . هذا لا يمكن أن يحدث في عالم الاجتماع . فإن حضارة الأمم لا تولد فجأة وبلا مقدمات ، وإنما هي في واقع الأمر نتيجة لتطور طويل جداً ، ومفاهيم أخلاقية ترسب في نفسية الجماعة جيلاً من بعد جيل ، وتوهمها للقيام بدور حضارى معين .

والحق أننا لا نقع في واقع الأمر لا في القرآن ولا في الحديث على شيء نستشم منه عيباً في شأن العرب باعتبارهم أمة ، بل على الضد نقع في أحاديث كثيرة على ما يفيد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يفخر دائماً بالعرب جملة وبالبيت العربي الذي ولد فيه بخاصة . فقد جاء في صحيح مسلم أنه قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » . وجاء في البخارى أنه قال : « بُعِثْتُ من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً ، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه » . وقال الإمام أحمد إن النبي صعد المنبر فقال : « إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير أمة ، وخلق القبائل فجعلني في

خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجمعنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً .

غير أنه من أعجب الأشياء حقاً أن الكتاب المسلمين القدماء ، وكثيراً جناً من المحدثين تناولوا بعض العادات السيئة التى كان يمارسها عرب الجاهلية ، وأخلوا ينسجون من حولها هيكلًا ضخماً من السباب والشتائم فى هؤلاء العرب ، ظناً منهم أنه طالما حرّم دينهم مثل هذه العادات ، فإن الهجوم عليها وعلى الشعب الذى مارسها ضرورة يحتملها عليهم الورع الدينى . ولكن ما شأن الصفات الحميدة ؟

لقد تغاضى هؤلاء الكتاب تماماً عن الصفات الحميدة والحلقيات العليا التى اتصف بها الشعب الذى ظهر فيه محمد فكان بالإسلام « خير أمة أخرجت للناس » ، وتمسكوا بالقشور دون اللب والجوهر مستخدمين بعض المفاهيم الدينية التى أساءوا فهمها . لقد نسى أمثال هؤلاء الكتاب أو تناسوا ما اتصف به العرب الذين ظهر فيهم محمد من صلابة أخلاقية ومن مكارم نفسية هى فى واقع الأمر الأساس الذى يقوم عليه تقدم الشعوب ، وتأسس به الإمبراطوريات والدول القوية والمجتمعات الناهضة الفتية .

ومن هنا أنت تلك البلبلة العجيبة التى أحدثها هؤلاء الكتاب فى مفهوم الناس عبر القرون لحلقيات الشعب العربى قبل الإسلام وإبان ظهور الإسلام . ولقد استمرت هذه المفاهيم الخاطئة بصورة أو بأخرى حتى أيامنا هذه . ولكنى أعتقد أن ميزان الفكر قد تحول فى السنين الأخيرة تحولاً واضحاً نحو رفض الأقوال القديمة والنظريات الشموية والاستعمارية التى تسيء إلى عرب الجاهلية ، وبدأت الصورة الحقيقية لهؤلاء العرب الكرام الذين كان محمد من خير بيوتهم ، تتحيز بشكل واضح فى كتابات كثير من الكتاب المحدثين . أريد أن أقول بمنتهى الوضوح إن هؤلاء العرب الذين ظهر فيهم الرسول

إنما كانوا يملكون كل الأسس الأخلاقية الجوهرية اللازمة لبناء دولة قوية ، ولتأسيس مجتمع يستطيع أن يحافظ على سلامة هذه الدولة . ولا مِرية أن كل من ينظر نظرة ثاقبة في أحوال هؤلاء العرب ، لا يسعه إلا التسليم بهذا القول : فإن الدولة القويمة ، كدواة الإسلام ، لا تقوم إلا على أكتاف أفراد أقوياء أخلاقياً وروحياً ، على أكتاف أفراد منتصرين بداءة . لا على أكتاف أفراد منحلين متخاذلين منهزمين نفسياً . ولقد انتصرت الدولة التي أسسها محمد بهمة رجالات مثل أبي بكر ، وعمر ، وعلى بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، وخالد بن الوليد ، وغيرهم من أبناء الجاهلية أتراب محمد وأصحابه .

لقد كانت القيم الأخلاقية التي انصف بها هذا الشعب الأساس الأول الذي بُنيت عليه دولة الإسلام القوية . أما القيم الأخلاقية والنفسية التي انصف بها هذا الشعب وهيأته للقيام بالدور الذي قام به في التاريخ فكثيرة جداً ، نذكر منها شيئاً على سبيل المثال لا على سبيل الحصر : قيمة العزة وشرف النفس ، قيمة الصدق ، قيمة الشجاعة ، قيمة الكرم ، قيمة الدفاع عن الحق ، قيمة التفاوض بصالح الأعمال ، قيمة التضحية في سبيل الأهل والوطن والشرف ، قيمة حب الدين ، قيمة نصرة المظلومين ، قيمة حب البطولة ، قيمة حب العدل ، إلى آخر ما انصف به هذا الشعب من قيم أخلاقية بفيض بها الشعر الجاهلي ويعبر عنها أحسن تعبير .

لما لا مِرية فيه أن العصر الجاهلي عصر من عصور القوة الأخلاقية ، ومصدق كلامنا هذا الانتصارات التي حقها هذا الشعب في مختلف مجالات النشاط الإنساني عند ما أتيحت له الفرصة الكاملة للعمل الحضاري البناء بعد أن تناوله الإسلام بالتهذيب والصقل . والحق أن هؤلاء العرب بعد أن خلاصهم الإسلام من الصفات السيئة التي كانت تقف عقبة في سبيلهم ، قد حققوا مجداً لم يطاولهم فيه أحد في القرون الوسطى . ولقد ينحيل إلينا أنهم كانوا يطعمون على أجنحة من الريح ، خفافاً لا يصدمهم صاد ولا يعرقهم عائق عن بناء

دولة قوية صامدة ، تستطيع بصلاية أخلاق أفرادها أن تواجه التحديات التي تقابلها .

لقد كان العرب الذين هياهم محمد عليه السلام للدور الذي قاموا به أعزة كراماً مقدامين لا يقبلون الضيم مهما كلفهم ذلك حتى ولو كلفهم حياتهم ، لم يكونوا أمة جريحة . ذلك أن الأمة الجريحة في كرامتها ، المغلوبة على أمرها ، لا تستطيع أن تنصرف ولا يمكنها بحال من الأحوال أن تكون دولة كالدولة الإسلامية في القرون الوسطى . إن الأمة الجريحة في كرامتها تكون دائماً وفي جميع الأحوال والملايسات أكثر استسلاماً ، وألين جانباً ، وأميل إلى الخضوع ، وأرضى بالذل ، يسوقها إلى ذلك انحلال أفرادها ورضاهم بهذا الذل واستكانتهم حفاظاً على حيواتهم وأموالهم وما في أيديهم مهما صغر ومهما قلت قيمته . فهل تغير الإسلام أو تبدل ؟ كلا ! وإنما تغير الرجال الذين يقيمون في دولة الإسلام .

لقد ظلت الدولة الإسلامية قوية صامدة طالما كان رجالها قادرين على المضي قدماً في العمل بالأخلاقيات العربية التي باركها الإسلام وقواها ، وطالما استمسكوا بها مهما كلفهم ذلك من تضحيات قد تصل ببعض الأحيان إلى الموت . ثم انحدر المسلمون وضعف الإسلام عندما بدأت تراجع مثل هذه الخلقيات ، وعندما بدأ الناس يتخاذلون ويستكينون ويستسلمون للعدوان عليهم وعلى كرامتهم وعلى رجولتهم ، وعلى كل القيم التي اتصف بها آباؤهم ، ونسوها هم ، والتي من شأنها أن تجعل منهم أناساً لهم قيمة في الحياة . انحل المسلمون وانحلت الدولة الإسلامية ، وأصبح المسلمون في الحضيض عندما تخلفت هذه المقومات ، ولم تعد جزءاً من مكونات النفوس ، وعلى الأنخص مقوم العزة وشرف النفس ، فحرص الناس على ما في أيديهم وما ياتيه إليهم الطغاة مهما قلت قيمته ، وتكالبوا على الدنيا بغض النظر عما يستباح من حرماتهم وما يُخذش من كرامتهم .

عندئذ انحل المجتمع الإسلامي وغرق في هوة من الذل والاستخذاء والاستكانة من شأنها أن تكبت فيه كل معاني الخير والحرية والجمال . أمّا عرب الجاهلية الذين نعرف ، والذين أسسوا المجتمع الذي ظهر فيه محمد وأصحابه ، فقد اتصفوا بكل الصفات وملكوا كل المقومات الأخلاقية الدافعة نحو حضارة عظمى ، وإن انحصرت حياتهم في الحقيقة في إطار البادية وما توحى به البادية من مفاهيم تناقض مفاهيم الحضارة الثابتة الراسخة . وتدلنا الحقيقة التي يشير إليها تاريخ العرب الاجتماعي والسياسي والتجاري والثقافي دلالة واضحة على أن هؤلاء العرب كانوا منظمين تنظيمًا اجتماعيًا عظيمًا منذ أبعد الأزمان ، وإن تأثر هذا التنظيم في واقع الأمر بضرورات الحياة في بادية شاسعة مترامية الأطراف ، بمختلفة المناخ ، بمثابة الأوضاع .

نرفض إذن القول بأن العرب الذين ظهر فيهم الإسلام كانوا قومًا من الهمج رفضاً باتاً ، ذلك أن القول بأن الشعب الذي ظهر فيه الإسلام والذي حمل رسالته التمدينية إلى العالم بكل أمانة وحكمة ، كان قبل ذلك شعباً همجياً ، وأنه ترقى في عشرين سنة ، وأخذ على عاتقه ترقية شعوب أكثر منه حضارة ، أمر ضد الطبع وضد المنطق وضد سياق التاريخ . وأما الحقيقة التي يحدثنّا عنها التاريخ فتشير بكل وضوح إلى أن العرب الذين خرجوا من جزيرتهم واستولوا على العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس ، قد نهضوا فعلاً بهذه البلاد ، فازدهرت شعوبها ونشطت فيها ضروب من الفكر والفلسفة والأعمال العامة لم تعهد لها من قبل ، أو قل إنها كانت قد تسيّت مثيلاتها منذ قرون وقرون .

إذن أريد أن أقول بمنتهى الوضوح أن العرب الذين ظهر فيهم محمد كانوا فعلاً قد ربّبوها قيماً أخلاقية واجتماعية أهلّتهم لأن يقودوا العالم في العصور الوسطى في مختلف فروع النشاط الإنساني ، وأن يصبحوا رعاة الأدب والعلم والفن : والحق إن الحضارة لا تزدهر إلا في جو من الرقي

الاجتماعى والأخلاقي . وما لاشك فيه أن هؤلاء العرب كانوا أرقى أخلاقياً من جميع الشعوب التي فتحوا بلادها واحتكوا بها في القرون الوسطى . لذلك أصبح ممكناً أن تنهض هذه الشعوب من جديد وأن تزدهر فيها ضروب الحياة الحضارية التي كانت قد انحسرت تحت وطأة العسف الرومانى والأفكار المسيحية التي سادت في إبان عصور المسيحية الأولى ، مما سيأتى بيانه فيما بعد ، لقد يخيّل إلى البعض أن الإسلام هدم المجتمع الجاهلى هدماً تاماً . كلا ثم كلا ! الدين الإسلامى دين ودولة . أمّا من حيث هو دين فإن الدعوة الإسلامية قائمة في جوهرها على أساس أن الدين الإسلامى ليس ديناً جديداً ، وإنما هو دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق وموسى وعيسى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (١) . هو دين الحق الذى أفسده أهله وأدخلوا عليه من الضلالات والبدع ما ليس منه ، فأرسل الله رسوله ليبلغ الناس كافة دينه الحق ويعيد الدين الصحيح إلى صفائه الأول . ولقد ذكر القرآن الكريم العرب مراراً وتكراراً في آيات كثيرة بأنهم إنما يؤمنون في قرارة نفوسهم بكل الجواهريات الإلهية التي يحدّثهم عنها .

أمّا من حيث هو دولة لها شرائع وأحكام فإنه كان في واقع الأمر بمثابة تقنين . لقد أقر الإسلام كثيراً جداً من العادات والتقاليد والأحكام التي كان معمولاً بها في الجاهلية وأيدها ، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من شريعته ، ورفض عادات وتقاليد أخرى وأنكرها فنسبت وبادت .

مثال ذلك أن كثيرين من مفكرى المجتمع الجاهلى وقواده كانوا قد بدأوا فعلاً يرفضون كثيراً من العادات القبيحة ، ويؤيدون عادات أخرى ،

(١) النقرة ١٣٦ .

أو يضعون أحكاماً جاء الإسلام فأقرها . فأول من حرّم الخمر في الجاهلية الوليد بن المغيرة ، وقيل قيس بن عاصم ، وحرّمها أيضاً عبد المطلب جد محمد ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من قسم للذكر مثل حظ الأنثيين عامر ابن جشم الجهمي ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من حرم القمار في الجاهلية الأقرع بن جابس ، وقرر ذلك الإسلام . وكانوا يرجعون في الزنا في الجاهلية وقرر الإسلام ذلك في المحصن . وأول من حكم أن الولد للفراش في الجاهلية أكم بن صيفي حكيم العرب ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من قطع يد السارق المغيرة ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من سنّ الدية مائة من الإبل عبد المطلب جد محمد ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من أظهر التوحيد بمكة قبل محمد قس بن ساعدة . ثم إنهم حرّموا الجمع بين الأختين ، وكانوا يخرجون البيت الحرام بمكة ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون ويرمون الجمار ويقفون مواقف الحج كلها . وكانوا يغسلون موتاهم ، ويغتسلون من الجنابة ، ويدأومون على المضمضة والاستنشاق ، وفرق الرأس والسواك ، والاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان . وكانت قريش تصوم يوم عاشوراء . وكانوا في الجاهلية أيضاً يعتقدون في الله وفي أنه سميع مجيب ، وأنه يحيي ويميت ، وأنه ينزل الغيث ، وأنه خالق السماوات والأرض ، وإن أشركوا به . أي أنهم كانوا موحدين ، ولكن كان توحيدهم مشوباً بالشرك :

· وعندما استطاع محمد أن يوجه العرب نحو هدف واحد ، وأن يفرض قانوناً موحداً وعادات وتقاليد ومبادئ يؤمن بها جميع العرب ، ويعملون بمقتضاها ، وهي في واقع الأمر لم تكن بعيدة عن مفاهيمهم ونفسياتهم وخلقياتهم وما جبلوا عليه ، تهيأ العرب عندئذ وصاحوا لأن يقودوا العالم في ذلك العصر . والحقيقة أنهم كانوا — مهما قلبت أوجه الرأي والنظر — أرقى كثيراً جسداً من جميع الشعوب التي فتحوا بلادها . بما في ذلك الفرس

والرومان والمصريون وغيرهم . لا أقول أرقى منهم من ناحية المظهر والملبس والمعاش ، وإنما أقول بكل تأكيد إنهم كانوا أرقى من جميع هذه الشعوب أخلاقياً . وهنا يكمن سر انتصاراتهم في القرون الوسطى ، وسر حضارتهم التي أنقذت العالم من عصور الظلام ، ووضعت الإنسان على عتبة العصر الحديث بكل ما تحمل هذه العبارة من معان . وسوف يستبين القارئ الفاضل كل ما أرى إليه من سطور هذا الكتاب .

والحق أن الترقى في جزيرة العرب كان قديماً جداً . فإن نظمهم الاجتماعية في الزواج والطلاق وفي مختلف المعاملات كانت نظماً راقية لا تقل عن نظم الأمم المتحضرة المجاورة لهم ، إن لم تفقها في بعض الأحيان . وبما لامرأ فيه أنهم عرفوا قوانين وعادات وشرائع وعقائد وتنظيمات حضارية هامة جداً ، سواء الحضر منهم أو سكان الخيام . وتدلنا الحقائق التي نستطيع استجماعها من مختلف أحوالهم قبل الإسلام وفي صدر الإسلام ، دلالة أكيدة على درجة كبيرة جداً من الرقى الأخلاقي ، والتنظيم الاجتماعي المتقن .

لا شك في أن وضع المرأة في أي مجتمع وحالتها العامة فيه في أي عصر من العصور ، معيار هام جداً نستطيع به أن نصدر حكماً صحيحاً على قوة هذا المجتمع الأخلاقية ، وعلى مقدار تماسكه وتوازنه واستعداده بكل طاقته للعمل المشعر المفيد ، ذلك أن المرأة عماد المجتمع ومربيته وهاديته ، وهي عموماً مفتاحه ، إن صلحت صلح بصلاحها ، وإن فسدت فسدت أيما فساد بفسادها ، كيف كانت إذن حال المرأة في هذا المجتمع ؟ هل كانت حقيقة تلك السلعة الرخيصة التي يلهو بها الرجال ؟ هل كانت هذا المخارق الكريه المحقوت الذي يثده الرجال تخلصاً من عاره ؟

كلا ثم كلا ! ذلك أن وأد البنات لم يكن شائعاً بين كل العرب ، وإنما كانت قلة منهم هي التي ترتكب هذه العادة الشنيعة ، سواء من عابدى الأوثان أو المتنصرين على السواء . ثم إن الوأد لم يكن مقصوراً على الفقراء ، بل إن بعض أثريائهم وساداتهم وأدوا بناتهم . والحقيقة أن العرب الذين أدوا

بناتهم لم يكونوا بدعة في الدنيا القديمة . فإن كان بعض العرب قد وأدوا بناتهم ، فإن اليونان كانوا يقتلون الضعاف من الذكور والإناث على السواء . وإن كان بعض العرب قد أباحوا لنسائهم الاستبضاع فقد أباحه اليونان والرومان . وإن كان العرب قد عددوا الزوجات فقد فعل ذلك اليونان أيضاً .

غير أن المرأة العربية الجاهلية كانت على العموم أرقى منزلة وأرفع مكاناً في مجتمعاتها من المرأة اليونانية أو الرومانية مثلاً . لم يعتبر العرب المرأة وعاء للنسل فحسب كما فعل اليونان . ولم يعتبروها مخلوقاً أخطأ من الرجل ، أو أنها باب للجحيم ، أو أنها خطر ونحو ، أو أنها المضلل الأول والعائق الأساسي في طريق الخلاص ، أو أنها أداة للشيطان ، أو أنها مخلوق شرير دثيء يباح ضربها والاعتداء عليها كما اعتبرتها المسيحية . بل إنها كانت نداءً للرجل ، وأكبر دليل على ذلك ما جاء في أمثال العرب قولهم : إن النساء شقائق الأتوم ، والشقائق جمع شقيقة ، وهى كل ما يشق نصفين ، أى أن النساء كن مثل الرجال . وفضلاً عن ذلك امتازت المرأة العربية الجاهلية عن نساء العالم القديم بأنها كانت تراث نصيباً مما يترك والداتها ، في حين أن المرأة اليهودية أو البابلية أو الآشورية أو اليونانية لم يكن لها حق في الميراث . وعما لا شك فيه أن المرأة العربية قد تبوأ مكاناً رفيعاً جداً في المجتمع العربي الجاهل لم تبلغ مثله النساء المعاصرات لها أو غيرهن من نساء الأمم القديمة ، فيما عدا النساء المصريات فقط في مصر القديمة .

لإذن فليس صحيحاً أن المرأة العربية كانت في حضيض الذل تعامل معاملة الإماء والعبيد وتسام الخسف . بل إنها شاركت الرجل مشاركة فعالة في جميع شئون الحياة ، واشتركت معه اشتراكاً بين القسمات في جميع صفاته الخلقية الممتازة وفروسيته . فكانت نداءً للفارس العربي في المروءة والشجاعة والشهامة والعزة والنجدة ، وفي جميع القوى النفسية بأجلى معانيها .

فهى تموت ولا تذلل ، شجاعة لا تتراجع ، تقول رأيها صراحة ولا تخشى

من شيء ، مستمسكة بعقيدتها ، صابرة على الأذى ، عزيزة النفس لا تخضع ولا تستخذي ؛ شماء أبية ؛ معتدة بنفسها ، حافظة لكرامتها ، حريصة كل الحرص على حسن الأحدوثة ، وعلى صيانة الأسرة وسمعتها وسمعتها قبيلتها ، كريمة ، سمحة ، مضيافة .

لقد عاشت المرأة العربية الجاهلية عنواناً ساطعاً على صفات أخلاقية عظيمة . فقد كانت حرة مريدة صاحبة شخصية قوية استطاعت بها أن تفرض إرادتها في كثير من الأحيان ، فقد كان لها مثلاً حق ثابت لا ينازعها فيه منازع في الموافقة على الزوج المتقدم لها . كما كان لها أيضاً الحق في تطليقه إذا عاملها معاملة سوء ، أو أتكرت عليه فعلاً لا يتفق والمثلاليات التي تتطلع إليها . وهي كثيراً ما اتخذت موقفاً صارماً يخالف مواقف الرجال . فكم من روايات عن هذه أو تلك تجابه أباهاً أو زوجها أو أخاها بما يكره ، ولكن بما تعتقد هي أنه الحق والصواب . وإن في قصة فاطمة بنت الخطاب مع أخيها عمر ، أحد صناديد العرب المهاجرين البطاشين لأكبر دليل على ذلك .

وكانت المرأة تستقبل الضيوف وتضيفهم وإن لم يكن زوجها حاضراً . وكانت حرة في أن تظهر سافرة متى شاءت ، ذلك أن الأصل في التنقب لإرادة المرأة ذاتها في أن تخفى محاسنها وراء النقاب خشية أن يبتذلها الوصف ، وكانت تجبر من يستنجد بها كالرجال تماماً ، وقبيل جوارها واحترام .

أجارت ربيعة بنت جندل الطعان دُرَيْد بن الصُّمَّة عندما أسره بنو فِرَاس ؛ وأجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلين ممن أهدر النبي دماءهم ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة . فقد أراد على أن يقتلها يوم الفتح ؛ فما ملك محمد إلا أن قال لها : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ . وأما أشهر قصة لعربية أجارت فارساً من كبار فرسان الجاهلية بحد السيف ، فقصة فُكَيْهَة بنت قَتَادَة خالة طَرْفَة بن العَبْد . ويروى أنه عندما أسر جماعة من بني مالك ، السُّلَيْك بن السُّلَيْكَة ؛ جاملهم وقصد إلى بيت من بيوتهم

ووجهه على فُكَيْهَةٍ واستجار بها ، فننعت من أسريه وجعلته تحت درعها
واستلت السيف تحميه ، فلما تكاثروا عليها ، كشفت غطاء وجهها وصاحت
بإخوتها فجاءوها ودافعوا عنها حتى نجى السِّلَتِيك من القتل . فقال فيها بعد
ذلك أبياتاً جميلة منها :

من الخطرات لم تفضح أباهي ولم ترفع لإخوتها ستارا
يعاف وصال ذات البذل قلبي ويتبع المُسْنَعَة النَّسَّارا
وما عجزت فكهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا

ثم إن المرأة كانت تتعاقد مع الرجال على ما يتعاقدون عليه . اشتركت
عاتكة بنت مرة بن هلال زوجة عبد مناف في حلف الأحابيش ، واشتركت
أم حكيم أو أختها عاتكة بنت عبد المطلب في حلف المُطَّسِبِينَ .

وكان للمرأة حق التملك وحق التصرف بكامل حريتها فيما تملك ، وحق
إدارة أموالها بطبيعة الحال . ثم إن أوضح مثال هو مثال السيدة خديجة أولى
زوجات محمد . فإنها لم تعهد لمحمد بإدارة شئون تجارتها فحسب وإنما أعطته
من مالها . ويروى أن عائشة غارت من خديجة إذ كان الرسول يكثر من
ذكرها وإطرائها ، فقالت : هل كانت إلاّ عجوزاً ؟ فقد أبدلك الله خيراً
منها . فغضب وقال : والله ما أبدلني خيراً منها ، آمنت إذ كفر الناس ،
وصدقتني وكذبني الناس ، وواستني في مالها (أى أعطتني من مالها) إذ
حرمني الناس » .

أمّا حياة المرأة وسيرتها في الأدب العربي الجاهلي فكانت الشغل الشاغل
للرجل . وإن شغرم لأكبر دليل على ذلك . فإن الرجل لم ينظم شعراً
إلاّ وكانت المرأة أول ما يحول بخاطره ، يحببها ويخشع لها ويناجيها ، ويدكرها
ويدكر ديارها ويناديها ، وكأنها كانت مفتاح نفسه . فقد كان دائم الشوق
إليها والفتنة بمحاسنها ، حتى لقد أصبح ذكر المرأة في مسهل القصائد
كالأمر الواجب المحتوم . على أنها نبغت هي أيضاً في قول الشعر وفي نقده .
ولا ينبغي علينا بطبيعة الحال كثير من أخبارها في هذا الميدان الثقافي الهام .

وإننا لنعلم أن امرأ القيس وهو من فحول الشعراء قد غضب من زوجته أم جُندب عند ما حكّمها بينه وبين عاتقة الفحل أيهما أشعر فحكمت لعاتقة فطلقها . ويروى أن النابغة وكان حكم العرب فيما يقولون من شعر في عكاظ ، قد أعجب بشعر النساء ، وقال لها لولا أن هذا الأعمى - يقصد الأعشى - أنشدني قبلك ، لفصلتك على شعراء هذا الموسم . وكان الأعشى يعرض قصائده على ابنته لتتقدها . ونعلم أن أبا تمام ضمن ديوانه الشهير « الحماسة » شعر كثيرات من النساء . ولقد نبغت المرأة في شعر الرثاء ، وفي ديوان رباح الأدب شعر نحو إحدى وستين شاعرة في الرثاء فقط . وكانت عمّرة الجسمانية امرأة جميلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار . وكان أبو دهل لا يفارق مجلسها ، وكان يحبها وتحبه .

وكانت المرأة حريصة كل الحرص على الاقتران بالرجل الكفء لها . وكان الرجل يطلب في زوجته أن تكون ذات مجد وحسب وحسن أحداثة ، وأن تكون متصفة بمكارم الأخلاق . أوصى حكيم العرب في الجاهلية أكرم ابن صفي بنه بقوله : لا يكفيكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فإن النساء الكريمة مدرجة للشرف . وكان الرجال يمتدحون في المرأة لين العريكة ودمائة الخلق وعدم الثروة والكياسة وعدم التكلم في التافه الذي لا يجدي ولا ينفع . وكان الرجل يفخر بحسن عشرته لزوجته وبدمائه خلقه . وكانت المرأة تشرط في الرجل حسن الأحداثة ، وحسن العشرة ، وأن يكون رفيقاً بها كريماً وفيها رضىاً قنوعاً ، متحلياً بفضائل العرب المعروفة من شجاعة وعزة وقدرة وغلبة .

ولقد حظيت المرأة عند زوجها وأولادها بمكانة عظيمة جداً . فقد ناداهما الرجل باللقاب التكريم ، وحرص على أن يفتخر أمامها بحسن فعالة ويشهدها على مفاخره . واعتذر لها أشد اعتذار إذا ما فر مضطراً في الحرب . وحامها وأضرم الحروب الضروس إذا أهانتها أحد أو استذلها .

وكان الأب يعتقد برأى ابنه ويستشيرها في زواجها وفي أموره الخاصة .
ونعلم أن بعض فتيات العرب المحيدات قد اشتهرن بحسن الرأي ، حتى لقد
كان لقيط بن زُرارة يرجع إلى رأى ابنته دختنوس ويصحبها معه في
غزواته . وكان عامر بن الظرب يرجع إلى رأى ابنته عُمرة إذ تفرع له
العصا إذا سها في الحكم ، حتى لقد قال فيه المُتَكَمِّس :
لدى الخاتم قبل اليوم ما تُفرع العصا وما علّم الإنسان إلاّ ليعلمها
ولقد عبر كثير من العرب عن حبهم لبناتهم ، فكانوا يستشيرونهن
وينزلونهن من قلوبهم مكاناً رفيعاً ، ويتكنون بأسمائهن .

يقول الشاعر :

فردّ أبو ليل طُفَيْل بن مالك بمنعرج السُّوبان لا يتقصّع

ويقول آخر :

فهلاًّ أبا الخنساء لا تشتمنى فتفرع بعد اليوم سنك بالندم
ولا غرو أن عُرِفَت المرأة في الجاهلية حكماً ووسيطاً للصليح وقاضية
وقائدة جيش وملكة وشاعرة وحكيمة وناقدة أدبية يشار إليها بالبنان .
واشتهر العربي بشجاعته وعزته وأنفته ووفائه لعهوده وكرمه . وصف
ابن المقفع العرب أحسن وصف فقال : « إن العرب حكمت على غير مثال مثل
لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يهود
أحدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف
الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويمسح ما شاء فيحسن ،
ويقبح ما شاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم همهم ، وأعلتهم قلوبهم
وألستهم ، فلم يزل حياء الله فيهم وجباؤهم في أنفسهم حتى رفع لهم النخر
وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر » .

ومع أن العرب لم يكن عندهم علوم كالرياضيات أو الفلسفة أو ما شاكل
ذلك من علوم الأقدمين ، إلاّ أنهم برعوا من ناحية أخرى في علوم كان

لها أكبر الأثر في تهذيب نفوسهم وإعلاء همهم وإعدادها للدور الذي قدر لهم أن يقوموا به في التاريخ . فقد برعوا أيما براعة في علوم الأدب من نثر وشعر ولغة عبرت عن مكنونات نفوسهم أجمل تعبير . ثم لأنهم وضعوا لغة من أعرق لغات البشر ، يكفينا فخراً أنها لغة القرآن وأنها لغة أحسن بيان ، وهى اللغة التى قال فيها جورج سارتون أكبر مؤرخ لتاريخ العلم فى عصرنا هذا : « إن اللغة العربية كانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشرى كله ، حتى لقد كان ينبغى لكل من أراد أن يلم بثقافة عصره وبأحدث صورها ، أن يتعلم العربية » . وهذه اللغة التى أدت دورها كاملاً فى التعبير عن مختلف الفنون والآداب والعلوم فى العصر الذى وضعت فيه أسس الحضارة الحديثة ، وكانت اللغة الارتقائية للجنس البشرى كله ، إنما هى اللغة التى وضعها هؤلاء العرب الجاهليون فى صحرائهم لتظل حتى يومنا هذا من أكمل اللغات وأكثرها استجابة لمطلوبات الشعوب ، لم تتغير ولم تبدل . فبإله من شعب عظيم ذلك الشعب الذى درس على الطبيعة بقوة ذاكرته من غير قلم وقرطاس ، ووضع لغة كاملة كهذه اللغة ، كان لها شأنها العظيم فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، وقال شعراً يكفى أن نقول فيه إنه لا يزال درة فى جبين الأدب العربى كله ، مع ما نعلم من شأن الأدب العربى بين آداب الأمم ، وبخاصة فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية .

وكان العرب يستلزمون أن يباشر حكمهم النبلاء والحكام من أبناء الأمة لاسفهاؤها وجهالها . وفى هذا معنى سياسى عميق يدل على أنهم كانوا منظمين تنظيماً اجتماعياً حسناً ، ولم تكن أمورهم فوضى كما يتخيل البعض . وفى هذا المعنى يقول الأفنوه الأودى أبياتاً بليغة معبرة :

والبيت لا يَبْهَتَنى إلاَّ على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فلن تجمع أوتاد وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذى كادوا

لا يصلح الناس فوضى لا مسرة لهم : ولا سراة إذا جهلهم سيادوا
 وإذا تولى سراة الناس أمرهم : نما على ذاك أمر القوم فازدادوا
 كيف الرشاد إذا ما كنت في نفر : لهم عن الرشاد أغلال وأقياد
 أعطوا غرارهمو جهلا مقادتهم فكلهم في حبال الغي منقاد
 كان إذن للعرب حكام كلامهم مسموع فيهم : وأحكامهم مطاعة . على
 أن مفاهيم الديمقراطية في هذا المجتمع كانت عند حدودها القصوى . فالمساواة
 بين الأفراد كانت تامة ، ومفهوم الملك والرياسة لم يتحقق في نفوسهم
 إلا بالعدل وحسن السيرة والتقوى ، فكانوا يشترطون فيمن يرأسهم تست
 تحصال : السخاء والتجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان . والحق أنه لم
 يحدث في تاريخ العرب أن اتخذ ملوكهم أوروؤساؤهم في أى وقت من الأوقات
 صفة الألوهية التي اتخذها ملوك وأباطرة بلاد غربية مثل الرومان .

لقد كان الرؤساء يعرفون عن يقين أنهم مساوون للباقيين ، وأن الناس
 لم تسودهم إلا لعلمهم ومكارمهم . لذلك أوتى عامة الناس من فهم وحب
 للديمقراطية الحقيقية ما جعلهم يدافعون عنها بدمائهم وأموالهم . ملأت
 الأدلة على ذلك صفحات تاريخهم ، وقد لا تخلو صفحة واحدة فيه من
 التعبير عن حرية هذا الشعب وديمقراطيته الحقيقية . ولنسمع كلام أكرم
 ابن صفي أحد حكام العرب يخاطب الناس : لا خير فيمن لا عقل له ،
 كبرت سنى ودخلتني زلة ، فإذا رأيتم منى حسناً فاقبلوه ، وإن رأيتم غير
 ذلك قوموني أستقم . أى شيء أجهل وأى شيء أسمى لاستقامة الحياة في
 مجتمع أن يدعو الحاكم محكوميه إلى تقويمه إن أخطأ . لا غرو فإن ذلك
 نابع من المجتمع ذاته ومن أهدافه ونفسيته وخلقياته .

أما تحاربهم ، فأى من الشعوب القديمة في عصوره الأولى لم يكن
 شيعاً وأحزاباً ، ولم يكن تاريخه سلسلة من الحروب . ويمكن أن نذكر هنا
 مدن اليونان القديمة وعداوتها وخزوبها الشهيرة . على أن بلاد العرب بلاد

شاسعة مترامية. الأطراف ، ترتادها قبيلة هنا وقبيلة هناك . ولا تساعها تباعدت القبائل وأصبح النسب عندهم بمثابة القومية والوطنية ، يتمسكون بمعرفته وحفظه حفظاً لكيانهم ، بل قل تمسكاً باستقلالهم السياسى والسلالى . فالنسب عند العربى مرماه وغايته ، فهو يحدد لإقامته وعمله وأخلاقياته واتجاهاته ، وبالجمله هو المسيطر الأول على حياته . ولذلك ينبغى لنا عند النظر فى أمور هؤلاء العرب فى صحرائهم المترامية ، أن نضع فى الاعتبار هذه الحقائق البالغة الأهمية . فهم وإن كانوا فى الحقيقة شعباً واحداً ، إلا أن اتساع البلاد واختلاف بيئاتها قد فرقهم وجعلهم وكأنهم شعوب مختلفة . وإذن فسأله تحاربهم وقتلهم بعضهم بعضاً ، لا ينبغى أن تقوم فى الأذهان باعتبار أنهم جمعية واحدة تتشاحن وتتحارب وتتقاتل تقاتل للصوص والأفاقين والقرصان لجرد القتال والتشاحن ، ولكن الحقيقة أن معظم حروب القبائل لم تكن بشيء غير دفاع عن شرف أو مجد أن يذله أحد . وهذا مقوم نفسى من أعظم المقومات الدافعة نحو حضارة عليا . ثم إننا نراهم على أية حال فى أواخر العصر الجاهلى ، قد تقاربوا واستعدوا لإقامة حياة سياسية متحدة واتجهوا اتجاها واقعياً نحو الوحدة .

كانت سوق عكاظ من أهم العوامل التى مهدت لوحدة العرب ، فقد كانت المفرخ الذى تفرخ فيه أفكارهم وآمالهم وأمانهم ، ثم تنتشر كالنار فى الهشيم من أقصى الجزيرة العربية إلى أقصاها عند انفضاض السوق ، وتصبح تلك الأفكار والمثل والمعنويات جزءاً من نفسية العرب هنا وهناك . وأكبر شاهد على ذلك شعرهم الذى أصبح يُؤتَف على نسق واحد فى جميع أنحاء الجزيرة العربية فوحد اللغة .

أمّا أن سوق عكاظ كانت سوقاً نافقة للأدب فأمر من أخص خصائصها ، ومن أهم الأمور التى أدت إلى خلودها . كان بلغاء العرب من مختلف القبائل يجتمعون فيها فينشد الشعراء ويخطب الخطباء فى المفاخرة وفى غير المفاخرة ،

وكانت هذه الأشعار والخطب والحكم التي ينطق بها أدباء العرب وبلغاؤهم تعرض على النقد والتقييم وتحفظ عن ظهر قلب ، وتتناقلها الألسن في مختلف أنحاء الجزيرة العربية إذا ما انفض السوق وعادت القبائل إلى أماكنها .

وكان العرب يستخدمون هذه السوق أيضاً ميداناً سياسياً يناقشون فيه شئونهم وخلافاتهم . فيدعون إلى الصلح حيناً ، والتعاون حيناً ، والنظر في أمر الدييات حيناً آخر ، حسماً للنزاع ومجلبة للخير ، وفيها أيضاً سمعنا أن أحدهم وهو قُيس بن ساعدة الإيادي كان يخطب في الناس داعياً إلى إله واحد وإلى الدين الحق مبشراً بالحنيفية . وكان محمد يقصدها ليبشر بدعوته ويكلم القبائل المختلفة في شأن الدين الجديد الذي يدعو إليه ، ويطلب منهم الدخول فيه من غير أنه يتعرض لأذى أو امتهان . وهذا يشهدنا على ما كان لعكاظ من أهمية عند العرب ومن مكانة قدسية في نفوسهم ، جعلت منه برلماناً للرأى والفكر والأدب والسياسة والفخر والصلح والمعروف ، وميداناً للهو واللعب وسوقاً للتجارة .

أما مكة فكانت قبلة يتجه إليها العرب في كل عام لزيارة البيت العتيق وإقامة مناسك الحج . وكانوا يعتقدون أن أباهم إبراهيم بنى البيت الحرام في مكة امتثالاً لأمر ربه ليعبد به الناس فيه ، وأن الله أمره أن يؤذن في الناس بالحج ، فقال إبراهيم : ألا إن ربكم قد اتخذ بيتاً وأمركم أن تمجوه ، فاستجاب الناس من كل فج عميق قائلين : لبيك اللهم لبيك . أى أنهم كانوا يدينون بدين إبراهيم وابنه إسماعيل ، غير أنهم لتباعد الزمن ولكثرة تفرقهم وترحالهم هنا وهناك ، قلت معرفتهم بأصل ديانتهم ، ودخل عليها كثير من الزيف والبطلان . فاتخذوا آلهة ثانوية كالكالات والعزى ومناة ، إضافة إلى كثير من الأنصاب والأوثان . غير أن الكعبة بيت أبيهم إبراهيم ظلت دائماً بينهم الحرام يحجون إليه في كل عام .

والحق أن العرب ، وبخاصة أهل مكة ، لم يكونوا بأية حال مجرد وثنيين كما يفهم من الوثنية . فلنهم لم يعبدوا الأصنام على أنها خالقة العالم ، وإنما عبدوها واتخذوها شفعاء لتقربهم إلى الله الذي كانوا يعرفونه تمام المعرفة . ويقول القرآن في ذلك على لسانهم : « ما نعبدكم إلاّ ليقربونا إلى الله زُلْفَى » (١) . والحق أنهم آمنوا بإله واحد خالق الكون ، وأقسموا به ، وقصروا علم الغيب عليه وحده ، واعترفوا بأنهم لا يستطيعون معرفة ما وراء المحسوس من تصارييف القضاء . وكان بعضهم يؤمن بيوم البعث . وكانوا يؤمنون بأن الله لا شريك له ولا معين ، موصوف بصفات الكمال ، قادر على كل شيء ، سميع مجيب بصير ، عارف بالخفايا والأسرار ، وبما خفى وبما بطن ، يقول زهير :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
وكانوا يؤمنون فوق ذلك أن الرزق بيد الله وحده ، وأن البلاد بلاد الله ، يقول عروة بن الورد :

فسرفى بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعلموا
وقد ذكرهم القرآن بإيمانهم هذا فقال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله » (٢) .
ثم إنهم ظلوا متمسكين ببعض مناسك الدين الخفيف ، فكانوا يعظمون البيت الحرام ويطوفون به ، ويقفون على عرفة والمزدلفة ويمججون ويعتمرون ، إلاّ أنهم أدخلوا على هذه المناسك ما ليس منها : وكان الناس من قبيلتي كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك . وفي هذا القول توحيد لله في التلبية ، غير أنهم يشركون معه أصنامهم ويجعلون ملكها وما تملك بيده .

ولقد ذكرهم القرآن باعترافهم وإيمانهم بأن الله خالق السماوات والأرض : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون » (١) . كذلك ذكرهم القرآن بأنهم يؤمنون بأن الله هو الذى ينزل من السماء ماء : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون » (٢) وذكرهم بأنهم يترفون بأن الله هو الذى خلقهم : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » (٣) .

والحق أنهم آمنوا إيماناً عميقاً بقدرة الله عليهم وبتصرفه لشئونهم وبتدخله في أحوالهم ، حتى لقد نسبوا شركهم أيضاً لإرادة الله ، فقالوا لأنهم أصبحوا مشركين بأمر الله ومشيتته ، وأنه لو لم يشأ لهم أن يصبحوا مشركين لما أشركوا به شيئاً .

أما الأصنام فكانت عندهم بمثابة القديسين في النصرانية ، وهم الشفعاء بين الله وعباده . وهذا ما رفضه محمد رفضاً باتاً . فهو لم يؤمن بنظام الرهبنة ، ولا بالقديسين ولا بالشفاعات ولا بأى أحد بين الله وعباده حتى هو ذاته . ولذلك حارب حرباً مريرة في سبيل هذه المبادئ .

ويقال إن سبب اتخاذهم هذه الأصنام إنما يرجع إلى زعيم من زعماء خزاعة هو عمرو بن لُحَيٍّ ، وكان يتولى حجابة البيت (أى تولى مفاتيحه) . فلما مرض عمرو بن لُحَيٍّ مرضاً شديداً قبل له إن بالبلقيقاء من أرض الشام حَمَّة (أى عين ماء حار يستشفى به المرضى) إن أتيتها برأت . فأتاها واستعم فيها فبرئ من علته ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فسألهم : ما هذه ؟ فقالوا : نستقي بها المطر ونستنصر بها على العدو . فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها إلى مكة ونصبها حول الكعبة . وتبعته خزاعة لمكانته فيها ، وتبعهم العرب بعد ذلك ، فاتخذت كل قبيلة لها صنماً

(٢) الزخرف ٨٧

(٢) النكبات ٦٣

(١) النكبات ٦١

ظنا منها أنه شفيعها الذى تطلب منه نزول المطر أو مساعدتها فى أمر من الأمور . وكثرت الأصنام حول الكعبة حتى لقد قيل إنها بلغت ثلثمائة وستين صنما أو يزيد . وكانوا يقولون لأنهم إنما يعبدون الأصنام لأنه لا أهلية لهم لعبادة الله بلا واسطة لعظمته فعبدوا الأصنام لتقربهم إليه . وقال بعضهم إن الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا أصناماً على هيئة ملائكة ليقربونا إلى الله . وقال بعضهم إنا جعلنا الأصنام قبلة لنا فى عبادة الله كما أن الكعبة قبلة فى عبادته . واعتقد قوم آخرون أن على كل صنم شيطاناً موكلًا بأمر الله ، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله ، وإلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله .

وعرف العرب صوراً لعبادة أخرى . فقد كان للصابئين عبدة النجوم شأن كبير فى جزيرة العرب . غير أنهم لم يعبدوا النجوم فى بادئ الأمر ، وإنما كانوا يعبدون الله ويعظمون النجوم فقط على أنها مظهر من مظاهر عظمة الخلق . ثم انحدرت العقيدة مع الزمن إلى الإيمان بالنجوم ذاتها على أنها آلهة . ثم اعتقد الناس أن الحجارة البركانية هى حجارة سقطت من السماء على الأرض من بعض النجوم ، ومن ثمة قدسوها لهذه الصلة الإلهية ثم قدسوها لذاتها . ولا غرابة فى ذلك فقد عثر الإنسان فى باطن الأرض منذ أزمان موعلة فى القدم ، وفى أجزاء مختلفة من العالم على أعداد كبيرة من الحجارة غريبة الشكل ، بعضها خشن وبعضها مصقول . وقد اعتقد الناس فى بقاع مختلفة أن الحجارة الأكبر منها حجارة نيزكية ، والأصغر سهام حربية ، وكلها عبارة عن أسلحة قذفتها على الأرض الآلهة والكائنات السماوية الأخرى . ومن ثمة أضفى عاينها ضرب من القداسة ، فوضعت فى حوائط المعابد فى بلاد الكلدان ، واتخذت عقوداً حول أعناق الموتى فى مصر ، ولا تزال نماذج منها ترى حتى يومنا هذا على مذابح المعابد فى الهند يقدم لها المؤمنون الصلوات والقرابين .

ولقد نظر الناس في أوروبا خلال القرون الوسطى إلى هذه الحجارة المصقولة نظرة تبجيل وتوقير باعتبارها أسلحة استعملت في أثناء الحروب السماوية لطرد إبليس وأعوانه من الشياطين . وظلت مثل هذه المعتقدات تتجاوب أصداؤها في عالم الفكر الأوربي حتى القرن التاسع عشر ، عندما أكدت بحوث علم الآثار قبل التاريخية أن هذه الحجارة المصقولة وغير المصقولة عبارة عن أدوات صنعها الإنسان واستعملها في عصره الحجري . فاعتقاد العرب إذن أن بعض الحجارة الغريبة الشكل قد أتت من السماء له ما يبرره إبتان غرارة العقل الإنساني .

كذلك عرف عرب الجاهلية الكثير عن الديانتين اليهودية والنصرانية ، اللتين انتشرتتا بين كثير من قبائل العرب في الجنوب وفي الشمال على الأخص . تعرض اليهود في فلسطين ابتداء من القرن التاسع قبل الميلاد لعدة اضطهادات كبيرة ، نزح كثير منهم على أثرها إلى البلاد المجاورة . ولقد رحلت جماعات منهم بطبيعة الحال إلى بلاد العرب ، وعلى الأخص بعد هدم بَيْتِ الْمَقْدِس في القرن السادس قبل الميلاد لبيت المقدس ، وسببه لأعداد كبيرة من اليهود ، واستوطنوا وادي القرى ويثرب واليمام ، ولحق بهم يهود آخرون بعد اضطهادات أخرى ، وشيدوا في هذه البقاع الحصون ، واستغلوا الأموال ، وزرعوا الأرض ، وأصبحت لهم مستعمرات كبيرة وعلى الأخص في شمال يثرب .

وعاش اليهود جنباً إلى جنب مع العرب ، واختلطوا بهم اختلاطاً وثيقاً . فكان اليهود يعرضون بضاعتهم في أسواق العرب ، وكان العرب يهرون بالمدن والقرى اليهودية وهم في طريق تجارتهم إلى الشام وعودتهم منها . وفضلاً عن هذا الاختلاط النجاري ، كانت قبائل من اليهود تحالف قبائل من العرب في كثير من الأحيان . ومما لا شك فيه أن هذا الاختلاط لم يقتصر

على مجرد البيع والشراء ، وإنما تخطاه إلى تبادل الأفكار والآراء وعلى الأخص في مسائل الدين .

وجاء في التوراة في مواضع متفرقة وبمناسبات مختلفة ذكر لبلاد العرب منذ أقدم الأزمان . ثم إن اليهودية انتشرت في قبائل العرب في اليمن بعد غزو الأحباش في سنة ٣٤٠ م ، بعد أن فر ملوك حِمْيَر إلى الحجاز ، وأصبحت بعد ذلك ديناً رسمياً لحِمْيَر . ونعلم فضلاً عن ذلك أن اليهودية كانت قد انتشرت بين قبائل نجران والبحرين . وانتشرت من ثمة بين العرب بعض تعاليم التوراة ، وبعض التفاسير والشروح والقصص والأساطير القديمة التي كان يتناقلها اليهود .

أما النصرانية فقد انتشرت في شمالي بلاد العرب وعلى الأخص بين الغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة ، فضلاً عن بعض قبائل البدو . ولقد دانت قبيلة تغلب بالنصرانية بعد انتصارها على اليمن ، إذ اعتنقها زعيمها كَلْبِيب وبعض حلفائه من ربيعة ومضر وإياد وطى وقضاعة وقيس ابن ثعلبة . وبنى كَلْبِيب كنيسة ينافس بها الكعبة . وانتشرت النصرانية في بعض بطون تميم وغيرها . وكانت أَيْلَة (العقبة) نصرانية أيضاً . كذلك عرفت النصرانية في مدن الحجاز التجارية ، إذ كان سكان هذه المدن على اتصال وثيق بالشام . ونعلم أن بعض القرشيين قد تنصروا مثل عثمان ابن الحُوَيْرِث ، وورقة بن نوفل . وكان يثرب وبالحرين نصارى أيضاً ، كما كانوا في كثير من الأماكن الأخرى من جزيرة العرب .

وبدأت النصرانية تعرف في اليمن ابتداء من أواسط القرن الرابع الميلادي ، وانتشرت على الأخص بعد غزو الأحباش لها في سنة ٥٢٣ م . وتنصر باليمن قبائل طى ومَذْحِج وبَهْرَاء وسليم . وكان القسوس والرهبان يعظون الناس في الجوامع والأسواق ، ويدكرونهم بالبعث

والحساب والجنة والنار ، ومنهم قُس بن ساعدة الذى سمع محمد إحدى خطبه ورواها .

هذه صورة عامة للأفكار والمعتقدات الدينية التى شاعت فى بلاد العرب قبل الإسلام .

ثم إن هؤلاء العرب لم يكونوا معزولين عن عالم الحضارة المحيط بهم . فقد اتصلوا بالآشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين واليونان والفرس والرومان والهنود ، سواء فى غزوات أو حروب استعمارية ، ولكن على الأخص عن طريق التجارة . فقد حمل العرب منذ أقدم أزمان التاريخ تجارة العالم القديم الهامة . حملوا من الهند الذهب والفضة والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل بأنواعها . وحملوا من أفريقيا العطور وخشب الأبنوس وريش النعام والذهب والعاج . وحملوا من سومطرة العود والند ، ومن البحرين اللؤلؤ . هذا فضلاً عن غلات اليمن وخضرموت وأهمها البخور واللبان والمر والطبوب وبعض أنواع الحجارة الكريمة . وكانوا يحملون هذه البضائع الهامة إلى دنيا الحضارة القديمة فى حوض البحر المتوسط ، ويعودون من الشام بالحنطة والزيت والخمور ومختلف مصنوعات فينيقيا ، وما يستورد من آسيا كالمنسوجات الكتانية والقطنية والحريز والآية الحديدية وسبائك الفضة وغير ذلك ،

ظلت هذه التجارة قروناً طويلة بين أيدي اليمنيين إبان ازدهار ممالكهم القديمة ، ثم انتقلت إلى النبطيين فى البتراء فى الشمال . ولما ضعف هؤلاء وأولئك انتقلت إلى المكين ، الذين أصبحوا عشية ظهور الإسلام سادة العرب ، وأكبر تجارهم وأعزهم جانباً وأكثرهم أموالاً .

أقيمت مكة فى واد قاحل ماحل غير ذى زرع ، ينحصر بين سلسلة من الجبال الصم الجرداء ، التى تبعد عن ساحل البحر الأحمر بحوالى ثمانين كيلومتراً . وتقع فى ملتقى طريق القوافل بين اليمن وشمال جزيرة العرب .

غير أن شيئاً على وجه التحديد لا يعرف عن الزمن الذى تأسست فيه هذه المدينة ، ذلك أن المؤرخين يختلفون كثيراً فى تحديد هذا الزمن . فمنهم من قال بأنها قديمة يرجع تاريخها إلى زمن سابق على زمن إبراهيم وإسماعيل ، ومنهم من قال بأنها لا يرجع بها العهد لأبعد من زمن قُصَى بن كلاب فى أوائل القرن الخامس الميلادى . هذا مع وجود البيت الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل قبل القرن الخامس الميلادى بألف من السنين على الأقل . ولكن أصحاب رأى الأخير يقولون بأن القبيلتين اللتين كانتا بجوار مكة وهما جُرهْم وخزاعة أبيتا أن يكون إلى جوار البيت الحرام بيوت للسكن ، فكانوا يتعبدون فى الكعبة نهاراً ولا ينامون إلى جوارها ليلاً .

كان بناء الكعبة واعتقاد العرب فى إله إبراهيم وإسماعيل السبب الأول ولا شك الذى أدى إلى ازدهار مكة وإلى التفاف بقية قبائل العرب حولها وتقديسهم لها ، فضلاً عن احترامهم لأهلها خدام البيت الحرام ، مما أدى فى النهاية إلى منزلة سامية لقريش بين العرب أجمعين . ثم إن احتكار القرشيين للتجارة بين الشمال والجنوب بعد انحلال النبطيين فى الشمال والحميريين فى الجنوب ، جعلهم فى واقع الأمر فى وضع يؤهلهم لزعامة العرب . فلأنهم عند ذاك لم يكونوا سدنة البيت الحرام الذى يحج إليه العرب فى كل عام فحسب ، وإنما أصبحوا فضلاً عن ذلك أثرياء لهم كلمة مسموعة واحترام دينى وديوى فى قلوب العرب .

أما أشهر المكين جميعاً فقُصَى بن كلاب بن مُرّة ، واسمه زيد ، أما سبب تسميته قُصياً ، فذلك لأن أمه تزوجت بعد أبيه كلاب من ربيعة ابن حرام من عُدرة ، فخرج بها إلى بلاده ومعها زيد صغير فسمى قُصياً ، ثم علم قُصَى فى حدائته بنسبه ، فعاد إلى مكة ، وتزوج فيها من حُبى ابنة رئيس خزاعة حُلَيْل بن حُبْشبة ، فولدت له حُبى أبناءه عبد مناف (١) ، وعبد العزى ، وعبد الدار ، وعبد ، وبرّة ، وتَخْمُر .

(١) مناف اسم صنم وأصل اسم عبد مناف المنيرة .

وكان أمر الكعبة مع حميه حُلَيْل ، فلما مات حُلَيْل ، وكان قد أوصى بولاية البيت لابنته حُبَي ، تنازلت عن ذلك إلى سُلَيْم بن عمرو لعدم مقدرتها على فتح الباب وإغلاقه ، وكان سُلَيْم سكيراً هريبداً فاشترى منه قُصَي ولاية البيت بزُق من خمر وقَعُود ، فضربت به العرب المثل فقالوا : « أخسر من صفقة أبي غُبُشان » .

غير أن خُزَاعَة نازعت عندئذ قُصَيّاً ولاية البيت . وكان قُصَيُّ في قومه سيداً رئيساً مطاعاً معظماً ، ذلك أنه استطاع أن يجمع قريشاً من متفرقات مواضعهم في جزيرة العرب . فلما نازعته خُزَاعَة قاموا معه واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب ، وجاءه إخوته لأمه رِزَاح بن ربيعة وإخوته ، وقام الجميع معه على خُزَاعَة واقتتلوا قتالاً شديداً ، وكثر فيهم القتل ، فارتضوا التحكيم ، فتحاكموا إلى يَعْصُر بن عوف بن كعب ، فحكم بأن قُصَيّاً أولى بالبيت من خُزَاعَة ، فأجلاهم قُصَيُّ عن البيت . ومن ثمة تولى أمر مكة كله وجمع مناصب الكعبة ، وهي الحجابة أو سدانة البيت ، أي تولى مفاتيحه ، والسقاية وهي تقديم الماء العذب للحجا ، وكذلك نبذ التمر ، والرَّفَادَة وهي تقديم الطعام للحجاج ، يجمعه أهل مكة ويقدمه صاحب الرَّفَادَة ، والنَّدَوَة وهي رياضة الاجتماعات التي تعقد للمشورة والرأى ، واللواء وهي راية الحرب ، والقيادة وهي إمارة الجيش إذا خرجوا للقتال . وفيه يقول الشاعر :

قُصَيُّ أَعْمَرى كان يُدْعَى مُجَمَّعاً به جَمَعَ الله القبائل من فيهِر
فكان قُصَيُّ أولَ بني كعب بن لؤى أصاب مُلُكاً أطاع له به قومه .
أعاد تنظيم مكةَ فَمَقَّطعها رباعاً بين قومه ، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكةَ ، فأنزل بعض قبائلها أباطح مكةَ ، وأنزل البعض الآخر ظواهرها ، ومن ثمة كان يقال قُرَيْش البيطاح ، وقريش الظواهر . وعاد البيت العتيق إلى قُرَيْش ، ولكن بما كانت قد أحدثت خُزَاعَة من عبادة

الأوثان ونصبها حول الكعبة ، ونحرم لها ، ونصرعهم عندها ، واستنصارهم بها ، وطلبهم الرزق منها ، فاستمرت قريش على ذلك .

ولما أصبحت جميع الرئاسة في مكة لقصي ، بنى داراً لرفع المظالم والفصل . الحصومات سماها دار الندوة ، بابها إلى المسجد الحرام ، كانت ملتقى قريش لا يقر أمر من أمورهم إلا فيها ، فكانوا إذا أعضلت قضية اجتمع رؤساء القبائل فيها فتشاوروا فيها وفصلوها . وفيها كانوا يتخذون القرارات الهامة ، ولا يعقد لواء ولا عقد زواج إلا بها ، ولا تبلغ فتاة أن تدري فتدري ع إلا بها .

وكان قصي أول من فرض الرقادة على قريش ، وهي أموال تجمعها في كل موسم وتعطيها إلى قصي لبصنع بها طعاماً للحجاج فيأكله من لم تكن له سعة ولا زاد . قال لهم : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق بالضيافة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يرجعوا عنكم ، ففعلوا . وكانوا يخرجون في كل عام من أموالهم خراجاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية حتى قام الإسلام ، فجرى في الإسلام فكان طعام يصنعه السلطان كل عام بمنى حتى ينقضي الحج .

فلما كبر قصي فوض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه إلى ابنه عبد الدار ، وكان أكبر ولده . ثم تولى مناصب الكعبة بعد عبد الدار ابن قصي أبناؤه . غير أن أبناء عبد مناف بن قصي وهم هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل ، وكان أبوهم قد شرف في قومه فوق شرف أخيه عبد الدار ، لم يرضهم هذا الوضع ، ونازعوا أبناء عمهم في هذه الوظائف . واختلفوا اختلافاً كبيراً ، وانقسمت بطون قريش ، فرقة بايعت أبناء عبد الدار وحالفهم . وفرقة بايعت بني عبد مناف وحالفهم ، ثم وضعوا أيديهم عند الحلف في جفنة فيها طيب ، وقاموا فمسحوا أيديهم بأركان

الكعبة فسمُّوا لذلك حِلْفَ الْمُطَيِّبِينَ . وبعد صراع لم يطل ، خشيهِ وقوع الحرب بين أبناء العمومة ، تصالح الطرفان وأعطيت السقاية والرِّفَادَةُ لبني عبد مناف ، وبقيت الحِجَابَةُ واللَّوَاءُ والنَّدْوَةُ في بني عبد الدَّار .

تولى هاشم بن عبد مناف بن قُصَيِّ السَّقَايَةَ والرِّفَادَةَ . وهاشم لقب له واسمه عمرو بن عبد مناف . ويقال بأنه عندما أصابت قريشا سنوات عجاف ذهبت بأموالها ، خرج عمرو إلى الشام وصنع هناك خبزاً كثيراً وحمله في الغرائر إلى مكة . فهشم ذلك الخبز ، أى كسره وثرده ، ونحر الإبل التي حملته فأشبع أهل مكة فسمُّى لذلك هاشماً . ويقال بأن أمية ابن أخيه عبد شمس حسده لهذا الصنيع ، وأراد أن يصنع صنيعاً كصنيع هاشم فعجز ، فشمت به ناس من قريش ، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة . فكره هاشم ذلك لسنه ولعلو منزلته في أهله وبين قومه ، فلم تدعه قريش . فقال : إني أنافرك على خمسين ناقة سود الحديق تنحرها ببطن مكة ، والجلاء عن مكة عشرين ، فرضيَ أمية بذلك وجعلها بينهما الكاهن الخزاعي حكماً ، ففضى هاشم على أميَّة ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها للناس ، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشرين . فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأميَّة .

ثم إن تجارة مكة ازدهرت ، وأصبح من الضروري تأمين هذه التجارة . وكان بنو عبد مناف قد سادوا قومهم بعد أبيهم وصارت إليهم الرياسة ، وكان يقال لهم المحيرون . وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش أماناً من ملوك الأقاليم ليدخلوا في تجارتهم إلى بلادهم آمينين . فأخذ هاشم أماناً من ملوك الشام والروم وغسان ، وأخذ عبد شمس أماناً من النجاشي الأكبر ملك الحبشة ، وأخذ نوفل أماناً من الأكاسرة ، وأخذ المطلب أماناً من ملوك حِمْيَرَ . ويقول الشاعر في هؤلاء الإخوة المشاهير :

يا أيها الرجلُ المَحْوُلُ رَحْلُهُ إلا نزلت بِآلِ عبد منافِ

وكان هاشم أول من سن رحلتى الشتاء والصيف التجاريتين لمكة ، وفيه يقول الشاعر :

عَمَرُوا الْعُمَى هَشَمُ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرَجَالُ مَكَّةَ مُسْنِنَتُونَ عَجَافَ
سُئِلْتُ إِلَيْهِ الرِّحْلَتَانِ كِلَاهُمَا سَفَرُ الشِّتَاءِ وَرِحْلَةُ الْأَصِيفِ

أما أبناء هاشم بن عبد مناف فأربعة رجال وخمس نسوة ، هم عبد المطلب ، وأسد ، وأبو صيفى ، ونضلة ، والشفاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورقية ، وحية ، وكان عبد المطلب أشهرهم وأبعدهم صيتاً ، واسمه شيبة لشيبة كانت في رأسه ، ويقال شيبته الحمد لجوده . وأما سبب تسميته عبد المطلب فله قصة . ذلك أن هاشماً خرج يوماً في تجارة إلى الشام ونزل بيثرب على عمرو بن زيد من بنى عبدى بن النجار الخزرجى ، وكان سيد قومه ، فرأى ابنته سلمى فأعجبته فخطبها من أبيها ، فزوجها منه واشترط عليه مقامها عنده في رواية ، أو ألا تلد إلاّ عنده بيثرب في رواية . فلما رجع من الشام دخل بها وأخذها معه إلى مكة . ثم إنه خرج بعد ذلك في تجارة ، وكانت حبلى فأخذها معه وتركها عند أبيها في يثرب ، وذهب إلى الشام فأت بغيره . ووضعت سلمى ولداً وسمته شيبته . ويقال إن الغلام ظل مع أمه بالمدينة حتى بلغ سبع سنين . وعند ذلك مرّ رجل من بنى عبد مناف بالمدينة ، فإذا غلمان يتسابقون في رمى السهام ، وكان شيبة بارعاً ، إذا أصاب سهمه قال : أنا ابن هاشم ، أنا ابن سيد البطحاء ، فقال له الرجل : من أنت ؟ قال : أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف . فلما رجع الرجل إلى مكة أخبر المطلب بالخبر . فذهب المطلب إلى المدينة وأخذ الغلام خفية ورجع به إلى مكة . ويقال إنه لما دخل المطلب مكة كان شيبة معه على صجّر ناقته ، والناس في أسواقهم ومجالسهم ، فقاموا يرحبون بقدوم المطلب ، وتصوروا أن الصبي عبد للمطلب ، وربما مازحهم وقال لهم عند ما سألوه عنه : هذا عبدى . فكان شيبته إذا مرّ يقوم قالوا هذا عبد المطلب ، فغلب ذلك عليه .

ولقد ساد عبد المطلب في قريش سيادة عظيمة وشرفاً كبيراً . كانت له سيادتهم ، وكان جماع أمرهم إليه ، وآلت إليه السقاية والرفادة بعد عمه المطلب . وهو الذي جدد حفر زمزم بعد ما كانت مطمومة من عهد جرهم . وهو أول من طلى الكعبة بالذهب في أبوابها من الفزالعين الذهبتين اللتين وجدتهما في زمزم مع الأسياف القلتعية عندما حفرها .

وكان عبد المطلب جسيماً أبيض طويلاً فصيحاً ، ما رآه أحد قط إلا أحبه . وكان تقياً ورعاً كريماً . وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيايات الأمور . وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظالمون حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة ، إلى أن هلك رجل ظلوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة ، فقبل لعبد المطلب في ذلك . ففكر وقال : والله إن وراء هذه الدار داراً يُجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته . ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام . ويؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السنة بها ، منها الوفاء بالنذر ، والمنع من زواج المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهي عن قتل الموءودة ، وتحريم الخمر والزنا .

أما أولاده فعشرة رجال وست نسوة هم : الحارث ، والزبير ، وضيَرار ، وأبو طالب واسمه عبد مناف ، وأبو لهب واسمه عبد العزى ، والمقوم واسمه عبد الكعبة ، وجحطل واسمه المغيرة ، والغيثدق وهو كثير الجود واسمه نوفل ، وحمة ، وعبد الله ، وأميمة ، وأروى ، وبرة ، وصفيّة ، وعاتكة ، وأم حكيم .

وكان عبد الله وهو أصغر ولد أبيه ، ويسمى الذبيح الثاني المفضل بمائة من الإبل ، أجمل رجال قريش ، وأحب أبناء أبيه إلى نفسه . فلما بلغ عبد الله الخامسة والعشرين زوجه أبوه من آمنة بنت وهب . وأقام معها عبد الله في بيت أهلها ثلاثة أيام كمادة العرب ، ثم انتقل إلى بيت عبد المطلب .

ولم يدم بقاؤه معها طويلاً ، ذلك أنه خرج في تجارة إلى الشام وتركها حاملاً . فلما فرغ القوم من تجارتهم انصرفوا عائدين إلى مكة ، فمرض عبد الله في الطريق ، فتدخل عند أخواله بنى عبد بن النجار بالمدينة . فأقام عندهم مريضاً . ولما علم عبد المطلب بذلك أرسل له أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفى ، فرجع إلى أبيه فأخبره ، فحزن عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته حزناً شديداً .

ثم وُلِدَ محمد عليه الصلاة والسلام بعد موت أبيه في دار جدّه عبد المطلب ، الذى كفله ورعاه وعطف عليه وأحبه أشد الحب . ولقد سماه جده محمداً ، فلما سُئِلَ في ذلك ، ولماذا رغب عن أسماء آبائه ، قال : أردت أن يكون محموداً في السماء لله وفي الأرض لخالقه . ولقد اختلف المؤرخون في الساعة واليوم والشهر والسنة التى ولد فيها . والمشهور أنه ولد في عام الفيل ، أى في حوالى سنة ٥٧١ ميلادية .

أرضعته ثويبة جارية عمه أبى لهب ، وكانت قد أرضعت عمه حمزة من قبل ، فأصبح أخاه من الرضاعة . وبالرغم من أن ثويبة لم ترضعه إلا أياماً ، فقد وصلها طوال حياته وحمل لها في نفسه الكبيرة أعظم آيات الود . ثم أرضعته حليلة بنت ذؤيب السعدية ، وأقام عندها وبين قومه في الصحراء ، وكانت عادة أشراف مكة أن يدفعوا بأبنائهم إلى الممرضعات يُربّين أولادهم في الصحراء حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة ، ابتغاء لإجادة العربية والتفصيح فيها ، والتعود على شظف العيش وخشونته . وكان بنو سعد شهيرين بفصاحتهم ، حتى لقد كان النبي يقول لأصحابه : « أنا أعربكم ، فأنا قرشي واسترضعتُ في بنى سعد بن بكر » . ثم إنه ظل في حجر حليلة قرابة خمس سنين عاد بعدها إلى أمه ترعاه وإلى جده يكفله .

وبعد عام ، أى عندما بلغ حوالى السادسة استأذنت أمه من جده عبد المطلب أن تصحبه معها إلى يثرب لزيارة قبر أبيه عبد الله . فأذن لها فسافرا ومعهما

أم أيمن جارية أبيه تحضنه . وفي يثرب أطلعت آمنة ابنها الصغير على البيت الذى مات فيه أبوه وعلى المكان الذى دُفِنَ فيه . وبعد أن أقاموا جميعاً شهراً في يثرب قفلوا واجعين إلى مكة . غير أن آمنة مرضت في الطريق ، واشتد عليها المرض فاستودعت ولدها أم أيمن ، وتوفيت بقرية الأبواء ، إلى الجنوب من يثرب بحوالى خمسة وثلاثين كيلو متراً ، وعاد محمد يتيم الأبوين في صحبة أم أيمن إلى مكة .

عندئذ ضمه عبد المطلب إليه ورقّ عليه رقّة لم يرقها على ولده . وكان يقربه منه . ويدنيه ويدخل عليه في أى وقت إذا خلا أو إذا نام لا يصدّه ولا يمنعه أحد . وكان يجلسه على فراشه ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من بنيه لإجلال له ، بل كانوا يجلسون حوله . وكان محمد الصغير إذا أتى الكعبة يجلس على هذا الفراش ، فينحيه أعمامه عنه ، فيقول لهم عبد المطلب : دعوا ابني ، ويجلسه إلى جانبه ويمسح ظهره بيده وكان يسره ما يراه يصنع . غير أن حياته مع جده الحبيب هذا لم تدم غير سنتين ، فأت عبد المطلب ، ومحمد لا يزال في الثامنة هـ فحزن على جده حزناً عميقاً ، قالت أم أيمن : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب .

عهد عبد المطلب إلى ولده أبي طالب بكفالة محمد من بعده ، فكان في الحقيقة خير كفيل له وخير أب هـ فقد أحبه حباً جماً ، حتى لقد كان يفضل على بنيه . وترعرع محمد الصغير في كنف هذا العم الفاضل الذى رماه وحماه طوال حياته ، لم يخذله في أشد محنة ضراوة عند ما تألبت عليه قریش ، ولم يتخل عنه حتى عند ما كادت تنشب حرب بين بيت عبد المطلب وباقي قریش ، لما أصر محمد رسول الله على دعوته ومنعه منهم أبو طالب وحماه . خرج أبو طالب في تجارة إلى الشام ، وكان محمد في ذلك الوقت في الثانية عشرة من عمره ، فتنعلق بعمه ولم يشأ أن يفارقه ، فقال أبو طالب : والله

لأخرجن به معى ولا أفارقه ولا يفارقنى أبداً . فخرج به معه ، وكانت هذه أول رحلة يقوم بها محمد إلى الشام . وفى أثناءها بلغت مسامع الصبي أخبار الرهبان والأخبار ، واستمع إلى أحاديثهم وما يروون عن أنبيائهم . ولم يخرج أبو طالب بعد ذلك إلى الشام ، وعاد محمد الصغير إلى رعى الغنم لأهل مكة ، إذ كان يرعاها لهم بالقراريط .

ثم إن محمداً كان يشارك أعمامه فى الحياة العامة منذ صباه ، فاشترك فى حرب الفِجَار الرابعة ، وسميت بالفجار لأنها كانت تنشب فى الأشهر الحرام . وللعرب فجارات أربعة ، ويخبرنا بعض أهل السيرة أن محمداً كان يجمع السهام لأعمامه وهم يرمون أعداءهم ، ويخبرنا بعض آخر أنه اشترك فيها فعلاً ورمى السهام . أما أن هذه الحرب دامت أربع سنين ، فلا يُستبعد إذن أنه جمع السهام لأعمامه فى أولها وهو فى الخامسة عشرة أو نحو ذلك ، وربما فى آخرها وهو قرب العشرين . ويروى عنه أنه قال : « وقد حضرته (أى حرب الفجار) مع صموئى ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى لم أكن فعلت » وقال أيضاً : « كنت أنبل على أعمامى ، أى كنت أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم به .

استمرت حرب الفجار هذه بين قريش وهوازن أربع سنين ، ذلك أنها كانت تتجدد كلما اجتمع العرب فى عكاظ . وانتهت بصلح دفعت فيه قريش دية عشرين رجلاً ، وهو عدد القتلى الزائد فى جانب هوازن .

بعد هذه الحرب ، شعرت قريش - وكانت هوازن قد ساقها فى أول سنة منها إلى أن لاذت بالحرم منهم فى الأشهر الحرام - ، بأن العرب قد طمعت فيهم ، وشعرت بما كان من خلافاتهم الداخلية ومنافساتهم من أر على موقفهم العام بين العرب . عندئذ دعى الزُبَيْر بن عبد المطلب إلى عقد حلف ، فاجتمعت بنو هاشم ، وزُهْرَة ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وبنو تميم فى دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً ، وتعاهدوا

وتعاهدوا على ألا يجحدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا جميعاً على من ظلمه حتى تُرد عليه مظلّمته . وسمى هذا الحلف بحلف الفضول ، وقد حضره محمد وهو ابن عشرين سنة .

ولقد اشتهر محمد منذ صباه بالصدق والأمانة . فسمى الصادق الأمين . وكان شغوفاً بالتأمل رافضاً منذ بداية تأملاته وتفكيره لعبادة الأصنام . ثم إنه كان عزوفاً عن اللهو واللعب وأسباب المجون ، بعيداً عن الصغائر والتفاهات ، نقي القلب ، طاهر الروح ، عفيف اللسان ، كريم النفس .

يروى أن جماعة من أترابه صغار الرعيان أغروه مرة بالذهاب معهم إلى مكة يلهون فيها مع السُمُتَار واللاهين . فعهد محمد بغيره إلى أحد رفاقه الغلمان وتوجه إلى مكة مع أصحابه . غير أنه ما أن بلغ أول دار بمكة إذ سمع عزفاً بالدقوف والمزامير ، فوقف يستمع ويشاهد هذا العرس . وما لبث أن غلبه النعاس فنام ولم يستيقظ إلا على حرارة الشمس . كذلك ترك أغنامه مرة أخرى ، وأتى مكة لمثل هذا الأمر ، غير أنه سمع عزفاً وهو في بعض الطريق ، فجلس يستمع ، وإذا بالنعاس يغلبه هذه المرة أيضاً فينام حتى الصباح . ثم إنه لم يعد قط بعد هذا إلى التفكير في مثل هذا العمل .

ولما بلغ خمساً وعشرين سنة نصحه عمه أبو طالب ، وكان لا مال له يكفيه ويكفي عياله ، وقد اشدت عليهم الزمان ، بأن يعرض نفسه على خديجة ، وكانت قریش في ذلك الوقت تعد قافلتها لرحلة الصيف إلى الشام ، مطمئناً نفسه إلى أنها سوف تسرع إليه وتفضله على غيره . فلما أن سمعت خديجة هذا الحديث حتى أسرعت فعلاً وأرسلت إليه ، وعرضت عليه أن تعطيه ضعف ما تعطى أى رجل آخر من قومه إذا قبل وقام بشئون تجارتها . فقبل وباركه عمه ، وخرج إلى الشام ومعه ميسرة غلام خديجة . ولقد أتاحت له هذه الرحلة التعرف برهبان الشام وأخبارها والحديث إليهم والاستماع عنهم

والتعرف على أحاديثهم ، أكثر مما أتاحت له رخلته الأولى بطبيعة الحال .
 نجح محمد أيما نجاح في تصريف شئون تجارة خديجة وربح لها ربحاً
 وفيراً ، ورجع مع القافلة راجعاً غانماً سعيداً . فلما بلغوا مكة في ساعة
 الظهيرة ، كانت خديجة تنتظره في عليّة لها ، فلما رآته نزلت إلى فناء
 دارها واستقبلته . ولقد ربح تجارتها هذه ضعف ما كانت تبيع مثيلاتها ،
 فأضعفت له ما سميت له .

وكانت خديجة امرأة حازمة جليدة شريفة لبيبة . وهي فوق ذلك
 أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالا . ولقد عرض كثيرون
 من سادة قريش وأشرفها الزواج منها وطلبوها فرفضتهم وفضلت عليهم
 جميعاً الصادق الأمين . قالت نفيسة بنت منية إن خديجة أرسلتها تستطلع
 رأيه في الزواج منها ، فأثته وقالت : ما يمنعك أن تزوج ؟ فقال : ما يبدي
 ما أتزوج به . قالت : فإن كنتك ذلك ، ودُعيت إلى الجبال والمال
 والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : فن هي ؟ قالت : خديجة . قال :
 وكيف لي بذلك ؟ قالت : على ذلك ، فأنا أفعل . ثم لأنها أخبرت خديجة بهذا
 الحديث ، فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا ، وأرسلت إلى عمها عمرو بن
 أسد ليزوجها . وحضر أبو طالب وأعمام محمد وعقد زواجه على خديجة .

كانت هي في ذلك الوقت في الخامسة والعشرين في رواية ، أوفى الخامسة
 والثلاثين في أخرى ، أوفى الأربعين على قول ثالث . وأغلب الظن أنها
 كانت في الخامسة والعشرين في مثل سنه . انتقل محمد إلى بيتها ، وبدأت
 مرحلة جديدة تماماً في حياته . فها هو يتعرف على المرأة ودفعها وحنانها
 لأول مرة في حياته . وها هو ينتقل من حياة الفقر إلى حياة النعيم والثراء .
 ثم إن خديجة كانت بلسمًا شافيًا لكل جراحه ، ودواء لكل كروبه وآلامه .
 كفته كل شيء : حب المرأة وحنانها ، عطفها وبرها ، إيمانها به وتفانيها
 في خدمته ، وحرصها على راحته ، وبذلها مالها في سبيل رضائه وسعادته .

وما أروعه عند ما قال لعائشة يوماً عندما غارت من كثرة ذكره خديجة :
« لقد واستنى في مالها (أى أعطتني منه) ، إذ حرمنى الناس ، وصدقتنى إذ
كذبنى الناس » .

وكان محمد منذ صباه نزاعاً إلى التفكير والتأمل ميالاً إلى الوحدة
ولا عجب أن يحدث في مجتمع نالت فيه المرأة كل هذه المنزلة العظيمة ،
واستقلت فيه بشئونها وكانت نداءً للرجل في كثير من الأحيان ، مثلما فعلت
خديجة ، إذ كفت حبيبها محمداً مؤونة العمل وإرهاقه ومشاغله ، فقامت هى
بشئون البيت وشئون تجارتها ، وتركزت هذا التأمل حراً كامل الحرية
لا يحمل من هموم الدنيا شيئاً ، لينصرف إلى أفكاره وتأملاته التي كانت
تشغل الجزء الأكبر من وقته

غير أن محمداً لم يصرف كل وقته في هذه الأفكار والتأملات ، وإنما
كان يشارك أهل مكة في الأمور العامة أيضاً . فكان يحارب في صفوفهم
كما رأينا في حرب الفجار ، ويحضر أحلافهم كما حضر حلف الفضول ، ويحكم
بينهم كما حدث عند هدم الكعبة وبنائها . وكان أهل مكة قد أجمعوا على
ضرورة هدم الكعبة وبنائها بعد أن انصدعت من السيول . ولما بلغ البنيان
الجديد موضع الحجر الأسود اختصمت القبائل ، تريد كل قبيلة أن ترفعه إلى
موضعه دون الأخرى ، وكاد القتال أن ينشب بينهم . فغمس بنو عبد الدار
وبنو عدي بن كعب بن لؤى أيديهم في جفنة مملوءة دماً وتعاهدوا على
الموت ألا يفعل ذلك أحد غيرهم ، فسموا لذلك لعقة الدم . وعندما تأزمت
الأمور إلى هذا الحد ، مكثت قريش أربع يال أرخصاً لا تتوصل إلى
حل . وأخيراً اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، فقال أبو أمية
ابن المغيرة ، وكان إذ ذاك أسن قريش كلها : يا معشر قريش ! اجعلوا
بينكم فيما تختلفون فيه أول داخل يدخل من باب هذا المسجد . فدخل
عندئذ محمد ، فلما رآوه أجمعوا على الرضا بحكمه . فلما أخبروه بسط رداءه

على الأرض وأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ثم قال : ليأت من كل قبيلة من قبائل قريش الأربع رجل ، فجاءه أربعة رجال ، فطلب منهم أن يأخذ كل واحد منهم بزاوية من زوايا الرداء ، ثم يرفعوه جميعاً ، ففعلوا ، وتنازل هو الحجر ووضعه في موضعه . وفي هذه القصة دليل وأى دليل على المكانة التي بلغها محمد في الحياة العامة في قريش ، فهاهو ذا أصغرهم سناً ، ولم يكن في رواية قد تجاوز الخامسة والعشرين ، وفي أخرى الخامسة والثلاثين ، فضلاً عن أنه كان أقلهم مالاً ، فرأسوه عليهم لعدله ورجاحة عقله في أعز ما يقدرسون ، وكانوا بالأمس على شفا الحرب يكاد يقتل بعضهم بعضاً .

وواقع الأمر أن شيئاً كثيراً لا يعرف عن محمد في هذه الفترة التي مرت بين زواجه وهو في الخامسة والعشرين إلى أن نادى برسالاته وهو في الأربعين . نعرف فقط أنه أنجب من خديجة في هذه الفترة ابنه القاسم ، وعبد الله ، وبناته زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . وأن القاسم وعبد الله توفيا وهما لا يزالان في سن الطفولة . وأما زينب كبرى بناته فزوجها من أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس وهو ابن خالتها . وزوج رقية وأم كلثوم إلى عُتْبَةَ وَعُتَيْبَةَ ابني عمه أبي لُب اللذين سرحاهما بأمر أبيهما بعد الإسلام . وأما فاطمة فكانت لا تزال طفلة ، وهي التي تزوجها على بعد الإسلام .

ثم إن محمداً كان في هذه الفترة يختلف إلى الأسواق والمنتديات يستمع إلى أخبار اليهود وكهنة النصارى ما يبشر به كل منهم في أمر دينه ، وما يعارضون به العرب في شأن الأصنام . وكان من عادة مفكرى العرب أن ينقطعوا إلى مكان بعيد منعزل يتمبدون فيه ويتأملون . وكانت العرب تطلق على هذا الانقطاع التَّحَنُّفُ أو التَّحَنُّثُ . وكان محمد يتحنف في غار حيراء على شرع إبراهيم . ويقع هذا الغار في أعلى جبل حيراء على فرسخين من شمال مكة . وبينما محمد نائم في الغار ذات يوم وكان قد بلغ

الأربعين من عمره في ذلك الوقت إذ به يسمع صوتاً يقول : اقرأ ، فقال محمد : ما أنا بقارئ ، فقال : اقرأ ، فقال : ماذا أقرأ ، قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم^(١) فقرأها محمد ، ثم هب من نومه فزعاً . وعاد إلى منزله مضطرباً وجلاً يرتعد كأنما أصابته حمى شديدة ، ودخل على خديجة ، وهو يقول زملوني ، فزملته . وبعد أن هدأت نفسه بعض الشيء نظر إلى خديجة وهو يرتعد . وأفضى إليها بمخاوفه أن يكون كاهنا وقال : يا خديجة ! مالي ؟ غير أنها لم تبد له خوفاً عليه ولا وجلاً مما حدث وطمأنته وقالت : « أبشر يا ابن عم واثبت . فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . والله لا يحزنك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

عندئذ هدأت نفسه واطمأن بآله واستسلم إلى النوم . واستيقظ ليبدأ كفاحاً نسيج وحده ، وليبشر برسالته ، وليضع أساس مجتمع غير تاريخ العرب ، بل تاريخ البشرية .

الفصل الثاني

التبشير بالرسالة في مكة

كانت خديجة لإذن أول من صدقه وأول من أسلم وعلم بأن ملاكاً اسمه جبريل يأتيه ويوحى إليه بالقرآن . وما أن هدأت حال محمد بعد عودته من غار حراء ، وإخباره لإياها بقصة هذا الملاك ، حتى جمعت عليها ثيابها ، وأسرعت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، الشيخ الأعمى الحكيم . وكان ورقة قد تنصر في أيام الجاهلية ، وقرأ الكتب الدينية النصرانية ، وسمع حكايات أهل التوراة والإنجيل ، وما فيها من تنبؤات بظهور نبي جديد . أخبرته بما قصه عليها محمد فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتني يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقلولي له فَمَلَيْسَتْ .

رجعت خديجة إلى محمد وأخبرته بما بشرها به هذا الحكيم المطلع على كتب الأقدمين . ثم إن ورقة لقي محمداً بعد ذلك وهو يطوف بالكعبة ، فقال : أخبرني يا بن أخي بما رأيت وسمعت ، فأخبره محمد ، فقال له ورقة : والذي نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، وسوف يكلمك الناس ويؤذونك ويخرجونك من ديارك ويقاثلونك ، ولئن أدركت ذلك اليوم ، لأنصرن الله نصرأ يعلمه ، وأدنى رأسه منه فقبل يافوخه . ثم انصرف محمد إلى بيته ، لا يشك في أنه رسول حبه السماء بعطفها وخصته برسالة يوحى إليه بها ملك من عند الله ، يأتيه في نومه وفي يقظته .

ولكن هل ستضطهده قريش وتخرجه من مكة وتؤذيه ؟ أى نعم ،

وأين الرجل الذى خالف قومه فى أعز مقدساتهم وسفه أحلامهم واعتدى على دينهم ولم يضطهدوه ولم يؤذوه ؟ هذه طبيعة الأشياء لا عجب فى ذلك . ولا شك فى أن محمداً فكر فى هذا كله ، وأصر على أن يجابه وحده هذا كله . يجابه أهله وعشيرته والعرب الأقربين والأبعدين ، والناس كلهم ، بما يعتقد هو أنه الحق ، لا تلين قناته ، ولا يضعف إيمانه ، ولا تخور نفسه ، ولا تنه قواه . أصر وانتصر . وعاشت أفكاره من بعده حتى الآن أربعة عشر قرناً من الزمان . يالها من قصة ، ويا له من كفاح ، ويا له من بطل !

سبق أن قلنا إن أهل مكة كانوا يعتقدون فى الله ، و أنه سميع مجيب ، وأنه خالق السماوات والأرض ، وأنه حكيم عليم بصير ، ولكنهم أشركوا به فجعلوا الأصنام بمثابة شفعاء بينهم وبين الله . غير أن محمداً رفض هذه الشفاعة ورفض أن يكون بين الإنسان وربه أى شفيع فى هذه الدنيا ، ولا هو ذاته ، وفى ذلك يقول القرآن : « قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً »^(١) وقوله : « قل فن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً »^(٢) . فالإنسان فى الإسلام تحت سماع الله وبصره وحده ، وهو العالم فقط بما يخفى وما يبطن . ولذلك رفض محمد رفضاً باتاً نظام الرهبنة ونظام القديسين ، فكان الإسلام من هنا نقيض المسيحية . وما الأصنام فى عبادة العرب الذين كانوا يؤمنون بالله إلا بمثابة القديسين فى المسيحية .

هذا إذن محمد يقول للعرب إنه يؤمن بالله الذى يؤمنون به ، ولكن الله هذا فريد بذاته : « هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »^(٣) . وأن الله لا شريك له . وأنه لا يقبل شفاعة ، وأن هذه الأحجار

(٣) لا - مس .

(٢) التمج ١١ .

(١) الجن ٢١ .

لا تضر ولا تنفع . وإنما ينفع الإنسان ما قدم في دنياه هذه من خير أو شر ، وأن العمل الصالح هو وحده شفيعه عند الله . وهكذا واجه مجتمعه أول ما واجه بهذه الأفكار .

كان على بن أبي طالب أول من آمن بالإسلام بعد خديجة ، وكان في ذلك الوقت صبياً في كفالة محمد يعيش في بيته وتحت رعايته لم يجاوز العاشرة من عمره . وقصة ذلك أن أزمة شديدة كانت قد أصابت قريشاً ، وكان أبو طالب كثير العيال . فاقترح محمد على عمه العباس ، وكان من أيسر بني هاشم ، أن ينطلقا إلى أبي طالب ليخففا عنه من عياله ، يأخذ العباس رجلاً ويأخذ محمد رجلاً يكفله عنه . فانطلق العباس ومحمد حتى لقيا أبا طالب ، فأخبراه بما يريدان من التخفيف عنه حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه . فوافق أبو طالب على أن يتركاه له عقلاً . فأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه ، وأخذ محمد علياً فضمه إليه .

وفي هذا الوقت المبكر من دعوة محمد لأهل مكة بدينه الجديد ، حصل على أول انتصار كبير ، إذ وعد عمه أبو طالب بحمايته إذا تعرض للاضطهاد وإن لم يشأ أن يتبع الدين الجديد . وكان معنى هذا بطبيعة الحال حماية بني هاشم لمحمد .

وكان محمد إذا حضرت مواعيد الصلاة يخرج إلى شعاب مكة مستخفياً من عمه ومن الناس ، ومعه على الصغير . وذات يوم عثر عليهما أبو طالب وهما يصليان ، فقال لمحمد : يا بن أخي ، ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟ قال : أي هم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ، بعثني الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أي عم أحق من بلدت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابني إليه ، وأعانني عليه . فقال أبو طالب : أي ابن أخي ، إني والله لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت .

أمّا ثالث المسلمين فزيد بن حارثة ، وكان هو الآخر يعيش في كنف

محمد في ذلك الوقت . وإن في قصة زيد مع محمد لأبلغ دلالة على ما عرف
عن محمد من حسن عشرته وجم أدبه وحلمه وعفوه وجوده وكرمه
وسماحته وشفقته ورأفته وتواضعه وعدالته وطفهيان النزعة الإنسانية فيه .
فهذا زيد في مجتمع لا يقدر شيئاً كتقديسه للحرية ، يؤثر العبودية مع محمد
على الحرية مع أبيه وأعمامه وبين قومه . يا للعجب ! وكيف كان ذلك ؟

يروى أن حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق منه زيد
ابن حارثة : فلما دخلت عليه عمته خديجة ، أهدى لها أى غلام اختارت ،
فأخذت زيدا ، فلما رآه محمد استوهبه منها ، فوهبته له . وكان أبو زيد
قد جزع على ولده جزعا شديداً ، وأخذ يتقصى أخباره ، فلما علم أنه عند
محمد قدم ومعه شقيقه كعب حتى بلغا محمداً ، وأخبراه أنهما إنما جاءا في
ابن لهما عنده ، وطلبا منه أن يمن عليهما في فدائه ، قال : ومن هو ؟
قالا : زيد بن حارثة ، فقال محمد : فهلا غير ذلك ؟ قالوا : وما هو ؟
قال : ادعوه فأخبره ، فلما اختاركم فهو لكم ، وإن اختارني فهو لي ،
فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً . قالوا : قد زدنا على
النصف وأحسننا إلينا . فدعاه فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم .
قال : من هذا ؟ قال : أبى ، وهذا عمى . قال : فأنا من قد علمت ،
وقد رأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما . فقال زيد : ما أنا بالذي
أختار عليك أحداً ، أنت منى مكان الأب والعم ، فقالوا : ويحك يا زيد !
أختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال : نعم ،
قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً . فلما
رأى محمد ذلك خرج به إلى الناس فقال : يا معشر من حضر ، اشهدوا أن
زيداً ابني يرثني وأرثه . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفساهما وانصرفا .
ودعى زيد بن محمد زمنا ، حتى أبطل الإسلام نظام التبني فدعى زيد
ابن حارثة .

انحصر الإسلام الآن إذن في هؤلاء الأربعة ، محمد والذين آمنوا به من أهل بيته ، خديجة وعلى وزيد . ولم يكن أحد من قريش يعلم بهذا الأمر غير ورقة بن نوفل وأبي طالب . غير أنه كان لزاماً على محمد بطبيعة الحال أن يدعو الناس لدينه ، ولكن كان الجهر بالدعوة وهو لا يزال ضعيفاً وحيداً أمراً محفوفاً بأشد المخاطر . لذلك عمد إلى أن يسر بما في نفسه إلى من يشق فيهم من أهل قريش . ومن أكثر من أبي بكر حليماً ودعة وقوة خلق في قريش ؟ والحق أن أبا بكر لم يخلد محمداً ، فما أن أسر له بما في نفسه حتى أسرع إلى تصديقه والإيمان به . ولقد أثر عن محمد أنه قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ، ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما تأخر عنه حين ذكرته له وما تردد فيه » .

وظل محمد وأبو بكر يدعوان الإسلام سرّاً خشية إثارة قريش . ولقد استطاع أبو بكر في هذه الفترة الأولى أن يقنع عدداً من رجالات قريش بالإسلام ، هم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عُبَيْدِ اللَّهِ . وكلهم كان له شأن كبير في تدعيم الإسلام أولاً وأخيراً . والحق أن في أمثال هؤلاء إلى جانب محمد والإسلام ، قوة كبيرة ولا شك لا يستهان بها ، وعزة لها قيمتها . وانقضت ثلاث سنين ، ظل فيها أمر الدعوة سرّاً ، إلى أن بلغ المسلمون أربعين أو خمسين رجلاً وامرأة . وكان المسلمون في تلك الفترة يقيمون الصلاة سرّاً في الشعاب بعيداً عن أعين المترصدين لهم من أهل مكة .

أمّا أن أتباع محمد قد بلغوا أربعين أو خمسين ، فأمر كان لا يمكن أن يخفى على أهل مكة . عندئذ بدأت أولى محاولات التصدي لمحمد وأصحابه . إذ تبع جماعة من المشركين سعد بن أبي وقاص وفاجأوه وهو يصلي مع نفر من المسلمين في أحد شعاب مكة (الشعبُ ما انفرج بين الجبلين) .

وعابوا عليهم ما يفعلون وأهانوهم وقاتلوهم ، ولم يكن سعد قد بلغ العشرين من عمره وقتذاك ، ولكن ما كان هذا الفتى الصنديد ، الذى وصفه عبد الرحمن بن عوف فيما بعد بالأسد فى برائه ، والذى كان أول من ضرب بسهم فى الإسلام ، والذى فاخر به محمد وفداه بأبيه وأمه ، والذى هزم إمبراطورية الفرس ، ليرضى بهذا الضيم ، فتناول فى ثورته عظمة يعبر من الأرض وضرب بها رجلا من المشركين فسال دمه اىكون أول دم أريق فى سبيل الإسلام . بعد ذلك جهر محمد بدعوته وتحدى العالم أجمع بهذه القلة المؤمنة ،

لما جهر محمد بدعوته بدأ أولا بأقرب أهله . فدعاهم إلى طعام فى بيته ، وكلهم فى أمر الوحي وأمر الدين الجديد ، غير أن عمه أبا لهب غضب وقطع حديثه وقام من مجلسه وحرّض الباقين على مقاطعته . ثم إنه دعاهم فى اليوم التالى وأطعمهم ، ثم حدثهم مرة ثانية فى أنه قد جاءهم بخبر الدنيا والآخرة ، وطلب منهم أن يؤازروه فى الدعوة للدين الجديد ، غير أنهم أعرضوا عنه جميعاً . عندئذ أخذت على بن أبى طالب الحمية وبلغ الخماس من نفسه مبلغاً كبيراً ، وتأججت فى روحه مروءة البطل الصغير ، وكان لا يزال دون الحلم ، فنهض واقفاً متحدياً وقال : « أنا يا رسول الله عونك ، أنا حرب على من حاربت » . كان أبو طالب حاضراً هذا الجمع ، ولسنا ندرى ماذا حدثت نفسة فى أمر هذا البطل الصغير .

لم تستمع له عشيرته الأقربون ، وظلوا على غيهم وعنادهم بقيادة عمه أبا لهب . غير أنه لم يهن ولم يضعف ولم ييأس . وذات يوم قرر مواجهة قريش دفعة واحدة ، فصعد على الصفا ونادى : « يا معشر قريش ! فقال الناس إن محمداً على الصفا يهتف ، وأقبلوا عليه ، وقالوا : مالك يا محمد ؟ فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى ؟ قالوا : نعم ، أنت صادق ، وما عهدناك تكذب قط . قال : فإننى

نذير لكم بين يدي عذاب شديد ! يا بنى طالب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة ، يا بنى تيم ، يا بنى مخروم ، يا بنى أسد ، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله » فقال أبو لهب : تبالك سائر اليوم ، لهذا جمعنا ؟ وانفض القوم .

تابع محمد دعوته هو وأصحابه ، بعضهم يجهر بها وبعضهم يسرها لمن يثق فيه من أهل مكة . غير أن قريشاً لم تتعرض لمحمد ولا لأحد من المسلمين بأذى ولم يرد عليه أحد من قومه ، إلى أن تعرض لأهنتهم فسبها وعابها . وهنا أخذت قريش حتى شديدة قلبتها رأساً على عقب ، وتبدل الهدوء السابق بحركة تزعمها كبار رجال قريش دفاعاً عن آهنتهم ، وما يعبدون وما كان يعبد آباؤهم ، ثم دفاعاً عن منزلتهم بين العرب أجمعين ، وحفاظاً على تجارتهم . غير أن الأمر لم يكن سهلاً هيناً ، فكيف بهم يُسْكِتُونَ لسان محمد ويكفونه عنهم . لم يكن استخدام القوة مما ورد بخاطرهم ، ذلك أن القوة سوف لا تثمر إلاّ أمر الثمرات لقريش كلها . فهذا أبو طالب يحمى ابن أخيه بالمال وبالدم وبالولد ، وقس على ذلك كل رجل آخر من المسلمين ما كان أهله ليسلموه ، وما كانوا ليتغاضوا عن دمه إن قتل . وتلك كانت عوائد العرب وسنتها .

موقف عصيب وأزمة تكاد تلتق بقريش كلها في برائن فتنة لا يعلم أحد مداها . غير أن زعماء الفئدة المناهضة لمحمد فكروا في اللجوء إلى عم أبي طالب ، فمشوا إليه وفيهم من أشراف مكة عتية وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل ، والعاص بن وائل وغيرهم ، وقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أعلامنا وضللّ آباءنا ، فلما أن تكفه عنا ، وإمّا أن نخلى بيننا وبينه ، فإنك لست على دينه مثلنا فنخلصك منه ، فترفق معهم أبو طالب وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه .

لم يهدأ محمد ولم يكف عن دعوته ، بل إنه اشتد فيها وتكاثر أعوانه شيئاً بعد شيء ، وإن كان تكاثرهم بطيئاً ، وإنما كان أكيداً . أسقط في يد أولئك الأشراف الذين يناهضون هذه الدعوة إمّا حرصاً على التجارة ، وإمّا جسداً وضعينة أن يكون نبي من بيت غير بيوتهم ، وإمّا تدبنا ، وهذا أضعف الإيمان .

فلما رأت قريش أن أبا طالب لن يسلم إليهم محمداً ولن يكفه ، وإن لم يدن بدينه ، وأن محمداً ماض في نشر دعوته وفي تسفيه أحلامهم وشم آهنتهم ، قرروا أمراً آخر يكون فيه تهديد ووعيد وإظهار للقوة واستعداد لاستخدامها ، فمشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، وقالوا : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك عنا فلم تنه ، وإنا والله لا نصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آهنتنا ، حتى تكفه عنا ، وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . ثم انصرفوا .

عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ثم إن نفسه لم تطب بتسليم محمد لهم ولا بخذلانه ، فاستدعاه وقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، فابق على وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . فظن محمد أن عمه قد ضعف عن نصرته ، وأنه خاذله ومسلمه لهم ، فقال له : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

قال محمد قولته الخالدة هذه ، ثم خنقته العبرة وتحادرت دمعات على خديه ، وقام . فأكاد يولي ظهره حتى أخذت هذه الإرادة القدسية بمجامع قلب الشيخ الكبير ، فما ملك إلا أن ينادى ابن أخيه أن يقبل عليه ، فلما أقبل قال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً .

أيقنت قريش أن أبا طالب لم يستجب للتهديد ولا للوعيد ، وأنه لن يستجيب ، وأنه ماض في عزمه على حماية ابن أخيه ومنعه منهم ، وإن أقتلوا وقامت الحرب بين قبائل قريش ، وأنه أهله قد أجمعوا على فراقهم وعداوتهم إن هم تعرضوا لمحمد بالأذى ، وأن الحرب ستكون حرباً عوانا يهلك فيها الكبير والصغير إن هم قتلوه . عندئذ فكر أشراف قريش المناهضين لمحمد ولبنى هاشم في أن يعرضوا أبا طالب عن محمد فتى من أشد فتیان قريش وأكملهم . فمشوا إليه ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وعرضوا على أبي طالب أن يأخذه ويسلم لهم محمداً ليقتلوه به . غير أن أبا طالب غضب أشد الغضب ، واستنكر هذا المنطق الغريب الذي لا يجوز قبوله من شريف عظيم من أشراف بني هاشم ، وقال لهم غاضباً : والله لبئس ما تسومونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكُم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبداً . فقال المُطعم بن عدى : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وبدلوا ما بوسعهم لتخليصك من الحرب ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً . قال أبو طالب : والله ما أنصفوني ، ولكني أراك قد خذلني وأعنت القوم عليّ ، فاصنع ما بدا لك .

فلما أيقن القوم أن أبا طالب قد غضب ، وأنه لم يرض بما اعتقلوا أنه إنصاف له ، قالوا : ارسل إليه وآتنا به ونحن نعرض عليه عرضاً منصفاً . فأرسل إليه أبو طالب فجاء فقال له : يا بن أخى ، هؤلاء عمومك . وأشراف قومك ، وقد أرادوا أن ينصفوك . فقال : قولوا أسمع ، قالوا : تدعنا وآهتنا ، وندعك وإهلك . قال أبو طالب : قد أنصفك القوم فاقبل منهم . غير أن هذا الذى قال بالأمس « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك فيه » ما كان الآن ليقبل شيئاً آخر ، قال : أرأيتم إذا أجبتكم ، فهل أنتم معطى كلمة إن أنتم تكلمتم بها ، ملكتم بها العرب ، ودانت لكم العجم ؟ فقال أبو جهل : إن هذه

لكلمة مريحة ، نعم وأبيك لنقولها وعشر أمثالها . قال : قولوا
لا إله إلا الله .

تحد رهيب ، وإصرار نفس لا تراجع ، وإرادة لا يفلها الحديد ،
وعزم تهون أمامه أشد الصعاب ، وجراحة يحسب لها ألف حساب ، وإيمان
تتصاغر أمامه همم الصناديد والخبارة ، وإقدام تهتز له القلوب . إنه
يا محمد !

اشمأز القوم لهذا التحدى وثار ثائرتهم فقاموا والغضب يتطاير من
أعينهم ، والحق يغلى فى صدورهم . ثم أجمعوا أمرهم على ألا يعودوا
لمصالحته مرة أخرى ، وأنه لا مفر من اغتياله . فلما رأى إلى سمع أبى طالب
هذا الخبر مساء تلك الليلة ، خرج وعدد من عمومة محمد إلى بيته يطلبونه .
فلما لم يجدوه فى بيته ، أمر أبو طالب فجمع فتيانا من بنى هاشم وبنى المطلب
ثم قال : ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ، ثم ليتبعنى إذا دخلت المسجد
فليجلس كل فتي منكم إلى عظيم من عظمائهم فليقتله إذا ما بلغنا أن محمدا
قد قتل . فقال الفتيان : سمعاً وطاعة . وعندئذ دخل عليهم زيد بن حارثة .
فبادره أبو طالب قلقلنا متلهفاً ملتحاً : يا زيد ، هل رأيت ابن أخى ؟ قال :
نعم ، كنت معه آنفاً . قال أبو طالب وقد استرد أنفاسه وهدأت مخاوفه :
لا أدخل بيتى أبداً حتى أراه . فخرج زيد مسرعاً حتى أتاه وهو فى بيت
عند الصفا ، ومعه أصحاب يتخذون ، فأخبره الخبر : فتركهم محمد وعاد
إلى عمه فبادره أبو طالب قائلاً : يا بن أخى ، أين كنت ؟ أكنت فى
خير ؟ قال : نعم ، قال : ادخل بيتك . فامتثل محمد للأمر ودخل بيته .
لورتاح قلب الشيخ المحب .

وفى صباح اليوم التالى ذهب أبو طالب إلى بيت محمد ، واصطحبه إلى
حيث تجتمع قريش وأخذ بيده ومن جوله فتيان بنى هاشم وبنى عبد المطلب ،
وقال : يا معشر قريش ، هل تلترون ما هممت به ؟ قالوا : لا . فأخبرهم

بما كان قد هم به في مساء الليلة الماضية ، وقال للفتيان : اكشفوا عما في أيديكم ، فكشفوا فإذا كل رجل فيهم معه حديدة صارمة . فقال : والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحداً حتى نفنى نحن أو أنتم .

وتعاهد بنو هاشم وبنو المطلب وعلى رأسهم أبو طالب على أن يمنحوا محمداً من قريش ويحموه ، ولم يخرج عن إجماعهم إلا عمه أبو لهب فقط ، فانحاز إلى صفوف المناوئين لبني هاشم ، وكان أشد عداوة لمحمد من بني أمية .

ماذا إذن ؟ هل ستتشب الحرب بين الفريقين ؟ هل يقدم هؤلاء على حرب بني هاشم ؟ الحق أنه قامت حروب بين أحياء العرب لأسباب أومى من ذلك كثيراً ، ولكن يبدو أن بني أمية - وهم كانوا أصحاب المصلحة الكبرى في تجارة مكة في ذلك الوقت - قد فطنوا إلى ما قد تجره حرب كذلك من تخريب لهذه التجارة ، ومن إفقار لكل من في مكة ، ومن إضعاف لنفوذ قريش في جزيرة العرب بعد أن أصبحت تملك منزلة لا يطاولها فيها أى من قبائل العرب الأخرى . فكيف بهم يحطمون كل هذا ، ليبقى من يبقى منهم ودموعه على خديه ، يرثى مجداً زال ، وعزاً مضى ، وقبلاً فتك أفرادهم بعضهم ببعض .

لا شك في أن المصلحة التجارية هنا كانت نصب أعين الجميع ، ولذلك لم تشهد مكة من أعمال العنف أو أعمال التهور ما اتسم بطابع العنف الشديد أو أخذ صورة تهجم يفوق حد الاحتمال وحد التسامح بين أبناء العمومة وأفراد القبيلة الواحدة . ولا جرم أن كل فريق حرص أشد الحرص على ألا يأتي عملاً يكون من شأنه أن يفجر في نفس الفريق الآخر حُمى النار وغضب الانتقام المر .

ثم إن محمداً لم يهدم دينهم من أساسه ، بل إنه أبقى على جوهر الدين وهو اعترافه بأن الله خالق السماوات والأرض ، وأنه سميع مجيب ، عليم

بصير ، وأنه هو الذى ينزل الغيث ، وأنه هو الذى يحيى ويميت . وكل هذه أمور كانت من معتقدات قريش . ولا أدل على ذلك من مخاطبة القرآن لهم فيها وتذكيره إياهم أنهم يؤمنون بهذا كله . إذن فمحمد لم يمس جوهر الدين ذاته . والحق أن عبادة الأصنام لم تنج من التعرض للنقد ، وللخضوع لأحكام العقل . ولقد أغنانا الشاعر العربى الناقد المفكر الحر الرأى الذى قال فى هذه الأصنام إذ رأى ثعلبا يبول برأس صنم منها :
أربُّ يبول الثعلبان برأسه ألا ذلَّ من بالث عليه الثعلاب

ثم إنه لا ينبغي أن ننسى أن النصرانية واليهودية كانتا قد انتشرت في بلاد العرب ، وكانت قبائل عربية قد اعتنقتها ، فحاربها أحد ولا عارضها معارض . فضلا عن أنه كان يوجد بمكة مبشرون بالمسيحية ، بل لقد كان من أهل مكة ومن بين بني عبد مناف ذاتهم رجل حكيم عاقل فاضل تنصر ، وهو ورقة بن نوفل ، فما عارضه أحد ، وما اضطهده أحد ، وما أجبره أحد على الارتداد إلى دين الآباء والأجداد . كذلك يقال بأن قس بن ساعدة كان يخطب في الأسواق داعيا العرب إلى إله واحد ، فما مسه ولا اضطهده أحد . إذن لم يكن هناك في واقع الأمر من سبب أصيل في هذا الجو المثالي من حرية الفكر التي سادت في بلاد العرب ، يترتب عليه أكثر من اضطهاد لا يبلغ حد القتل والأخذ بالنار وإشعال نار فتنة كبرى لا تبقى ولا تذر .

بدأت قريش عصر اضطهاد لمحمد ولأصحابه من المسلمين ، ولكنه اضطهاد اتصف بكثير من التسامح وروح العطف ، ولم يرتق في يوم من الأيام ليصبح اضطهاداً دمويّاً بما يفهم من معاني الاضطهادات الكبيرة التي حدثت في التاريخ ، وراح ضحيتها آلاف وعشرات الآلاف من الأنفس ، وعذب فيها الناس عذاباً الموت أرحم منه : كلا ثم كلا ! فهنا اضطهاد من نوع خاص هو اضطهاد رجال لرجال يحرق كل منهم أشد الحرص

على ألا يدفع هذا الاضطهاد إلى درجة إسالة الدم ، أو إهداره . وتدلنا جميع الأحداث على أن كلا الطرفين قد حرص أشد الحرص على تجنب القتال في هذه المرحلة من مراحل الصراع .

أخذت كل قبيلة تؤذى من أسلم منها بلغوا القول وهجر الكلام وفحشه ، وتقتصر على ذلك إن كان من أبنائها. القرشيين الأشراف ، وتمتد اليد والعصا إن كان عبدا رقيقا من المستضعفين . ولم يحدث في ذلك الوقت أن تشابكت الأيدي بين القرشيين إلا في أحوال نادرة جداً ، أو رفع أحدهم عصا على آخر ، أو ضربه فأسال دمه ، كما فعل سعد بن أبي وقاص .

عذب أمية بن خلف عبده الحبشي بلالاً ليرجع عن الإسلام ، بأن كان يضع حجراً كبيراً على صدره ويتركه في لهب الشمس المحرقة ، وبلال لا يقول إلا « أحمّد . أحمّد » ولقد احتمل هذا العذاب المظني ، حتى رآه أبو بكر يوماً فاشتراه وأعتقه كما اشترى عدداً غيره من العبيد الذين أسلموا وأعتقهم . ولسنا نعلم أن أحداً من الرقيق مات من التعذيب غير امرأة واحدة .

وتطرف أبو جهل مرة وألقى على محمد رحم شاة مذبوحة ضحية للأصنام وهو يصلي في المسجد الحرام ، فاحتمل محمد هذا الأذى ، ولم يفعل أكثر من مغادرة المسجد في هدوء إلى حيث نظفت ابنته فاطمة ثيابه . ونقع على حادثة أخرى تبين لنا أن جماعة من قريش أحاطوا بمحمد ، وأخذ رجل منهم بمجمع رداءه ، فقام لهم أبو بكر وهو يبكي ويقول « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ » وكانت امرأة. أبي لهب تلقى النجس أمام بيته ، فلا يفعل أكثر من إزالته . وفضلاً عن هذا فقد كان محمد إذا مر بقوم منهم سخرؤا منه وآذوه بفحش القول وهجر الكلام . هذه هي الصورة

العامة لمجمل الاضطهادات التي نفع عليها وعلى قليل مثلها في كتب السيرة .

أصرت قريش على عداثها لحمد ودين محمد ، وهو لا يزداد إلا إيماناً بما يعتقد أنه الحق ، ويبالغ في الاستهانة بهم والاستخفاف بأوثانهم ، لا يصدده صناد ولا يمنع أذى أو اضطهاد .

ولما حضر أول موسم للحج بعد هذه الأحداث ، وكان المسلمون قد جهروا بدعوتهم وسمعت العرب بها ، وخشيت قريش أن يحدث المسلمون العرب في أمر هذا الدين ويدعونهم إليه ، اجتمع نفر منهم إلى الوليد بن المغيرة ، وكان ذا سن فيهم . وشرف ، فقال لهم : يا معشر قريش ، لقد حضر الموسم ، وإن وفود العرب ستفد عليكم ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأياً نقول به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع ، قالوا : نقول كاهن ، قال : لا ، والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهَّان فما هو بزمنة الكاهن ولا سجيته ، قالوا : فنقول مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنثيه ولا تخالسيه ولا وسوسته ، قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجَّزه وهزَّجه وقريضته ومقبوضته ومبسوطه فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثه ولا عقده ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لتجساة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر يُفَرِّق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .

ولما حضر موسم الحج تفرق رجال قريش بين الذين قدموا الموسم يخوفونهم منه ويحذرونهم من أن يستمعوا إليه . غير أنه مهما يكن من أمر فإن وفود العرب لا بد وعت كثيراً مما كان يقول محمد لقومه ، ووقفت على فحوى دعوته وما يبشر به . ولا مرية في أن خبر الدعوة إلى الإسلام ذاع في طول الجزيرة وعرضها بعد هذا الموسم .

وفي تلك الأثناء أعز الإسلام رجلٌ اهتزت قريش لإسلامه ، هو حمزة ابن عبد المطلب ، عم محمد وأخوه في الرضّاع . وقصة ذلك أن أبا جهل مرّ بمحمد وهو عند الصفا فأذاه وشمته ، وعاب دينه ، فلم يكلمه محمد ولا رد عليه وتركه وانصرف . وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان بمقربة منهما قد سمعت ما قال أبو جهل . فلما أقبل حمزة بعد قليل وهو عائد من الصيد متوشحاً قوسه ، وكان حمزة من أعز فتيان قريش وأشدّهم شكيمة ، مربّها فقالت : يا أبا نُهمارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آتفا من أبي جهل بن هشام ، عند ما وجده هنا جالساً فأذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ، فغضب حمزة ، وراح يبحث عن أبي جهل حتى وجده جالساً في قومه في المسجد ، فأقبل نحوه ورفع قوسه إلى رأسه فضربه ضربة شجته . ثم قال في ثورته : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك على إن استطعت . فقامت رجال بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا نُهمارة ، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحاً . ولم يرجع حمزة عما قال ، وأعلن إسلامه لإعلاناً صريحاً ، فعز به محمد وامتنع .

وبلغت مضايقات المشركين للمسلمين مبلغاً كبيراً ، فلما رأى محمد ما يتعرض له أصحابه من البلاء والاضطهاد قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن فيها ملكاً لا يظلمُ عنده أحد - وهي أرض صدق - حتى يجعل الله لكم خراجاً مما أنتم فيه . وأغلب الظن أن تحريض الرسول أصحابه

على الهجرة إلى أرض بعيدة كالحبشة ، لم يكن لأسباب سياسية كما ظن البعض ، وإنما يلوح بجليا بأنه كان حركة بارعة أراد بها استغلال العاطفة العربية الجياشة لإزاء الأهل والأقرباء أحسن استغلال ، فتراود قريش نفسها في أمر أهاليهم الذين تركوا ديارهم وهاجروا ، فربما يمتنعون عن إيذائهم . والحق أن هجرة من هاجر كان لها أثر كبير في قلوب القرشيين :

وإن في قصة عامر بن ربيعة وزوجته مع عمر بن الخطاب لأبلغ دليل على الأسف الذي داخل قلوب الكفار من مغادرة أهاليهم الذين هاجروا من ديارهم . مرَّ عمر بن الخطاب بأمر عبد الله بن عامر وهي تستعد للرحيل إلى الحبشة ، وكان زوجها عامر بن ربيعة قد خرج لقضاء بعض حاجته . فقال لها عمر : إنه للانطلاق يا أم عبد الله ! فردَّت عليه وذكرته بالأذى والبلاء والإهانات التي يتعرضون لها : نعم والله ، لنخرجن في أرض الله ، آذيتونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجا . فلم يزد على أن قال : صبركم الله . فأجست رِقَّة في نبرات عمر لم تكن تعهدا من قبل ، وقد عُرِف عنه قسوته على المسلمين . فلما عاد زوجها أخبرته بما بدا على عمر وقالت : يا أبا عبد الله ، لو رأيت عمر آنفا ، ورقته وحزنه علينا . قال : أطمعت في إسلامه ؟ قالت : نعم . قال : فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب !

كان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية بن عبد شمس ، عثمان ابن عفان ومعه امرأته رقية بنت محمد ، ومن بنى عبد شمس أبو حذيفة ابن عتبة ومعه امرأته سهلة ابنة سهيل ، ومن بنى أسد بن عبد العزى الزبير ابن العوام ، ومن بنى عبد الدار مُصعب بن عمير بن هاشم ، ومن بنى زهرة بن كلاب عبد الرحمن بن عوف ، ومن بنى نخزوم أبو سلمة ابن عبد الأسد ومعه امرأته سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، ومن بنى جُحج عثمان بن مظعون ، ومن بنى عدي بن كعب عامر بن ربيعة ومعه امرأته

ليلى بنت أبي خثمة ، ومن بنى عامر بن لوئى أبو سبيرة بن أبي رهم ،
ومن بنى الحارث بن فهر سهيل بن وهب بن ربيعة وحاطب بن عمرو بن
عبد شمس . فكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، وكانت هجرتهم أول
هجرة في الإسلام . ثم لأنهم عاشوا في أرض الحبشة من رجب سنة خمس
من إعلان نزول الوحي ، إلى شوال من نفس السنة ، ثم عادوا .

وأما سبب عودتهم فترجع إلى أنه بلغهم أن الوليد بن المغيرة وأبا
أحيحة سعيد بن العاص ، وهما من سادة قريش قد سجدا خلف محمد
وهو يصلى ، فأيقنوا أن مكة عن بكرة أبيها قد سجدت خلفه بعد هذين ،
وقالوا : عشائرننا أحب إلينا . وخرجوا راجعين إلى مكة ، حتى إذا
كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركبا من كنانة ، فسألوهم عن قريش
وعن حالهم ، فقال الركب : ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه المسأل ،
ثم ارتد عنها فعاد يشتم آلهتهم فعادوا له بالشر .

وأما سبب رواية سجود الوليد بن المغيرة وأبي أحيحة خلف محمد ،
فما يقال من أنه جلس يوماً في ناد من تلك الأندية حول الكعبة وقرأ :
« والنجم إذا هوى » حتى بلغ قوله تعالى « أفرايتم اللات والعزى ومناة
الثالثة الأخرى » فأضاف كما يدعون « تلك الغرائق العُلا ، وإن شفاعتهن
لترتجى » ، فسجدوا من خلفه . غير أن هذه الإضافة لم يروها ثقة من ثقة
زواة الأحاديث ، وليس لها سند متصل يُعتمد عليه ، فضلاً عن ضعف
نقلتها واضطراب روايتهم ، مما يؤكد القول بأنها إضافة لا شأن لمحمد بها .

ثم إن هؤلاء العائدين لم يلقوا من قريش غير ما كانوا يلقون من عنت
وتعسف ، فسمح لهم النبي بالخروج ثانية إلى أرض الحبشة . فخرج في هذه
الهجرة الثانية من الرجال ثلاثة وثمانون ومن النساء إحدى عشرة امرأة

قرشية وسبع غرائب . ونزلوا جميعا في جوار النجاشي وأمنوا على دينهم وعبدوا الله لا يؤذيهم أحد ولا يسمعون ما يكرهون .

فلما علمت قريش ذلك ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا إلى النجاشي رجلين من رجالهم الأشداء ذوى الرأى ، وأن يهدوا له هدايا . ثمينة مما يُسْتَطَرَف من متاع مكة . وكانت الجلود من أحسن بضاعتها ، فجمعوا له مجموعة من أفخر الجلود ، ولم يتركوا بطريقا من بطارقه إلا أهدوا له هدية . ثم بعثوا بذلك عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص . واتفقوا على أن يهدى للرسولان البطارقة هداياهم قبل أن يكلما النجاشي ، ثم يقدموا له هداياه ، ويسألاه أن يسلمهما المهاجرين قبل أن يكلمهم .

فلما بلغا أرض الحبشة أعطيا كل بطريق هديته ، وقالوا لكل واحد منهم إنه قد لحا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه لا نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك في أمرهم أشراف قومهم لتردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم .

ثم إنهما قدما الهدايا إلى النجاشي فقبلها ، ثم كلماه في شأن المسلمين فقالا : أيها الملك ، إنه قد لحا إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، جاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه لا نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك في طلبهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم لتردهم عليهم : فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

عندئذ قالت البطارقة : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيسه ، فأسلمهم لهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

فغضب النجاشي لهذه المقالة وقال : لاها الله ! إذ لا أسلمهم إليهما ، ولا يُكاد قوم جاوروني ، ونزلوا بلادى ، واختاروني على من سواى ، حتى أدعوهم فأسلمهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم ، وأحسنت جوارهم ما جاوروني .

وأرسل النجاشي إلى أصحاب النبي فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا أجبتموه . قالوا : نقول والله ما علمنا وما أمرنا نبينا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن . فلما جاءوا وقد دعى النجاشي أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله ، سلمهم فقال : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى ديني ، ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبي طالب : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأذى الفواحش ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به أحدا وأمرنا بالصلاة . وعدد عليه باقى أمور الإسلام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله ، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم الله علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأصنام ، وه يقولوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، فخرجنا إلى بلادك واخترتناك على من سواك ، ورجعنا فى جوارك ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قال جعفر : نعم . قال : فاقرأ عليّ . فقرأ عليه صدرّاً من سورة مريم . فقال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . وأمر رسول قريش أن ينطلقا فإنه لن يسلم المسلمين لهما ولا يكيد لهما .

فلما خرج عمرو بن العاص وصاحبه مخدولين من عنده ، قال عمرو : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم . فقال له عبد الله بن ربيعة : لا تفعل فإن لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا . قال عمرو : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدٌ مثلنا . ثم قدم إلى النجاشي في اليوم التالي فقال : يا أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم عما يقولون فيه ، فأسألم عنه . فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟ قالوا : نقول والله كما قال الله ، وما جاءنا به نبينا ، كائنا في ذلك ما هو كائن .

فلما دخلوا عليه قال لهم : ما تقولون في عيسى بن مريم ؟ فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاء به نبينا ، نقول هو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

عندئذ ضرب النجاشي بيده إلى الأرض ، ثم أخذ منها عوداً ثم قال : ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط . وخرج رسولاً مكة من عنده مغلوبين ، وظل المسلمون في أرض الحبشة حتى رجعوا إلى المدينة بعد الهجرة بستين .

وفي تلك الأثناء أي في حوالى السنة السادسة من البعثة عزّ الإسلام بإسلام رجل خطير الشأن . كان عمر في ذلك الوقت رجلاً كاملاً الرجولة ، في أوائل الثلاثينيات من عمره ، صعب المراس ، حاد الطبع ، صارماً

عنيفا ، قوى الشكيمة مفتول العضل ، جريئا مقداما لا يخشى من شيء ، محبا للهو والخمر ، ولكنه كان باراً بأهله ، رقيقا أشد الرقة إذا أصاب أحدهم ضرر أو ألم به مكروه .

خرج عمر يوماً متوشحاً بالسيف يقصد محمداً وعدداً من أصحابه علم أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا ، كانوا حوالى أربعين رجلاً وامرأة ، وفيهم حمزة بن عبد المطلب وغيره من رجالات المسلمين . فلقبه نعيم ابن عبد الله ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصباي ، الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله ، فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ! قال وأى أهل بيتي ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد ابن زيد واختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما . فرجع عمر إلى أخته وزوجها ، وكان عندهما خبّاب بن الأرت ومعه صحيفة فيها سورة طه يُقرئها لياها ، فلما سمعوا صوت عمر اختفى خبّاب في غرفة داخلية بعيدة ، وأخذت فاطمة الصحيفة فوضعتها تحت فخذها خشية أن يراها عمر . وكان عمر حين دنا من البيت قد سمع قراءة خبّاب ، فلما دخل قال : ما هذه الهيئنة (أى ما هذا الصوت الخفيض) . وهذا الكلام الذى لا يفهم الذى سمعت ؟ قالوا : ما سمعت شيئاً ، قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه . ثم هجم على سعيد وأخذه بعنف ، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفّه عن زوجها ، فضربها فسال دمها . فلما فعل ذلك قالت له أخته : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لأخته : اعطنى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد . وكان عمر كاتباً . فلما قال ذلك ، قالت له أخته :

إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي ، وحلف لها بآلته ليردنها إليها بعد أن يقرأها . فلما قال ذلك طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخى ، إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسه إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة فقرأها ، فلما قرأ منها جزءاً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمهُ ! فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليه ، فقال له : يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيد الإسلام بأبى جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب » فآله الله يا عمر ، فقال له عمر : فدلنى يا خبّاب على محمد حتى آتبه فأسلم ، فقال له خبّاب : هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه وذهب إلى حيث يوجد محمد وأصحابه ، وضرب عليهم الباب ، فقام رجل ونظر من خلل الباب فرآه متوشحاً سيفه . فرجع إلى محمد وهو فرح وقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف . فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بلدنا له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه . فأذن له محمد بالدخول ، ونهض إليه وأخذ بجميع رذائه ثم جبهه جبذة شديدة ، وقال : « ما جاء بك يا بن الخطاب » فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة . فقال عمر : يا رسول الله ، جئت لك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله . وعندئذ كبر محمد تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم

هذه رواية تروق على أية حال لأسمى شاعر الإنسان وأرقى أحاسيسه ، ولما ينطوى عليه وجدانه من عاطفة دينية رقيقة . ولكن هل هى تصدق على واقع الحال ؟ هل يقدم عمر على التفكير فى الذهاب وحده ليقتل محمداً وهو يعلم أنه فى جمع من أصحابه منهم حمزة وغيره من صناديد العرب ، وهم يربون على الأرمعن ؟ لا أعتقد ذلك ، وربما أراد عمر أن يذهب إلى

محمد لأى أمر آخر . على أية حال تقع على رواية أخرى في إسلام عمر ،
تروى على لسانه ، يقول : كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر
في الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ،
فخرجت ليلة أريد جلستى أولئك في مجالسهم ذلك ؛ فجثتهم فلم أجد أحداً
منهم ، فقلت : لو أنى جثت فلانا الخمار ، فخرجت فجثته فلم أجد ،
فقلت لو أنى جثت الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين ، فجثت المسجد أريد
الطواف بالكعبة فإذا رسول الله قائم يصلى ، فقلت حين رأيته : والله
لو أنى استمعت من محمد الليلة ما يقول لأروعه . فدنوت منه متخفياً في ثياب
الكعبة ، فلما سمعت القرآن رق له قابى ، فبكيت ودخلنى الإسلام فلم أزل
قائماً مكانى حتى انصرف ، فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس بن
عبد المطلب ودار ابن أزهري بن عبد عوف أدركته ، فلما سمع حسى
عرفنى ، فظن أنى إنما اتبعته لأؤذيه فزجرنى ، ثم قال : لا ما جاء بك
يا ابن الخطاب هذه الساعة » قلت : جثت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء
من عند الله ، فحمد الله رسول الله ثم قال : « قد هداك الله يا عمر » ثم
مسح صدرى ، ودعا لى بالثبات ، ثم انصرفت ودخل رسول الله بيته .

وأيا ما كان الحق في جانب أى من هاتين الروايتين فإن عمر قد أسلم ،
واغتبط لإسلامه محمد والمسلمون ، ونصر الإسلام نصراً مبيناً . وكان عمر
إذا عزم على شيء لا ينثنى عنه ، ولا يؤخر رجلاً ويقدم أخرى ، ولا يتردد
ولا يتراجع . فما أن أسلم حتى أعلن إسلامه متحدياً أهل مكة أجمعين . ذلك
أنه سأل عمن هو أنقل الناس للحديث في قريش ، ف قيل له إنه جميل بن
معمر الجُمَحِيّ ، فغدا عليه وقال له : أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت
ودخلت دين محمد ؟ فقام جميل مهرولاً يجر رداءه وعمر يتبعه ، حتى إذا
بلغ باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، ألا إن عمر بن
الخطاب قد صبأ ، فقال عمر من خلفه : كذبت ، ولكنى قد أسلمت وشهدت

أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فقام القوم إليه يصارعونه ويصارعهم حتى بلغ منه الاعياء مبلغاً كبيراً ، فقعدهم وقوف على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدمكم . وبينما هم كذلك إذ دخل العاص بن وائل وهو شيخ من شيوخ قريش له مقام وكلمة ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر ، فقال : فله ؟ رجل اختار لنفسه أمراً فإذا تريدون ؟ أترون بني عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبكم هكذا ؟ خلوا عن الرجل .

قوى الإسلام بحمزة وعمر وجلس المسلمون لأول مرة حول البيت الحرام وطافوا به ، وصلى عمر بهم فيه ، وبدأت صفحة جديدة في تاريخ هذا الكفاح العجيب ، الذى انطبع حتى الآن بطابع نسيج وحده من بين جميع المنازعات العربية فى الجاهلية .

فى غضون هذه الفترة التى أسلم فى أثنائها حمزة وعمر وازداد فيها المسلمون قوة ، وبدأت الدلائل تشير إلى أن محمداً مع الزمن سوف ينتصر ، وأن أعوانه يزدادون ، فكرت قريش فى طريقة أخرى غير إيذاء المسلمين وسبهم ربما تجدى فى إسكات محمد . وذات يوم ومحمد جالس وحده بالمسجد ، قال عتبة بن ربيعة وهو جالس فى نادى قريش : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمة . فقام إليه عتبة حتى جلس إليه وسلم فقال : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم وعيشت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً ، تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، ثم قال : يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد مما جئت به من هذا الأمر مالا فجعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا

حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك تابعٌ من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

فلما فرغ عتبة قال له محمد : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاستمع منى ، قال : أفعل ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » ثم مضى محمد يقرأ السورة حتى آخرها ، فلما سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه . ثم انتهى إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأت ذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوا بينى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم ، فإن تقتله العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يغلب العرب فلكنه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، فقال : هذا رأى فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

ثم إن الإسلام انتشر فى قبائل قريش بين الرجال والنساء ، ولم يستطع سادات مكة المناوئين للإسلام ، لا بالتعذيب ، ولا بالوعد ، ولا بالوعيد ، أن يوقفوا هذا الانتشار . فاجتمع أشراف قريش من كل قبيلة ، وفيهم عتبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل ابن هشام ، والعاص بن وائل وغيرهم ، بعد غروب الشمس عند ظهر

الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى لا تلاموا فيه ، فبعثوا إليه : إن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فأتهم ، فجاءهم سريعاً ، وهويظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ، وكان حريصاً عليهم يحب ورشدهم . فجلس إليهم ، فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسبيت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك . وكلموه فيما عدا ذلك كما كلمه عتبه بن ربيعة . فقال لهم : ما بي ما تقولون ، وما جئت بما جئتمكم أطلب به أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل على كتاباً ، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً ، فبلغتُ لكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فإن قبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ، ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك به فليُستبر عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا ، وليسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يُبعث لنا منهم قُصيّ بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسأله عما نقول : أحق أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت لنا ما سألناك عرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول .

فقال محمد : ما بهذا بُعِثْتُ إليكم ، إنما جئتمكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتمكم ما أرسلت به إليكم ، فإن قبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم

قالوا له : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سَلِّ رَبِّكَ يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناحاً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما تراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم ، وتلتبس المعاش كما تلتبس ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعث إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ما جئتم به فهو حظكم في الدنيا ، والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ،

قالوا : فأستقيط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فلما لا نؤمن بك إلا أن تفعل . فقال : ذلك إلى الله ، إن شاء يفعله بكم فعل . قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألتك عنه وما طلبناه منك ، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك بما هو صانع في ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ؟ إنه قد بلغنا أنك إنما تعلمك هذا رجل بالجمامة يقال له الرحمن ، وأنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وأنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو نهلكنا . وقال أحدهم : نحن نعبد الملائكة ، وهى بنات الله ، وقال آخر : لن نؤمن لك حتى تأتى بالله ، والملائكة قبلاً .

فلما قالوا ذلك قام محمد عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، وهو ابن عمته ، فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ، ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذنى إلى السماء سُلماً ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيا ، ثم تأتى معك

بصلك* ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما نقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك . ثم انصرف عن محمد ، وانصرف محمد إلى أهله حزينا أسفا لما فاتته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه .

يئس المشركون من مهادنة محمد ، وأيقنوا أنه لن يكف عنهم وعن آلهتهم ، ولن يتراجع عن الدعوة لدينه ولما يؤمن بأنه الحق من عند ربه ، وزادهم غيظاً أن رأوا أصحابه وقد نزلوا بسداً أمنوا فيه على أرواحهم ودينهم ، وأن النجاشي قد منعهم ورفض تسليمهم ، وأن الإسلام ازداد منعة بإسلام صناديد من صناديد قريش هما حزمة وعمر ، فضلاً عن أنه بدأ يفشو في بعض القبائل . عندئذ تراود زعماء قريش واجتمع أمرهم واتتمروا على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب الذين يمنعون محمداً ، على ألا يتزوجوا منهم وألا يزوجهم . ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم . تعاهدوا وتوافقوا على ذلك ، وكتبوه في صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة تأكيداً لإصرارهم على هذا . . . حرب اقتصادية ومقاطعة ونبد اجتماعي . . . وما ذا بعد ؟

يلوح بأن بعضاً من غلاة الكاهن لمحمد والإسلام قد راودتهم فكرة مجنونة . . . اغتيال محمد . فلما تراءى إلى سمع أبي طالب ما يفكر فيه هؤلاء ، وكان شديد الحرص على ابن أخيه وعلى سلامته . أمر بني هاشم وبني عبد المطلب أن يتركوا ديارهم في مكة وينحازوا له في شعبه ، وأن يتعاهدوا جميعاً على القيام دونه ومنعه من قريش . أذعن لأبي طالب مسلمهم وكافرهم . المسلم دفاعاً عن دينه ونبيه ، والكافر إيماناً منه بحق محمد في أن ينال حمايته إذعاناً لتقاليد العرب ، وحفاظاً على وحدة الأسرة ، وحفظاً لهيبتها أن تنال . ولم يخرج عن إجماعهم وطاعة رئيسهم غير عمه أبي لهب .

وكان من حرص أبي طالب على ابن أخيه أنه إذا آوى الناس إلى مضاجعهم أمره أن ينام في فراشه . حتى يرى ذلك من أراد به مكراً أو

اغتيالاً ، ثم يأمر أحد بنيهِ أو بني عمه أو إخوته إذا ما نام الناس أن ينام في فراش محمد ، وينتقل محمد لينام في فراش واحد منهم .

واستشرت حرب المقاطعة ، واستمرت زمناً طال سنتين أو ثلاثاً ، كانت شديدة الوطأة على المسلمين وعلى غير المسلمين من بني هاشم ، حتى بلغ منهم الإعياء والضعف كل مبلغ . وكان إذا خرج أحدهم إلى سوق مكة يشتري شيئاً تعرض له أبو لهب وصاح في التجار : « غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً » ، وقد علمتم مالى ووفاء ذمتي » . وكان التجار ولا شك ينصاعون لما يريد أبو لهب فيغالون على بني هاشم ، حتى لقد كان يعود الرجل منهم إلى عياله وليس شيء في يده . غير أن المشركين لم يقسوا جملة على بني هاشم ، فقد كان منهم من وصل الرحم ولم يشتد اشتداد غيره من السفهاء . فقد كان هشام بن عمرو بن الحارث يحمل البعير حملاً ثقيلاً من الطعام ويسوقه حتى يبلغ به فم الشعب فيخلع خطامه من رأسه ويضربه على جنبه فيدخل الشعب عليهم . أو كان يحمله حملاً ثقيلاً من القمح ويفعل مثل ذلك .

ولقي أبو جهل بن هشام حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد ومعه غلام يحمل قمحاً يريد لإرساله لعمته خديجة بنت خويلد ، وكانت مع محمد بطبيعة الحال في الشعب ، فتعلق به وقال : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟ والله لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة .

تدخل أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فقال : مالك وله ؟ قال : يحمل الطعام إلى بني هاشم . فقال أبو البختري : طعام كان لعمته عنده بعثت به إليه ، أتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل .

فلما أتى أبو جهل أخذ أبو البختري لُحْيَ بغير وضربه به فشجه وتضاربا ، واشتد عليه أبو البختري ووطئه ووطئاً شديداً .

لم تفت هذه المقاطعة وهذا النبذ في عضد محمد ، ولا أتى بالا لما يصيبه

وما قد يصيبه من قريش من أذى وإعنات ، وظل صامداً بإيمانه كالطود لا يهتز ولا يرتد ، ولا يتزعزع له إيمان بأنه منتصر لا محالة على حزب البغي والشرك . ظل يدعو قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً ، ينادى بما يؤمن أنه الحق ، لا يتقى فيه أحداً من الناس . هذا وقريش له بالمرصاد ، ولكن كيف تتقيه وكيف تتقى منطقته وبيانه ، وكيف تحول بين آيات بينات تخشع لها القلوب ، وتهز لها الأفئدة ، وبين العرب هنا وهناك ، وهو لا يكف عن الدعوة لدينه ، وانتهاز كل الفرص لعرض دعوته على الناس الذين كانوا يفلدون على مكة من كل فج عميق .

ماذا إذن ؟ أبحارون محمداً وقوم محمد ومن تبع محمداً ؟ أينقالون محمداً ؟

كلا ثم كلا ! فإن الإقدام على اغتياله أو حرب بني هاشم وبني عبد المطلب ومن معهم من المسلمين ، أمر من شأنه أن يدمر قريشا عن بكرة أبيها . وأن يدخلهم في حرب يقتل فيها الأب ابنه ، أو الأخ أخاه ، أو ابن عمه ، أو ابن خاله . إذن فماذا ؟ يهزونه ويستزئون به ويخاصونه . لما سمع أبو جهل بشجرة الزقوم قال : أتدرون ما الزقوم ؟ هو تمر يضرب بالزبد ! ثم قال : هام فلنترقّم . فنزلت الآية : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » (١) .

وقال أبي بن خلف لعقبة بن أبي معيط : ألم يبلغني أنك جالست محمداً وسمعت منه ؟ وجهى من وجهك حرام إلا أن تتفل في وجهه . فلما فعل هذا الفعل القبيح نزلت الآية : « ويوم يعص الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا » (٢) .

وقدم أبي بن خلف على محمد ومعه عظم بال قد أرم وقال : يا محمد

(١) الاخوان ٤٣ - ٤٤

(٢) الفرقان ٢٧ - ٢٨

أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم ؟ ثم فته ييده ، ثم نفخه في الريح نحو محمد . فقال : نعم ، أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك النار . ونزلت الآية : « وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (١) . إلى آخر السورة .

ثم إنه لم يكن غريباً في هذا المجتمع الذى بلغ فيه التكافل العائلى والاجتماعى أقصى مبالغة أن يجبر مشرك مسلماً من المستضعفين وأن يمنعه من أذى قومه المشركين . أجار الوليد بن المغيرة عثمان بن مظعون ، وأجار عبد المطلب أبا سلمة بن عبد الأسد ، وأجار ابن الدغينة أبا بكر .

فلما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب محمد من البلاء وهو يروح ويغدو في أمان من الوليد بن المغيرة ، قال : والله إن غُدُوِّ ورواحي في جوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لتقص كبير في نفسى .

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس ، وقستَ فمتك وقد رددت إليك جوارك .

قال : لم يابن أخى ؟ لعله آذاك أحد من قومي ؟

قال : لا ، ولكنى أَرْضِي بجوار الله عز وجل ، ولا أريد أن أستجير بغيره .

قال : فانطلق إلى المسجد فاردد على جوارى علانية كما أجرتك علانية .

فانطلقا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد بن المغيرة : هذا عثمان قد جاء يرُدُّ على جوارى .

قال عثمان : صدق ، وقد وجدته وفياً كريم الجوار ، ولكن قد أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره .

وانصرف عثمان إلى مجلس من مجالس قریش كان لبيد بن ربيعة بن مائل فيه ينشد لهم الشعر ، فجلس معهم فقال لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقاطعه عثمان وقال : صدقت .

فأكمل لبيد البيت : وكل نعيم لا محالة زائل .

فقال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول .

فقال لبيد : يا معشر قریش ، والله ما كان يؤذى جليسكم ، فني حدث هذا فيكم ؟

فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن في نفسك من قوله .

فرد عليه عثمان ، فتناول عليه الرجل واطم عينه فخضرها . وكان الوليد بن المغيرة قريباً يرى ما حدث لعثمان ، فقال : أما والله يابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنيّة ، ولقد كنت في ذمة منيعة .

قال عثمان : بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ! وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

فقال الوليد : هلم يابن أخي إلى جوارك فعُد .

قال عثمان : لا .

أما أبو سلمة فانه لما استجار بأبي طالب وأجاره ، مشى إليه رجال من بني مخزوم فقالوا له : يا أبا طالب ، لقد منعت منا ابن أخيك محمداً ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

قال : إنه استجار بي ، وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أختي .

فلما ألح القوم على أبي طالب قام لهم أبولهب وقد أخذته النخوة الأسرية :
يا معشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواثبون
عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهن أو لنقومن معه في كل ما قام
فيه حتى يبلغ ما أراد .

قالوا : بل ننصرف عما نكره يا أبا عُثْبَةَ . وكان لهم ولياً وناصرأ على
محمد وعلى دين محمد فأحبوا أن يبقوه في صفوفهم .

أما أبو بكر فإنه عند ما ضاقت عليه مكة وأصابه فيها من الأذى ما لم
تعد تحتل نفسه الكبيرة ، ورأى من شدة قريش على محمد وأصحابه ما ينكر ،
استأذن صاحبه في الهجرة فأذن له . وما أن ابتعد عن مكة مسيرة يوم أو
يومين ، حتى لقيه ابن الدغينة فقال له : إلى أين يا أبا بكر ؟

قال : أخرجني قومي وآذوني وضيقوا عليّ .

قال ابن الدغينة : ولم ؟ والله إنك لتزين العشرة وتعين على النوايب ،
وتفعل المعروف ، وتكسب المعلوم ، ارجع فإنك في جوارى .

فرجع معه ، حتى إذا دخل مكة قام معه ابن الدغينة فقال : يا معشر
قريش ، إني قد أجرت ابن أبي قحافة ، فلا يعرض له أحد إلا بخير .
فكفوا عنه .

فلما أمن أبو بكر بنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلي فيه ويقرأ
القرآن علناً . فكان نساء المشركين وأبنائهم يعجبون منه وينظرون إليه ،
وكان أبو بكر رجلاً بكاء ، لا يملك عينه إذا ما قرأ القرآن . فأفرع ذلك
أشراف قريش من المشركين ، فقالوا لابن الدغينة : إنا أجرنا أبا بكر
بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، ولكنه جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء
داره ، وأعلن الصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن أبنائنا ونساؤنا ،
فإنه أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبي إلا أن

يعلم ذلك فسله أن يرد عليك ذمتك ، فلما قد كبرهنا أن نعتدى على جوارك ،
ولسنا مقرين لأبي بكر أن يصلى علانية .

عندئذ أتى ابن الدغنة إلى أبي بكر وقال : قد علمت الذى قد عاقدتك
عليه ، فلما أن تقتصر على ذلك ، ولما أن ترد إلى ذمتى ، فلما لا أحب أن
تسمع العرب أن رجلا أجرته قد أضير .

فقال أبو بكر : فاني أردتُ عليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل .
فلما علمت قريش بهذا ، عادت إلى سابق عهدها معه . لقيه سفيه
من سفهاء قريش وهو في طريقه إلى الكعبة ، فصب عليه تراباً ، وكان
الوليد بن المغيرة ، أو العاص بن وائل في رواية ، ماراً فقال له أبو بكر :
الآن ترى ما يصنع هذا السفيه ؟ فقال : أنت فعلت ذلك بنفسك . فشبه
أبو بكر وهو يردد قائلاً : أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك ،
أى رب ما أحلمك !

يعد بسنتين أو ثلاث من ثعاقه قريش على مقاطعة بنى هاشم ونبذهم
تحركت بعض القلوب النبلية ، وتعاهد عدد من سادات قريش على نقض
الصحيفة . منشى هشام بن عمرو بن الحارث إلى زهير بن أبي أمية وقال له :
يا زهير ، أقدر رضىت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتزوج النساء ،
وأخوالك حيث علمت لا يُباعون ولا يُبتاع منهم ، ولا يتزوجون من
قريش ولا يتزوج قريش منهم ؟ أما لى أحلف بالله لو كانوا أخوال أبى
الحكم بن هشام ، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً .
قال زهير : ويحك يا هشام ! فآذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واجد ،
والله لو كان معى رجل آخر لقميت فى نقضها .

قال هشام : قد وجدت رجلاً . قال زهير : من هو ؟ قال هشام :
أنا . فقال زهير : ابغنا ثالثاً . فذهب إلى المبطنم بن عدى فقال له : يا بطم
أقدر رضىت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق .

لقريش فيه ؟ أما والله لئن أمكنتهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً .
قال : ويحك فإذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد .

قال : وجدت لك ثانياً . قال : من ؟ قال : أنا . قال : أبغنا ثالثاً .
قال : قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية . قال ابغنا
رابعاً . فذهب إلى أبي البَخْتَرِيِّ بن هشام فقال نحو ما قال للمطعم بن عدى ،
فقال له : فهل تجد أحداً يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟
قال : زهير بن أبي أمية ، والمطعم بن عدى ، وأنا معك . قال : ابغنا خامساً .
فذهب إلى زَمْعَةَ بن الأسود بن المطلب فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم ،
فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم .
ثم سعى القوم .

وتواعد خمستهم وتقابلوا ليلاً ، وأجمعوا أمزهم وتعاقدوا على أن ينقضوا
الصحيفة ، وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى مجالس القوم في البيت الحرام ، وطاف زهير
بالبیت سبعاً ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنا كل الطعام ونلبس
الثياب ، وبنو هاشم هلكنى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى
تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل ، وكان في ناحية المسجد : والله لا تشق .

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حتى
كتبت .

وقال أبو البَخْتَرِيِّ : صدق زمعة ، لا أرضى ما كتب فيها ولا تقربه .
ونهض المطعم بن عدى فقال : صدقاً وكذب من قال غير ذلك ،
نبرأ إلى الله منها وما كتب فيها .

ولم يلبث أن نهض هشام بن عمرو أيضاً وأيد الجميع .

هنا فطن أبو جهل لما دبر القوم ، وقال : هذا أمر قضى فيه لبيل
وتشوور فيه بغير هذا المكان .

وقام المطعم إلى الصحيفة فأنزعهما من جوف الكعبة لم يعترضه أحد
ولم يقاتله دونها أحد . وإذا بالأرضة قد أكلتها ولم يبق من شيء فيها غير
« باسمك اللهم » . وكان أبو طالب منتحياً ناحية من المسجد وقد شهد
ما حدث فقام يسعى إلى بنى هاشم في الشعب يبشرهم بهذا الخبر السعيد .

تمزق الحصار الاقتصادي ، ورُفِضَ التبذّر الاجتماعي ، وخرج المسلمون
والذين ناصروهم من المشركين من شعب أبي طالب وعادوا إلى ديارهم .
ومهما يكن من أمر هذه البلبلة التي حدثت في صفوف المشركين ، وهذا
الضعف المفاجئ ، الذي هز صفوفهم وفرط عقد تجمعهم ، فإن المسلمين
لم يسلموا تماماً من إيذاء الكفار . فقد استمروا على غيهم وعلى موقفهم
السابق من أولئك الذين هجروا دين الآباء والأجداد إلى دين محمد .
يحاولون أن يفتنهم عن دينهم ، ويؤذونهم ويتسافهون عليهم . وظل محمد
صامداً لا تلين قناته ولا يتزعزع إيمانه ، وظل الإسلام يفشو في الناس رويداً
رويداً . غير أنه حدث في تلك الأثناء ، وبعد قليل من خروج المسلمين من
الشعب أن أصابت محمداً فاجعتان أليمتان : لقد مات عمه أبو طالب وكان
له عضداً ومائناً ونصيراً ، ثم مات من بعده بقليل خديجة ، وكانت له
له وزير صدق يسكن إليها عند البلاء . حدث هذا في السنة العاشرة من
المنبعث أي قبل الهجرة بثلاث سنين .

لما ثقلت وطأة المرض والشيخوخة على أبي طالب ، وكان قد ثيف على
الثمانين ، واشتكى في مرضه الأخير ، وبلغ قريشاً ثقله وأنه נושאك على
الموت ، تشاور أشرافها وأهل الرأي فيها ، وتخوفوا إن مات أبو طالب
أن يحدث ما لا تحمد عقباه بينهم وبين المسلمين ، وعلى الأخص وقد بدأ
الإسلام يفشو في قبائل قريش ، وفي المسلمين صناديدان من أشهر البطاشين

الذين عرفتهم العرب ، حمزة وعمر ، لا يعرف أحد كيف يتصرفان عندما يختن صهام الأمان ، ذلك الشيخ المهيّب . مشى إلى أبي طالب زعماء قريش ، وهم عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمّية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشrafهم ، وقالوا : يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعُهُ فخذُ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا ولنكف عنه ، وليدعنا وديننا ولندعه ودينه .

فبعث أبو طالب إلى محمد فجاءه ، فقال : يا بن أخي ، هؤلاء أشraf قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك .

فقال محمد : يا عم ، كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم .

فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات .

قال : تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه .

ثارت ثائرتهم وصفقوا بأيديهم ثم قالوا : يا محمد أريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك لعجب .

وقال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه . ثم تفرقوا . فقال أبو طالب : والله يا بن أخي ما رأيك سألهم شططاً .

فلما سمع محمد هذا من أبي طالب طمع في إسلامه ، فجعل يقول له : أي عم ! فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة .

فلما رأى أبو طالب حرص ابن أخيه عليه قال : يا بن أخي والله لولا مخافة السبّة عليك وعلى بني أبيك من بعدى ، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها . لا أقولها إلا لأسرك بها .

ومات أبو طالب على دين عبد المطلب ، ومن بعده بقليل ألت بمحمد

محبة أخرى . لقد ماتت خديجة فجأة . وفي خلال أيام معدودات فقد محمد للأبد هذا النصير والعضد المتين ، وهذه الزوجة الحبيبة الملائكية التي ملأت عليه حياته بهجة وحباً وحناناً خمسة وعشرين سنة ، لم يعرف خلالها غير أسمى معاني العطف والثقة والبر التي يجيش بها قلبها الكبير ووجدانها الطاهر .

بعد أن هلك أبو طالب اشتد على محمد بعض سفهاء المشركين ، وآذوه إيذاء ما كانوا يطعمون فيه في حياة أبي طالب . اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً . فتحامل على نفسه ومشى إلى بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسله وتبكي ، وهو يقول لها : لا تبكي يا بُنَيَّة ، فإن الله مانع أبالك . وكان يردد قوله هذا ويقول بين ذلك : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب . وبلغت ببعضهم الوقاحة أن كان يرمي في برمه الأذى إذا نصبت له . فكان إذا فعلوا ذلك ، يخرج بذلك الشيء على العود فيلقفه على بابه ثم يقول : يا بني عبد مناف ، أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق . وكان محمد بعد أن اجتمعت عليه هاتان المصيبتان قد لزم بيته وأقل الخروج .

فلما بلغ أبا لهب ما تنال قريش من ابن أخيه ، أخذته النخوة وثارَت في نفسه حمية العرب ، وذكرى أخيه الشيخ العظيم أبي طالب وما كان يضي على محمد من عطف وحماية ، فجاء محمداً وقال : يا محمد امض لما أردت ، وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه ، لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت .

ولما سب ابن الغيطلة محمداً ، أقبل إليه أبو لهب يعنفه وينال منه ، فولى يصيح : يا معشر قريش صبا أبو عتبة . فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال : ما فارقت دين عبد المطلب . ولكني أمتع ابن أخى أن يضام حتى يمضي لما يريد .

عندئذ قالوا : لقد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم . أى أن أبا هب
أجار محمداً وقبلت قريش هذا الجوار . ومكث محمد بعد ذلك أياماً يأتي
ويذهب لا يعرض له أحد من قريش بأذى ، وهابوا أبا هب . ولكن هل
تسكت قريش على هذا ؟ ألا تستغل حق أبي هب ؟ أى نعم ، لقد استغلته
أحسن استغلال ، إذ جاء عقبة بن أبي معيط وأبو جهل إلى أبي هب فقالا
له : أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك ؟ فأتى أبو هب إلى محمد فقال له :
يا محمد أين مدخل عبد المطلب ؟ قال : مع قومه . فخرج إليهما فقال :
قد سألتهم فقال مع قومه .

فقالا : يزعم أنه في النار !

فعاد إلى محمد فسأله : يا محمد أيدخل عبد المطلب النار ؟

فقال : ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب يدخل النار .

فقال أبو هب : والله لا برحت لك عدواً أبداً وأنت تزعم أن
عبد المطلب في النار .

وعاد أبو هب إلى سيرته الأولى واشتد على محمد عن ذي قبل واشتدت
معه سائر قريش ، وكثرت مساوات سفهائهم . على أنه ينبغي أن نعلم أن
أحداً لم يصب محمداً بأكثر مما سبق مما ذكرنا من مساوات ، في أية حال
وفي أى وقت ، ولا نعلم أن أحداً من قريش أضابه بشيء أشد مما صنعه به
عقبة بن أبي معيط عند ما وضع ثوبه على عنقه وخنقه خنقاً شديداً ذات يوم
في الكعبة ، فقام دونه أبو بكر وهو يصيح « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » .

موت الآن عشر سنين على تبشير محمد بالإسلام ، وطال الصراع بينه
وبين الوثنيين من قريش ، وهم لا يزدادون له إلا عناداً ومكابرة ، ويرفضون
دعوته . غير نفر قليل ممن استنارت نفوسهم وصفت قلوبهم ، فآمنوا به
وصدقوه . ونبذوا الشرك والأوثان . وبلغت الأحداث في مكة ذروتها
أو كادت تبلغ ذروتها بعد موت أبي طالب . فليخرج إذن محمد إلى ثقيف

يلتمس منها النصرة والمنعة من قومه ، رجاء أن يقبلوا منه وينصروا دينه .
خرج إلى الطائف وحده لا يحرسه ولا يعينه إلا ربه . وعهد إلى نفر
من ثقيف هم سادتها ، لإخوة ثلاث ، عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب
بنو عمرو بن عمير بن عوف ، فجلس إليهم فدعاهم إلى الإسلام وكلمهم في
شأن ما جاء لهم من نصرته والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال
أحدهم : هو يَمْرُط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر :
أما وجد الله أحداً أرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ،
لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك
كلامك ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لي أن أكلمك .

ثم إنهم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، فقعد له أهل الطائف صفين
على طريقه ، يرمون رجله بالحجارة حتى أدموه . فلجأ إلى بستان لعتبة
ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ورجع عنه السفهاء الذين كانوا يتبعونه ، فعمد
إلى كرمة فجلس تحتها ، وابنا ربيعة ينظران إليه .

فلما اطمأن وابتعد عنه السفهاء رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إليك
أشكو ضعف قوتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب
المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى
عدو ملكته أمرني ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك
هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح
عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل عليّ سخطك . لك
العتبي حتى ترضى ، لا حول ولا قوة إلا بك .

فلما رآه عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وشهدا ما لقي تحركت له صلة القرابة
فدعوا غلاماً لهما وأمراه أن يأخذ قطعاً من العنب فيضعه في طبق ، ويذهب
به إليه ، فتناولوه وأكل منه .

عاد محمد من الطائف حزيباً يائساً من خير ثقيف ونصرتها له . أسفاً

لما فعله ساداتها من إغراء سفهاهم به وخذلانهم ، فضلا عن بوحهم لأعدائه القرشيين بسر ودأ لو أنهم حفظوه وصانوه . ذلك أنهم عند ما ردوه ردأ غير جميل كما سبق بيانه ، رجاهم ألا يكشفوا عما دار بينه وبينهم ، قال : إذ فعلتم ما فعلتم فاكموه على . وكان يكره ولا شك أن يبلغ قومه ما أصابه من ثقيف فيجترئوا عليه ويشمتوا فيه .

على أن إيذاء مهما بلغت قسوته ، أو رجلا مهما بلغ سفههم ، ما كان ليثنى محمداً عن أداء رسالته . وما كان من شيء يثنيه عن هذا الإيمان الذي سيطر على جميع مناحي تفكيره ، واستقر في أعماق نفسه ، يهديه إلى أن في هذا الكون إلهاً واحداً ، ينبغي أن يخضع لمشيئته مجتمع واحد . واستمر يعرض نفسه في المواسم ، إذا حضرت ، على قبائل العرب يدعوهم إلى ربه عز وجل ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، جاء لهم بالبينات من عند ربه وبالهدى والإيمان ، ويسألم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به . فكان يغلو على القبائل في منازلاتها ، ويقول : يا بني فلان إني رسول الله إليكم ، أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي ، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به . « وكان يجتمع إلى الناس في الأسواق وينادي فيهم : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله فتلحقوا » . وكان أبو لبب يتبعه حيث ذهب فيقول : « إنه صابئ كاذب ، فلا يفرنكم عن دينكم ودين آبائكم » .

وكان يكلم أشراف القبائل ، ولا يسألم شيئاً أكثر من أن يؤثوه ويمنعوه ، ويقول : لا أكره أحداً منكم على شيء ، من رضى منكم بالذي أدعوا إليه فذلك ، ومن كره لم أكرهه . إنما أريد أن تحزوني فيما يراد لي من القتل حتى أبلغ رسالة ربي . وحتى يقضى الله لي ولمن صحبني بما شاء .

غير أن أحداً لم يقبل منه شيئاً . وكانوا يقولون : قوم الرجل أعلم به ،
أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظره .

أتى كندة وحدث بنى عمرو بن معاوية ، فقال : هل لكم إلى خير ؟
قالوا : وما هو ؟

قال : تشهدون أن لا إله إلا الله وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء
من عند الله .

فقالوا : إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك ؟ .

قال : إن الملك لله يجعله حيث يشاء .

فقالوا : لا حاجة لنا فيما جئنا به .

وأتى بكر بن وائل فقال : كيف العدد ؟

قالوا : كثير مثل الثرى .

قال : فكيف المسنة ؟

قالوا : لا منعة ، جاورنا فارس ، فنحن لا نمنع منهم ولا نجبر عليهم .

قال : فتجعلور الله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم .

وتستنكحوا نساءهم ، وتستعبدوا أبناءهم أن تُسبّحوا لله .

قالوا : ومن أنت ؟

قال : أنا رسول الله . ثم انطلق .

فلما ولى عنهم وكان عمه أبو هب يتبعه ليقول للناس لا تقبلوا قوله ،

قالوا له : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم ، هذا في الذروة منا

معن أى شأن تسألون ؟ فقالوا : زعم أنه رسول الله .

قال : ألا لا ترفعوا برأسه قولاً ، فانه مجنون يهذى من أم رأسه .

قالوا : قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكر !

وأتى بنى عامر بن صعصعة فقال لهم : إني رسول الله ، آتيتكم .

لتمنوني حتى أبلغ رسالة ربي ، ولا أكره أحداً منكم على شيء .

قالوا : ومن أى قریش أنت ؟ قال : من بنى عبد المطلب .
 قالوا : فأين أنت من عبد مناف ؟ قال : هم أول من كذبنى وطردنى !
 قالوا : ولكننا لا نطردك ولا نوّمن بك ، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك . فنزل إليهم والقوم يتسوقون ، فلما رآه بيّسحرة بن فراس قال :
 بين هذا الرجل الذى أراه عندكم أنكره ؟
 قالوا : محمد بن عبد الله القرشى . قال : فما لكم وله ؟ .
 قالوا : زعم لنا أنه رسول الله ، وطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه . قال : وماذا ردّتم عليه ؟
 قالوا : بالترحيب والسعة ، نخرجك إلى بلادنا ، ونمنعك ما نمنع به أنفسنا .

قال بيّسحرة : ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشدّ من شيء ترجعون به . بدأتّم لتنابلنوا الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة ، قومه أعلم به ، لو آتسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به ، أتعمدون إلى زهيق قد طرده قومه وكذبوه فتوؤونه وتنصرونه ؟ فبئس الرأى رأيتم .
 ثم أقبل على محمد فقال : قم فالحق بقومك ، فوالله لولا أنك عند قولى لضربت عنقك .

فقام محمد إلى ناقته فركبها ، فغمر الخيـث بيّسحرة شاكلتها فقمصت به فألقته على الأرض .

وأتى ومعه أبو بكر وعلى بن أبى طالب ، بنى شيبان بن ثعلبة ، فكلم أبو بكر مفروق بن عمرو ، وكان أقربهم مجلساً إليه ، وكان مفروق قد غلب عليهم بياناً ولساناً ، وكانت له غديرتان تسقطان على صدره . قال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ فقال له : إنا لنزيد على ألف ، ولن تُغلب ألف من قلة ،

فقال له : فكيف المنعة فيكم ؟ فقال : علينا الجهد ولكل قوم جد .
 فقال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟

فقال مفروق : إنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله ، يُدبِلنا مرةً ويُدبِل علينا مرة ، لعلك أخو قريش ؟

فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله فهاهو هذا .
فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك . ثم التفت إلى محمد فقال :
إلام تدعو يا أخا قريش ؟

فتقدم محمد فجلس وأظله أبو بكر بثوبه وقال : « أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنى رسول الله ، وأن تؤوؤنى وتنصرونى حتى أؤدّى عن الله الذى أمرنى به ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد » .

قال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟
فتلا محمد : « قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » إلى قوله « ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١) .
فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه .

فتلا قوله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (٢) .

فقال له مفروق : دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق وعُسن الأعمال . ولقد أفك قومٌ كذبوك وظاهروا عليك .

وكان هانىء بن قبيصة حاضراً . فأراد مفروق أن يشركه فى الكلام فقال : وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

(١) الأنعام ١٥١ - ١٥٢

(٢) النحل ٩٠

فقال هاني : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدقت قولك ، وإنى أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر ، لم نتفكر في أمرك وننظر في عاقبة ما تدعو إليه ، زلّة في الرأي ، وطيشة في العقل ، وقلة نظر في العاقبة ، وإنما تكون الزلّة مع العجلة ، وإن من ورائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً . ولكن ترجع ورجع وتنظر وتنظر .

وكان المثني بن حارثة حاضراً ، فأراد أن يشركه في الكلام أيضاً ، فقال : وهذا المثني شيخنا وصاحب حربنا .

فقال المثني : قد سمعت مقالتك واستحسنيت قولك يا أخا قريش ، وأعجبني ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هاني بن قبيصة ، وتركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا ، وإنما نزلنا بين صريتين (ثنية صرى وهو كل ماء مجتمع) أحدهما الإمامة والآخر السماوة .

فقال محمد : ومِلْ هذان الصريان ؟

قال المثني : أما أحدهما فطوف البرّ وأرض العرب ، وأما الآخر فأرض فارس وأنها ركسرى ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كبرى أن لا نحدث حدثاً ، ولا نوؤى أحداً . ولعل الأمر الذي تدعونا إليه مما تكره الملوك . فأما ما كان مما يلي بلاد العرب فذهب صاحبه مغفور ، وعلمه مقبول . وأما ما كان مما يلي بلاد فارس فذهب صاحبه غير مغفور ، وعلمه غير مقبول . فإن أردت أن تنصرك وتمنعك مما يلي العرب فعلنا .

فقال محمد : « ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق ، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه » . ثم قال : « رأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ويفرشكم بناتهم ، أتسبحون الله وتقصدونه ؟ »

فقال له النعمان بن شريك : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش !

فتلا محمد قوله تعالى : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » (١) ثم نهض ممسكاً بيد أبي بكر . والتفت إلى على وقال : يا على أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية ، ما أشرفها ! بها يتحاجزون في الحياة الدنيا .

كان الزمن في تلك الأثناء قد لعب لعبته الخالدة في لعق جراحنا . فبدأ الجرح الذي خلفته في نفس محمد وفاة خديجة يندمل ، وأخذت ذكرياتها تبتعد شيئاً بعد شيء عن خياله ، وأصبح الزواج بامرأة يأنس إليها ضرورة تحتمها الأعباء التي ينوء بها كاهله . جاءته خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون وقالت له : ألا تتزوج ؟ قال : من ؟ قالت : إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيباً . قال : فن البكر ؟ قالت : أحب خلق الله إليك . . . عائشة بنت أبي بكر . قال : ومن الثيب ؟ قالت : سودة بنت زمعة ، قد آمنت بك واتبعتك . قال : فاذهبي فاذكريهما علي .

أنت خولة أم رومان امرأة أبي بكر وقالت لها : أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة . قالت : انظري أبا بكر حتى يأتي .

فلما جاء أبو بكر قالت : يا أبا بكر ، أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة . قال : وهل تصلح له ؟ إنما هي ابنة أخيه .

فرجعت خولة إلى محمد فذكرت له مقالة أبي بكر ، فقال : ارجعي إليه فقولي له : أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام وابنتك تصلح لي .

فرجعت فذكرت له ذلك ، فقال : انتظري ، وخرج . فقالت لها أم رومان : إن مطعم بن عدي قد خطب عائشة لابنه ، والله ما وعد أبو بكر وعداً قط فأخلفه .

فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي وعنده زوجته أم الصبي الذي خطب له عائشة . فبادرته المرأة فقالت : يا ابن أبي قحافة ، لعلك تخرج

ولدنا عن دينه وتدخله في دينك الذى أنت عليه إن تزوج أبنتك ؟ فقال أبو بكر للمطعم بن عدي : أتقول كما تقول زواجك ؟ قال : إنها تقول ذلك . فخرج أبو بكر من عنده ، وقد تحلل من الوعد الذى وعده .

فرجع إلى خولة فقال : ادعى لى رسول الله . فدعته فزوجها إياه ، وعاشة يومئذ بنت ست سنين . ولكنه لم يدخل بها إلا بعد ذلك بثلاث سنين ، وذلك بعد الهجرة ، وهى فى التاسعة .

ثم إن خولة أتت زمعة أيضاً وكانت أرملة واحد من أوائل المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة وقالت : أرسلنى رسول الله أخطبك إليه . قالت : وددت ، ادخل لى أبى فاذكرى ذلك له . وكان شيخاً كبيراً قد أدركه السن ، فدخلت عليه فحيته بتحية الجاهلية ، فقال : من هذه ؟ قالت : خولة بنت حكيم . قال : فما شأنك ؟ قالت : أرسلنى محمد بن عبد الله أخطبك له سودة . فقال : كفء كريم ، ما تقول صاحبك ؟ قالت : تحب ذلك . قال : ادعها لى . فدعها فقال : أى بُنية ، إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله قد أرسل يخطبك ، وهو كفء كريم ، أتحنن أن أزوجه بك ؟ قالت : نعم . قال : ادعها لى . فجاءه محمد فزوجها إياه ، ودخل بها .

* * *

جلس محمد ذات صباح فى المسجد الحرام واجماً مطرقاً ، كأنه يفكر تفكيراً استغرق كل أحاسيسه وملك عليه كل مشاعره . فلما رآه أبو جهل كذلك قال : هل من خبر ؟ فقال : نعم . فقال : وما هو ؟

فقال : لى أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس .

قال : لى بيت المقدس ؟ قال : نعم .

قال : وأصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم .

قال : رأيت إن دعوت قومك لك لتخبرهم ، أخبرهم بما أخبرتنى

به ؟ قال : نعم .

فصاح أبو جهل : هيا معشر قريش ! فاجتمعوا إليه ، ثم قال له :
أخبر قومك بما أخبرتنى به .

فقصّ عليهم محمد خبر ما حدث وما رأى تلك الليلة ، وكيف أنه أتاه
جبريل وهو نائم فأيقظه ، ثم خرج به إلى باب المسجد الحرام ، فأركبه
البراق ، وهو دابة أبيض ، بين البغل والحمار ، وفي فخذيته جناحين يحفز
بهما رجليه ، يضع حافره في منتهى طرفه ، ثم حمله عليه ، ثم خرج معه
لا يفوته . وأخبرهم كيف ذهب به إلى بيت المقدس ، وهناك ربطه في
الحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء ، ثم دخل بيت المقدس فصلى في قبته
تحية المسجد . وكيف نصب له المعراج (وهو السلم) فصعد فيه إلى السماء ،
وكيف صعد من سماء إلى سماء في المعراج ، وكيف تلقاه في كل سماء مقربوها
ومن فيها من الملائكة والأنبياء ، وما فعله وما رآه في كل سماء حتى جاوز
السابعة . وذكر لهم أعيان من رآه من المرسلين ، كآدم في سماء الدنيا ، ويحيى
وعيسى في السماء الثانية ، وإدريس في الرابعة ، وموسى في السادسة ،
وإبراهيم في السابعة مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وكيف فرضت الصلاة .
وكيف شاهد في جهنم مختلف صور التعذيب والتكيل بالمذنبين الآثمين .
ثم كيف نزل ثانية إلى بيت المقدس ، فركب البراق وعاد إلى مكة في
نفس الليلة .

وما أن انتهى مما قصه عليهم حتى صفق مصفق هنا ، وصفر مصفر هناك ،
تكديباً له واستبعاداً لما أخبرهم به . وطار الخبر في مكة ، وأحدث هزة
عنيفة في الرأي العام وكذبه أكثر الناس ، حتى لقد ارتدت إثر ذلك
طائفة من المسلمين .

وجاء الناس إلى أبي بكر فأخبروه أن محمداً يقول كذا وكذا .

فقال : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : والله إنه ليقوله .

فقال : إن كان قاله فلقد صدق . ثم إنى لأصدقته في خبر السماء بكرة

وعشية . أفلا أصدقته في بيت المقدس ! ومن ثمة سمى الصديق .

لاح في ذلك الوقت أن الإسلام على وشك الضياع ، وأن محمداً انهزم .
فهاهم جماعة من أتباعه يرتدون عنه بعد ما تبعوه وآمنوا به ولاقوا في سبيل
دعوته ما لاقوا من عنت قريش واضطهادها . وهاهي قبائل قريش تزداد
عليه ضغطاً فتكثر من مساوماتها ، ويكثر سفهاؤها من علوانهم ، وهاهي
قبائل العرب في كل مكان تأتي أتباعه وتنكح دينه وترفض بإصرار رسالته ،
بل إن منهم من أهانه واعتدى عليه وأساء إليه . فهل خارت قواه ؟ هل
تزعزع إيمانه أو وهنت عزيمته ؟ هل تغير شيء من رضا نفسه وطمأنينتها إلى
أن ربه عز وجل لا بد ناصره ؟ هل شك في أن هذا الليل سوف ينبج عن
صبح مشرق وضاح ؟ كلا ثم كلا . ما تغير قيد أملة ، بل مضى في أحلك
أيام كفاحه ثابت الجنان ، حديدي الإرادة ، مطمئن النفس . إنه منتصر
لا محالة . إن مثله لا ينهزم .

مر الآن أكثر من عشر سنين . . . ليل طويل . . . ولكن ها قد أطلت
تبشير صبح وضاء . فهذه خيوط الفجر تنهذى من بعيد لتفسح في أفق
هذا الظلام الدامس مكاناً للنور الأبلج . لقد أسلم الأوس والخزرج .

داوم محمد كما رأينا على الاتصال بالعرب الذين يفدون إلى مكة في
مواسمها وأسواقها ، ولم يكن يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف
إلا تصدى له ودعاه إلى الله تعالى ، وعرض عليه دينه . فلما قدم سُوَيْدُ بْنُ
الصَّامِتِ إلى مكة حاجباً أو معتمراً ، وهو أحد أشراف يثرب ، وكان يسميه
قومه الكامل لشدة على المكاره وشيعته وشرفه ونسبه ، تصدى له محمد
فدعاه إلى الله والإسلام ، فقال له سُوَيْدُ : فلعل الذي معك مثل الذي معي .
فقال له محمد : وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان ، يعنى حكمة لقمان .
فقال : اعرضها عليّ . فعرضها عليه ، فقال : « إن هذا الكلام حسن ،
والذى معي أفضل من هذا ، قرآن ، أنزله الله عليّ » ، هو هُدًى ونور .
وتلا عليه محمد شيئاً من القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فأعجبه وقال : إن
هذا القول حسن .

ثم انصرف عنه . ولما عاد إلى المدينة لم يلبث بها غير قليل حتى قتله
الخزرج . وربما يكون سُويّد بن الصامت أول من أسلم من أهل المدينة ،
ذلك أنه أثر عن قومه أنهم كانوا يقولون : إنا لنراه قتل وهو مسلم .

وقدم أبو الحيسر أنس بن رافع إلى مكة ، ومعه فتية من بني عبد الأشهل ،
فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على الخزرج . وكلنا يعلم
العداوة التقليدية التي كانت بين الأوس والخزرج ، ويلوح أنه كان لليهود
يد في بث هذه العداوة ، عملاً بحكمة فرّق تسد .

وكانت الحرب توشك أن تقع بين الفريقين ، وكان كل منهم يعمل على
تعزيز جانبه بمحالفة قبيلة من هنا أو قبيلة من هناك تشد أزره . فلما سمع
محمد بمقدمهم أتاهم فجلس إليهم فقال : هل لكم في خير مما جنتم له ؟
قالوا : وما ذاك ؟

قال : أنا رسول الله إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا
به شيئاً ، وأنزل على الكتاب . ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .
فقال إياس بن مُعَاذ ، وكان غلاماً حديثاً : يا قوم هذا والله خير
مما جنتم له . عندئذ أخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء
فضرب بها وجه إياس وقال : دعنا منك ، فاعمرى لقد جئنا لغير هذا . . .
فتفتّح قلبه للحق واشترأت روحه لدين قويم . وشيخ صلبت أحاسيسه ،
وقسا قلبه ، وملاكت الدنيا عقله .

قام محمد عنهم وانصرفوا إلى المدينة ، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن
هلك ، ووقعت وقعة بُعث بين الأوس والخزرج . ويلوح أن هذه الواقعة
كانت مقدمة تهيأت بعدها كل من الأوس والخزرج للمصالحة ، وللبحث
عن زعيم قوى يستطيع أن يلم الشمل ويكبح جماح الشهوات ، ويجول دون
ما في نفوسهم من ثأر وعداوة وبغضاء . والحق أن النتيجة التي انتهت إليها
هذه الواقعة كانت سيئة جداً على كل من الجانبين . فقد انهزمت الأوس
بادئ الأمر ، ثم انهزمت الخزرج بعد ذلك شر هزيمة . حتى لقد أراد

حُضَيْرَ رَئِيسِ الْأَوْسِ أَنْ يَفْنَى الْخَزْرَجَ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهَا ، لَوْلَا أَنْ تَدْخُلَ أَبُو قَيْسِ بْنِ الْأَسْلَتِ حِفَاضًا عَلَى قُوَّةِ الْقَبِيلَتَيْنِ فِي مُوَاجَهَةِ الْيَهُودِ جِيرَانِهِمْ ، بَعْدَ أَنْ فَتَتْ هَذِهِ الْوَقْعَةَ مَلَأَهُمْ وَقُتِلَ فِيهَا سَرَاتِهِمْ . وَلَا عَجَبٌ فَلَهُمْ فُكِرُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ جَدِيدًا فِي تَنْصِيبِ مُلْكٍ عَلَيْهِمْ ، فَاخْتَارُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي بَنٍ سُلُولَ لِمَكَانَتِهِ فِيهِمْ وَحَسَنَ رَأْيِهِ ، وَاسْتَعَدُّوا فِعْلًا لِتَنْصِيبِهِ عَلَيْهِمْ ، لَوْلَا أَنْ وَقَعُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ عَلَى مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ ، بَلْ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ فِي الْعَرَبِ جَمِيعًا . . . مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ .

فَبَيْنَمَا مُحَمَّدٌ يَعْزِضُ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ إِذَا حَضَرُوا فِي الْمَوْسِمِ ، إِذْ لَقِيَ رَهْطًا مِنَ الْخَزْرَجِ فَقَالَ لَهُمْ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ . قَالَ : أَمِنْ جِيرَانِ الْيَهُودِ ؟ قَالُوا نَعَمْ . قَالَ : أَتُتَجَلَّسُونَ أَكْلِمَكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى . فَجَلَسُوا مَعَهُ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ . فَلَمَّا سَمِعُوا مِنْهُ مَا عَرَضَهُ عَلَيْهِمْ ، تَذَكَّرُوا مَا كَانَ الْيَهُودُ يَتَوَعَّدُونَهُمْ بِهِ . فَقَدْ كَانَ الْيَهُودُ وَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ يَفْخَرُونَ عَلَى الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بِذَلِكَ ، وَيَقُولُونَ إِنَّ فِي كِتَابِهِمْ خَبْرًا عَنْ نَبِيِّ قَدْ آتَى أَوَانَهُ سَوْفَ يَظْهَرُ ، وَسَوْفَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَعِزُّونَ بِهِ فَيَقْتُلُونَ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ قَتْلَ عَادٍ وَإِرمَ . مَاذَا إِذِنْ ؟ فَهَا هُوَ أَمَامَهُمْ أَشْرَفُ قَوْمِهِ ، وَأَصْدَقُ قَوْمِهِ ، وَأَكْثَرُ الْعَرَبِ بَرًّا وَصَلَاحًا وَتَقْوَى ، يَنَادِي فِي النَّاسِ مِنْذُ عَشْرِ سِنِينَ أَوْ يَنْفِي بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى الْعِبَادِ ، وَأَنَّ كُلَّ الدَّلَائِلِ تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ النَّبِيُّ الْمَوْعُودُ الَّذِي آتَى أَوَانَهُ وَأَتَى وَقْتَهُ ، فَلَمَّا ذَا لَا يَصْدُقُونَهُ وَيَسْبِقُونَ الْيَهُودَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : يَا قَوْمَ تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ إِنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ الْيَهُودُ ، فَلَا يَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ .

صَدَقُوهُ وَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَقَالُوا : إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا وَلَيْسَ قَوْمٌ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مِثْلَ مَا بَيْنَهُمْ ، وَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللَّهُ بَاكٍ ، فَسَنَقْدُمُ عَلَيْهِمْ فَندَعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجْبَنَّاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ ، فَإِنْ يَجْمَعُهُمُ اللَّهُ عَلَيْكَ فَلَا رَجُلَ أَعَزَّ

منك . ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا به وصدقوا . وكانوا ستة نفر كلهم من الخزرج ، فيهم أسعد بن زُرارة وعُباد بن الصَّامت .

فلما عاد هؤلاء إلى المدينة ذكروا لجماعتهم ما كان من أمرهم مع النبي وما سمعوه منه ودعوتهم إلى الإسلام ، ففشا ذكر الإسلام في المدينة حتى إنه لم يبق دار من دور الأوس والخزرج إلا وفيها ذكر لمحمد والإسلام . فلما أهل العام المقبل وحضر الموسم ، وفد إلى مكة اثنا عشر رجلا من الأنصار ، منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، عازمين على لقاء محمد ، فلقوه في مكان يقال له العقبة ، وبايعوهبيعة العقبة الأولى . قال عبادة ابن الصامت ، وكان فيهم : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى بهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وفيتم فلكنم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأخذتكم بحدة في الدنيا فهو كفارة له . وإن سئرتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر .

فلما انصرفوا عائدين إلى المدينة أرسل محمد معهم مُصْعَب بن عُمير وهو من بنى هاشم ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين . فنزل مصعب ضيفاً على أسعد بن زُرارة ، وكان يُسمى بالمدينة المُقرئ . وكان أسعد بن زُرارة يخرج بمُصْعَب إلى أحياء الأوس والخزرج يدعوهم للإسلام . وذات يوم خرجا فأتيا بستاناً لبني ظفر ، فجلسا فيه واجتمعا لهما رجال من أسام .

وكان سعد بن مُعاذ وأَسِيد بن حُضَيْر يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل ، وكلاهما لا يزال مشركاً على دين قومه . فاما سمعا بهذا الجمع قال سعد لأسيد : لا أبا لك ! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانهما أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن

زرارة منى حيث قد علمت كفيته ذلك ، هو ابن خالتي ولا أجد عايه مَقْدَمًا .

فأخذ أُسَيْدُ بن حُضَيْرِ حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زُرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه ، وقد جاءك فاصدق الله فيه . قال مصعب : إن يجلس أكلمه . فلما بلغهما قال غاضباً : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ اعزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة .

فقال له مصعب : أوتجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره .

قال : أنصفت . ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب في شأن النبي والإسلام وقرأ عليه القرآن .

فقال أُسَيْدُ وقد عرف أسعد ومصعب في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم : ما أحسن هذا وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين . قالوا له : نغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم تصلى . فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق وركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، هو سعد بن مُعَاذ . ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه ، وهم مجتمعون ، فلما نظر إليه سعد بن مُعَاذ مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْدُ بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم . فلما بلغهم قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت . وقد علمت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتيك ليحقروك .

فقام سعد بن مُعَاذ مغضباً متخوفاً مما ذكره له أُسَيْدُ عن بنى حارثة . وأخذ الحربة في يده ، وخرج إلى حيث أسعد ومُصْعَب . فلما رآهما

مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما ، فوقف غاضباً ثم قال لأسعد بن زرارة : والله يا أبا أمامة ، والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُميتَ هذا منى ، أنفشنا في دارنا بما نكره ؟

فقال أسعد لمصعب : جاءك والله سيد في قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك من قومه اثنان .

فقال له مصعب : أوتقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً رغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره .

قال سعد : أنصفت . ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه مصعب الإسلام وقرأ عليه القرآن .

فقال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين .
قالا : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين : فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين . ثم أخذ حربته ، وأقبل عائداً إلى مجتمع قومه ومعهم أسيد بن حضير . فلما رآه قومه مقبلاً قالوا : نلحف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم .

فلما باغهم قال : يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً وأرجحنا عقلاً .

قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . ولقد صدق أسيد في ظنه أن أحداً سوف لا يتخلف من قومه عن الإسلام إن أسام سعد ، فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا ملسماً أو مسامحة . وانضم سعد إلى أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير في دعوة الناس إلى الإسلام . حتى لم يبق دار من دور الأوس والخزرج إلا وفيها رجال ونساء مسلمون .

كان طبيعياً إذن بعد أن نجح الإسلام هذا النجاح الباهر في صفوف

قبيلتين كبيرتين ، أن يفكر محمد تفكيراً جدياً في الهجرة إلى يثرب حيث هؤلاء الأنصار ، وحيث يستطيع تحت حمايتهم ورعايتهم أن يقيم شعائر الدين بحرية لا يشوبها أذى أو إساءة . ثم إن في الهجرة إلى يثرب ولا شك تقوية للإسلام ، إذ سوف يلتئم شمل المسامين جميعاً ، ويعود الذين هاجروا إلى الحبشة ، وينضم الجميع تحت راية واحدة في منعة وعزة وقدرة لم يعهد لها الإسلام من قبل . وأى شيء أدعى للجبهة من هذه الظروف المواتية ! منعة وعزة ودولة توشك أن تقوم بين ظهرائي قبيلتين شهيرتين وفي مدينة من أشهر مدن العرب . وامكن كان لا بد لحمد ولآل محمد أن يستوثقوا من مدى إيمان الأنصار بالإسلام ومدى حمايتهم لحمد ، وفضلاً عن ذلك كان محمد يتطلع ولا شك إلى إقامة دولة تستطيع أن تحمى التابعين لها حماية العزيز المنيع المقتدر ، فقد كفى المسلمين أكثر من عشر سنين عاشوها بين الذئاب ، تشردهم وتبعدهم عن ديارهم وتسيء إليهم وتهشهم نهشاً . لقد آن الأوان لهم أن يعووا قليلاً بين هذه الذئاب الكاسرة . حلف يدفع به المسلمون عن أنفسهم الأذى بالأذى والعدوان بالعدوان .

واعد الأنصار محمداً على اللقاء في الليلة الثانية من أيام التشريق^(١) بعد الحج في شعب العقبة . فلما فرغوا من الحج وكانت الليلة التي واعدوا فيها الرسول ، كره المسلمون من الأنصار ، وكانوا يكتمون أهلهم من المشركين أمرهم ، أن يعتقدوا هذه البيعة وليس فيهم عبد الله بن عمرو ، وكان سيداً من ساداتهم وشريفاً من أشرافهم ، فكلموه ودعوه إلى الإسلام فقبل منهم وشهد معهم العقبة وكان نقيباً .

نام المسلمون من الأنصار تلك الليلة مع قومهم حيث يقيمون حتى إذا مضى ثلث الليل خرجوا لميعاد الرسول ، وهم يتسللون تسلل القطا مستخفين ، واجتمعوا في الشعب عند العقبة ، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ٥

(١) ثلاثة أيام بعد العيد .

وجاءهم محمد ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان لا يزال على دين قومه ، ولكنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له . أى أنه أراد الأمر أن يكون رسمياً كما نقول الآن ، أى بين بنى هاشم والأوس والخزرج .

وكان العباس بن عبد المطلب أول من تكلم قال : يا معشر الخزرج (١) ، إن محمداً منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزّة من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللاحق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحمّلتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسالموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه في عزّة ومنعة من قومه وبلده . فقالوا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتلا محمد القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام وقال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم .

فأخذ البراء بن مسعرور بيده وقال : نعم ، فوالذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه نساءنا . فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كباراً عن كبار . واعترض القول أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبلاً وإننا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيّت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم النبي وقال : بل الدّم الدم . والهدم الهدم ، أبا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

وهنا قام سعد بن عباد ، وكأنه يريد أن يشد العقد في أعناقهم وقال : يا معشر الخزرج . هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ! قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون

(١) كانت العرب تسمى هذه الحى من الأنصار الخزرج . خزرجها وأوسها .

أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فلما نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟

قال : الجنة .

قالوا : أبسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

فقال لهم الرسول : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً^(١) يكونون على قومهم بما فيهم . فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فيهم أسعد بن زُرارة ، وعبد الله بن رواحة ، وعبد الله بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، وأسيّد بن حُصَير . فقال لهم محمد : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي ، قالوا : نعم .

وما أن انتهوا حتى سمعوا ، جلاً يصيح بأعلى صوته منادياً قريش : يا أهل الجبابب - والجبابب المنازل - هل لكم في مُدَمِّمٍ والصُّبَاءِ معه قد اجتمعوا على حربكم ، ويلوح أن محمداً عرف صوته فقال : أُنَسِّمَ يا عدو الله ، أما والله لا تفرغن لك . فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق إن شئت لنمِلن على أهل منى غداً بأسيا فانا . فقال محمد : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى مضاجعكم .

فرجعوا إلى مضاجعهم وناموا . فلما أصبحوا غدت عليهم سادات قريش وجاءوهم في منازلهم فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ،

(١) النقيب : كبير القوم .

ولأنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تشب الحرب بيننا وبينهم منكم . فأنكم المشركون منهم أنهم يعلمون شيئاً عما يقولون ، والمسلمون سكوت ينظر بعضهم إلى بعض : فصدقهم القوم وعادوا عنهم . وتفرق الناس من منى عائدين إلى ديارهم . غير أن قريشاً لم يهدأ لها بال ، فطلت تنتطس الخبر حتى علمت بصحته ، فخرجوا في طلبهم . فلم يدركوا غير سعد بن عُبَّادة والمنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيباً من نقباء المسلمين ، غير أنهم لم يقدوا على المنذر ، وأما سعد فأخذوه وربطوا يديه إلى عنقه ، وعادوا به إلى مكة وهم يضربونه ويجذبونه من شعره وكان طويلاً . ولم ينقذه من أيديهم غير جُبَيْر بن مُطْعِم والحارث بن حرب بن أمية ، إذ كان يجير لها تجارهما ممن أراد ظلمهم إذا خرجوا إلى بلاده .

لما رجع الأنصار أظهروا الإسلام في المدينة ، ولم يبق من بيت إلا وفيه مسلم أو مسلمة ، ولم يتخلف من ساداتهم غير نفر قليل منهم . ومن أطرف ما يروى عن عمرو بن الجحَّمُرح ، وكان من سادة بنى سلمة ما فعله فتيان بنى سامة المسلمون وفيهم ابنه معاذ ، ومعاذ بن جبل ، في صنم من خشب اتخذوه في بيته يقال له مناة ، كان يعظمه ويرفع من قدره . كان هؤلاء الفتية إذا نام عمرو ، خرجوا في آخر الليل ، وأخذوا الصنم وطرحوه في بعض حفر بنى سلمة ، وفيها غائط من غائط الناس ، منكساً على رأسه . فاذا أصبح عمرو قال : ويلكم ! من عدا على إلهنا هذه الليلة ؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطيبه وطهره ثم قال : أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه . ثم إنهم كرروا فعلتهم هذه عدة ليال ، وكان عمرو يعيد صنمه من حيث ألقوه في الأذى بعد أن يغسله ويطهره ويطيبه . فلما أكثروا عليه ، استخرج الصنم يوماً من حيث ألقوه ، فغسله وطهره وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له : إني والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى ، فلأن كان فيك خير فدافع عن نفسك ، هذا السيف معك . فلما أمسى ونام عمرو

عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بجبل ،
ثم ألقيوه في بئر من آبار بنى سلمة فيها غائط من غائط الناس . فلما أصبح
عمرو لم يجد صنمه حيث تركه ، فخرج يبحث عنه ، فلما وجدته في تلك
البئر منكساً مقروناً بكلب ميت ، أدرك أنه لا يضره ولا ينفع . فلما كلمه
من أسلم من قومه أسلم وحسن إسلامه ، وذكر صنمه وما أبصر من أمره ،
وشكر الله على إنقاذه مما كان فيه من العمى والضلالة ، قال :

والله لو كنت إلهاً لم تكن أنت وكلب وسط بئر في قرآن
أف للفقاك إلهاً مُسْتَدَن الآن فتشاك عن سوء الغبن
الحمد لله العلى ذى المنين . الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذى أنقذنى من قبل أن أكون فى ظلمة قبر مُرْتَهَن

* * *

كانت بيعة العقبة الثانية إيذاناً خطيراً بتحول حاسم في موقف كل من
المسلمين والمشركون في مكة . لقد أصبح للمسلمين دار أصابوا فيها منعة ،
وحلوا فيها عزاً كراماً . وأما المشركون فقد أصبحوا ولا شك في موقف
لا يحسدون عليه ، وقد قبل سادات يثرب حماية محمد والمسلمين وعاهدوهم
وتعاقدوا معهم ، واستقدموهم إلى ديارهم واستضافوهم . لقد جن جنون
قريش عندما هاجر منذ بضع سنين نفر من المسلمين إلى الحبشة ، فكيف
بهم وجميع المسلمين الآن وعلى رأسهم محمد ، قد عقدوا حلفاً مع قبيلتين من
أقوى وأعز قبائل العرب ، على نصرتهم وحمايتهم ، والدود عنهم وحرب الأحرار
والأسود من الناس معهم . أتصبح المدينة منافساً يهدد مكة ؟ أيؤسس محمد
ملكاً في المدينة ينافس به قريشاً ؟ أيعود محمد في يوم ما على رأس هؤلاء
الأتباع غازياً لقريش ، محطماً لأصنامها . هادماً لعبادتها ؟ أيجادل محمد
أن يعامل قريشاً معاملة العين بالعين والسن بالسن ، فينتقم لنفسه ولأتباعه
مما لا قوا من عنيت قريش وحصارها . وينبذها لهم ومقاطعتها إيادهم سنين طوالاً ؟

أُمنع تجارة قريش إلى الشام ، ويسد عليهم الطريق ، ويحاصروهم حصاراً اقتصادياً ؟ أيجيئهم محمد أو يحاول ذلك ؟ أيهدم محمد هذا الخجد العريض الذى يرفل فيه سادة قريش ؟

الحق أنهم أوجسوا خيفة من هذا كله ، ذلك أن تجاربهم مع محمد قد بينت لهم أنه ليس بالرجل الذى يستهان به . فإنه سيرد الصاع صاعين لا شك فى ذلك إن استطاع . ولقد بدأت الدلائل تشير إلى أنه سيستطيع . فهاذا يفعلون إذن وهام المسلمون قد بدأوا يهاجرون إلى يثرب جماعات وأفراداً ، وقد ترك الأب ابنه ، والأخ أخاه ، والابن أباه ، والرجل ابن عمه وصديقه ؟ ثم إن المشركين أيقنوا ولا شك أن أحداثاً لا بد ستحدث بينهم وبين محمد وأصحابه من الانتصار الذين عاهدوه على حرب الأحمر والأسود من الناس .

أيقن المشركون فى قريش أن محمداً قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة ، وهى دار قُصَى بن كلاب جدّهم ، وهى الدار التى لا تقضى قريش أمراً إلا فيها ، وراحوا يتشاورون فى أمر محمد بن عبد الله حين خافوه هذا الخوف .

اجتمع حشد غفير من قريش فى اليوم الذى اتعدوا له ، وسمى ذلك اليوم بيوم الزَّحْمَةِ . وأخذ القوم يتفاوضون ويتشاورون فيما بينهم . فقال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زُهَيْرٌ والنابعة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم . غير أنهم خشوا إن فعلوا ذلك أن يعلم به أصحاب محمد وقد أصبح لهم شأن يذكر ، فتشور الحرب بينهم ، فرفضوا هذا الرأى . ثم تشاوروا وقال قائل منهم : نخرجه من بلدنا فننفيه فى البلاد ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألْفَتْنَا كما كانت . غير أن هذا الرأى أيضاً لم يرضهم . ذلك أنهم خشوا من حسن حديثه وطلاوة منطقه وغلبته على قلوب

الرجال ، فربما يحل على حى من العرب فيتبعوه فيسير إليهم بهم . وأخيراً قال أبو جهل رأياً استحسنوه ، قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتي شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتي منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فلأنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالدية وهم مجتمعون له . واطمأن المجتمعون إلى هذا الرأي واستصوبوه وأجمعوا عليه .

الفصل الثالث

الهجرة

إذا كان في تاريخ البشرية أحداث غيرت مجرى التاريخ ، فلسنا نعرف على التأكيد حدثاً بعينه غير مجرى تاريخ البشرية ، له من الأهمية والروعة والجلال ما لهذه الهجرة النبوية . خرج محمد من مكة ضعيفاً خائفاً متوجساً ليس معه غير رجل واحد ، ومن حوله مئاة بل آلاف من الأعداء ، قد أجمعوا على قتله والتخلص منه ، فينجو من برائهم بأعجوبة ، وفي أقل من ربع قرن يكون هذا الطريد المستضعف قد أسس أعظم دولة في العالم في القرون الوسطى ، وأقام أساس حضارة أنقذت الإنسان مما عُرف في تاريخه بالقرون السود — حضارة قوامها العلم والعدل ومكارم الأخلاق ، لتكون في واقع الأمر حجر الأساس في الحضارة الحديثة برمتها (١) .

عند ما نعى إلى علم محمد ما تأمرت به قريش ، وأمره ربه بالهجرة ، وعقد العزم على مغادرة مكة ، أمر عليّ بن أبي طالب أن ينام في فراشه تلك الليلة ، ويتغطى ببرد الحصرى الأخضر ، حتى إذا ما رآه المتآمرون خيل إليهم أن محمداً نائم فيطمثون إلى أنه لم يقات منهم . ثم إنه أمر علياً أيضاً أن يتخلّف في مكة حتى يؤدى عنه الودائع التي كانت عنده للناس ، ذلك أنه لم يكن بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته .

وأتى محمد دار أبي بكر فاستأذن فدخل وجلس ، ولم يكن أحد حاضراً سواهما غير أسماء وعائشة ، فقال محمد : أخرج عني من عندك . فقال

(١) انظر كتابنا « أثر الدرب في الحضارة الأوربية — نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة » و « الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمى الحديث » .

أبو بكر مستغرباً : يا رسول الله إنما هما ابنتاي ، وما ذاك فذاك أبي وأمي ؟
 حرص شديد من محمد ، فربما يكون مصير الدعوة كلها معلقاً في هذه
 الساعات ، ثم ثقة ما بعدها ثقة من أبي بكر في ابنتيه . والحق أنه كان
 مصيباً ، فعائشة الطفلة التي لم تتجاوز الثامنة في ذلك الوقت قد قامت بدورها
 فيما بعد على خير ما يرام ، فعرف العرب أجمعون والمسلمون والتاريخ عفتها ،
 ورجاحة عقلها ، وبلاغتها محدثة وراوية عن محمد ، ومعامة لأجيال من
 المسلمين . وأما أسماء وكانت في حوالى العشرين ، والتي عهدا إليها بسر من
 أكبر وأخطر أسرار الحركة الإسلامية ، واستودعاه صدر هذه القديسة ،
 فما ناء عن حمله ، وما وجلت منه نفسها ولا خارت ولا وهنت ، فقد أثبتت
 للذئب جميعاً أنها أهل لهذه الثقة ، وأنها جديرة بهذا التقدير .

التفت محمد إلى أبي بكر وقال : إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة .
 قال أبو بكر : الصُّحبة يا رسول الله ! قال : الصُّحبة . فبكى أبو بكر .
 وفي ذلك قالت عائشة : والله ما شعرت قط قبل ذلك أن أحداً يبكي من
 الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي .

وكان أبو بكر عند ما نوى الهجرة إلى المدينة قبل ذلك واستبقاه محمد
 لعل الله أن يجعل له صاحباً ، طمع أن يكون هذا صاحب رسول الله ،
 فايتاع ناقتين وحبسهما في داره يعلفهما إعداداً لهذا اليوم ، اشتراهما
 بثمانمائة درهم . ثم إنهما استأجرا عبد الله بن أرقط أو أريقط ، وكان
 مشركاً ، ليدلّهما على الطريق ، ودفعاً إليه راحلتيهما يرعاهما لميعاد الخروج .

وجهزت أسماء وعائشة لهما زاداً صنعتاه على عجل ووضعته في جراب ،
 وتزعت أسماء نطاقها فشقتة شطرين ، جعلت واحداً ربطت به على فم
 الجراب ، والآخر عصاماً لقربة الرسول . فلذلك سميت بذات النطاقين .
 ثم خرجا من خوخة في ظهر بيت أبي بكر ، وكان خروجهما ليلاً في شهر
 ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من المبعث .

فلما استقبل محمد الطريق ، اتجه بقلبه إلى خالق السماوات والأرض ،
إلى ربه ورب العالمين ، وقال :

« الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئاً ، اللهم أعنى على هول الدنيا ،
وبوائق الدهر ، ومصائب الليالى والأيام .

اللهم اصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى ، وبارك فيما رزقتنى ،
ولك فذللتنى ، وعلى صالح خلقتى فقومنى ، وإليك رب فحببني ، وإلى الناس
فلا تكننى .

ربّ المستضعفين وأنت ربى ، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له
السماوات والأرض ، وكُشِفَتْ به الظلمات ، وصُلِّحَ عليه أمر الأولين
والآخرين ، أن تُحيل على غضبك أو تُنزل بي سخطك ، أعوذ بك من زوال
نعمتك ، وفجأة نقمتهك ، وتحول عافيتك وجميع سخطك . لك العتبى عندى
خير ما استطعت ، لا حول ولا قوة إلا بك » .

ثم إنهما عمداً إلى غارٍ بجبل ثور جنوب مكة ودخلاه واستخفيا فيه ثلاثة
أيام حتى هدأت قريش عنهما . ذلك أن قريشاً عندما أصبحت وتبينت أن
عائياً هو الذى كان فى الفراش ، أخذتها حى الغضب ، وهاجت وماجت يحنأ عن
محمد ، لعلها تمنعه من الهجرة أو تقتله . وتفرقت قريش تبحث عنه فى كل
مكان ، فأتى نفر منهم بيت أبى بكر وفيهم أبو جهل ، فوقفوا على الباب
فخرجت إليهم أسماء فقالوا : أين أبوك يا ابنة أبى بكر ؟ قالت : لا أدري
والله أين أبى (وكانت صادقة ، فما كانت تدري أين هو فى تلك اللحظة) ،
فرفع أبو جهل يده ولطم خدها لطمة شديدة طرحت قرطها . ثم انصرفوا .

كانت أسماء عظيمة بكل معانى العظمة ، ومما يدل على عظمة نفسها
ورجاحة عقلها أنه لما جاءها بجدها أبو قحافة يقول لها : والله إنى لأراه قد
فجعكم بماله فى نفسه (وكان أبو بكر قد احتمل معه ماله كله ، خمسة آلاف
أو ستة آلاف درهم) . قالت : كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً .

وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبوها يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، وكان كفيفاً ، فقالت : يا أبت ضع يدك على هذا المال . فوضع يده عليه فقال : لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم . والحق أنه ما ترك شيئاً ، ولكن ترى هنا أسماء وقد عبرت عن مكنون عواطفها وعن إيمانها بأبيها وبالرسالة التي يؤديها ، كما عبرت عن منتهى رقة إحساساتها ، إذ لم تشأ أن تؤلم هذا الشيخ الضريب ، فسكنت روعه وأرضت نزعاته بهذه الحيلة .

لم يعلم أحد بمخبئتهما في الغار غير آل أبي بكر ، ابنه عبد الله ، وابنتاه أسماء وعائشة ، ومولاه عامر بن فهيرة . فكانت أسماء تأتيهما من الطعام ما يكفيهما إذا أظلم الليل . وكان عبد الله يتسمع لهما ما يقوله الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما سمع في ذلك اليوم من الخبر . وكان عامر بن فهيرة يرعى غنم أبي بكر في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى عمد إليهما بها فاحتلبا وذبحا ، فإذا انصرف عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يُعَفِّي عايه .

جدت قريش في طلب المهاجرين ، وتفرقت جماعات من سائر الجهات تبحث في كل مكان ، وجعلوا لمن يردهما أو أحدهما مائة من الإبل . وأقبلت فتيان قريش من كل بطن منهم رجل ، معهم عصيهم وقسيهم وهراواتهم ، وإذا بدلياهم سرقة بن مالك يفقد الأثر وهم قاب قوسين أو أدنى من الغار لصلابة الأرض . وليس بغريب أنهم مروا على باب الغار مرّة ومرتين أو أكثر ، فما فكر أحد منهم في دخول الغار ، ذلك أن عنكبوتاً كان قد نسج نسيجه على باب الغار ، وفي رواية أخرى أن حمامتين وحشيتين عشتا على فم الغار .

فهذا قائل يقول : رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار ، فعرفت أن

ليس فيه أحد . وآخر يهتف بهم : إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد .
وأبو بكر يقول لصاحبه : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت
قدميه .

فيقول له محمد : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما !
وكان أبو بكر كلما سمع أصوات المتأمرين المتلهفين على محمد خارج
الغار ، وهم على قيد خطوات منهما ، يجزع وترتعد فرائصه وجلا وإشفاقاً ،
ويقول لمحمد : هؤلاء قومك يطلبونك !
فيطمئنه محمد ويقول : يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا .
فيقول أبو بكر : أما والله ما على نفسي أحزن ، ولكن مخافة أن أرى
فيك مكروها .

مضت ثلاث ليال وهما في الغار ، وسكن عنهما الطلب ، فأتاهما
عبد الله بن أريقط الدليل الذي استأجراه ومعه بعيراهما وبعير له ، وأتتهما
أسماء بنت أبي بكر بطعامهما وشرابهما للطريق . فلما قدّم أبو بكر الراحلتين
إلى محمد قدّم له أفضلهما ثم قال : اركب فذاك أبي وأمي .
فقال محمد : إني لا أركب بعيراً ليس لي هـ
قال : فهى لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي .
قال : لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به . قال : كذا وكذا .
قال : أخذتها بذلك . قال : هى لك يا رسول الله .
وفي قصة أن تلك الناقة كانت القصواء ، وفي قصة الجحذعاء .

ركبوا وانطلقوا على بركة الله ، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة موله
خلفه ليعدهما في الطريق . وعمد بهما دليلهما ، وكان فارهاً يعرف
جميع المسالك والدروب ، إلى اتباع طرق متعرجة ، تارة نحو الشرق ، وتارة
نحو الغرب ، وتارة نحو الشمال ، حتى يضلل من قد يقتنى أثرهم من المشركين
الذين يجدون في طلبهم . وبعد أن حثوا السير يوماً وليلة ، وأشرقت عليهم

شمس اليوم الثانى وهم يجدون فى السير لبيتعدوا عن خطر الباحثين قدر
الإمكان ، لم يذوقوا نوماً ولا راحة ، وقد علت الشمس كبد السماء ،
وأرسلت عليهم شعاعات من لبيب ، وتوهجت الصحراء من حولهم فى
حر الظهيرة ، عندئذ أحسوا بأن لأبدانهم عليهم حقاً ، وأنه ينبغى لهم أن
يطلبوا قسطاً من الراحة ، وإلا سقطوا إعياء منهوكين .

ضرب أبو بكر نظره ليرى ظلاً يحتمون فيه ويأوون إليه ، فإذا بصخرة
إلى جانبها بقية من ظل ، فسوى مكاناً لصاحبه وفرش له فروة ، فلبث
أن أخذته النعاس من شدة التعب والإرهاق فنام .

ونقل أبو بكر بصره هنا وهناك ، فإذا براعى غنم فأتاه فقال : لمن أنت
يا غلام ؟ فقال : لرجل من قریش . فقال أبو بكر : هل فى غنمك من
لبن ؟ قال : نعم . قال هل أنت حالب لى ؟ قال : نعم . فحلب قليلا من
اللبن ، فقدم به أبو بكر لصاحبه فرواه ، ثم هرعوا بعد راحة لا تغنى إلا
قليلا ، ميممين شطر الشمال مسرعين .

وما أن ساروا بعض الطريق حتى أدركهم سرّاقة بن مالك على فرس
له . فنظر أبو بكر خلفه وليس بينهم وبينه غير قليل وهو يجد فى طلبهما ،
وقال : يا رسول الله قد لحقنا . قال : لا تحزن إن الله معنا .

وكان سرّاقة كلما اقترب منهما جزع أبو بكر وأكثر الالتفات ،
ومحمد ثابت كالطود ، ما اهتز وما ترعزع لا يلتفت وراءه . وتشاء الأقدار
فى تلك اللحظة الحاسمة وسرّاقة ليس بينه وبينهم غير رمية رمح أو سهم ،
أن تعثر به فرسه فيخر عنها . فاستخرج من كنانته الأزام واستقسم بها
أيضهم أم لا ، فخرج السهم الذى يكره . فركب فرسه وتبعهما ، وإذا
بفرسه تعثر به مرة أخرى . عندئذ تطير سرّاقة كعادة العرب ، ودخل فى
روعه أن الآلة لا ترضى عما يفعل . فناداهم بالأمان وأخبرهم بما تريد قریش
بهم ، وبما جعلوا فى محمد من الدية ، وعرض عليهم الزاد والمتاع . فلم يطلب

محمد منه شيئاً إلا أن قال : أخف عنا . فطلب منه كتاب أمن ، فكتبه أبو بكر ، ولما رجع سراقه عنهما ، أخذ يضلّل الذين يجدون في طلبهما ، ويقول : كُفّيتُم هذا الطريق ، ليس فيه أحد . وخلا الطريق إلى المدينة وتابع النبي سيره إليها في أمان واطمئنان لا يصدّه صاد ولا يعكر صفو رحلته مطارّد أو معتد أثيم .

وصل المهاجر البطل إلى المدينة بعد خمسة عشر يوماً ، وهى فترة أطول مما تستغرق الطريق عادة ، ذلك أنه قضى ثلاثة أيام بالغار ، وسلك طريق الساحل ، وهى أبعد من الطريق المألوفة ، وتخلّف بقضاء أربعة أيام .

لما علم أهل المدينة بمغادرة محمد مكة ، وتوقعوا مقدمه بين يوم وآخر ، كانوا يغدون أول النهار إلى الحرّة بأطراف المدينة ينتظرونه حتى يردّهم حر الظهيرة . وذات يوم من أيام الاثنين فى أواخر شهر ربيع الأول ، وبعد أن طال انتظار المسلمين وعادوا إلى بيوتهم ، هتف بهم يهودى كان ينظر شيئاً من أعلى حصن من حصونهم فرأى القادمين عليهما ثياب بيض قال : يا معشر العرب هذا صاحبكم الذى تنتظرون .

هرع المسلمون إلى السلاح وخرجوا زرافات ووحدانا ليستقبلوا الرجل البطل النبي ، الذى دعوه إلى بلدهم الأمين ، ولبلّثوا عيونهم من محيا ذلك الذى تكلمه السماء ، وليثبتوا له وهم شاهدين السلاح أنهم رجال صدق فى وعدهم ، وأنهم فى مدينتهم عزاز كرام أقوياء ، وأنه أصبح بين ظهرانهم منيعاً آمناً على نفسه وعلى دينه . تدفق نحوه مئات من الرجال والنساء والفتيات والصبيان ، يتدافعون فى غمرة حماسهم ولهفتهم متسائلين : أيهم هو ؟ أيهم هو ؟ وكانت الشمس فى تلك الساعة التى وصل فيها الركب المبارك قد علت كبد السماء ، والوقت عند الظهيرة ، وحرارة يوليو تلهب الدنيا بلظاها ، فنزل محمد عن راحته وجلس فى ظل نخلة يستريح . فلما تحولت الشمس وانكشف الظل عن محمد نهض أبو بكر يُظِلُّه ، فلما رأى الناس ذلك عرفوه ، فعمالت

الصيحات والتهافتات من هنا وهناك : الله أكبر ! جاء رسول الله .
الله أكبر ! جاء محمد . الله أكبر ! جاء رسول الله . الله أكبر ! جاء محمد .
وبعد أن استراح فترة العصر ، وخف الهرج والمرج ، وسكنت أنفاس
الناس ، واطمأن المسلمون على نبيهم ، وهدأت مخاوفهم عاياه ، قام وعطف
بهم ذات اليمين حتى نزل في بني عمرو بن عوف بقباء بعد المغرب بقليل .
ويمكث عندهم من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة . وفي تلك الأثناء وصل على
ابن أبي طالب من مكة بعد أن سلم الودائع التي كانت عند محمد لأصحابها ،
وانضم لصاحبه .

أسس محمد مسجده بقباء ، فكان أول مسجد بنى في الإسلام ، بل أول
مسجد جعل لعموم الناس . ونهض يوم الجمعة ومن ورائه جموع المسلمين
ميمماً شطر المدينة ، التي استقبلته استقبالا لم تشهد مثله من قبل ، الرجال
بسيوفهم يسبرون من حوله ومن ورائه ، تملأ نفوسهم حمية العرب ، ويملأ
قلوبهم إيمان برسول الله لا يثنهم عنه إلا الموت . والنساء والفتيات والصبيان
من فوق البيوت وعلى جانبي الطريق يهللون وينشرون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

فلما أدركته صلاة الجمعة في حي بني سالم بن عوف بطن الوادي
المسمى بوادي رانواء ، صلى بالمسلمين هناك ، فكانت أول جمعة صلاها
بالمدينة ، بل أول جمعة صلاها بالمسلمين إطلاقاً ، ذلك أنه لم يكن يقدر
على ذلك في مكة . وخطب فيهم أول خطبة جمعة ، قال :

« الحمد لله ، أحمدوه وأستعينه ، وأستغفروه وأستهديه ، وأومن به
ولا أكفره ، وأعادي من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة
على فترة من الرسل ، وقلّة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من
الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل .

من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط
وضلّ ضلّالاً بعيداً .

أوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على
الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروه ما حذركم الله من نفسه ،
ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرى ، وإنه تقوى أن
عمل به على وجلٍ وخافة ، وعونٌ صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة .
ومن يُصّاح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية ، لا ينوي بذلك
إلا وجهه الله ، يكن له ذكر في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت ، حتى يفتقر
المرء إلى ما قدّم ، وما كان سوى ذلك يؤدّ لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ،
ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد .

والذي صدق قوله ، وأنجز وعده ، لا خُلفَ لذلك فإنه يقول تعالى :
« ما يُبدّل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد » .

واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية ، فإنه « من يتق الله
يكفر عنه سيئاته ويُعظم له أجراً » . « ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً » .
وإن تقوى الله توقى مقتته وتوق عقوبته ، وتوق سخطه ، وإن تقوى الله
تبيّض الوجه ، وبرضى الرب ، وترفع الدرجة .

خلدوا بحظكم ولا تُفرطوا في جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونهج
لكم سبيله ليعلّم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله
إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وسماكم
المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ، ولا قوة إلا بالله ،
فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد الموت ، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله
يكفّه ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ،
ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .
أما اليهود ، وأما المشركون ، فإنهم ولا شك خرجوا أيضاً من ديارهم ،

وتجمعوا هنا وهناك ، ينظرون ويتأملون ويتفكرون ، وكان ثوابها أخذ بعقولهم ، اليهود تأكل الغيرة صدورهم ولا شك ، أن يكون نبي ليس منهم ، وإن كانوا آمنين على أرواحهم وأموالهم وأبنائهم ودينهم . أما المشركون ، فلأنهم توجسوا خيفة ، ذلك أن محمداً لم يقبل من أهل مكة ، وهو بعد لا يملك من القوة غير إيمانه بالله ، ونفراً قليلاً عزلاً من السلاح ، إلا أن يقولوا لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . فأى أمل لهم الآن في التمسك بعقيدتهم القديمة ، ودين آبائهم وأجدادهم ، وهذى هى المدينة وقد خرجت جوعها ومقاتلوها يهللون ويهتفون للقادم الجديد ، ويلوح صناديدها بسبوفهم وحراهم لأول مرة فى تاريخ الإسلام ؟ ماذا بعد أن أصبح سيد الخزرج عبد الله بن أبى بن سائل - وكانوا بالأمس يرشحونه ليصبح ملكاً عليهم - لا حول له ولا قوة ولا كلمة ولا طاعة ؟ ماذا إذن ؟ لقد انتصر الإسلام ، لقد ملك محمد المدينة وما فيها ، ولم يبق من أمل لهؤلاء المشركين إلا أن يشهدوا شهادة الحق . هذا منطق الأحداث . لقد بدأ التاريخ يتغير ، لا ، بل تغير .

امتطى محمد ناقته وأطلق زمامها تسير فى طرقات المدينة . وكان كلما مر بدار سيد من ساداتها رجاء أن ينزل عنده فى العدة والعدة والمنعة فيقول : خذوا سبيلها (أى الناقة) إنها مأمورة . حتى إذا مر فى طريقه بعبد الله ابن أبى بن سائل ، وقف ينتظر أن يدعوه ، فما كان منه إلا أن عيس فى وجهه وقال : انظر الذين دعوك فانزل عليهم . فلما ذكر النبي ذلك لنفر من الأنصار ، قال سعد بن عبادة يعتذر عنه : لقد مَنَّ الله علينا بك يا رسول الله ، وإننا نريد أن نعقد على رأسه التاج ونملكه علينا .

وأخيراً انتهت الناقة إلى دار أبى أيوب خالد بن زيد ، فبركت أمامها فى مربد (جرن تمر) للغلامين يقيمين من بنى مالك بن النجار ، هما سهل وسهيل ابنا عمرو . فنزل محمد عن ناقته ودخل بيت أبى أيوب . واشترى المربد من الغلامين وبنى فيه مسجده ومساكنه .

كانت دار أبي أيوب طابقيْن ، فنزل محمد في الطابق السفلي ، فقال أبو أيوب له : بأى أنت وأمى يا رسول الله ، إني أكره وأبغضُ أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فإظهر أنت فكن في العلو ونزل نحن فنكون في السفلى .

فقال : يا أبا أيوب ! إنه لأرْفَق بنا وبمن يزورنا أن أكون في سفلى البيت . ثم إنه أقام على الرحب والسعة ، ولم تكن تمضى ليلة إلا ويقدم ثلاثة أو أربعة يحملون الطعام ، يتناوبون على ذلك . وقد نزل على أبي أيوب حتى بنى مساكنه .

وبعد أن استقر به المقام ، أرسل وهو نازل في دار أبي أيوب مولاه زيد بن حارثة وأبا رافع ، ومعهما بغيران وخمسة درهم ، ليجيئا بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه ، وسودة بنت زمعة زوجته . وكانت رقية قد هاجرت مع زوجها عثمان ، وزينب عند زوجها بمكة أبي العاص بن الربيع ، وجاءت معهم أم أيمن امرأة زيد بن حارثة ، وخرج معهم عبدالله بن أبي بكر بعيال أبي بكر وفيهم عائشة ، ولم يكن محمد قد دخل بها بعد .

تمت الهجرة في شهر ربيع الأول (يوليو سنة ٦٢٢ م) ، واتفق الصحابة في سنة ست عشرة أو سبع عشرة أو ثمانى عشرة على جعل ابتداء التاريخ الإسلامى من سنة الهجرة . واتفقوا على أن يكون شهر المحرم هو أول شهور السنة الهجرية ، لأنه الشهر الذى ينصرف فيه الناس من الحج ، وهو شهر حرام : أى أن سنة الهجرة استهلّت ومحمد لا يزال بمكة .

الفصل الرابع

بداية الدولة الإسلامية

أصبح محمد سيداً على قوم أشداء ، يطيعونه إن أمر ، ويتبعونه حيث
ورغب ، ويقومون دونه بأرواحهم وأبنائهم وأموالهم . والحق أنه بهرم
بصفات نسيج وحدها ، فاستطاع أن يكبحهم ويحكمهم ، ويخضعهم لإرادته ،
ويؤلف بين قلوبهم ، وينسبهم حزائهم ، بل إنه كان أول عربي في تاريخ
هؤلاء العرب الشداد ، استطاع أن يجمعهم من أقصى جزيرتهم إلى أذناها
تحت راية واحدة ، ويدفعهم نحو غرض واحد ، ويلقي بهم إلى رحاب العالم
المتسيع فيغيرون وجهه .

أى رجل . . . أى بطل . . . أى نبي . . .

كان معتدل الطول ، بعيد ما بين المنكبين ، خمرى اللون ، شعره
لا جعد ولا ناعم ، يتدلى على كتفيه ، طويل العنق ، حسن الوجه ، مشرق
الحيا ، معتدل الخلق ، حسن التقاسيم ، سواد عينيه شديد ، وبياضهما
تشوبه عروق حمز رقاق ، طويل الأنف ، في صوته حدة وصلابه ،
كث اللحية ، واسع الجبين ، مقوس الحاجبين طويلهما ، أفنى الأنف ،
سائل الخدين ، غير مرتفع الوجنتين ، كبير الفم واسعه ، مفلج الأسنان ،
شعر صدره دقيق سائل إلى بطنه ، ليس في صدره أو بطنه شعر غيره ،
عارى الثديين ، أشعر الذراعين والمنكبين ، طويل الزندين ، زحب
الراحة ، غليظ الكعبين والقدمين صغيرهما ، إذا مشى كان في مشيته قوة
واقترار ، يمشى هوناً ويميل إلى الأمام ، واسع الخطو سريعه ، يخيل إليك
أنه إنما ينحط من موضع منحدر .

كان قليل الأكل لا يملأ بطنه قط ، أحب الطعام إليه ما أكله مع

الناس . لم يكن يسأل أهله طعاماً ولا يتشبهاء ، إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قبل ، وما سقوه شرب . لا يأكل على مائدة ، يعجبه ذراع الشاة ، ويحب القرع والحلواء والعسل ، خبزه من الشعير ، لا يشرب إلا الماء والبن .

أما نومه فقليل ، ينام على جنبه الأيمن ، ولا يغط في نومه ، ويؤثر عنه أنه قال : « إن عني تنامان ، ولا ينام قلبي » . ينام في أول الليل ، ويستيقظ عند السحَر .

إذا ضحك فأغلب ضحكه تبسم ، وربما ضحك بعض الأحيان حتى تبدو نواجذه ، ولكن من غير قهقهة ولا إسراف . كان حليماً شهيراً ، فهو مع قدرته صبر كثيراً على ما تكره نفسه . وصل من قطعه ، وأعطى من حرمة ، وعفى عن ظلمه . أبى أن يلعن أحداً مهما أصابه منه من سوء . كان سمحاً جواداً كريماً ، لا يحتفظ بمال إلا لقوت عام واحد ، من أيسر ما يجد من التمر والشعير ، ولا يبيت في بيته دينار ولا درهم بعد ذلك إلا أعطاه لمن يحتاج إليه .

كان شجاعاً مقداماً ، شهد أصعب المواقف ، وخبر الكماة والأبطال يفرّون ، وهو ثابت لا يبرح ، مقبل لا يدبر . صاحب صولة ونجدة ، أول من يفتح الصفوف ، وآخر من يرتد عن ميدان القتال .

كان كريم العشرة ، جم الأدب ، بسيط الخلق مع الناس أجمعين ، شديد الحياء ، إذا تحدث إليه أحد التفت إليه بكامل جسمه ، قليل الكلام ، كثير الإنصصات ، وقور رزين في صمته ، بهي في كلامه ، متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، طويل السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة . ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صياح ولا فحاش ، ولا عياب ولا مداح . يتغافل عما لا يُشتمى ولا يُؤتس منه . يجيب من دعاه ، ويقبل أى هدية ويكافئ عليها . يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ،

ويجلسهم في حجره ، ويجب دعوة الحر والعبد والأمة والمساكين ، ويعود المرضى القريبين والبعيد ، ويقبل عذر المعتذرين . يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ويدعوهم بأحب أسمائهم إليهم لإكراماً لهم . لم يُر قط ماداً رجله بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد . يكرم من دخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التي تحته . لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته . كان يقول لأصحابه « إن دخلت عليكم وأنتم جلوس فلا يقوم أحد منكم في وجهي ، وإن قمت فكما أنتم ، وإن جلست فكما أنتم ، فإن ذلك خلق من أخلاق المشركين » .

سأله عليّ عن سنته فقال : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل ديني ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر رداً ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفى ، واليقين قوى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرّة عيني في الصلاة » .

تخطت رحمته عالم الإنسان إلى عالم الحيوان . كان يُمرّض بنفسه ديكاً مريضاً ، ويمسح لجواده بكم رذائه ، ويقوم لينتج لحة تموء على بابه . أحب الطيب ، وكان يتطيب بالغالية وبالمسك حتى يرى بريقه في مفرق رأسه ، ويتبخر بالعود ، ويطرح معه الكافور . وكان يُعرف في الليلة المظلمة بطيب ريحه .

كان أنيقاً في ملبسه ، يتجمل لأصحابه ولأهله . لبس من الثياب الصوف والحِبرَة^(١) والقطن ، ولبس السندس والحرير ثم تركه . أحب من الألوان البياض ، والحمرة ، والخضرة ، والصفرة ، والسواد .

فراشه عباءة مثنية أو حصيرة ، ووسادة من آدم محشوة ليفاً . لا يرقد ليلاً أو نهاراً إلا غسل أسنانه بالسواك بعد أن يستيقظ ، وقبل أن يتوضأ .

(١) نوع من الثياب القطنية أو الكتانية المخططة اشتهرت اليمن بصنعها .

مشطه من عاج ، وكان إذا سافر حمل معه المشط والمرآة والدهن والمكحل والمسواك والمقراض في حقيبة من جلد . يكتحل ثلاثاً في كل عين قبل النوم ، ويحتفظ بمنديل يسمح به وجهه من الضوء . هو ذا محمد بطل العرب ونور الدنيا .

لم يكن كل هذا التقشف وهذا الزهد الذى أحاط بهما محمد حياته من متطلبات الدين في شيء ، بل على الضد فإن الدين الإسلامى يدعو الإنسان إلى أن يتمتع نفسه في هذه الدنيا ، ويبتغى له أن يحصل منها على طيبات ما فيها ، ويحثه على إرضاء كل من شهوات الجسد والروح إرضاء تاماً .

ولكن محمداً ضرب أحسن المثل للناس ، فأصبحت سيرته وتصرفاته اليومية في حياته ومعاشه ضابطاً ورابطاً أخلاقياً قوياً ينههم عن ذنوب الأمور ، وعن التكالب الرخيص على هذه الدنيا ، ذلك التكالب الذى من شأنه أن يفسد العلاقات الاجتماعية ، ويحبل المجتمع إلى عصابات من الجشعين المفسدين من ناحية ، وإلى جماعات غفيرة من المحرومين الحاقدين من ناحية أخرى .

* * *

استقر محمد وأصحابه من المهاجرين في المدينة بين ظهراى الأنصار ، وأصبح الدين الإسلامى حقيقة واقعة يشعر بها العرب . وبدأ المسلمون يحسون بقوة ، وأخذوا يقيمون شعائر الدين لأول مرة علناً وبلا خوف وبلا تصد من أحد أياً كان . واستسلمت المدينة عن بكرة أبيها بما فيها من مشركين ويهود إلى هذا الوضع الجديد . وبدأت عندئذ حالة استقرار نسبي تقتضى تنظيماً لشئون المسلمين ، وتتطلب النظر في مختلف الأحوال والملايسات التى تكتنف هذه الدولة الناشئة ، حتى تستقر فيها الأوضاع على أساس ثابت متين . وكان ضرورياً وطبيعياً إذ التأم شمل هذه الدولة الناشئة حول فكرة دينية ، أن يفكر قائد الدولة ومؤسسها أول ما يفكر ، في بناء دار للعبادة يجتمع فيها أنصاره للصلاة ، وهى أكبر أركان الإسلام العمياء .

ومن ثمّة كان أول عمل قام به في المدينة هو بناء المسجد ، فبناه في مكان جرن التمر الذي اشتراه لهذا الغرض كما نوهنا من قبل .

عمل محمد بيديه في بناء المسجد ، ليضرب للمسلمين مثلاً ، وليرغبهم في العمل فيه ، فتهافت المهاجرون والأنصار على العمل ، وكان محمد يحمل الطوب على صدره حتى يغبر من التراب . وقد ارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون :

لاهمّ إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة
فيقول محمد : لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار .

وكان المسجد عبارة عن فناء فسيح ، جدراناه من اللبن ، سقف جزء منه على عمد من جذوع النخل ؛ وجعل سقفه من الجريد . وقد خصص هذا الجزء منه لإيواء الفقراء الذين لا سكن لهم ، وسموا أهل الصفة . ولم يكن المسجد يضاء ليلاً إلا عند فترة صلاة العشاء فقط ، فكان يوقد فيه القش . غير أنهم استبدلوا شعل القش هذه - بعد تسع سنوات - بمصابيح علقوها في جذوع النخل التي أقيم سقف المسجد من فوقها . ولم يزد فيه أبو بكر شيئاً ، ولكن زاد فيه عمر . غير أنه بناه بنفس الطريقة التي بناه بها محمد . ثم زاد فيه عثمان زيادة كبيرة ، فبنى جدراناه بالحجارة المنقوشة والحص ، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه من خشب الساج . أما مساكن محمد ، وهي عدة حجرات ، فكانت حول المسجد ، وكانت بسيطة قصيرة البناء قريبة الفناء ، على غرار المسجد ، ولم يكن لأبوابها حلق ، بل كان يقرعها الطارق بالأظافر . وقد أضيفت الحجر كلها بعد موت أزواج النبي إلى المسجد .

لم تكن هجرة محمد من مكة إلى يثرب نهاية الصراع بينه وبين قريش ، كلا ، فلما وإن كانت في الحقيقة نهاية للصراع السلبي ، فقد آذنت ولا شك

ببداية صراع ساخن تبدى في الأفق واضحاً جلياً . فمحمد يدعو الناس كافة للعودة إلى دين أبيهم إبراهيم ، وهو دين العرب ، والدين القويم ، وإن كانت العرب لبعدهم عهدهم به قد أدخلوا عليه من البسـدع والضلالات ما ليس منه ، فجاء محمد ليصحـه وليطهره وليعيده إلى صفائه الأول . أما مكة ففيها مقام إبراهيم ، البيت العتيق بيتهـم المحجوج ، الذى لا بد للمسلمين أن يهرعوا إليه كل عام ليقيموا شعائر الحج الذى نادى به إبراهيم . إذن فقد أدرك محمد منذ البداية أن صراعاً عنيفاً سيحدث بين المسلمين وقريش ، لأن قریشاً على التأكيد سوف تمنعهم من إقامة شعائر دينهم فى الكعبة كما تمنعهم قبل ذلك ثلاثة عشر عاماً .

من هنا كان لزاماً على مؤسس الدولة الجديدة وقائدها ، أن يعمد أول شيء إلى تثبيت دعائم المجتمع الذى هو قوام الدولة ، وإعطائه قوة روحية واجتماعية ، يكون من شأنها أن تحول دون تفكك عقدة التكافل فى المجتمع . وبذلك يستطيع أن يحـمى الجبهة الداخلية ويصونها من عوامل التفتت ، إذا ما هبت عليها الأعاصير التى توقعها . ألقى محمد نظرة ثاقبة على هذا المجتمع الجديد ، وأيقن ببصيرته أن حياة المسلمين فى يثرب سوف لا تمر هنيئة مريئة لا يعكر صفوها معكر إذا ما تركت بغير رادع أخلاقى متين ، وتنظيم اجتماعى روحى قوى . فقد كان بين الأوس والخزرج خلافات وحزازات فرقتهـم فى الماضى ومزقتهم شر ممزق ، وأقربها إلى الأذهان وقعة بُعث التى قتل فيها كثير من أشراف الجانبين وسادتهم قبل ذلك بعدة سنين . هذا من ناحية ، ثم إنه كان يشوب العلاقات الاجتماعية فى صفوف المسلمين ذلك الفقر الشديد والعوز المضنى الذى أصاب معظم المهاجرين . فقد هاجر كثيرون منهم وتركوا ما يملكون أو أكثر ما يملكون فى مكة ، ذلك أن كفار قریش كانوا يضنون على المهاجرين أن يهاجروا بما يملكون أو حتى ببعض ما يملكون . فكانوا يحولون دون من يقدرون عليه أن يحمل شيئاً من ماله . كما فعلوا مع صُهَيْب إذ جردوه من كل ما يملك . ويروى أن

المهاجرين قاسوا في أول عهدهم بالمدينة مقاساة شديدة ، حتى لقد ذهب حمزة بن عبد المطالب يوماً لابن أخيه وطلب إليه أن يجد له ما يقتات به . عندئذ اقتضت الظروف السياسية والاقتصادية ، وقبل ذلك كله روح الإسلام ، أن يتآخى المسلمون وأن يشعر كل فرد منهم أنه مكفول في مجتمع المسلمين كفالة تامة ، وأنه لا ضياع له فيه ، وأن المسلمين جميعاً إخوة أخوة تامة يعطى غنيهم فقيرهم بالمعروف ، ويعين المقتدر منهم المعوز على الحياة . فأمر محمد المسلمين بأن يتآخوا في الله أخوين أخوين ، وأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال هذا أخي ، فكان وعلي أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب^(١) أسد الله وأسود رسول الله ، وزيد بن حارثة مولى النبي أخوين ، وأبو بكر وخارجة بن زيد الخزرجي أخوين ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين ، وهكذا تآخى كل مهاجري مع رجل من الأنصار .

على أنه لا ينبغي أن يفهم من هذه المؤاخاة أن يستكين المهاجرون ويكفوا عن السعى وراء الرزق . كلا ، فلإنها كانت من هذه الناحية الاقتصادية درساً أخلاقياً واجتماعياً من أعظم الدروس في التنظيم الاجتماعي ، مقتضاه أن يعين المسلم أخاه المسلم في وقت الحاجة الملحة ، وليس معناه التواكل على الغير بلا سبب ولا ضرورة . ثم إن كثيرين من المهاجرين عملوا وأجهدوا أنفسهم في طلب الرزق . يقال بأن سعد بن الربيع الذي آخى عبد الرحمن بن عوف ، قد عرض على عبد الرحمن أن يشاطره ماله ، فرفض عبد الرحمن وطلب منه أن يدلّه على السوق ، وفيها تاجر وربح ما يغنيه . كذلك فعل كثير من المكين وكانوا أهل تجارة ماهرة . أما الذين لم يعملوا في التجارة فقد اشتغلوا بالزراعة في حقول الأنصار مزارعة .

(١) ينكر بعض العلماء صحة مؤاخاة النبي وعلى ، وحمزة وزيد قائلين بأن المؤاخاة قد شرعت لأجل أن يستفيد بعضهم من بعض ولتتلف قلوب بعضهم على بعض ، فلامعنى لمؤاخاة النسي لأحد منهم ، ولا مهاجري لمهاجري آخر ، إلا أن يكون للمؤاخاة غرض آخر .

ثم إن هذه المشكلة لم تكن كل ما واجه محمد في أعقاب استقراره الأول
بيثرب ، ذلك أنه كان بها قبائل يهودية قوية ، كان ينبغي تنظيم علاقة
المسلمين بها . فهل كان محمد ليأمن جانب اليهود بغير معاهدات ومواثيق ؟
وهل كان اليهود اعتباراً للناحية السياسية ، يشجعون حلفاً بين الأوس
والخزرج أم يحاولون نقضه ؟ وهل يؤيد اليهود من الناحية الدينية قيام دين
ينسخ دينهم وإن اعترف بأنبيائهم ؟ والحق أن اليهود مروا قبل ذلك عند
ظهور النصرانية وانتشارها بتجربة قاسية لاقوا منها الأمرين . فهل يقفون
الآن مكتوفي الأيدي إزاء دين يتعصب له الأوس والخزرج هذا التعصب ،
ويتعاملون مع نبيه على حرب الأحمر والأسود من الناس دفاعاً عنه ؟ أياهم
اليهود على أنفسهم مثل هذا الدين ؟ ربما جالت مثل هذه الخواطر في أذهانهم .
ولكن الحقيقة التي بينها التاريخ تثبت أن محمداً لم يكن يفكر في شيء من
هذا ، بل إنه عاهدهم منذ أول مقامه بالمدينة وكتب معهم صحيفة ، هي
ميثاق ما كان ليحل عقده من شيء إلا أن ينقضه اليهود أنفسهم . وقد
فعلوا .

عمد محمد إلى عقد محالفة بين المهاجرين والأنصار واليهود لتحقيق الأمان
والحرية والحماية للجميع ، وكتب بذلك صحيفة . والحق أنها حققت تكافلاً
اجتماعياً رائعاً بين جميع سكان المدينة ، وجعلت منهم وحدة متكافلاً في
سبيل حياة أفضل . جعلت من المسلمين أمة واحدة ، وحشهم على أن يتعاونوا
في الحياة تعاوناً تكافلياً ، وطالبت المؤمنين ألا يتركوا مؤمناً من بينهم مثقلاً
بالدين أو كثير العيال إلا أعطوه بالمعروف ، وعانوه على المضى في الحياة
وخففوا عنه أعباءه في فداء أو دية . وجعلت المؤمنين يدأ واحدة في رفع
الظلم ورد العدوان وإقامة العدل . وأعطت للأضعف المسلمين الحق في أن
يحير عليهم وفي أن يقبل بجواره ، وفي ذلك عزة وقوة للمسلمين صغيرهم
وضعيفهم قبل كبيرهم وقويهم .

ثم إن هذه الصحيفة قد قرّرت لليهود الذين يسالمون المسلمين كامل الحرية في العبادة والمعاملات ، طالما حافظوا على البنود الواردة فيها . وهي أيضاً معاهدة بين المسلمين واليهود في الحرب ، فقد شرطت على المسلمين واليهود أن يحاربوا من ينقض هذه الصحيفة . وأعطت الحق للجميع ، مؤمنين ويهوداً ، أن يعيشوا جنباً إلى جنب في إخاء وحرية تامة ، بحكم علاقاتهم النصح والنصيحة دون الإثم والعدوان . وأخيراً قررت الصحيفة أن من برّ واتى فإنه جوار الله لا يُظلم ولا يُعتدى عليه . وهذا الجوار الأخير أقصى ما يمكن من ضمانات لمن يريد البر والتقوى .

وهذا نص الصحيفة : بسم الله الرحمن الرحيم « هذا كتاب من محمد النبي الأُمي ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربّعتهم (الحالة التي أتى الإسلام وهم عليها) يتعاقلون بينهم (يدفعون الدية شركة فيما بينهم) وهم يفتنون عانيهم (دمهم) بالمعروف والقسط ، وبنو هوف على ربّعتهم يتعاقلون معاقلمهم (دياتهم) الأولى ، وكل طائفة تفدى هانها بالمعروف والقسط بين المؤمنين^(١) .

وإن المؤمنين لا يتركون مثقالاً بالدين أو كثير العيال بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ، ولا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (قوة) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيدبهم عليه جميعهم ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافرأ على مؤمن ، وإن ذمّ الله واحدة يجير عليهم أدانهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى (حلفاء) بعض دون الناس .

(١) ثم ذكر كل بطن من بطون الأزد ، وأهل كل دار : بنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى النجار ، وبنو عمرو بن هوف ، وبنى النبيت .

ولأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم . وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

وإن المؤمنين يمنع بعضهم بعضاً بما نال دماءهم في سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، ولأنه لا يجير مشرك مالا أقرش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن ، ولأنه من قتل مؤمناً ظلماً ، قتلاً عن بينة فإنه قودٌ (قتل القاتل بالقتل) به إلى أن يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

ولأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، ولأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف (نقود) أو عدل (جزاء) وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم فإنه لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته .

وإن يهود بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جشم وبني الأوس وبني ثعلبة وجفنة وبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن بطانة يهود كأنفسهم ، ولأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ، ولا ينجحز على ثأر جرح ، ولأنه من فلك فبفسه فلك وبأهل بيته ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبر هذا ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والتصحية والبر دون الإثم ، ولأنه لم يأتهم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، ولأنه لا تجار حُرمة إلا بإذن أهلها .

ولأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَثٍ أو اشتجارٍ يُخافُ فسادَهُ ، فإن مَرَدَّهُ إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا تُجارُ قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبيهم الذي قبَلْتَهُمْ .

ولأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو آثم ، وإن الله جاد لمن برّ واتي .

نتبين من هذه الوثيقة أن اليهود الذين وقعوا عليها هم فقط الذين كانوا يعيشون في أحياء العرب وكانوا حلفاء لهم ، وأما بنو النضير ، وبنو قيسنق ، وبنو قريظة فلم يوقعوها ، بل وقعوا صحائف شبيهة بها فيما بعد .

وعندما استتب الأمن للمسلمين يثرب ، واستقرت الأوضاع ، ففكر محمد في الدخول بعائشة ، وكان قد عقد عليها قبل الهجرة في مكة كما سبق بيانه .

قال البخاري عن عائشة : « أتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعى صواحب لي ، فصرخت بي فأتيها ما أدري ما تريد مني ، فأخذت يدي حتى أوقفتني على باب الدار ، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي ، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسّت به وجهي ورأسي ، ثم أدخلتني الدار ، فإذا نسوة من الأنصار في البيت ، فقلن : على الخير والبركة وعلى خير طائر . فأسلمتني إليهن فأصلحن من شأنني ، فلم يرعني إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى ، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين » .

وسارت حياة المسلمين آمنة مستقرة ، واستحكم أمر الإسلام ، وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود شيئاً بعد شيء ، وفرض الحلال والحرام ، وآذنت الأحداث بأن الإسلام يتحول ليصبح ديناً ودولة لها شرائعها

وقوانينها ، وأخذ المسلمون يقيمون شعائر الدين علناً وبانتظام وعلى الأخص الصلاة ، وهى ركن الإسلام الركبن ، وأهم مظاهره الخارجية . وكان الناس يجتمعون للصلاة عند مواقيتها بغير دعوة . وعندئذ دعت الضرورة إلى إيجاد طريقة لدعوة الناس إلى الصلاة دفعة واحدة . فاستشار النبي الناس فيما يتخذون ، فذكر بعضهم البوق كما يفعل اليهود ولكنه كرهه ، وذكر آخرون الناقوس كما يفعل النصارى فكره ذلك أيضاً بعد أن كان قد أمر يناقوس أن ينحت . وأخيراً استقر رأى على الأذان ، وفى ذلك رواية تقول بأن عبد الله بن زيد بن ثعلبة قال للنبي : يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف ، مرّ بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً فى يده ، فقلت : يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة . قال : ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول : « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة حى على الصلاة ، حى على الفلاح حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

فلما سمع النبي هذا النداء أعجبه ، وقال : « إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك » . ويروى أيضاً أن بلالاً أضاف فى نداء صلاة الفجر « الصلاة خير من النوم » مرتين ، فأقرها محمد . وكان بلال إذا وجبت مواعيد الصلاة يرتقى منزل امرأة من بنى النجار بجوار المسجد ويؤذن .

علت صيحة الإسلام وتجاوبت بها أصداء الدنيا ، وطارت الريح بشهادة الحق تلقىها فى آذان اليربيين جميعاً ، مسلمهم وكافرهم ، خمس مرات كل يوم ، فيُهرع المؤمنون زرافات ووحدانا نحو المسجد لإقامة الصلاة ، يومهم محمد . وكأنما كان بلال كلما نادى بهذا النداء ، يُسمع الدنيا جميعاً أن فى

الأرض نبياً اسمه محمد ، وأن في السماء إلهاً اسمه الله ، وأن هؤلاء المسلمين أمة واحدة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، هي خير أمة أخرجت للناس .

انتصرت المبادئ التي نادى بها محمد ، وأخذت جحافل البغي والظلام تراجع رويداً رويداً أمام هذا النور الباهر الذي أشرق في صحراء العرب . فسلام عليك أيها الصحراء . سلام عليك أيها البيد المترامية . سلام على رسول الحق والهدى . سلام على الأرض التي غدت وعلى السماء التي أظلتها .

ولكن هل تمضي حياة هؤلاء الثقاة الورعين هائلة واعدة لا يعكر صفوها معكر ؟ كلام كلاً ! وكيف يتأتى ذلك وبين ظهرانيهم وإلى جوارهم جماعات من اليهود العتاة المتعصبين ، الذين أنكروا بداهة صحة نبوة محمد ، لا شيء إلا لأنهم يؤمنون بأن الله لم يرسل نبياً غير موسى ، وأنه ليس من نبي بعده . ومما لا شك فيه أنهم اعتبروا دين محمد بدعة وهرطقة لا قبلها اليهودية . وماذا فعلوا مع عيسى بن مريم ؟ ألم يكذبوه ويضطهدوه ويعذبوه ؟ ولكن ما بالهم يعاهدون محمداً والمسلمين ؟ أما إذا كانوا قد وادعوا محمداً وعاهدوه وعاهدوا المسلمين ، فإن ذلك لم يكن مردده شيء على أية حال ، إلا لغرض في أنفسهم - مهلة يتدبرون فيها أمرهم ويعدون فيها كيدهم . فيها هم أشراف المدينة وسادتها يبايعونه ويمشون في ركابه ، ويعاهدونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فكيف بهم وقد فجأهم الأحداث أن ينقلبوا بين ليلة وضحاها على الأوس والخزرج وكانوا حلفاءهم ؟ وهل من مصلحة اليهود أن يشهروا السلاح منذ اللحظة الأولى في وجه الأوس والخزرج مع ما يعلمون من شدتهم وبأسهم ؟ إذن فليهادنوا المسلمين وليظهروا لمحمد صداقتهم ، وليدخل بعضهم الإسلام نفاقاً وليكونوا جواسيس وخونة ، ولينتظروا الفرصة السانحة للانتقصاص على المسلمين بأسياهم . ولكن حتى تأتي هذه الفرصة ، فحرب الفتنة والجدل والتشكيك يشنونها حامية الوطيس على الإسلام وعلى نبي الإسلام .

مرّ شاس بن قيس ، وهو شيخ يهودى عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم ، على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه . ففاظه ما رأى من ألفتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملائى قيسلته بهذه البلاد ، وما لنا إذا اجتمع أمرهم من قرار ! ثم إنه أمر قى من شباب اليهود كان معهم أن يعمد إليهم فيجلس معهم ، ويذكرهم بيوم بُعث وما كان قبله من حروب بينهم ، ففعل وأنشدهم بعد الأشعار التى قالوها . عندئذ تنازع القوم وتفاخروا حتى تواب رجلا من الأوس والخزرج ، وقال أحدهما لصاحبه : إن شئتم عدنا إلى ما كنا عليه . وعلت صيحة الحرب بينهم ، وهما بالقتال لولا أن بلغت مسامع محمد هذه الفتنة ، فأسرع إليهم ، فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ؛ أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟ . وأطفا صوت محمد تلك الفتنة ، وبكى الرجال وعانق بعضهم بعضاً . وهو يتلو من آيات الله سورة « آل عمران » :

« قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » إلى آخر الآيات .

ودخل أبو بكر يوماً المدراس ، وهو بيت تُدرس فيه التوراة ، وتجادل مع خبر من أحبار اليهود اسمه فينحاص ، فأشار هذا إلى ما جاء القرآن : « وأعرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم » قال : والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقر ! وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى ! ولو كان غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ! ينهاكم عن الربا ويعطيناه . ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا ! .

لم يمالك أبو بكر على وداعته ولين عريكته . فقام إلى فُحاص وضرب وجهه صرباً شديداً وصاح به : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لصربت رأسك يا عدو الله . ولم يابث ففُحاص أن أدرك أنه تهجم على القرآن هذا التهجم القبيح ، فأسرع إلى محمد ينكر وينفى أنه قال شيئاً مما يقول أبو بكر . فنزل قوله تعالى : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق » (١) .

ولم يقتصر اليهود على إثارة الفتن بين المسلمين كما رأينا ، ولا على التهجم على القرآن ومجادلة كبار المسلمين هذا الجذال القبيح . وإنما عمدوا إلى محمد ذاته يحاولون إحراجه . ويأججون عليه بالأسئلة .

فهذا يسأله : أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبياً كما تقول ؟ فيجيب محمد من كلمات الوحي : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يحيلها لوقتها إلا هو ثقلت فى السماوات والأرض لا تأتاكم إلا بغتة يسألونك كأنك حقيق عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٢) .

وذاك يقول : يا محمد ، أما تعلمك هذا إنس ولا جن ؟ فيرد عليه : أما والله إنكم لتعرفون أنه الحق من عند الله ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به .

ويسأله سائل منهم : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ فيتلو عليهم : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » (٣) .

(١) آل عمران ١٨١

(٢) أعراف ١٨٧

(٣) الإخلاص ١ - ٤

ويمضى آخر في إلحاحه : صف لنا يا محمد كيف خلقه ؟ كيف ذراهه وكيف عضده ؟

ثم إن اليهود لم يكتفوا بمثل هذه المواجهة الصريحة ، وإنما عمد جماعة منهم إلى إظهار الإسلام ، واندموا في صفوف المسلمين مع جماعة المنافقين يشيعون جميعهم فيها قالة سوء ويشككون المسلمين في دينهم وفي نبيهم . فهذا زيد بن الصُّلَيْت يقول حين ضلت ناقته محمد : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ! وكثر المنافقون في صفوف المسلمين حتى لقد بلغت بهم الجرأة أن كانوا يحضرون الصلاة في المسجد ويسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بهم وبدينهم . وذات يوم اجتمع أناس منهم بالمسجد فرآهم محمد وهم يتحدثون فيما بينهم في شيء من المنس ، وقد لصق بعضهم إلى بعض ، فأمر بهم أن يخرجوا من المسجد ، فقام المسلمون إليهم وأخرجوهم إخراجاً عنيفاً . فقام أبو أيوب إلى عمرو بن قيس وكان صاحب آلتهم في الجاهلية ، فسحبه من رجله حتى أخرجه وهو يقول : أخرجني يا أبا أيوب من ميريتك (جرت تمر) بنى ثعلبة . واستدار بعد ذلك إلى رافع بن وداعة وأمسك بتلابيبه وهزه هزاً عنيفاً ، ولطم وجهه وأخرجته من المسجد وهو يقول : أف لك منافقاً خبيثاً !

وقام عمار بن حزم إلى زيد بن عمرو ، وكان طويل اللحية ، فأخذ بلحيته وجذبه منها جذباً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد ، ثم ضربه ببطن كفه ضربة شديدة على صدره فخر منها وهو يقول : خدشتني يا عمار . وعمار يقول : أبعذك الله يا منافق ، فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك ، فلا تقربن مسجد رسول الله .

وقام أبو محمد مسعود بن أوس إلى قيس بن عمرو ، وكان شاباً وليس في المنافقين شاب غيره ، وأخذ يدفع في قفاه حتى أخرجه .

وقام رجل من بنى خُدرة إلى رجل يقال له الحارث بن عمر ، وكان

- ١٣٧ -

ذا شعر طويل متدل فأخذ به وسحبه سحباً عنيفاً على الأرض حتى أخرجه
والمنافق يقول : قد أغلظت يا أبا الحارث ، فيقول له : إنك أهل لذلك ،
أى عدو الله لما أنزل فيك فلا تقربن مسجد رسول الله .
وقام رجل من بنى عمرو بن عوف إلى أخيه زوى بن الحارث فأخرجه
خارجاً عنيفاً وقال : غلب عليك الشيطان وأمره .
وقد نزلت في هؤلاء آيات من سورة البقرة ومن سورة التوبة .

الفصل الخامس

القتال ومشروعيته

لم تمض عدة أشهر على استقرار المسلمين في يثرب حتى بدأ محمد في توجيه سرايا متتالية للاستطلاع والإغارة على قريش . فلماذا تبدلت عندئذ المفاهيم التي نادى بها الإسلام في مكة من مفاهيم سلام تام إلى مفاهيم تدعو إلى القتال ؟ ثم ما هي مشروعية هذه الحروب التي شنها الإسلام ؟

رأينا فيما سبق كيف أن العرب في ذلك الوقت كانوا يتمتعون بقسط كبير من حرية الفكر ، الأمر الذي هباً لأذيان كثيرة ولعبادات مختلفة أن تعيش في جزيرة العرب جنباً إلى جنب من غير أن يحدث صدام مسلح بين تابعيها . فقد عرفت جزيرة العرب إبان ظهور الإسلام الموحدين ، واليهود ، والنصارى ، وعبدية الأصنام ، وعبدية الشمس ، وعبدية القمر ، وعبدية الجن ، وعبدية النار ، وعبدية الكواكب ، والدهريين ، والصابئة ، والزنادقة ، والثنويين ، وكانت كل طائفة من هذه الطوائف حرة في الدعوة لما تؤمن بأنه الحق . فكان رهبان النصارى أو أحبار اليهود أو الموحدون من العرب مثل قُس بن ساعدة أو غيره يغشون متتديات العرب ويطوفون بالأسواق ، كل منهم يدعو إلى ما يؤمن به من غير أن يتعرض من خصومه في الدين إلا للمجادلة بالتي هي أحسن .

وهنا في هذا الجو المثالي من حرية الفكر ظهر الإسلام . وبدأ محمد يدعو لدينه ويبشر برسالاته .

دعاهم محمد إلى الخيفية . دين أبيهم إبراهيم الذي تلقوه عن ولده إسماعيل أبي العرب ، وهو الدين الحق الذي كان يؤمن به آبائهم وأجدادهم

في سالف الزمن ، والذي دخلت عليه البدع والضلالات ، تلك البدع والضلالات التي أرسل الله رسوله محمداً ليظهره منها ، وليعيد الدين الحق إلى صفائه الأول . وقد رأينا فيما سبق عند الحديث عن أديان العرب في الجاهلية ، كيف ذكروهم الإسلام مراراً وتكراراً بأنهم إنما يؤمنون بالله ، وأنهم يعرفون أنه يحيي ويميت ، وأن بيده الأمر ، وأنه سميع بصير مجيب ، إلى آخر ما يتصف به جل شأنه . ولم يكن شيء من هذا غريباً على أسماعهم ولا مستهجناً ولا مستنكراً .

ثم إن الإسلام لم يشذ عن القواعد العامة التي كانت تحكم حرية الفكر في بلاد العرب . فقد جاءت كل تصرفات محمد وكل أوامر الله في آيات القرآن طوال العهد المكي تدعياً لهذه الحرية الفكرية وإطلاقاً لها ، وانحصرت الدعوة في هذا الإطار السلمي التام الذي بشرت به آيات القرآن الكريم كقوله تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » (١) ، وقوله : « لكم دينكم ولي دين » (٢) . وقوله : « فن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٣) . وقوله : « فلأن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيفاً إنا عليك إلا البلاغ » (٤) . وقوله : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٥) .

ولكن مهما يكن من أمر الدعوة السلمية في ذلك الوقت في مكة وما انطوت عليه من أوامر ربانية ، دليلها ما جاء في القرآن كما رأينا ، فلإن روح الإسلام ذاته كانت واضحة جلياً في الإفصاح عن المتجه الذي لا بد أن يتجه إليه المسلمون إذا ما تمكن لهم الأمر . وهو هدم أصنام الكعبة لا مراعاة ذلك ، الأمر الذي لا بد أن تعارضه قريش بطبيعة الحال معارضة صارمة .

(١) الفاشية ٢١ - ٢٢ .

(٢) الكافرون ٦ .

(٣) النور ٤٨ .

(٤) النور ٢٩ .

(٥) يونس ٩٥ .

ثم إن الحقيقة الماثلة التي نستطيع استجماعها من الأوضاع التي سادت في مكة قبل ظهور الدعوة إلى الإسلام وفي إبانها ، تشير إلى أن موقف سادات قريش من دعوة محمد كان ذا شقين . الشق الأول دافعه الحسد والتنافس بين بنى هاشم وبنى أمية ، والشق الثاني وهو دعوى الدفاع عن دين الآباء والأجداد الذي هاجمه محمد . والحق أنه مهما يكن من أمر سُخِّفَ فكرة دينية كسُخْفِ عبادة الأوثان ، فإنه ليس من السهل قطعاً على الإنسان أن ينسى التقاليد التي نشأ عليها ونشأ فيها آباؤه وأرضعوه إياها منذ طفولته وصباه ، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من نفسيته وقطعة من وجدانه لا يسهل نزعها عنه . وقد يكون في قوله تعالى : «ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل» (١) تبيان لحقيقة المتجهات النفسية للإنسان إذا ما سيطرت عليها أفكار معينة ، يكون من شأنها أن تنأى به عن سواء السبيل .

ونحن إذا قلنا أوجه النظر في فكرة الإسلام الأساسية وهي أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً رسول الله ، وأن الدين الإسلامي لا يكمل ولا يستقر له حال إلا إذا أقيمت شعائره في البيت العتيق ، أول بيت أقيم لعبادة الله في الأرض وأطهر بيت وأقدس بيت عند المسلمين ، إذن لاستطعنا أن نفهم تماماً كيف كان محمد والمسلمون ينظرون عندئذ إلى حقائق الأوضاع في جزيرة العرب ، وكيف أنهم آمنوا إيماناً لا يتطرق إليه الشك بأنه من واجبه المقدس أن يبذلوا المال والدم والعرق في سبيل نصرته هذا الحق ، وفي سبيل إنقاذ بيت الله الحرام من أيدي المشركين إن استطاعوا ، أولئك الذين أدخلوا عليه هذه البدع وهذه الضلالات التي ينهائم عنها ربهم ، وارتدوا من عبدة الله الموحدين إلى هذا الشرك القبيح .

ونشأ النزاع كما رأينا فيما سبق واتسعت دائرته ، وتمسك محمد برسالته دائماً وفي كل الظروف ، وعند ما كان رجلاً فرداً ليس من حوله غير عدد قليل من الذين آمنوا به وبرسالته لا يغنون عنه شيئاً ، وأصر إصراراً على أنه لن يكف عن قريش حتى تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإن في قوله : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك فيه ما تركته » لأبلغ بيان عن إيمانه وعن لموادته وعن نورانيته . ثم إنه كان في هذا كله إنما يصدع بأمر ربه ، وبالفكرة التي سيطرت على جميع مناحي تفكيره . وبما لا شك فيها أنها كانت فكرة أرقى كثيراً من جميع الأفكار الشائعة في عصره .

عارضته قريش أشد معارضة ٥ ولقد رأينا فيما سبق مراحل الصراع الذي نشأ بينه وبينهم في مكة ، وكيف انتهى هذا الصراع باضطراب المسلمين إلى الهجرة من مكة ، وتآمر سادة قريش على قتله . فلما تطور النزاع إلى هذا الحد ، وأصرت قريش على مقاتلة المسلمين دون الكعبة ، وأجلتهم أخيراً من ديارهم نزلت الآيات الكريمة :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » (١) .
ثم نزل قوله تعالى في قتال قريش في سورة البقرة :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقتهموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » (٢) .

(١) الحج ٣٩ - ٤٠ .

(٢) البقرة ١٩٠ - ١٩٣ .

فلما تمالأ على المسلمين بعض قبائل العرب من غير قريش ، واتحدوا مع قريش في القتال ضد المسلمين ، أصبح قتال المشركين كافة أمراً لا مناص منه ، فنزلت الآية من سورة التوبة .

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (١) .

وحتى ذلك الوقت لم يكن قتال بين المسلمين وأهل الكتاب ، ولكن أثبتت الأحداث أيضاً أن اليهود قوم لا يحافظون على عهودهم ، إذ أنهم نقضوا العهود التي عاهدوا عليها المسلمين ، وانحازوا إلى المشركين في الكيد للإسلام ، فنزل الأمر بقتالهم في الآية الكريمة من سورة الأنفال :

« ولما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » (٢) .

ولما تمالأ النصارى أيضاً على المسلمين نزلت الآية الكريمة من سورة التوبة :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (٣) .

ونزلت آيات كثيرة في حرض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله وعلى القتال لجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الكفار هي السفلى :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » (٤) .

« تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله » (٥) .

« يأبى النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » (٦) .

« انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » (٧) .

(٣) التوبة ٢٩ .

(٢) الأنفال ٥٨ .

(١) التوبة ٣٦ .

(٦) التوبة ٧٣ .

(٥) الصف ١١ .

(٤) الحجرات ١٥ .

(٧) التوبة ٤١ .

« وجاهدوا في الله حق جهاده » (١).

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وَعَدَ الله الحسنَى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » (٢).

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن » (٣).
« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » (٤).

« يأبى الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (٥).

يبين جلياً مما سبق أن القتال لم يشرع في الإسلام للعدوان على أحد ، فليس في الإسلام حرب عدوانية بأية صورة من الصور ، فإن الله ينهى عن العدوان : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (٦) . ولم يحدث أن قاتل محمد أحداً على الدخول في الدين غير مشركي جزيرة العرب بعد أن تأزمت الأمور ، وتألبوا على الإسلام ، وأصبح تجمعهم خطراً يهدد بقاء الدين ذاته . عندئذ أصبح الجهاد ضدهم عاماً « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (٧) . واتخذ منهم الرسول موقفاً صارماً يعبر عنه ما أثر عنه : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

(١) الحج ٧٨ .	(٢) النساء ٩٥ .	(٣) التوبة ١١١ .
(٤) النساء ٧٤ .	(٥) الأنفال ١٥ - ١٦ .	
(٦) البقرة ١٩٠ .	(٧) التوبة ٣٦ .	

أما اليهود والنصارى فإنهم أيضاً قلبوا ظهر الحن للمسلمين ، فأمر الله بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، مع تأمينهم على دينهم . ولإذن تدرجت مشروعية القتال في الإسلام حسب الظروف الخاصة التي واجهها الإسلام ، من حرب قريش ، إلى حرب المشركين كافة ، إلى حرب أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولم يشذ الإسلام عن الخطة التي انتهجها ثلاثة عشر عاماً طوالاً في مكة ، من الدعوة إلى الدين بالتي هي أحسن ، والإيمان ببحرية الفكر للجميع إلا لضرورات حتمتها ظروف أحاطت به كان من شأنها لو تهاون المسلمون أن تقتاح جذور الإسلام اقتلاعاً . ثم إن الإسلام ظل بعد أن انقضى هذا الظرف الطارئ وظلت روحه دائماً تنادى بأن من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وعاش الإسلام بعد أن خرج من هذه الحن التي تهددته في أوائل عهده ، دين الفطرة ودين الحرية لا ميريّة في ذلك . فليس في الإسلام كنيسة ولا رهبنة ولا قديسون ولا رجال دين ، وليس فيه تدخل من أى كان ولا من محمد ذاته بين الإنسان وربه . فالإنسان في الإسلام حر كامل الحرية ، وهو تحت بصر الله وسمعه وحده منذ مولده حتى وفاته . والله وحده هو القادر على الحكم عليه وعلى أعماله ، وهو الذى يجزى الذين أساءوا بما عملوا ، والذين أحسنوا بالحسن .

الفصل السادس

بدء القتال

بعد أن استقر المهاجرون في المدينة وبعد أن توطدت أوضاع المسلمين عامة واستتب لهم الأمر وأمنوا على أنفسهم ونزلت الآية الكريمة : « اذِْن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » (١) ، عندئذ بدأ محمد في توجيه السرايا وفي الخروج بنفسه على رأس المقاتلين ، وقد سميت الفرق المقاتلة التي خرجت بدون محمد سرايا ، وسميت تلك التي خرج بنفسه على رأسها غزوات . ولقد بدأت هذه السرايا والغزوات التصدى للمشركين بعد ستة أشهر فقط من مقام المهاجرين بالمدينة . ثم توالى ضد العرب كافة ، ثم ضد اليهود والنصارى حسب المبادئ التي بينها في الفصل السابق .

غير أن كتاب السيرة لا يتفقون في واقع الأمر على عدد هذه السرايا والغزوات . فيقال إن عدد الغزوات ست عشرة أو سبع عشرة أو ثمان عشرة أو تسع عشرة . ويقال إن الرسول حارب في ثمان أو تسع منهن هي بدر الكبرى ، وأحد ، والأحزاب ، وقربظة ، والمصطلق ، وخيبر ، والفتح ، وحنين . ، والطائف . وقيل أيضاً إنه قاتل في غزوة بني النضير وفي الغابة . أما السرايا فقد قيل إنها كانت أربعاً وعشرين أو ستين أو نيفاً وسبعين .

بدأت الحرب بإرسال سرايا للاستطلاع وجس النبض ، أو الإغارة إن أمكن ، أو لاعتراض قوافل قريش في ذهابها للشام وفي إيابها منه . ولا يهم أن عدد الذين كانوا يخرجون في هذه السرايا الأولى كان قليلاً ، ذلك أن العرب كانوا يغيرون بأعداد قليلة في بعض الأحيان ، بل إن منهم

(١) الحج ٢٩ - ٤٠ .

من كان يغير فرداً واحداً . ثم إن هذه السرايا الأولى التي لم يخرج فيها أحد من الأنصار ولم يستكره فيها أحد على الخروج ، ربما تحمل معنى هاماً هو ترويض الأنصار على فكرة الحرب ، وعلى أن بيعة العقبة الثانية التي عاهدوا محمداً بمقتضاها على حرب الأحمر والأسود من الناس دفاعاً عنه ، قد تنقلب الآن هجوماً على أهل مكة لانتزاع الكعبة بينهم المحجوج منهم ، وهي موضع ركن من أركان الدين لا ينبغي أن يظل في أيدي المشركين يدنسونه بأصنامهم ، وإن كان الحج لم يفرض بعد .

أرسل محمد في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلاً وعقد له لواء أبيض حمله أبو مرثد الغنوي ، ليعترض قافلة من قوافل قريش التجارية وهي راجعة من الشام ، كان فيها أبر جهل وثلاثمائة من المشركين . فلقبه حمزة عند ساحل البحر ، غير أن مجدي بن عمرو الجهني حمز بن الفريقين فطاعوه وانصرفوا بغير قتال .

وفي شوال من نفس السنة عقد النبي لعبيدة بن الحارث لواء أبيض حمله مسطح بن أثاثه ، على رأس ستين أو ثمانين من المهاجرين أيضاً ليس فيهم أنصارى واحد ، وأمره بالمسير ليعترض قافلة لقريش . فالتقى الجمعان عند بطن رابغ وهو واد بين مكة والمدينة قرب البحر . وكان في قافلة قريش مائتا رجل على رأسهم أبو سفيان صخر بن حرب ، أو عكرمة بن أبي جهل ، أو مكرز بن حفص ، غير أنه لم يقع بينهم غير الرمي بالنبل دون المسابقة . رمى سعد بن أبي وقاص سهماً ، فكان أول سهم رمى به في سبيل الله في الإسلام . وارتد المشركون فارين بتجارهم خشية أن تكون هذه السرية طليعة لعدد أكبر من المسلمين ، ولم يتبعهم المسلمون بطبيعة الحال لقلة عددهم . وفر من صفوف المشركين إلى المسلمين المقداد بن الأسود وعُتْبة بن غزوان وكانا قد أسلما من قبل وخرجا في القافلة ليصلا إلى المسلمين .

وفي نفس هذه السنة أيضاً عقد محمد لسعد بن أبي وقاص لواء أبيض حمله المقداد بن الأسود ، على رأس عشرين رجلاً أو أحد وعشرين رجلاً من المهاجرين للتصدى لقافلة أخرى من قوافل قريش ، وأمره ألا يجاوز النحرار ، فلما بلغ ذلك الموضع كانت القافلة قد سبقته بيوم فلم يتبعها .

وفي أوائل السنة الثانية في شهر صفر خرج محمد ليعترض قافلة لقريش واستعمل على المدينة سعد بن عبادة . وكان لوائه في هذه الغزوة مع عمه حمزة وكان أبيض . سار حتى بلغ ودّان ، وهي غزوة الأبواء ، وتسمى غزوة ودّان أيضاً . وهذه أول غزوة غزاها ، غير أنه لم يلق حرباً لأن القافلة كانت قد سبقته . وفي هذه الغزوة صالح بن ضميرة على أنهم آمنون على أنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم ، وأن عليهم نصرة المسلمين إذا دعوا إلى ذلك . وكان الذي وادعه منهم مخشي بن عمرو الضميرى ، وكان سيدهم آنذاك . ورجع المسلمون إلى المدينة بعد خمس عشرة ليلة .

وبعد عودته إلى المدينة بقليل بلغه أن قافلة فيها أمية بن خاف ومعه مائة رجل وألفان وخمسمائة بعير آية من الشام ، فخرج إليها في شهر ربيع الأول من السنة الثانية في مائتي راكب من المهاجرين يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص ، واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون أو سعد ابن معاذ . وسار حتى بلغ بواط وهي جبال جهينة من ناحية رضوى ، غير أن القافلة كانت قد سبقته ، فرجع إلى المدينة بعد أن لبث ببواط بقية شهر ربيع الأول وبعض جمادى الأولى .

ولم يمض غير قليل حتى بلغه أن قريشاً قد أخرجت أعظم قوافلها ، وهي قافلة جمعت قريش فيها كل أموالها ، وكان يرأسها أبو سفيان صخر بن حرب ومعه بضعة وعشرون رجلاً . فخرج لها محمد في جمادى الأولى في مائة وخمسين من المهاجرين يحمل لواءه عمه حمزة ، واستخلف على المدينة باسامة بن عبد الأسد . فلما بلغ موضعاً يقال له العُشيرة من بطن ينبع

كانت القافلة قد سبقته ومرت قبل ذلك بأيام ، وفي هذه الغزوة حالف بنى مُدَلَج وحلفاءهم . ثم رجع انتظاراً لعودة هذه القافلة من الشام ، وهى القافلة التى خرج للقائها فكانت غزوة بدر العظمى .

وبعد رجوعه إلى المدينة بعدة أيام لم تبلغ العشر أغار كُزُرُ بن جابر الفهري على أنعام المدينة وهى ترعى فى مراعيها وهرب . فخرج إليه محمد وحمل لواءه على بن أبى طالب . واستخلف على المدينة زيد بن حارثة . وسار يحد فى أثره حتى بلغ سَفَوَانَ وهو واد من ناحية بدر ، ولكن فاته كُزُرُ فلم يلق حرباً . وتسمى هذه الغزوة بغزوة بدر الأولى .

وفى رجب من هذه السنة أيضاً أرسل عليه السلام سرية من ثمانية من المهاجرين يرأسها عبد الله بن جَحَش بن رِثَاب الأسدي . وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ويمضى لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً .

فلما سار بهم يومين فتح كتاب محمد فإذا فيه « إذا نظرت فى كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » . فلما نظر فى الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، وأخبر أصحابه بما جاء فيه وقال : قد نهانى رسول الله أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فليطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فامض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلم يتخلف من أصحابه أحد ومضوا جميعاً إلى وجهتهم . غير أن سعد بن أبى وقاص وعُتْبَةُ بن غزوان أضلوا فى بعض الطريق بعيداً لهما كانا يتناوبان ركوبه فتخلفا فى طلبه ، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزلوا نخلة .

وفى تلك الأثناء مرت بهم قافلة لقريش فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان ابن عبد الله بن المغيرة المخزومي ، وأخوه نوفل . والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة . فتشاور عبد الله بن جحش وأصحابه فى أمرهم ، وكان ذلك فى آخر يوم من رجب فقالوا : والله لئن تركناهم هذه الليلة لتمكدوا من

دخول الحرم وامتنعوا به منكم ، ولئن قتلناهم كان قتلناهم في الشهر الحرام . ثم إن القوم هابوا الإقدام على هذا العمل ، غير أنهم تشجعوا أخيراً وأجمعوا على قتل من يقدر على قتله منهم ، وأخذ ما معهم ، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستسلم عثمان بن عبد الله والحكم ابن كيسان للأسر ، وأفلت نوفل بن عبد الله فلم يدركوه ، فكان ابن الحضرمي أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين . وكانت الغنيمة التي غنموها أول غنيمة غنمها المسلمون ، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسره المسلمون . وكانت الغنيمة في ذلك الوقت كلها لمن غنمها ، غير أن عبد الله بن جحش قال لأصحابه : إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما غنمنا الخمس ، وعزله وقسم الباقي بين أصحابه ، وذلك قبل أن ينزل الخمس ، فنزل كما قسمه عبد الله بن جحش .

فلما قدم عبد الله وأصحابه على محمد قال : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » . وأوقف الغنيمة والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً . فلما قال ذلك محمد أسقط في يد القوم ، وظنوا أنهم هلكوا وعنفهم لإخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وعابتهم قريش وقالت إن محمداً وأصحابه قد استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال . واتهم اليهود هذه الفرصة لبث فتنهم وأخذوا يفائلون بذلك على الرسول ويقولون : عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله . عمرو : عمرت الحرب . والحضرمي : حضرت الحرب . وواقد : وقدت الحرب . وأكثر الناس في ذلك فأنزل الله تعالى قوله ليقطع به ألسنة سوء وليهدى به نبيه والمسلمين ، قال : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » (١) .

فلما نزل القرآن بهذا التصريح وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف ، قبض محمد الغنيمه والأسيرين . ولما بعثت قريش في فداها رفض محمد أن يقبل الفداء حتى يقدم سعد بن أبي وقاص وعتبة ابن غزوان وقال : « إنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم » . فلما قدم سعد وعتبة أفداهما محمد . وأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه وأقام عند محمد حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة ومات بها كافراً .

ولما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طمئعوا في الأجر فقالوا : يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزاة تُعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله فيهم : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » (١) .

وبعد غزوة عبد الله بن جحش هذه ، أى بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهراً مضت على المسلمين في المدينة ، وكان محمد يستقبل حتى ذلك الحين بيت المقدس في صلاته ، وكان يجب أن تكون قبلته الكعبة ويقاب وجهه في السماء داعياً ربه أن يجيبه إلى رغبته نزل قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولتوا وجوهكم شطره » (٢) .

فلما نزل تحويل القبلة إلى الكعبة طعن اليهود في ذلك وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فأجابهم الله على تساؤلهم بقوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » (٣) .

وفي هذه السنة أيضاً ، أى في أواخر السنة الثانية فرض الصيام بنزول قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين

من قبلكم لعلمكم تتقون . أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر
فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع
خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون . شهر رمضان
الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد
منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر^(١) .

وفي تلك الأثناء أيضاً أمر محمد الناس بركة الفطر ، وقد قيل إنه
صلى بالناس قبل عيد الفطر بيوم أو يومين وخطب فيهم وأمرهم بهذه الزكاة .
كذلك فرضت زكاة المال ، وهى التى تفرض للفقراء والمساكين على الأغنياء .
فاذا بلغت الدنانير عند المسلم عشرين أو الدراهم مائتين ، ومضى عليها عام
كامل ، وجب عليه أن يؤدى عنها ربع عشرها أى اثنين ونصفاً فى المئة ،
وإذا بلغت الأغنام أربعين والبقر ثلاثين والإبل خمساً ، ومضى عليها العام
وجب عليه كذلك أن يؤدى منها جزءاً معلوماً . ومثل ذلك مواد التجارة
والمحاصيل الزراعية . ويقبض الإمام هذه المبالغ ويوزعها على مستحقها
من الفقراء والمساكين وبقية المذكورين فى آية الصدقة : « إنما الصدقات
للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين
وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم »^(٢) .

الفصل السابع

غزوة بدر العظمى

يوم الفرقان يوم التقى الجمعان

كانت قافلة قريش التي عمده محمد إلى اعتراضها في غزوة العشيرة وهي ذاهبة إلى الشام من أعظم القوافل التي كانت تبعث بها قريش في تجارتها ، ولقد كان فيها ألف بعير تحمل أموال قريش بأسرها ، ذلك أنهم جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق منهم رجل أو امرأة يملك شيئاً إلا استغله فيها غير حويطب بن عبد العزى فقط ، ولهذا تخلف عن بدر . ولقد قدرت الأموال التي استغلها قريش في هذه القافلة بحوالى خمسين ألفاً من الدنانير . أفلتت هذه القافلة من المسلمين في رحلة الذهاب ، فظل محمد يتسقط أخبارها في العودة حتى علم برجوعها وعلى رأسها أبو سفيان صخر بن حرب ، ومعه ثلاثون أو أربعون رجلاً منهم عمرو بن العاص ، ومخرمة بن نوفل . وعندئذ جمع المسلمين وأخبرهم بعودة القافلة وفيها أموال قريش وطلب منهم الخروج إليها لعل الله يغنمهم إياها . ولما كان يتمجل الخروج إليها خشية أن تغلب منه كما فلتت في ذهابها ، طلب من المسلمين أن يركب معه من كانت دابته حاضرة . ولذلك تخلف عن الخروج معه قوم من المسلمين ظناً منهم أنه لم يرد حرباً ، ولم يتوقعوا معركة كمعركة بدر .

خرج محمد على رأس حوالى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، منهم مثنان ونيف وأربعون من الأنصار والباقيون من المهاجرين ، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم للصلاة بالناس .

أما أبو سفيان فإنه حين دنا من الحجاز ، وكان يتوقع اعتراض محمد وأصحابه لقافلته ، أخذ يتحسس الأخبار ممن كان يلقي من المسافرين تخوفاً على

أموال الناس ، حتى علم من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لملاقاته . وعند ذلك استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري ، وبعثه إلى مكة على عجل ليخبر قريشاً الخبر ويستنفر أهلها إلى أموالهم ، فأسرع ضمضم إلى مكة حتى إذا ما بلغها أخذ يصرخ وهو واقف على بعيره ويقول : يا معشر قريش التجارة التجارة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث !

أسرع الناس وتجهزوا للخروج وهم يقولون : أياظن محمد وأصحابه أن تكون كقافلة ابن الحضرمي ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك . ولم يتخلف أحد في الخروج ، فلما أن يخرج الرجل بنفسه أو يبعث مكانه رجلاً ، ولم يتخلف من أشراف قريش أحد إلا أبو لهب بن عبد المطالب إذ بعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة ، استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه قد أفلس بها . وأراد أمية بن خلف أن يتخلف وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً فأتاه عقبه بن أبي معيط ، وهو جالس في المسجد الحرام بين ظهري قومه بمحجرة يحملها فيها نار ومجمر ووضعها بين يديه ثم قال : يا أبا صفوان استجمر فلما أنت من النساء ! فقال له أمية : قبّحك الله وقبّح ما جئت به . ثم قام وتجهز وخرج مع الناس . وروى البخاري قصة أخرى في تقاعس أمية عن الخروج مع القوم ثم خروجه ، قال :

كان سعد بن معاذ الأنصاري صديقاً لأمية بن خلف ، وكان أمية إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد بن معاذ ، وكان سعد إذا مرّ بمكة نزل على أمية . ثم إنه حدث أن سعداً انطلق بعد هجرة محمد إلى المدينة قاصداً مكة للعمرة فنزل كعادته على أمية بن خلف ، وقال سعد لأمية : تحين لي ساعة نخلتوها حتى أطوف بالبيت ، فخرج به في حوالى منتصف النهار ، فلقيهما أبو جهل فقال لأمية : يا أبا صفوان من هذا معك ؟ قال : هذا سعد . قال أبو جهل لسعد : ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أوتيت الصباة وزعمتم

أنكم تنصرونهم وتعينونهم ، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً .

فقال له سعد ، وقد رفع صوته عليه : أما والله لئن منعني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه : طريقك إلى المدينة .

فقال له أمية : لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم ، فإنه سيد أهل الوادي . فقال سعد : دعنا عنك يا أمية . فوالله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لإنهم قاتلوك . قال أمية : بمكة ؟ قال سعد : لا أدري . ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً . فلما رجع إلى أهله قال : يا أم صفوان ألم ترى ما قال لي سعد ؟ قالت : وما قال لك ؟ قال : زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي ، فقلت له : بمكة ؟ قال : لا أدري . ثم إن أمية عزم على ألا يخرج من مكة .

فلما كان يوم بدر واستنفر أبو جهل الناس وكره أمية أن يخرج ، أتاه أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، إنك متى يراك الناس قد تخلفت ، وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك . ولم يزل به أبو جهل حتى قال : أما إذا غلبني فوالله لأشترين أجود بعير بمكة . ثم قال أمية لزوجته : يا أم صفوان جهزني . فقالت له : يا أبا صفوان ، أقد نسيت ما قال لك أخوك البثراني ؟ والله إن محمداً لا يكذب . قال : لا ، وما أريد أن أسير معهم إلا قريباً . وكان إذا نزل منزلاً يعقل بعيره حتى لا يبتعد عنه ، ولم يزل كذلك حتى قتل يوم بدر .

والحق أن في هذه القصة دليلاً وأى دليل على ما كان لمحمد في نفوس الناس أجمعين ، مسلمين وكفاراً ، من تأثير قوى جداً . وما لا شك فيه أن كثيراً من انتصارات محمد الرائعة التي حققها كانت راجعة في كثير من الأحيان وبصورة كبيرة إلى أسباب ومؤثرات نفسية . حقاً إن العربي لم يكن يخشى الحرب ولا الموت في ميدان القتال ، ولكن إذا ما سيطرت على

عقله فكرة أنه مقتول لا محالة هاب الموت ولا شك . ولا غرابة في أن يخشى الناس ما يتنبأ به رجل تكلمه السماء ، ما عهدوه يكذب قط ، وإن شكوا في أن السماء تكلمه .

خرجت قريش في تسعمائة وخمسين مقاتلاً ومعهم مائتا فرس وسبعائة يعير ، يتبعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين ، وكان أول من نحر لهم حين خرجوا من مكة أبو جهل ، نحر لهم عشراً ، ثم نحر لهم أمية بن خلف عند ما بلغوا عسفان تسعاً ، ونحر لهم سهيل بن عمرو بقديده عشراً ، ثم اتجهوا نحو البحر وأقاموا يوماً فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعاً ، ولما بلغوا الجحفة نحر لهم عتبة بن ربيعة عشراً ، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم نُبَيْشَة ومُنْبِشَة ابنا الحجاج عشراً ، ثم نحر لهم العباس بن عبدالمطلب عشراً ، ونحر لهم أبو البختري عشراً ، ثم أكلوا من أزوادهم .

أما محمد فكان خروجه في شهر رمضان ، وكان حامل لوائه مُصَنَّب ابن عُمَيْر . وكان بين يديه رايتان سوداوان ، إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها العقاب ، والأخرى مع رجل من الأنصار هو سعد بن معاذ أو الحُبَّاب بن المنذر . ولم يكن معهم غير فرسين أحدهما مع الزبير بن العوام على الميمنة ، والآخر مع المقداد بن الأسود على الميسرة . وكانوا يتناوبون ركوب سبعين يعبراً ليس معهم غيرها ، كل ثلاث على يعير . وكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي محمد على يعير . فلما جاء دور محمد في المشي قال له زميلاه : نحن نمشي عنك . فقال وما أجمل ما قال ، وما أروع ما أعطى من مثل أعلى يضرب للناس في كل زمان ومكان : ما أنتم بأقوى مني ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما .

سلك الجيش طريقه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ، ثم على العقيق ، ثم على ذي الحليفة ، ثم على أولات الجيش ، ثم مرّ على ثربان ، ثم على مزل ، ثم على غميس الحمام ، ثم على صُخَيْرَات اليمامة ، ثم على

السيالة ، ثم على فجّ الروحاء (وهنا رد محمد أبا لبابة إلى المدينة واستخلفه عليها) ثم على شئوكة ، وهى الطريق المعتدلة . ولما بلغ عرق الطّيبية لقي رجلاً من الأعراب ، فسأله عن قريش فلم يجد عنده خبراً . فقال الناس للرجل سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أوفيكُم رسولُ الله؟ قالوا : نعم . فسلم عليه ثم قال له : لئن كنت رسول الله فأخبرني عما فى بطن ناقى هذه . وعندئذ قال له سلمة بن سلامة بن وقش : لا تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل علىّ فأنا أخبرك عن ذلك ، فإنك نزوت عليها فى بطنها منك سلخة — أى وثبت عليها فحملت منك جدياً هو الذى فى بطنها . فقال محمد : مه أفحشت على الرجل ، ثم أعرض عن سائمتة .

ثم نزل على سبج وهى بئر الروحاء ، ثم رحل عنها ، حتى إذا بلغ المنصرف ترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدياً ، حتى إذا ما بلغ وادياً يقال له ذفران جاءته رسلة بالخبر عن قريش وعن مسيرهم ليجتمعوا قافلهم . فاستشار الناس ، فقام أبو بكر الصديق فتحدث وأحسن ، وقام عمر بن الخطاب فتحدث وأحسن .

ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالله الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (مكان بأقصى جنوبى جزيرة العرب) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فأثنى عليه محمد ودعا له .

ثم قال محمد لأصحابه : أشيروا علىّ أيها الناس . وإنما كان يريد بذلك الأنصار ، أولاً لأنهم كانوا معظم جيشه الذى خرج به من المدينة ، وثانياً لأنهم حين بايعوه بالعقبة انحصرت بيعتهم فى قولهم : يا رسول الله إنا براء

من ذمتك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبنائنا ونساءنا . لذلك تخوف محمد ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ما دام بين أظهرهم في المدينة ، وأن ليس عليهم أن يقاتلوا معه خارج المدينة .

فلما قال ذلك وفهم الأنصار ما يرى إليه ، قال رئيسهم سعد بن معاذ : والله إكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . قال : فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله .

سُرَّ محمد بمقالة سعد وانشرح لها صدره وأثنى على سعد ونشطه ، ثم قال : « سيروا وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

ثم ارتحل من ذفران حتى نزل قريباً من بدر . وهناك انطلق محمد على بعيره ومعه أبو بكر حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه فعلم منه أن قريشاً بمقربة منه . ثم رجع إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث على بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، في نفر من أصحابه ، إلى ماء بدر يلتمسون له الخبز . وهناك أصابوا سقاة لقريش فيهم أسلم غلام بنى الحجاج ، وعريض أبو يسار غلام بنى العاص ابن سعيد ، فأتوا بهما إلى معسكر المسلمين وأخذوا يستجوبونهما ، ومحمد يصلى ، فقالوا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء . غير أن القوم رجوا أن يكونا لأبي سفيان وهما يكذبان ، فلما آذوهما قالوا : نعم نحن لأبي سفيان ، فتركوهما .

فلما فرغ محمد من صلاته قال : « إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ! صدقا والله لإنهما لقريش . ثم طلب منهما أن يخبرا عن قريش ، فقالا : هم والله وراء هذا الكتيب الذى ترى بالعدوة القصوى . فقال لهما محمد : كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : ما عدتكم ؟ قالا : لا ندرى . قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ويوماً عَشْراً . فقال : القوم بين التسعمائة إلى الألف .

ثم قال لهما : فمن فيهم من أشرف قريش ؟

قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خُوَيْلِد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطُعَيْمَة بن عَدِيّ بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمّية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسُهَيْل ابن عمرو ، وعمرو بن عبد ودّ .

فلما سمع محمد بهؤلاء أقبل على أصحابه وقال : هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها .

وكان بَسْبَس بن عمرو ، وعدى بن أبى الزَّغْبَاء قد تقدما حتى نزلا بدرأ فأتاها بغيرهما إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذوا قربة صغيرة لهما بالية ليستقيا فيها ، وكان مجدي بن عمرو الجُهمي على الماء . فسمع بسبس وعدى جارين يتقاضيان بجوار الماء ، فقالت إحداهما لصاحبتها : إنما تأتى القافلة غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك . قال مجدى : صدقت ، ثم خلص بينهما . فلما سمع ذلك بسبس وعدى ركبا بغيرهما وانطلقا حتى أخبرا محمداً الخبر .

وكان أبو سفيان فى تلك الأثناء قد تقدم القافلة محاذراً يتحسس الأخبار خشيّة أن يقع فى أيدي المسلمين . فلما رأى مجديا سأله : هل أحسست أحداً ؟ قال : ما رأيت أحداً لا أعرفه ، إلا أنى قد رأيت راكبين قد

أناخا إلى هذا التل ثم استقيا في قرية لهما ثم انصرفا . فأقى أبو سفيان حيث أناخا بعيرهما وأخذ من أبعاره ففتنه فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب . وأدرك أن المسلمين قريبون . فرجع إلى أصحابه سريعا ، وغير طريق القافلة واتجه إلى الساحل وسار محاذيا له ، وترك بدرأ ، وأسرع حتى أفلت . فلما رأى أنه نجا من برائن المسلمين وأن القافلة سلمت وأموال الناس في أمان ، أرسل إلى قريش من قال لهم إن الله نجى تجارتكم ورجالكم وأموالكم فأرجعوا .

فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ - وكان بدر موسى من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف لنا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً ، فامضوا .

عندئذ انبرى له الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بنى زُهرة وقال : يا بنى زهرة قد نجى الله لكم أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل ، وإنما خرجتم لتمنعوه وماله ، فاجعلوا في جنبها وارجعوا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة ، لا ما يقول هذا . وكان فيهم مطاعاً فأطاعوه فرجعوا ، ولم يشهد زهري واحد بدرأ . وكانت بنو عدى قد امتنعت عن الخروج من قبل ، فلم يشهد بدرأ من هاتين القبيلتين القرشيتين أحد .

ثم إنه كان بين طالب بن أبي طالب وبين بعض قريش محاورة ، فقالوا : والله لقد عرفنا يا بنى هاشم ، وإن خرجتم معنا ، أن هواكم مع محمد . فعندئذ لم يتوان طالب عن الرجوع مع الراجعين إلى مكة ، وقال في ذلك :
 لا هُمَّ إِمَّا يَغْزُونَ طالب في حَصْبَةٍ تُحَالِفُ محارب
 في مِقْسَبٍ من هذه المقانب^(١) فليكن المسلوب غير السالب
 وليكن المغلوب غير الغالب

(١) المقنب : الجماعة من الخيل عددها ثلاثمائة أو نحو ذلك .

ومضت قريش إلى غرضها حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى خلف كتيب العَقَنْقَل . أما المسلمون فلنهم نزلوا بأدنى ماء بيدر حسباً أشار محمد عليهم . وكان فيهم الحباب بن المنذر وكان عليماً بالمكان ، فلما رأى منازل المسلمين قال لمحمد : يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل ، أمزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال محمد : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

قال الحباب : فإن هذا ليس بمنزل يا رسول الله ، فامض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نردم ما وراءه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال محمد : لقد أشرت بالرأى . وانتقل بالناس حتى نزل حيث أشار الحباب وردموا ما وراءهم من الآبار ، وبنوا حوضاً على البئر الذى نزلوا عليه وملأوه وقذفوا فيه الآنية .

ولما انتهوا من بناء الحوض قال سعد بن معاذ : يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعيدُ عندك ركائبك ، ثم نلتقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحققت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حُباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلتقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يملكك الله بهم ، يناصونك ويجاهدون معك .

أنى محمد على هذه المشورة ودعا لسعد بخير ، وقام المسلمون وبنوا عريشاً .

وفى صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة تقدمت قريش فأقبلت على المسلمين ، فلما رآهم محمد قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك

الذى وعدتني ، اللهم أهلكهم هذا الصباح » . ونقل . نظره فيهم فرأى عتبة بن ربيعة على . جل له أحمر فقال : « إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الحمل لأحمر ، إن يطيعوه يرشّدوا » .

بعثت قريش عمير بن وهب الجُمُحى ليرى لهم كم عدد المسلمين . فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم وقال : ثلاثمائة رجل يزيلون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أهلوهم حتى أنظر القوم كمين أو مدد . فغضب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال : ما رأيت شيئاً ، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلياء تحمل المنايا ، جيمال يُثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ! ؟ فروا رأيكم ،

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس حتى أتى عتبة بن ربيعة فقال له : يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدها المطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تُذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟

قال عتبة : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرميّ . قال عتبة : قد فعلت ، أنت علىّ بذلك ، إنما هو حليفى فعلى دينه وما أصيب من ماله . فأت ابن الحنظلية ، يعنى أبا جهل ، فلمنى لا أخشى من أحد أن يفسد أمر الناس غيره .

ثم قام عتبة خطيباً في الناس ، قال : يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون .

وانطلق حكيم بن حزام حتى أتى أبا جهل فوجده قد أخرج درعاً وأخذ يصلحها فقال له : يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا . فقال : جبن والله عتبة حين رأى محمداً وأصحابه ، فلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعثته ما قال ، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه ، فقد تخوفكم عليه .

فلما بلغ عتبة قول أبي جهل هذا وأنه قال إنه جبن قال : سيعلم مصفّر^(١) استه من جبن أنا أم هو ! وقام ياتمس خوذة لرأسه ، فما وجد في الجيش خوذة تسعه من عظم رأسه ، فلما رأى ذلك لفّ على رأسه برداً له وتها للقتال .

أما أبو جهل فبعث إلى عامر بن الحضرمي أخى عمرو فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع الناس ، وقد رأيت ثارك بعينك فقم فانشد عهدك ومقتل أخيك . فقام عامر ثم صرخ : واعمره واعمره ! وعندئذ حميت النفوس واستوثق الناس على ما هم عليه من الشر ، وأفسد أبو جهل على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة .

واصطف الجيشان للمعركة وكان محمد يعدل صفوف أصحابه وفي يده سهم يعدلهم به ، فر بسواد بن غزيرة حليف بني عدى بن النجار وهو متقدم عن الصف فضربه على بطنه بالسهم وقال : استو ياسواد . فقال سواد : يا رسول الله أوجعني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذني ، أي فاعدل معي . فكشف محمد عن بطنه وقال : استقد . فاعتنقه سواد فقبل بطنه ، فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي بجلدك . فدعا له بخير . وبعد أن عدل محمد صفوف المسلمين رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره .

(١) أراد بذيوله مصفر استه أي داهن استه بالطيب . قصد بذلك المبالغة بالذم لذكر استه المبروه .

ووقف على باب العريش سعد بن معاذ متقلداً بالسيف ومعه جماعة من الأنصار ، يحرسونه خوفاً عليه من أن يدهمه العدو من المشركين ، والخنائب النجائب مهيأة له إن احتاج إليها ركبها ورجع إلى المدينة كما أشار به سعد بن معاذ .

كان محمد يكثر الابتهاال والتضرع والدعاء ، ويقول فيها يدعو به : « اللهم أنجز ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد بعدئذ في الأرض أبداً ، اللهم نصرك » . وكان يرفع يديه إلى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، وأبو بكر من ورائه يسوى عليه رداءه ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهاال : يا رسول الله كفك مناشداتك ربك ، فانه سينجز لك ما وعدك . وعند ذاك نزل قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » (١) . أى بعضهم في أثر بعض .

وتقارب الجمعان ولم يعد مفر من القتال . خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق ، فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أولأهدمنه أو لأموتن دونه . فلما خرج وتقدم إلى الحوض خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره ، غير أنه حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن تبر يمينه ، فأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض .

وعند ذلك حمى عتبة بن ربيعة وأراد أن يظهر شجاعته فبرز بين أخيه شيبة وابنه الوليد ، فلما توسطوا بين الصفيين دعوا إلى البراز ، فخرج إليهم ثلاثة فية من الأنصار : وهم عوف ومعاذ ابنا الحارث وعبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . فقالوا : ما لنا بكم من حاجة ، ولكن أخرجوا إلينا من بني عمنا ، ونادى منادهم : يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قومنا .

فقال محمد : « قم يا عبيدة بن الحارث . وقم يا حمزة . وقم يا علي » .
فلما دنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ والظاهر أنهم كانوا ملبسين لايُعَرَفون
من السلاح . فقال حمزة : أنا أسد الله وأسد رسول الله ، أنا حمزة بن
عبد المطلب . قالوا : كفء كريم . وقال علي : أنا عبد الله وأخو رسول
الله . وقال عبيدة : أنا الذي في الحلفاء .

ولم يمهل حمزة شية فقتله ، ولم يمهل علي^١ الوليد فقتله . وضرب عبيدة
وعتبة كل منهما صاحبه ضربة سيف نفذت فيه ، ففكر حمزة وعلى علي عتبة
فأجهزا عليه ، وحملا عبيدة إلى صفوف المسلمين ، وأضجعوه إلى جانب
محمد فأفرشه قدمه فوضع عليها عبيدة خده وقال « يا رسول الله لو رأي
أبو طالب اليوم لعلم أني أحق بقوله :

ونُسلمه حتى نُصْرَعَّ دونه وتندهل عن أبنائنا والحلائل
ثم مات .

وفي تلك الأثناء أغفى محمد لإغفاءة فرأى الملائكة التي نزلت من
السماء لنصر المسلمين ، فاستيقظ وبشر أبا بكر ، قال : « أبشر يا أبا بكر
هذا جبريل معتمر^(١) بعمامته آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنياه النقع
(أي الغبار) أتاك نصر الله ووعدته » .

وخرج من العريش عليه درع الحرب وأخذ يحرض الناس على القتال
ويبشرهم بالحنّة ويشجعهم بنزول الملائكة لمحارب معهم . وكان
المسلمون لا يزالون في صندوفهم لم يحملوا على العدو ، فألقت هذه الأخبار
عليهم السكينة والطمأنينة ، وزادتهم شجاعة واستبسالا وإيمانا بالقضية التي
يحاربون من أجلها . بل لأنها أكدت لهم النصر الساحق على عدوهم
فاستأنوا به .

وأخذ محمد كفاً من الحصى بيده فاستقبل القوم الكافرين . وقال :

(١) اعتجر بعمامته ، أي لفها على رأسه ورد طرفها على وجهه .

« شامت الوجوه » . وأمر أصحابه بالهجوم . فاندفع المسلمون يضربون ضرباً لا هوادة فيه ويستتون هذا الجمع الكبير بخيله وخيلائه حتى انفرط عقد المشركين وجندلت سيوف الله طواغيت قریش الواحد لأثر الآخر . وأصحابهم فى ذهول وكأن تواهاً أخذهم ، لا يملكون دفعاً عن سادتهم ولا عن أنفسهم ، وهم الأكثر عدّة وعدداً وسلاحاً .

ألم يقل الله تعالى عندئذ : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ، أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » (١)

« إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » (٢) .

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » (٣)

لا عجب إذن أن تفعل هذه الآيات إذ شاعت فى ساحة المعركة فعل السحر فى صفوف المسلمين والمشركين على السواء . فقد دخل فى روع المسلمين أنهم منتصرون لا محالة ، ودخل فى روع المشركين أنهم منهزمون لا محالة . فهل لأحد قبيل بمحاربة الملائكة ؟ ثم كيف بهم يقاومون هذه الحرب المادية والنفسية التى تعرضوا لها فجأة بهذا العنف وهذه الضراوة ، وهم يشاهدون فعلاً منذ اللحظة الأولى للمعركة ثلاثة من صناديدهم وسادتهم يجندلون فى لحظات ، ويتهاوى من بعدهم صناديد وسادة آخرون ، الواحد لأثر الآخر ، لا يملكون عن أنفسهم شيئاً ، ولا يملك أحد الوقوف دونهم والدفاع عنهم أو حمايتهم من هذا القضاء الباتر .

والحق أن الأقوال التى ترامت هنا وهناك بين الصفوف عن نزول ملائكة من السماء لا قبل لأحد بهم تحارب فى صفوف المسلمين ، قد سيطرت

(٣) الأنفال ١٧

(٢) الأنفال ١٢

(١) الأنفال ٩ - ١٠

على عقول وقلوب كل من المسلمين والمشركين ، وتراءت لهم الملائكة فعلا وهم يطيطون في السماء أو وهم يجندلون أعداء الله على الأرض .

جاء عن ابن عباس أنه بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، إذ نظر إلى المشرك أمامه قد خر مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو قد حُطِمَ أنفه وشُقَّ وجهه بضربة السوط ، فجاء الأنصارى فحدث بذلك محمداً فقال : « صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة » .

وعن ابن عباس أيضاً أن رجلاً من غفار قال : حضرت وابن عم لي بدراناً ونحن على شركنا ، وإنا لفي جبل ننظر الواقعة على من تكون الدائرة ، فأقبلت سحابة ، فلما دنت من الجبل سمعنا منها حممة الخيل ، وسمعنا قائلاً يقول : أقدم حيزوم ! فأما صاحبي فأنكشف قناع قلبه فأت مكانه ، وأما أنا فكنت أن أهلك ثم تماسكت .

وروى البيهقي أن أبا أسيد روى بعدما ذهب بصره : يا ابن أخي ، والله لو كنت أنا وأنت بيدر ، ثم أطلق الله بصرى ، لأريتك الشعب الذي خرجت علينا منه الملائكة من غير شك ولا تمار .

وحدث موسى بن محمد بن إبراهيم أن السائب بن أبي حبيش كان يحدث في زمن عمر يقول : والله ما أسرني أحد من الناس . فيقال له فن ؟ يقول : لما انهزمت قريش انهزمت معها ، فأدركني رجل أشعر طويل على فرس أبيض فأوثقني رباطاً ، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطاً فنأدى في العسكر : من أسر هذا ؟ حتى انتهى بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من أسرك ؟ قلت : لا أعرفه . وكرهت أن أخبره بالذي رأيت . فقال رسول الله : « أسرك ملك من الملائكة ، اذهب يا ابن عوف بأسيرك » .

وقال الواقدي عن حكيم بن حزام : « لقد رأيتنا يوم بدر وقد وقع

يجاد (كساء مخطط) من السماء قد سدد الأفق ، فاذا الوادى يسيل نهلاً ، فوق
فى نفسى أن هذا شيء من السماء أيّد به محمد ، فما كانت إلا الهزيمة
ولقاء الملائكة » .

وقال بعض المشركين : انهزمتنا يوم بدر ونحن نسمع صوتاً كوقع
الحصى فى الطاس فى أفئدتنا ومن خلفنا ، وكان ذلك من أشد الرعب
علينا .

وكان محمد يقاتل بنفسه الكريمة قتالاً شديداً ذلك اليوم ، ويقول للناس
وهو يحرضهم على القتال : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل
فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » . وأصبح الاستشهاد
فى سبيل الله مطلباً يسعى إليه المسلمون ، فاشتدت وطأتهم على المشركين .
وبالغوا فى ضربهم وقتلهم .

قال عُمر بن الحمام الأنصارى : يا رسول الله جنة عرضها السماوات
والأرض ؟ قال : نعم . قال : أفأبني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى
هولاء ؟ . ثم رمى تمرات كانت فى فمه وقال : لئن أنا حييت حتى آكل
تمرأتى هذه إنها حياة طويلة ! واندفع يقاتل المشركين حتى قتل شهيداً .

وجال المسلمون وصالوا فى صفوف المشركين ، يضربون أعناق طائفة
منهم ضرباً لا هوادة ولا رحمة فيه ، ويحاولون أسر طائفة أخرى بالمعروف .
لقى المجتهد بن زياد البسلى حليف الأنصار أبا البختري بن هشام فقال له :
إن رسول الله صلى عليه وسلم نهانا عن قتلك فاستأسر . وكان محمد قد
قال لأصحابه يومئذ : « إني قد عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد
أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا ، فن لى منكم أحداً من بنى هاشم فلا
يقتله ، ومن لى أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن
لقى العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مُستكرهاً » .
ولمّا نهى محمد عن قتل الذين نصره وقاموا دونه فى مكة من أهله

المشركين فحفظ لهم الجميل ، كذلك نهى عن قتل أبي البختري بن هشام لأنه لم يكن يؤذيه وهو بمكة بل كان يكف الناس عنه ، وكان ممن قاموا بنقض صحيفة المقاطعة .

لما قال المُجَدَّر لأبي البختري إن الرسول نهى عن قتله ، وكان أبو البختري قد خرج من مكة مع زميل له يلزم كل منهما الآخر قال للمجدَّر : وزميلي ؟ قال له المجدَّر : لا والله ما نحن بتاركى زميلك ، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك ، قال أبو البختري : لا والله لا أترك زميلي ولأموتن أنا وهو جميعاً ، لا يتحدث عنى نساء قريش بمكة أتى تركت زميلي حرصاً على الحياة !

وقال وهو ينزل المجدَّر :

لن يترك ابن حرة زميله حتى يموت أو يرى سبيه
واقنتلا فقتله المجدَّر ، ثم أتى إلى محمد وقال : والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فأتيك به فأبى إلا أن يقاتلنى ، فقاتلته فقتلته .

وبينما المعركة على أشدها وقد انهزم المشركون وأخذ بعض من خارت قواهم وأعجزتهم أهوال المعركة عن الفرار يطلبون الأسر ، إذ رأى أمية ابن خاف عبد الرحمن بن عوف وهو يحمل عدة أدرع غنمها ، وكان صديقاً له بمكة فناده وقال : هل لك فى فأنا خير لك من هذه الأدرع التى معك . فطرح عبد الرحمن الأدرع من يده وأخذ بيده وبيد ابنه على ، وكان يلزمه ، وأمىة يقول : ما رأيت كاليوم قط ، أما لكم حاجة فى اللبن ؟ أى فى الفداء بالإبل . وكان بين الصفوف رجل من المسلمين علم نفسه بريشة نعاة فى صدره ، فسأل أمية عبد الرحمن عنه ، قال : هو حمزة بن عبد المطلب . قال أمية : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل . وبينما عبد الرحمن يقود أسيريه إذ رآهم بلال ، وكان أمية هو الذى يعذب بلالاً بمكة ، فقال بلال : رأس

الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا . قال عبد الرحمن : أى بلال ، أسيرى ! فصرخ بلال بأعلى صوته : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية ابن خلف ، لا نجوت إن نجا . فأحاط المسلمون بهم واكتنفوهم من كل جانب وعبد الرحمن يدافع عن أسيريه بلا جدوى ، حتى تكاثر المسلمون عليهما وضرب أحدهم على بن أمية ضربة فوق ، فصاح به أمية صيحة فزع شديد وقال : انج بنفسك ولا نجاء بك ، فوالله ما أغنى عنك شيئاً . ثم هبروهما بأسيا فهم حتى قتلوهما . فكان عبد الرحمن بن عوف يقول : رحم الله بلالا فجعنى بأدرعى وبأسيرى !

والحق أن المسلمين كانوا يتصلون كبراء مكة الذين آذوا المسلمين في أوائل عهد الإسلام وحين كان المسلمون ضعافاً لا حول لهم ولا قوة ولا يستطيعون دفع أذاهم بأسيا فهم . روى عبد الرحمن بن عوف أن غلامين صغيرين حديثي أسنانهما كان أحدهما عن يمينه في الصف والآخر عن يساره ، سألاه : يا عم أتعرف أبا جهل ؟ قال : نعم ، وما حاجتك إليه ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعرجل منا . وقال له الآخر مثل ذلك ؛ فنظر عبد الرحمن فإذا أبو جهل يبول في الناس لا يخلص أحد إليه فقال لهما : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذى تسألان عنه . فهجم عليه الفتيان فضرباه حتى خر صريعاً على الأرض .

ولما أمر محمد أن يلتمس أبو جهل في القتل قال لهم : انظروا إن خفى عليكم في القتل إلى أثر جرح في ركبته ، فإني ازدحت أنا وهو يوماً على مأدبة لعبد الله بن جندعان ونحن غلامان وكنت أكبر منه فدفعته فوق على ركبته فخدش في أحدهما خدشاً لم يزل أثره به .

وبينا يبحث عنه جماعة من المسلمين في القتل مرّ به عبد الله بن مسعود فوجده صريعاً يلفظ آخر أنفاسه فأخذ منه سيفه فقال أبو جهل : على من

كانت الدائرة لنا أو علينا ؟ فصعد عبد الله بن مسعود على صدره فقال أبو جهل : لقد رقيت مرتقاً صعباً يا رُوَيْعِي الغم ، أَلست رُوَيْعِينَا بِمَكَّة ؟ فأخذ ابن مسعود بلحيته وقال : الحمد لله الذي أخزأك يا عدو الله . قال أبو جهل : وهل هو إلا رجل قتله قومه . ثم أجهز ابن مسعود عليه واحتز رأسه وأتى إلى حيث محمد فألقاها بين يديه ، فقال : « الحمد لله الذي قد خزأك يا عدو الله ، هذا كان فرعون هذه الأمة » .

قتل في ذلك اليوم سبعون من المشركين وأسر مثلهم ، وقتل من المسلمين أربعة عشر رجلاً ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار . وغنم المسلمون غنائم كثيرة تركتها قريش المهزومة ، وخلّفها الكماة والأبطال من ورائهم على ساحة المعركة وهم يفرون ضارين في الصحراء نحو مكة ، يلعقون جراحهم ويجرون أذيال الخيبة ، يخشى الرجل منهم أن ينظر في وجه صاحبه ، ويحسب ألف حساب لما سوف يُواجه به في مكة من استخفاف وازدراء .

وعند المساء ، ولما فاء الناس بعضهم إلى بعض ، وأراد محمد أن يقسم الغنائم ، اختلف أصحابه لمن تكون منهم ، وكانوا ثلاث فرق : فرقة انطلقت في آثار المشركين يهزمون ويقتلون ويأسرون ، وفرقة جمعت المغنم من متفرقات الأماكن ، وفرقة أحدقت بمحمد تحرسه خوفاً من أن يصيب العدو منه غيرة . فقال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نغينا منها العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا بمحمد : خفنا أن يصيب العدو منه غيرة فشغلنا به . وكانت هذه أول تجربة كبيرة للمسلمين في مثل هذه الشئون ، وكان إرضاء تلك الفرق المتنازعة صعباً . وعندئذ حسم العلي القدير الأمر فنزلت الآية : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم

مؤمنين» (١) . انفض الإشكال ورضى الجميع عن طيب خاطر ، وتآلفت قلوبهم ، وقسم محمد الغنائم بينهم على السواء ، وأدخل معهم بعض من لم يحضر المعركة ولكن كان يؤدي عملاً في ذلك الوقت أمره به . ثم نزل بيان الخمس بعد ذلك ناسخاً لما تقدم .

أما القتلى فإن محمداً ما كان يبر بجيفة مسلم أو كافر إلا وأمر بأن توارى التراب ، فأمر عندئذ بأن تلقى جثث القتلى في قلب بئر (أى بئر بئر) . فلما سحبت عتبة بن ربيعة في القلب نظر محمد في وجه أبي حذيفة ابن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير لونه ، فقال : « يا أبا حذيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أهلك شيء ؟ » .

فقال أبو حذيفة : لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبي رأياً وحليماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له ، أحزنتنى ذلك . فدعا له محمد بخير .

ارتحل المسلمون عن بئر في اليوم الثالث ، ذلك أن محمداً كان إذا انتصر على قوم أقام في ساحة المعركة ثلاثة أيام . فأمر براحلته أن يُشَدَّ عليها رحلها ، فركبها ومشى وتبعه أصحابه حتى أتى القلب فوقف على حافته وقال : « يا أهل القلب ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة ، يا أمية ابن خلف ، يا أبا جهل بن هشام (وعدد من كان منهم في القلب) هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » .

فقال له أصحابه : يا رسول الله ، أتنادى قوماً قد جبنوا ؟

قال : إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم هو الحق .

سار الجيش الظافر وعلى رأسه محمد رسول الله ، ومن خلفه رجال لا يثنيهم عن إيمانهم قوة أو بطش أو ظلم ، ومعهم الأسرى والغنائم الكثيرة ، ميممين شطر المدينة الناصرة المنصورة . لقد حققت هذه الفئة القليلة نصراً اهتزت له جنبات جزيرة العرب ، لا بل اهتزت له جنبات الدنيا . وانقضى عهد حزين كان المسلمون فيه مستضعفين مغلوبين على أمرهم ، لا يملكون رد الظلم والعدوان ، صابرين على الأذى ، هائبين القوة الغاشمة العمياء ، إلى عهد تلاً في نور الإسلام ، حينما ضربوا هذه القوة الغشوم ضرب العزيز المتندر ، وأثبتوا لأنفسهم وللدنيا جميعاً أن الإيمان بالله وبنصره أقوى أسلحة الإنسان ، وأنهم دخلوا تاريخ البشرية الناصع ليظلوا هناك ما شاءت لهم الأقدار أن يظلوا .

حدث هذا في الوقت الذي كان قد انقضى فيه أربع عشرة سنة قمرية .
كاملة على نزول القرآن .

بعث محمد بشيرين إلى المدينة يسبقانه ليبشرا المسلمين بالفتح والنصر والظفر على من أشرك بالله وكذب رسوله ، أحدهما عبد الله بن رواحة إلى أعلى المدينة ، والثاني زيد بن حارثة إلى السافلة . فلما وصل البشيران إلى العقيق اتجه كل منهما إلى الناحية التي أرسل إليها . وأخذ عبد الله بن رواحة ينادى :
يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل المشركين وأسرهم ، قتل ابن ربيعة ، وابن الحجاج ، وأبوجهل ، وزمعة بن الأسود ، وأميه بن خلف ، وأسير سهيل بن عمرو .

لم يصدق بعض الناس ، حتى لقد قام عاصم بن عدي إلى عبد الله ابن رواحة ونحاه عن الناس وقال له : أحقاً يا ابن رواحة ؟ فقال : إى والله ، وغداً يتقدم رسول الله بالأسرى مقرّنين .

وأخذ زيد بن حارثة وهو على ناقه محمد القصواء يبشر الناس بالظفر ويعدد أسماء القتلى والأسرى ، فلم يصدق بعض الناس أيضاً وأخذوا

يقولون : ما جاء زيد إلا منهزماً هارباً . وقال رجل من المنافقين لأسامة ابن زيد : قتل صاحبكم ومن معه . وقال آخر لأبي لبابة : قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون فيه أبداً ، وقد قُتِلَ عليه أصحابه ، قتل محمد ، وهذه ناقتة نعرفها ، وهذا زيد لا يدري ماذا يقول من الرعب ، قد جاء منهزماً هارباً ، فقال أبو لبابة : يُكذِّبُ الله قولك . وكذلك قالت اليهود وأشاعت أن محمداً قد قتل وأن المسلمين انهزموا .

فجاء أسامة إلى أبيه واختلى به وقال : أحق ما تقول ؟ قال زيد : إى والله حق ما أقول يا بنى . فقويت نفس زيد ، ورجع إلى المنافق الذى سمع منه ما يكره فقال : أنت المرُجِفُ برسول الله وبالمسلمين ، لنقدمك إلى رسول الله إذا قدم فليضربنَّ عنقك . فقال : إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه ما اخترعته .

وفى تلك الأثناء أيضاً كانت أخبار الهزيمة قد وصات مكة ، فقام النساء فقطعن شعورهن وعُقِرَت خيول كثيرة ورواحل ، وناحت قریش على قتلاها . غير أنهم سرعان ما أدركوا ما فى نوحهم من معنى الهزيمة وأنهم إذ يفعلون ذلك يشمت فيهم محمد وأصحابه فكفّوا عن النوح ، وعقدوا العزم على ألا يسارعوا فى فداء أسراهم حتى لا يشتد عليهم محمد وأصحابه فى الفداء . وكانت هند بنت عتبة أشدهن حزناً وأكثرهن طلباً للثأر ، فقد قتل أبوها وعمها وأخوها . رفضت البكاء واعتزلت فراش زوجها أبى سفيان وظلت تحرض الناس حتى بلغت ثأرها يوم أحد . أما أبو سفيان فنذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً وينال منه ومن أصحابه .

ومما يدل على ما أصاب قریشاً من ألم نفسانى وعذاب شديد ، إذ هى امتنعت عن النوح على قتلاها ، وكفت عن البكاء الذى يبلُّ فؤاد الحزين إذا ما تحادرت دمعاته ، ما روى عن الأسود بن المطلب ، وكان قد أصيب

له ثلاثة من ولده ، زمعة وعقيل والحارث ، وكان يجب أن يبكى على بنيه ولكن منعه العزة أن يبكى وحده . فبينما هو يقاسى ذلك الشوق إذ سمع نائحة تنوح في جوف الليل ، فقال لغلام له ، وكان قد ذهب بصره ، أنظر هل أحيل^١ النَّحْب ؟ ! هل بكت قریش على قتلاها ؟ لعل أبكى على أبي حكيمة (يعنى ولده زمعة) فإن جوفى قد احترق !

فلما رجع الغلام وأخبره أنها امرأة تبكى على بعير لها ضل^٢ منها أنشأ يقول :

أَتَبْكِي أَنْ يَضَلَّ ^٣ لَهَا بَعِيرٌ	وَيَمْنَعُهَا مِنَ النُّومِ السُّهُودُ
فَلَا تَبْكِي عَلَى بَكْرِ ^(١) وَلَسَكُنْ	عَلَى بَدْرٍ تَقَاصَرَتِ الْجُدُودُ ^(٢)
عَلَى بَدْرٍ سَرَّاءَ بَنِي هُصَيْنٍ	وَمُخْزُومٍ وَرَهْطِ أَبِي الْوَلِيدِ
وَبَكِّيْ إِنْ بَكَيْتِ عَلَى عَقِيلٍ	وَبَكِّيْ حَارِثًا أَسَدَ الْأَسْوَدِ
وَبَكِيْهِمْ وَلَا تَسْمِيْ جَمِيعًا	وَمَا لِأَبِي حَكِيمَةٍ مِنْ نَدِيدٍ ^(٣)
أَلَا قَدْ سَادَ بَعْدَهُمْ رَجَالٌ	وَلَوْلَا يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَسُودُوا ^(٤)

* * *

لم يكن الإسلام في ذلك الوقت قد قرر نظاماً يعامل به الأسرى . أيقتلون أم يقتلون أم يُسْتَرْقَوْنَ ؟ والحق أن النبي حين فرق الأسارى بين أصحابه أمرهم أن يستوصوا بهم خيراً . روى أبو عزيز أخو مصعب بن عمير ، وكان أسيراً عند رهط من الأنصار ، أنهم كانوا إذا قدموا غداهم أو عشاءهم خصوه بالخبز وأكلوا التمر . كذلك يروى أن النبي حين قلق إذ سمع عمه العباس يئن ويتأوه من وثاقه ، استأذن أصحابه أن ينفسوا عن جميع الأسرى ، ففعلوا . ولم يحدث أن قتل النبي بعد هذه الغزوة من الأسارى إلا النصر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ، قتلها في بعض الطريق قبل أن يصلا إلى المدينة ، وكانا من أكثر المسيئين الذين اشتدوا عليه

(١) البكر : الفتى من الإبل

(٢) الجود : الشبه

(٣) النديد : الشبه

(٤) الجود : الشبه

وعلى أصحابه في مكة قبل الهجرة ، وأكثرهم عناداً وبغياً وحسداً وهجاء للإسلام وأهله .

عند ما بلغوا الأثيل (موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء) وعرض الأسرى على محمد ، نظر إلى النضر بن الحارث نظرة ارتعدت لها مفاصله ، فقال لرجل إلى جانبه : محمد والله قاتل ، لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت . قال الرجل : ما هذا والله منك إلا رعب . ونادى النضر مُصْنَعِبُ بْنُ عُجَيْرٍ ، وكان بينهما عهد قديم ، وقال : كلّم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه ، فهو والله قاتلي إن لم تفعل . قال مصعب : إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه ما تقول ، وكنت تعذب أصحابه . قال النضر : لو أسرتك قُرَيْشٌ ما قتلتك أبداً وأنا حيّ . قال مصعب : والله إنى لا أراك صادقاً ، ثم إنى لست مثلك ، فقد قطع الإسلام العهد . وكان النضر أسير المقداد ، فلما رأى ذلك وخشى أن يقتل فتفوته فدية كبيرة صاح قائلاً : النضر أسيرى . فقال النبي : اضرب عنقه ، واللهم اغن المقداد من فضلك . فتقدم على بن أبي طالب وضرب عنقه .

ولما كانوا بعرق الظبية ، أمر محمد بقتل عقبة بن أبي معيط ، فقال له عقبة : فن للصبيّة يا محمد ؟ قال : النار . ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت أو على بن أبي طالب بالسيف صاح : يا معشر قريش ، علام أقتل من بين من ها هنا ؟ قال : على عداوتك لله ورسوله . فقال عقبة : أتقتلني يا محمد من بين قريش . قال : نعم ، أتدرون ما صنع هذا بي ؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام ، فوضع رجله على عنقي ونغزها فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستخرجان ، وجاء مرة أخرى بسلاة شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي .

ومن أجل ما يروى بهذه المناسبة أن قُتِلَت بنت الحارث لما علمت بمقتل أخيها النضر بن الحارث أنشأت تقول :

يا راكياً إن الأئيل مظنّة
أبلغ بها ميّساً بأن تحية
منى إليك وعبرة مسفوحة
هل يسمعن النضر إن ناديتُهُ
أحمد يا خير ضن كريمة
ما كان ضرّك لو منفت وربما
لو كنت قابل فدية فلنأتين
والنضر أقرب من أسرت قرابة
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه
صبراً يقاد إلى المنية متعباً
فاما بلغ محمد هذا الشعر قال : لو باغنى هذا قبل قتله لمنفت عليه !

ولما قارب المدينة تلقته بجوارها بالدفوف وهن يغنين :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وتلقاه أصحابه الذين تخافوا عن غزوة بدر يهتفون بما فتح الله عليه .
قال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينك ،
والله يا رسول الله ما كان تخلّنى عن بدر وأنا أظن أنك تلقى حرباً ، ولكن
ظننت أنها قافلة ، ولو ظننت أنه عدو ما تخلّفت . فقال : صدقت .

ودخل المسلمون المدينة ظافرين وعلى رأسهم محمد رسول الله ، والحمد
والحسد يغلى فى قلوب المشركين والمنافقين من أهل المدينة أن لم يتحقق
ما كانوا يأملون من نصر قريش ، حتى لقد قال كعب بن الأشرف
اليهودى : بطن الأرض خير من ظهرها بعد أن أصيب أشراف الناس
وسادتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن .

ثم قدم الأسارى بعد دخول المسلمين المدينة بيوم وعليهم شِقْران مولى محمد ، وكان قد شهد بدرًا معهم ، وكانت سَوْدَة بنت زَمْعَة زوج النبي عند آل عفراء في مناحيهم على عوف ومعوذ ابنا عفراء . وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب . فرجعت إلى بيتها ومحمد فيه ، وإذا سُهَيْل بن عمر في ناحية الحجرة مجموعة يداه إلى عنقه بجبل ، فلم تملك نفسها أن قالت : أي أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ، ألا تم كراماً ؟ فإذا بصوت محمد يقول : يا سودة أعلى الله وعلى رسول الله تحرضين !! قالت : يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يريد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت .

ثم إن محمداً أخذ يقلب أوجه النظر فيما يصنع بهؤلاء الأسرى . فعمد إلى أصحابه يستشيرهم كعادته . فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم القدية فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً .

أما عمر فقال : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب له - فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

فقال محمد : إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال : « فن تبغى فإنه منى ، ومن عصاني فلأنك غفور رحيم » ، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال : « إن تعذبهم فلأنهم عبادك » ، وإن تغفر لهم فلأنك أنت العزيز الحكيم . وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال : « رب لا تدرك على الأرض من الكافرين دياراً » . وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

ثم إنه استقر أخيراً على رأى أبى بكر وقبل فداء الأسرى . وكانت قريش قد عقدت العزم على ألا تسرع فى طلب فداء أسراهم حتى لا يشتد فيه المسلمون . غير أن المطلب بن أبى وداعة لم يتمالك نفسه أن يخرج لفداء أبيه فانسل تحت جناح الليل من مكة وقدم المدينة ، وفدى أباه بأربعة آلاف درهم . وكان هذا أول أسير فدى ، ثم بعث قريش فى فداء أسراهم ، كل أسير بأربعة آلاف درهم .

قدم مكرز بن حفص بن الأخيف فى فداء سهيل بن عمرو ، وكان سهيل خطيباً يحرض الناس على محمد والإسلام ، فانبرى له عمر بن الخطاب وأقدم على محمد يقول : دعنى أنزع ثنيى (أى السنتين الأماميتين) سهيل ابن عمرو حتى يخرج لسانه إذا تكلم فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً . فقال محمد قولة صدق وحق : « لا أمثل به فيُمثل الله بى وإن كنت نبياً » ، ثم قال لعمر : إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تدمه . ولا عجب فقد قام سهيل هذا المقام فيما بعد ، وصدق محمد فى حديثه . إذ قام سهيل عندما ارتد من ارتد من العرب بعد وفاة محمد يخطب الناس فى مكة ويثبتهم على الدين الحنيف . فلما اتفق مكرز على فدائه ولم يكن معه مال ، طلب أن يجعلوه مكان سهيل ويخلوا سبيل سهيل حتى يعود بالفدية ، ففعلوا .

وكان فى الأسارى العباس بن عبد المطلب وأخواه عقيل ونوفل وحليفه حنيفة بن عمرو أخذ بنى الحارث بن فهر ، ففادى العباس نفسه وإياهم بمائة أوقية من الذهب وكان موسراً . ثم إنه كان قد ادعى أنه أسلم ، فلم يقبل منه محمد وقال : أما ظاهرك فكان علينا ، والله أعلم بإسلامك وسيجزيك .

أما أبو سفيان فقد رفض أن يفادى ولده عمرو بن أبي سفيان ، فلما قيل له : أفند عمراً ابنك ، قال : أيجتمع على مالى ودى ! قتلوا حنظلة وأفدى عمرأ ؟ دعوه فى أيديهم يمسكوه ما بدا لهم . وكان يغيظه أن يهزم هذه الهزيمة الذكراء ، ثكل وفداء . غير أنه ظل يتحين فرصة يقتنص فيها

أحدًا من أهل المدينة ، حتى خرج سعد بن النعمان بن أكّال ، أحد بني عمرو بن عوف معتمرًا ، وكان شيخاً مسلماً ، ولم يفكر في أن أحدًا من قريش يعترض له إذ جاءها معتمرًا . وكان عهد قريش أن قريشاً لا يعترضون لأحد جاء حاجاً أو معتمرًا إلا بخير ، فهاجم عليه أبو سفيان وحبسه في مكة بابنه عمرو . فأتى بنو عمرو بن عوف إلى محمد وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان ليفكوا به صاحبهم ، فاعطاهم النبي عمراً ، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلّى سبيل سعد .

وكان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس ابن أمية ، ختن محمد وزوج ابنته زينب . وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة ، وكانت أمه هالة بنت خويلد أخت خديجة ، وكانت خديجة هي التي سألت محمداً أن يزوج العاص بزينب ، وكان لا يخالفها . ولقد أثبت العاص أنه رجل كفء كريم لم يخذل خالته ولا زوجته ولا حميه . ذلك أن قريشاً عند ما اضطهدوا محمداً بعد الإسلام وأرادوا من أبي العاص أن يطلق زينب ، وقالوا له فارق صاحبك ونحن نزوجك بأى امرأة من قريش شئت ، قال : لا والله لا أفارق صاحبتى وما أحب أن تكون لى امرأة من قريش سواها . لذلك كان محمد دائم الثناء عليه . وكانت زينب حتى ذلك الوقت تعيش مع أبي العاص في مكة لم تهجر ، هى مسلمة وهو مشرك ، ذلك أن الإسلام لم يكن قد فرّق بعد بين الزوجين إذا أسلم أحدهما . إنما حرّم الله المسلمات على المشركين عام الحديبية سنة ست من الهجرة . فأرسلت زينب إلى أبيها في فداء زوجها مالا فيه قلادة كانت خديجة قد أهدتها لها يوم عرسها . فلما رأى محمد القلادة وطاف بخياله ذكريات تلك الأيام الحلوة التى غبرت ، وتراءت له صورة زوجه الحبيبة ، رق لها رقة شديدة وقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا » . وأى شيء كان أحب إلى نفوس رجال

يضحون بأرواحهم في سبيله من أن يفعلوا بما أشار . فقاموا وأطلقوا الأسير وردوا على زينب مالها وقلادتها .

غير أن محمداً أحب أن يُفرّق بينه وبين زينب ، فطلب منه أن يخلي سبيلها ، فأجاب أبو العاص بالسمع والطاعة . فلما عاد إلى مكة جهّز زينب للرحيل على كره منه ومنها لهذا الفراق ، ولكن ما كان بيد أحد منهما حيلة . فلما تجهّزت قدّم إليها أخوزوجها كينانة بن الربيع بغيراً فركبته وأخذ قوسه وكنانته ، ثم خرج بها نهاراً يقود بغيرها وهي في الهودج . غير أن رجال قريش لم يرّضهم أن تخرج جهازاً عياناً في وضوح النهار من بين ظهرانيهم ، فخرجوا في طلبها ، فلما أدركوها روعها هبّار بن الأسود بالرمح ، وعندئذ نثر حموها كنانة سهامه وقال : والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً . فرجع الناس عنها ، وكان أبو سفيان قد تبعهم في عدد من سادة قريش ، فقال : يا أيها الرجل كُفّ عنا سهامك حتى نكلمك . فكفّ ، فأقبل أبو سفيان حتى دنا منه فقال : إنك لم تُصِبْ ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس إذ خرجت بابتنته إليه علانية على رؤوس الناس بين أظهرنا ، أن ذلك عن ذُلّ أصابنا ، وأن ذلك ضَعْفٌ منا ووَهن ، ولَمَعَمَرى مالنا بحبسها من أبيها من حاجة وما لنا من طلب الثأر ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدّث الناس أن قد ردّناها فتسال بها سيراً وألحقها بأبيها .

فرجع بها ، ولما أن هدأت الأصوات تلك الليلة ، خرج بها حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وأحد الأنصار ، وكان محمد قد أرسلهما ليستقبلاها ويعودا بها إلى المدينة . وكان يقول فيها : هي أفضل بناتي أصيبت فيّ .

ثم إن زينب لم تنزل تذكر لأبي العاص فضله ومروءته ، ولم يزل أبو العاص يذكر لمحمد إحسانه وعطفه وحده عليه . ولم تستطع السنون التي فرقت بينهما أن تنسى أيًا منهما ما في قلبه نحو الآخر ، فظل أبو العاص يذكرها ، وظلت زينب وفيه له على عهد الحب . ولما كان قبل الفتح بقليل أى بعد هجرتها بست سنين ، وأبو العاص لا يزال على شركه ، خرج في تجارة لقريش ، فلما قفل عائداً من الشام لقيته سرية من المسلمين فأخذوا ما معه . أما هو فقد هرب منهم وجاء المدينة تحت جنح الليل ، وأخذ يتنطس أخبار زوجه فعلم مكانها فأتاها واستجار بها فأجارته .

فلما خرج محمد لصلاة الصبح وكبّر وكبر الناس من خلفه ، صرخت زينب من صفّة النساء : أيها الناس أجرت أبا العاص بن الربيع . فلما سلم محمد أقبل على الناس فقال : « أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟ » قالوا : نعم . قال : « أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء حتى سمعت ما سمعتم ، وإنه يجير على المسلمين أديانهم » . ثم انصرف فدخل على بنته زينب فقال : أي بُنيّة أكرى مثواه ولا يخلّصنّ إليك فإنك لا تحلين له . ذلك أن القرآن كان قد فرق عندئذ بين المسلمات والمشركين . ثم بعث محمد إلى المسلمين فحثهم على أن يردوا ما كان معه ، فردوه بأسره لم يُفقد منه شيء .

فأخذ أبو العاص ورجع إلى مكة ، فأعطى كل ذى حق حقه ثم قال : يا معشر قريش ، هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا . فجزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً . قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعنى عن الإسلام عنده (أى عند ما كان بالمدينة) إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت . ثم خرج حتى قدم المدينة ، وأسلم بين يدي محمد فرد عليه زوجه .

وكان في الأسرى شاعر هو أبو عزة عمرو بن عبد الله الجهمي ، وكان شديد الإيذاء لمحمد بمكة ، وكان محتاجاً ذا بنات ، فقال لمحمد : يا رسول الله لقد عرفت مالى من مال ، وإني لذو حاجة وذو عيال فامنن علي . فمن عليه وأخذ عليه عهداً ألا ينصر عليه أحداً . فلدحه أبو عزة بأبيات منها :
من مبالغٍ عنى الرسول محمداً بأنك حقٌ والمالك حميدٌ
وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى عليك من الله العظيم شهيد

غير أنه نقض العهد الذي عاهد عليه محمداً ، ولعب المشركون بعقله ، فرجع إلى صفوفهم ، وحارب معهم يوم أحد فأسر مرة ثانية . وعند ذاك طلب من محمد أن يمن عليه ، غير أن المن عليه في هذه المرة لم يكن له محل ، فقال محمد : « لا أدعك تمسح عارضيك وتقول : خدعت محمداً مرتين ! » ويقال إنه قال فيه عندئذ قوله : « لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين » ثم أمر فضربت عنقه .

ومن هؤلاء الأسرى وهب بن عتبة الجهمي . وكان أبوه عمير فرعوناً من فراعين قريش وشيطاناً من شياطينها ، وكان ممن يكثرون أذية محمد وأصحابه ، ومن لقي منهم المسلمون عناء شديداً وهم بمكة . وبينما عمير جالس مع صفوان بن أمية في أعقاب هذه الغزوة يتذاكران مصاب قريش بها وأصحاب القليب ، قال صفوان بن أمية : والله ما إن في العيش بعدهم خير . فقال عمير : صدقت ، أما والله لولا دين عليّ ليس عندي قضاؤه ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لي في المسلمين عيلة ، ابني أسير في أيديهم . عندئذ اغتم صفوان هذه الفرصة للانتقام فقال : عليّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي ، أواسيهم ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكم عليّ شأني وشأنك . قال : سأفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وقام فسمّ نصله . ثم انطلق حتى قدم

المدينة ، وأناخ بعيره على باب المسجد وهو متوشح السيف . فلما رآه عمر بن الخطاب ، وكان هناك جالساً في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به من النصر على عدوهم ، قام إليه وهو يقول : هذا الكاب عدو الله عمير بن وهب ، ما جاء إلا لشر . ثم دخل على محمد فقال : يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه . قال : أدخله عليّ . فأقبل عمر عاياه فأخذ بحمالة سيفه في عنقه فابيه بها وقال لمن كان معه من الأنصار : قوموا فادخلوا على رسول الله فاجاسوا عنده ، واحذروا عاياه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على محمد . فلما رآه وعمر أخذ بحمالة سيفه في عنقه قال : « أرسله يا عمر ، ادن يا عمير » فدنا ثم قال : أنعم صباحاً ، وكانت هذه هي تحية أهل الجاهلية ، فقال محمد : « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة » فقال : أما والله يا محمد إن كنت بها حديث عهد .

قال : فما جاء بك يا عمير ؟

قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه .

قال : فما بال السيف في عنقك ؟

قال : قبّحها الله من سيوف ! وهل أغنت شيئاً ؟ !

قال : اصدقني ما الذي جئت له ؟

قال : ما جئت إلا لذلك .

تفرس منه محمد وأدرك بقوة فراسته ما كان من أمر عمير .

فقال : « بل قعدت أنت و صفوان بن أمية فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل صفوان بن أمية بدينك وعيالك ، علي أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك » .

أسقط في يد عمير ولم يملك إلا أن يقول : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل

عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا و صفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق . ثم شهد شهادة الحق ، فقال محمد : فقشّوها أنحاكم في دينه ، وعلمّوه القرآن وأطلقوا له أسيره . ففعلوا . ثم عاد عمير إلى مكة وأصبح أشد على الكفار مما كان على المسلمين في سابق أيامه ، وحلف صفوان بن أمية ما يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً .

هؤلاء الذين ذكرنا من أسرى بدر جملة من الذين كان لهم روايات تروى . أما الباقيون فتم فداؤهم كل بأربعة آلاف درهم . وأما الذين كانوا لا يملكون مثل هذا القدر من المال وكانوا ممن يقرؤون ويكتبون ، فقد فرض عليهم النبي أن يُعَلِّم كل منهم عشرة من أبناء الأنصار القراءة والكتابة في نظير فدايته . وهذا الاتجاه الثوراني الذي دفع فيه محمد المسلمين وساقهم نحوه منذ أوائل عهدهم ، كان له ولا شك أعظم الآثار فيما بعد في مستقبل الإسلام ، إذ انطبع تاريخ الإسلام بالدعوة إلى العلم وبكراهية الجهل والنفور منه ، حتى لقد أصبحت حضارة الإسلام في القرون الوسطى منارة العالم الحقيقية في الشرق والغرب ، وأصبحت دياره القلعة التي يؤمها العلماء وطالبو العلم من كل خدب وصوب .

وبعد أن تم القضاء وقبض المسلمون الأموال عارض الله اجتهاد أبي بكر الذي أخذ به محمد وأنزل قوله : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُشخِّنَ في الأرض يريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسيكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (١) . لقد نهى الله إذن عن أخذ الأسرى قبل أن يعين المسلمون في قتل الذين يصدون عن سبيل الله والذين يتعرضون لدين الله أن ينتشر في الأرض . أما الأموال التي أخذوها من فداء الأسرى ، فأبيحت لهم ، لأن حكم الله السابق إنما يقضى بألا يعاقب أحد على اجتجاده ما دام المقصود من الاجتجاد خيراً وإلا لمسيهم فيما أخذوا من أموال عذاب عظيم .

الفصل الثامن

تجمع العاصفة قبل أحد

كان لغزوة بدر آثار عميقة جداً في تحديد صورة الأحداث التي وقعت بعد ذلك . لم يكن هناك من ثأر حتى حدوث هذه المعركة ، يستحق مثل هذا التحدى السريع الذى انطبعت به أحداث المستقبل . لم يكن بين المسلمين وكفار قريش حتى ذلك الحين غير دم ابن الحضرمي . ولقد رأينا فيما سبق كيف أن عُسَيْبَةَ بن ربيعة أحد سادات قريش المعدودين وصاحب الكلمة المسموعة فيها ، قد قبل عن طيب خاطر أن يتحمل دية ابن الحضرمي عند ما عرض عليه حكيم بن حزام ، وهم يستعدون للحرب في ساحة معركة بدر وقبل أن تقع الواقعة ، أن يدفع الدية من ماله ويعوّض أهل الحضرمي عن تجارته التي غنمها المسلمون . كل هذا حقناً للدماء التي سفكت ببدر ، غير أن أبا جهل أفسد عليه هذا الرأي ودارت المعركة كما رأينا ، وراح ضحيتها سبعون رجلاً من قريش ، فيهم عدد كبير من ساداتها وذوى الجاه والعزة والمنعة فيها . فإذا يمكن أن يحدث الآن غير مزيد من الحرب ومزيد من التحدى . من يتحمل ديات أولئك القتلى ، وكم تساوى ، ومن يملك ما تساوى ، ومن يقبل أخذ ديات فيهم ؟ لا أحد على التأكيد .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يعد هناك بلد لقريش من أن تنازل محمداً وأصحابه في جولة أخرى أو في جولات ، دفاعاً عن هبتها المفقودة وتجارتها المهددة وحفاظاً على سمعتها بين العرب . ثم إن هذا لم يكن كل ما قد يصادف المسلمون من متاعب . فقد كان لا يزال بالمدينة عدد كبير من الكفار والمشركين والمنافقين ، وأهم هؤلاء اليهود . وكانت لاتزال هذه الفئات كلمة مسموعة في المدينة وفيما حولها ، وكانت لهم قوة

يرهبها عدوهم ، وإن لم يجربوا هذه القوة بعد مع المسلمين . فبعد وقعة بدر اتخذ الدفاع عن الإسلام صورة غير الصورة التي انطبعت بها أحداث الماضي ، وتزايد سلطان المسلمين في المدينة تزايداً كبيراً ، الأمر الذي أصبح يهدد قبائل اليهود التي تعيش فيها وفيما حولها . فقد تخوف اليهود الآن على أنفسهم تزايد هذا السلطان ، ورهبوا انتشار الإسلام هنا وهناك ، وفزعوا لهذه الروح الجبارة التي كان يلقي بها المسلمون عدوهم . أما المسلمون ، فقد تخوفوا هم أيضاً على دولتهم الناشئة مؤامرات اليهود ودسهم ووقيعتهم وعداءهم المقنع . كل هذا جعل الصراع بين المسلمين واليهود أمراً لا مفر منه .

ليست هذه الأخطار الشديدة فحسب هي التي كانت تهدد المسلمين في أعقاب معركة بدر . فقد كان هناك فئة ثالثة تناوئ المسلمين أيضاً ، هي تلك القبائل المنتشرة على شاطئ البحر الأحمر بين مكة والمدينة على طريق التجارة إلى الشام . فقد اقتضت مصالح بعض هذه القبائل أن تهادن المسلمين وتعاهدهم ، واقتضت مصالح قبائل أخرى أن تهادن قريشاً وتعاهدوها . فلتوقع إذن مزيداً من التحرشات ومزيداً من الصراع ومزيداً من الحرب . لم يعد المسلمون الآن ليسكتوا عن أولئك الذين يسبون الإسلام ويرسلون الأشعار في هجوه وهجو نبيه . فلما أن يكف هؤلاء وأمثالهم بالحسنى ولما أن ينالوا أشد عقاب . فإن التجربة التي خاضها المسلمون على ساحة بدر جعلتهم يدركون أن شيئاً سوف لا يمنعهم غير سيوفهم . وأن أحداً من العرب غير المسلمين من المناوئين لهم سوف لا يكف عنهم إلا إذا قطعوا دابرهم .

كان أبو علفك أحد بني عمرو بن عوف ممن يرسلون الأشعار في هجاء محمد والمسلمين ، وفي تحريض قومه عليهم . عندئذ قرر سالم بن عُمَيْرٍ تخايص الإسلام من شره ، فذهب إليه ذات ليلة وهو نائم بفناء داره ، وانقض عليه بالسيف يمزق كبده . كذلك كانت عصماء بنت مروان

من بنى أمية بن زيد ممن يعيبون الإسلام ويؤفون النبي ويحرضون عليه ، فجاءها عُمر بن عوف في هدأة الليل ودخل عليها بيتها وهي نائمة ترضع صغيراً لها ومن حولها بقية أبنائها ، وكاد عمير أن يكون كفيفاً أو أنه كان يعشو فلا يتبين الأشياء جيداً في الليل ، فتحسها بيده وأبعد عنها الصبي ووضع سيفه في صدرها حتى أنفذه من ظهرها . وذهب عُمر فأخبر النبي الخبر ، وبينما هو عائد إذ جماعة فيهم بنوها كانوا عائدتين بعد دفنها ، فأقبلوا عليه فقالوا : يا عمير أنت قتلتها ؟ قال نعم ! فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظَرُون ، فولدى نفسى بيده لو قلتهم بأجمعكم ما قالت لضربكم بسيفي حتى أموت أو أقتلكم . أما النتيجة التي أدى إليها هذا الموقف فكانت ظهور الإسلام في بنى خَطَمَة ، ذلك أن عصماء كانت زوج رجل منهم ، وكان عدد منهم قد أسلموا ولكن يخشون إظهار إسلامهم ، فأظهروه عندئذ غير وجلين ولا هيابين .

أما كعب بن الأشرف وهو أحد بنى نهبان وأمه من بنى النضير ، فقد وقف موقفاً سيئاً جداً من المسلمين بعد بدر . فهو الذي قال عندما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر حين قدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران بنصر المسلمين : هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها . ثم إنه لما تيقن الخبر خرج إلى مكة ، ونزل على المطلب بن أبي وداعة بن صبرة السهمي ، فأكرمه وأكرمه زوجته عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وجعل يحرض الناس على قتال محمد وينشد الأشعار ويندب من قُتِل من المشركين يوم بدر . وله في ذلك قصيدة مطلعها :

طحنت رحى بدر لمتهلك أهليه ولمثل بسدر تسهل وتد مع

وهناك قال له أبو سفيان : أناشدك أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأيننا أهدي في رأيك وأقرب إلى الحق ؟ إنا نطعم الجزور

الكوءاء ، ونسقى اللبن على الماء ونطعم ما هبَّت الشَّمال . فقال له كعب بن الأشرف : أنتم أهدي منهم سبيلا !

وفي هذا أنزل الله قوله تعالى : « أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يَوْمِنُونَ بِالْجُبَّتِ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً . أولئك الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنُ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً » (١) .

ثم إن كعباً عاد إلى المدينة بعد أن حرض قريشاً على أخذ ثأرها ومحاربة محمد والمسلمين ، وجعل يشيب بأم الفضل بن الحارث وبغيرها من نساء المسلمين ويهجو النبي . فلما فاض الكيل وبلغ الألم في نفوس المسلمين منه كل مبلغ ، قال محمد لأصحابه : من لابن الأشرف ؟ فقال محمد بن مسَلَمَة أخو بني عبد الأشهل : أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله . قال محمد : « فافعل إن قدرت على ذلك » .

ثم إن محمد بن مسَلَمَة مكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما يسد الرمق ، فلما بلغ ذلك رسول الله قال له : لم تركت الطعام والشراب ؟ قال : يا رسول الله قلت لك قولاً لا أدرى هل آفى لك به أم لا . قال : إنما عليك الجهد . قال : يا رسول الله لا بد لنا أن نقول (أى نخدعه) . قال : فقولوا ما بديا ليكم فأنتم في حل من ذلك . عندئذ اجتمع في قتله محمد بن مسَلَمَة ، وسَلَمَكان بن سلامة بن وقش ، وهو أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل ، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة ، وعباد بن بشر بن وقش أحد بني عبد الأشهل ، والحارث بن أوس بن معاذ أحد بني عبد الأشهل ، وأبو عيسى ابن جبر أخو بني حارثة .

وقدم هؤلاء حتى أتوا كعب بن الأشرف فحدثه سَلَمَكان أخوه من الرضاعة ، وتناشدا الشعر ثم قال سَلَمَكان : إني قد جئتكم لحاجة أريد ذكرها لك فاكم عني : قال : فافعل . قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ،

عادتنا العرب ورمطنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل ، حتى ضاع
العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا .

فقال كعب : أنا ابن الأشرف ! أما والله لقد كنت أخبرك يا بن سلامة
أن الأمر يصير إلى ما أقول .

فقال له سلكان : إني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونُرهنك ونوثق لك
وتحسن في ذلك .

قال : ترهنوني أبناءكم ؟ قال : لقد أردت أن تفضحنا ، إن معي
أصحاباً لي على مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك
ونُرهنك من السلاح ما فيه وفاء . فرضى ابن الأشرف بذلك ، ورجع
سلكان إلى أصحابه وأخبرهم بذلك ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا
فيجتمعوا إليه ، فاجتمعوا عند محمد فشئ معهم إلى بقيع الفرقد ، ثم
وجههم وقال : « انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعهم » ثم رجع وكانت
الليلة مقمرة ، وانطلق القوم إلى بغيهم .

فلما جاعوه هتف به سلكان ، وكان ابن الأشرف حديث عهد بعرس ،
فوثب في ملحفته ، فأخذت امرأته بناصيتها وقالت : أنت امرؤ محارب ،
وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة . قال : إنه رضيعي أبو نائلة
لو وجدني نائماً ما أيقظني . فقالت : والله إني لأعرف في صوته الشر .
قال كعب : لو دُعِيَ القتي لطعنة بليل لأجاب !

وسار كعب وسلكان حتى التقيا بأصحاب ساكان . ومشى القوم ساعة
يتجاذبون أطراف الحديث . وإذا هم يسرون وكعب مطمئن لهم وضع
ساكان يده في رأس كعب وقال : ما رأيت طيباً أعطر قط . ثم مشوا
ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ، ثم مشوا ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بشعر كعب
وقال لأصحابه : اضربوا عدو الله ، فناشوه بأسياهم حتى مات .

ورجعوا إلى محمد فأخبروه الخبر فأهدر دماء اليهود ، وقال :

« من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه » . وعندئذ خافت اليهود ولم يعد يهودى إلا وهو خائف على نفسه . فوثب مُحَيَّصَة بن مسعود الأوسى على ابن سُلَيْمَة وهو تاجر من تجار اليهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله ، وكان أخوه حَوَيْصَة بن مسعود أسن منه ولم يُسَلِّمْ بعد ، فقال لأخيه وهو يضربه : أى عدو الله أقتلته ؟ أما والله لَتُرَبَّ شَحْمٌ فى بطنك من ماله !

قال مُحَيَّصَة : والله لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لضربت عنقك ! قال حَوَيْصَة : والله لو أمرك محمد بقتلى لثقتلى ؟ قال : نعم والله لو أمرنى بضرب عنقك لضربت بها !

قال حويصة : فوالله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب ! ثم أسلم .

وفى تلك الأثناء وقعت حادثة استطار لها الشر بين المسلمين واليهود . قدمت امرأة من العرب ببضاعة لها فباعها فى سوق بنى قَيْسَنُقَاع ، وجلست إلى صائغ منهم ، فألح عليها قوم من اليهود كانوا عنده أن تكشف عن وجهها النقاب فأبت ، فعمد الصائغ الماكر عندئذ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سواتها فتضاحك القوم ، فصاحت فهب لنجلتها رجل من المسلمين أثار ما فعل اليهود بها نخوته فهجم على الصائغ اليهودى وقتله . عندئذ تكاثر اليهود على المسلم فقتلوه . واستصرخ أهل المسلم المسلمين فوقع الشر بينهم وبين بنى قَيْسَنُقَاع .

فجمعهم محمد فى سوقهم وقال : يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النِّقْمَة وأَسْلِمُوا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبي مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم .

فقالوا : يا محمد إنك ترى أنا قومك ؟ لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا عالم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس .

وفى ذلك أنزل الله فى سورة آل عمران قوله : « قل للذين كفروا (أى

اليهود) ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في
فئتين التقتا (أى المسلمين وقريش في بدر) فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى
كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك
لعبرة لأولى الأبصار » (١) .

ثم إن محمداً مشى إليهم على رأس أصحابه وحاصرهم حصاراً شديداً
خمس عشرة يوماً متتالية ، لا يخرجون من حيث هم ولا يدخل إليهم أحد
لا بطعام ولا بغيره ، حتى جهدهم الحصار فسمحوا أمرهم لمحمد يحكم فيهم
بما يشاء . عند ذلك استشار أصحابه ، واستقر الرأي على قتلهم وتخليص المدينة
من شرورهم .

غير أن بنى قيسنقاع كانوا حلفاء الخزرج ، وكان عبد الله بن أبي بن
سكول زعيم الخزرج لا تزال له كلمة مسموعة في قومه . ولم يرض عبد الله
ابن أبي بهذا الحكم فقام إلى محمد وقال : يا محمد أحسن في حلفائي . فأبطأ
عليه محمد ولم يجبه ، فأعاد قوله : يا محمد أحسن في حلفائي . فأعرض
عنه ولم يلتفت إليه . وعندئذ أدخل عبد الله بن أبي يده في جيب درع
محمد وكان يقال لها ذات الفضول ، فقال له محمد : أرسلني (أى أتركني) ،
وغضب غضباً شديداً عندما لم يتركه حتى تغير لون وجهه وقال :
ويحك أرسلني !

قال عبد الله بن أبي : والله لا أرسلك حتى تحسن في حلفائي ، أربعمائة
حاصر وثلثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدكم في غداة واحدة !
إني والله امرؤ أخشى الدوائر .

فقال له عندئذ : هم لك .

لم يكن بد من هذا الرضوخ حفاظاً على وحدة المسامين ، لأن إصرار
عبد الله بن أبي كان من شأنه لو أن محمداً رفض ، أن يحدث فتنة في صفوف

المسلمين لا يعلم أحد كيف تنهى . أما عبادة بن الصامت ، وكان من بنى عوف ، وله من حلفهم مثل الذى لهم فى عبد الله بن أبى ، فإنه مشى إلى محمد وتبرأ إليه وإلى الله من حلفهم وقال : يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم .

عندئذ نزلت فيه وفى عبد الله بن أبى الآيات : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » (١) . يعنى عبد الله بن أبى ، إلى قوله : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » (٢) . يعنى عبادة بن الصامت .

وانتهى الاتفاق أخيراً على أن يخرج بنو قيسنق من المدينة وإن كان عبد الله بن أبى قد حاول أن يحدث محمداً فى بقائهم ، إلا أن بعض المسلمين حال دون أن يعود فيحدثه فى شأن من شئونهم . ووكل أمر لإجلاتهم إلى عبادة بن الصامت فأذعنوا وتركوا المدينة جميعاً وخلفوا السلاح وأدوات الذهب الذى كانوا يصوغون . وساروا صوب الشمال حتى حطوا رحالهم فى وادى القرى ، فأقاموا حيناً ، ثم تركوها إلى أذرعات على حدود الشام . وقسم محمد الغنائم التى غنموها منهم على المسلمين ، وأعطى سهم فوى القُرْبى لبني هاشم وبني المطلب دون أخويهما عبد شمس ونوفل . فلما سئل عن ذلك قال : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد فى الجاهلية والإسلام ، هكذا - وشبك بين أصابعه .

خيم الهلوة على المدينة بعد جلاء بنى قيسنق قرابة شهر . ثم بلغ مسامع المسلمين أن أبا سفيان أغار فى جمع من قريش عدده فى قول مائتا راكب ، وفى قول أربعون ، على رجل من الأنصار وأجيراً له يعملان فى

حقل لهما على مسافة ثلاثة أميال من المدينة فقتلوهما وحرقوا بيتين من بيوت العريض ونخيلا وتبناً . فخرج إليه محمد في مائتي رجل من المهاجرين والأنصار ، وكان ذلك في الخامس من ذى الحجة من السنة الثانية للهجرة ، واستعمل على المدينة أبا لبابة بشير بن عبد المنذر .

غير أنه يلوح أن أبا سفيان لم يكن يقصد حرباً ، وإنما أراد أن تبرئ يمينه عندما عاهد نفسه بعد غزوة بدر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً . ولذلك عاد أدراجه مسرعاً بعد هذه الغارة إذ برت يمينه . وحث محمد وأصحابه السير خلفهم حتى وصاوا قرقرة الكندر ، ثم انصرفوا راجعين وقد فاتهم أبو سفيان وأصحابه ، إذ عمدوا إلى الفرار مسرعين عند ما علموا بمطاردة المسلمين لهم ، وكانوا يلقون أزواداً كثيرة لتخف حملتهم ، وعامتها السويق (الناعم من طحين القمح والشعير) فسميت لذلك غزوة السويق .

وفي شهر ربيع الأول من سنة ثلاث باغ الرسول أن جمعاً من غطفان من بني ثعلبة بن محارب قد تجمعوا بذى أمّير يريدون الغارة على المدينة ، فخرج إليهم في أربعمائة وخمسين رجلاً في الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان . فلما وصل المسلمون ذلك الماء المسمى بذى أمّير لم يجدوا أحداً إذ كانت الأعراب قد هربت إلى رؤوس الجبال ، فمسكروا هناك . وفي تلك الأثناء خرج محمد لحاجته فهطل عندئذ مطر شديد فابتلت ثيابه ، فنزل تحت شجرة هناك بعيداً عن أصحابه وخلعها ونشرها لتجف ، وذلك بمرأى من المشركين . وظن المشركون أنهم يستطيعون إصابة محمد إذ ذاك فأرسلوا له رجلاً شجاعاً منهم يقال له غوث ابن الحارث أو دُعُثُور بن الحارث ليقته . فأقبل ومعه سيف صقيل حتى باغته ووقف على رأسه شاهراً سيفه ، وقال : من يملك مني يا محمد ؟ فقال : الله . وعندئذ سقط السيف من يد الرجل هبة ورعباً ،

فتناوله محمد وقال له : من يمنعك مني ؟ قال : لا أحد ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والله لا أكثُر عليك جمعاً أبداً . فأعطاه محمد سيفه ، فتحول قلب الرجل من عداوة الرسول والإسلام إلى محبته والدعوة إلى دينه . ونزل في ذلك قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » (١) .

وبلغه بعد ذلك بقليل أن جمعاً من بني سليم يريدون الغارة على المدينة فسار إليهم في ثلاثمائة من أصحابه . واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، حتى إذا بلغ بُحْران وهو موضع بناحية الفُرْع بالحجاز كان الجمع قد تفرق ولم يلق كيداً فرجع .

كانت هذه المناوشات في غالب الظن بإيعاز من قريش تأميناً لطريق تجارتها إلى الشام ، ولكن اتضح لها أن الطريق أصبح غير آمن وأن حلفاءهم من الأعراب غير قادرين على حماية الطريق ، وأن الرسول وأصحابه لهم بالمرصاد . تشاور عندئذ سادة قريش في هذا الأمر فقال صفوان بن أمية : إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متعجراً ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسكن . وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء . فقال له الأسود بن المطالب : تنكب طريق الساحل وخذ طريق العراق . وعندئذ وجدوا ألا مفر من اتخاذ طريق العراق فاتفقوا مع دليل خبير بهذه الطريق من بني بكر بن وائل ، هو فرات بن حيان يسير بهم فيها . فتجهز صفوان بن أمية وخرج بتجارة قريش وأكثرها من الفضة تبلغ قيمتها مائة ألف درهم . وفي تلك الأثناء عاد إلى المدينة نعيم بن

مسعود الأشجعي قادماً من مكة ومعه خبر هذه القافلة ، فجمعه مجلس شراب بسايط بن النعمان أحد المسلمين ، وكان ذلك قبل تحريم الخمر ، فعلم منه خبر القافلة ، فأسرع وأخبر محمداً . فقام من ساعته وجهاز زيد بن حارثة في مائة راكب ليعترضوا القافلة ، فأسرعوا إليها وبلغوها عند ماء يقال له القردة ، ففرصفوان ومن معه واستولى المسلمون على القافلة برمتها ، فكانت أول غنائم المسلمين الكبيرة . ولم يأسر المسلمون غير رجل واحد هو فرات بن حيان دليل القافلة ، فأسلم وأنقذ رقبته . وخمس محمد الأموال فكان خمسة عشرين ألف درهم ، وقسم الباقي على زيد وأصحابه الذين خرجوا معه .

وفي حوالى ذلك الوقت تزوج محمد من حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكان حنيفة زوج حفصة أحد السابقين إلى الإسلام قد مات عنها قبل ذلك بسبعة أشهر . كذلك زوج محمد عثمان بن عفان ابنته أم كلثوم ، وكانت رقية أختها قد توفيت في أعقاب غزوة بدر يوم أن وصل البشيران اللذان أرسلهما للمدينة يبشران بالنصر .

وأما على بن أبى طالب فتزوج فاطمة بنت محمد في ذلك الوقت أيضاً . ويروى في ذلك أن علياً لم يكن يملك شيئاً يهرها إياه ، فلما جلس بين يدي ابن عمه يريد أن يكلمه أفحم ولم يستطع أن يتكلم بجلالة وهيبه . فقال له محمد : ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ فسكت ، فقال : لعلك جئت تخطب فاطمة ؟ قال : نعم . قال : وهل عندك شيء تستحلها به ؟ قال على : لا والله يا رسول الله . فقال : ما فعلت بدرع كنت قد ساحتك بها . قال : عندي . قال : قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها بها . وفي ذلك قال على : إن صداق فاطمة بنت محمد كان درعاً حطمية ما قيمتها أربعة دراهم .

الفصل التاسع

غزوة أحد

أشارت الأحداث السابقة إلى المتجه الذي كان لا بد أن يسير فيه محمد وأصحابه من ناحية ، ومشركو قريش من ناحية أخرى . فمحمد لن يكف عن قريش ولن يترك طريق تجارتها آمناً ، ولن يتنازل قيد أنملة عن تحرير الكعبة من أوثانها . وقريش لن يهدأ لها بال حتى تأخذ بثأر أشرافها وسادتها أصحاب القليب الذين جندلهم سيوف المسلمين في ساحة بدر ، ولن تراجع عن العمل لاستعادة هيبتها ومكانتها المفقودة . ولقد حدثت فعلا عدة مناوشات منذ وقعة بدر حتى الآن — لم تغن قريشاً شيئاً ، وإن أفادت قطعاً الخطوة التي انتهجها المسلمون ، وهي تهديد طريق تجارة قريش — كانت إيذاناً بتجمع العاصفة التي هبت عند أحد في صبيحة ذلك اليوم من شوال من السنة الثالثة للهجرة .

لما رجعت قريش منهزمة من بدر ، وقد أوجعهم سيوف المسلمين وأذلت رقابهم الهزيمة وحز في نفوسهم ذلك الألم المبرح لفقد الآباء والأبناء والأخوة والصحاب الذين تركوا من خلفهم مجندلين صرعى في ساحة بدر ، وعاد أبوسفيان بتجارتهم سالمة ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة ابن أبي جهل ، وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم ، وكلموا أباسفيان وأهل مكة ممن كان له في القافلة تجارة ، أن يخصصوا ربحها جميعاً لتجهيز جيش يحاربون به محمداً وأصحابه ، لعلهم يدركون منهم ثأراً ، فقبل الجميع . وكانت أرباحها ماثلة لرأس مالها ، أي خمسين ألف دينار ، خصصت جميعاً لتجهيز ذلك الجيش . وفي ذلك نزل قوله تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن

سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون» (١) .

اجتمعت قريش لحرب محمد وأصحابه ، وأخذت تحرض قبائل كنانة وأهل تهامة على الخروج معهم ، وأرسلت الشاعر أبا عزة إليهم ليحرضهم بعد أن أغرته على نقض عهده مع محمد بعد أن منَّ عليه يوم بدر وأطلقه من الأسر على ألا يظهر عليه . فجعل يسير في تهامة ويدعو بني كنانة ويقول :

أيا بني عبد مناة الرزام (٢) أنتم حماة وأبوكم حام
لا يَعدُّونني نصركم بعد العام لا تستلموني لا يحل إسلام

وخرج غيره من الشعراء ، واجتمع في النهاية ثلاثة آلاف مقاتل ، معهم مئتا فرس وسبعمئة بعير ، من قريش وقبائل كنانة وأهل تهامة وبني المصطلق المسمون بالأحابيـش . وهم حلفاء قريش ، وأبو عامر عبد عمرو بن صبيح ومعه خمسون رجلاً من الأوس ، كانوا قد خرجوا من المدينة كراهية لمحمد . وأبو عامر هذا كان يسمى في الجاهلية الرَّاهب لكثرة تعبده . وخرجت معهم جماعة من شريفات نساء قريش التماس الحمية وتشجيع المقاتلين على الدفاع عن المحارم وألا يفروا . فخرجت هند بنت عتبة بن ربيعة مع زوجها أبي سفيان صخر بن حرب وهو قائد الناس يومئذ ، وخرجت أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة مع زوجها عكرمة بن أبي جهل ، وخرجت فاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع زوجها الحارث بن هشام ، وخرجت غيرهن فبلغن جميعاً حوالي خمس عشرة امرأة . وخرج معهم القيان يحملن الدفوف والمعازف ، والغلمان يحملون الحمور .

خرجت قريش طلباً لئلا يملأ الحقد قلوب رجالها ونساءها جميعاً .

(١) الشفاء ٣٦

(٢) الرزام : جمع رازم . أى ثابت لا يفرح في الحرب .

وكان حمزة بن عبد المطلب ممن يحرسون أشد الحرص على قتله . وهو الذى فعل فيهم الأفاعيل يوم بدر . دعا جبّير بن مطعم غلاماً له حبشياً كان ماهراً جداً فى قذف الحربة قذف الحبشة . قلما يخطئ إذا رماها ، فقال له : اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طعنة بن عدى فأنت حر . وكانت هند زوج أبى سفيان ممن يحرسون أيضاً على قتل حمزة ، فهو الذى قتل عمها شيبه وأجهز على أبيها عتبة ، فكانت إذا مرت بوحشيّ هذا أو مر هو بها تقول : وبها أباد سمة اشف واشف ، أى اقتل حمزة فاشف غليلي وحرر نفسك .

وفى تلك الأثناء كان رسول من مكة أرسله العباس بن عبد المطلب قد وصل برسالة إلى المدينة . وكان العباس قد امتنع عن الخروج مع قريش ذلك اليوم محتجاً بما أصابه يوم بدر . ومما لا شك فيه أن العباس ما كان ليقاتل ابن أخيه ، وهو الذى منعه طوال حياته ، وكان ليفديه بدمه وماله ، وهو الذى حضر معه بيعة العقبة الثانية ليستوثق له من الأنصار ، ويتأكد من حمايتهم له . ولقد كفته تجربة بدر إذ خرج مستكراً مع قومه يومئذ ، فلقى فيها ما لقي مما تكبره نفسه . وصل رسول العباس المدينة فعلم أن محمداً يقبأ ، فتوجه إليه فإذا هو أمام باب المسجد يركب حماره ، فدفع إليه الكتاب . فقرأه عليه أبو كعب ، فاستمكتهم الخبر . وعاد مسرعاً إلى المدينة فقصد من توه إلى سعد بن أبيّ فى داره فأطاعه على ما فى كتاب العباس واستمكتهم الخبر أيضاً . غير أن امرأة سعد كانت بمقربة منهما فسمعت الخبر فلم يعد سرا .

بعث محمد أنساً ومؤنساً ابني فضالة ليستطلعا له أخبار قريش . فوجداها قد نزلت ببطن الوادى المقابل للمدينة قبل جبل أحد . وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع المدينة القريبة منها . ثم إنه بعث الحباب بن المنذر ابن الجموح ليأتيه بمزيد من الأخبار فأكد له ما قال أنس ومؤنس . وتجمع

الناس ، وبات كبار المسلمين وعليهم السلاح في المسجد خوفاً على النبي أن يدهم الكفار المدينة في أثناء الليل ، وباتت جماعات هنا وهناك تحرس مداخل المدينة .

فلما أصبحوا جمع محمد أهل الرأي من المسلمين للتشاور في كيفية لقاء هذا العدو الذي أقبل عليهم بحده وحديده ، وجمع لهم جيشاً لم تجمع قریش مثله من قبل .

رأى محمد التحصن في المدينة ، وقال لأصحابه : إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها .

وقال عبد الله بن أبي بن سلول : لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال في هذه الصيافي^(١) ونجعل معهم الحجارة ونشك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية . فإذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقتلناه بأسيافنا في السكك . إن مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فُضّت علينا قط وما دخل علينا عدوّ فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا إلى عدوّ قط منها إلا أصاب منا ، فدعهم يا رسول الله وأطعني في هذا الأمر ، فإني ورثت هذا الرأي عن أكابر قومي وأهل الرأي فيهم .

لم يرض بهذا الرأي الذي أخذ به النبي وكبار الصحابة رجلاً من الذين لم يشهدوا بدرأ ، وقد علموا بما كان لأصحاب بدر من الفضيلة ، فرغبوا في أن يكونوا مثلهم ، ولم يعجب طائفة أخرى من الشبان المتحمسين الذين لم يمالكوا أنفسهم وخیل قریش وإبلها ترعى زروعهم على مرأى منهم .

قال الذين لم يشهدوا بدرأ : كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله ، فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير .

(١) الحصون ، وفردّها الصيافيّة .

وقال نعيم بن مالك بن ثعلبة ، وهو أحد بني سالم : يا بني الله لا تحرمنا الجنة ، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها .

فقال له محمد : بم ؟ قال : بأني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف . فقال : صدقت .

وقال رجال منهم حمزة : والذي أنزل عليك الكتاب لنجادلهم .

وقال رجل من الأنصار : متى نقاتلهم يا رسول الله إذا لم نقاتلهم عند شعبنا ؟

وقال رجال : ماذا نمنع إذا لم نمنع الحرب بيروء ؟

وقال قائل منهم : إني لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون : حصرنا محمداً في صياصي يثرب وأطامها فتكون هذه مُجرّدة لقريش ، وما هم قد وطئوا سعفنا ، فإذا لم نذب عن عرضنا لم يزرع ، وإن قريشاً قد مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجاب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا ، أفحبسوننا في بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرين لم يكلموا ! لئن فعلنا لأزدادوا جرأة ولشئنا الغارات عاينا وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ثم لقطعوا الطريق علينا .

وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو . فنزل محمد على رأى غالبية الناس ، فقام فصلى الجمعة ووعظ الناس وذكرهم ، وأمرهم بالجد والجهاد ، ثم دخل بيته ليلبس درعه ومعه أبو بكر وعمر .

وفي تلك الأثناء تحاور الناس في أمر الخروج أو البقاء بالمدينة . وقال بعضهم : إن النبي أمرنا أن نمكث بالمدينة وهو أعلم بالله وما يريد ويأتيه الوحي من السماء ، وقال أسيد بن حضير وسعد بن معاذ إن أرادوا الخروج وصمموا عليه . لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة فقام ، فلم واستكروهم على الخروج وهو له كاره ، فردوا الأمر إليه . فما أمرهم فافعلوه ، وما رأيتم فيه هوى أو رأياً فأضيعوه .

فلما خرج لهم وعليه درعه وقد تقلد سيفه وأذن للناس بالخروج ، قالوا : يا رسول الله امكث كما أمرتنا .

فقال : ما ينبغي لنبي إذا لبس درع الحرب وأذن بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل . وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج ، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو ، وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا .

ثم عقد ألوية الجيش فأعطى لواء المهاجرين المُصْعَب بن نُجَيْر ، ولواء الخزرج للحُبَاب بن المُنْذِر ، ولواء الأوس لَأَسِيد بن حُضَيْر . وخرج من المدينة على رأس ألف من المهاجرين والأنصار . واستعرض الجيش فرد جماعة من الغامان ولم يأذن لهم بحضور الحرب لصغر سنهم ، منهم عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس بن قيطي . وهؤلاء أجازهم جميعاً يوم الخندق ، وكانوا قد بلغوا الخامسة عشرة . ثم إنه كان قد رد أيضاً في ذلك اليوم سَمُرَة بن جُنْدُب ورافع بن خديج وهما ابنا خمس عشرة سنة ، فلما قيل له إن رافعاً رام أجازته ، وعندئذ بكى سمرة وقال : أنا أصرع رافعاً ، فأجازته . كذلك منع جماعة من الأنصار أرادوا الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة وقال : لا حاجة لنا فيهم . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وبات خارج المدينة ليلة السبت ، واستعمل على حرس الجيش محمد ابن مسلمة ، وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس . وفي السحر من يوم السبت الحادى عشر من شوال سنة ثلاث سار الجيش تجاه أحد حيث نزلت قریش . وبينما هم في بعض الطريق عند الشوط ، وهو بستان بين أحد والمدينة انخرل عنه عبد الله بن أبي بثلث الناس وقال : أطاعهم وعصاني ، ما ندرى علام تقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس ؟ ورجع ممن اتعنه من قومه ، وكان لا يزال صاحب كلمة فيهم ، أو قل إن هؤلاء الذين اتبعوه كانوا من أهل النفاق

والرَّيب مثله . وعند ذلك اتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام السَّلمي والد جابر بن عبد الله وقال لهم : يا قوم أذكركم الله ألا تحذلوا قومكم ونبيكم عند ما حضر مِّنْ عدوهم . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكننا لا نرى أن يكون قتال .

وهؤلاء القوم هم المرادون بقوله تعالى : « وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقربُ منهم الإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » (١) .

ثم إن بني سلمة وبني حارثة همنا أيضاً لما رجع عبد الله بن أبي وأصحابه أن تفشلا وآودوا ولكنهم ثبتوا . ولهذا قال في كتابه العزيز « إذ هم طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٢) .

أراد محمد أن يصل إلى ساحة المعركة من طريق قرية لا تمر بعسكر الأعداء ، فدكَّه أبو خيثمة أخو بني حارثة بن الحارث على طريق سار فيها في حرة بني حارثة وبين بساتينهم وزروعهم . فاما مرثوا في بستان ميربَّع بن قيطي ، وكان رجلا منافقاً ضيرير البصر ، قال إذ سمع صوت محمد ومن معه من المسلمين : إني لا أحل لك أن تدخل في بستانى وإن كنت رسول الله . وأخذ حفنة من التراب في يده وقال : والله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك . وعندئذ ابتدره جماعة من القوم ليقتلوه ، فهاهم محمد عن ذلك وقال : لا تقتلوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر . ولكن كان سعد بن زيد أخو بني عبد الأشهل قد سبق إليه قبل أن يهاهم عنه وضربه ضربة شديدة بقوسه فشجَّ رأسه .

ثم وصل جيش المسلمين ساحة القتال في سبعمائة مقاتل مشاة ليس معهم

(١) آل عمران ١٦٧

(٢) آل عمران ١٢٢

فرس واحد ، وعسكروا في جانب الوادى وجعلوا ظهرهم إلى الجبل عند
شعبه . وقبلتهم جيش المشركين في ثلاثة آلاف مقاتل .

بدأ محمد يعد أصحابه للقتال فابتدروهم أول شيء بقوله : لا يقاتلن
أحد حتى أمره بالقتال . وكانت قریش قد أطلقت لإبلها وخيلها ترعى في
بعض زروع المسلمين القريبة ، فلم يمالك رجل من الأنصار نفسه أن يقول :
أترعى زروع بنى قيسلة ولما نضارب ؟ !

أى نعم ! فقد كان الموقف دقيقاً جداً ، ولم يكن المسلمون عندئذ لقلة
عددهم وعدتهم في موقف يسمح بأية هفوة أو عجلة ، فربما يكون في ذلك
القضاء المبرم عليهم . اختار محمد أصلح موضع يمكن أن يقاتل فيه
المسلمون . الجبل من ورائهم يحمى ظهورهم ، وليس فيه غير شعب ضيق
حصنه بخمسين من الرماة الشداد وأمر عليهم عبد الله بن جبير أخا بنى
عمرو بن عوف ، وهو معلم يومئذ بتياب بيض ، وأمرهم أن يثبتوا عند هذا
الشعب ويرموا خيل المشركين بالسهم حتى لا تأتيتهم من خلفهم ، وأكد
عليهم أن يثبتوا في مكانهم سواء أكانت نتيجة الواقعة للمسلمين أو عليهم
حتى لا يأتى أحد من خلفهم . والحق أن محمداً كان شديد الحرص على
الدفاع عن هذا الموضع ، وقد كان مصيباً ولا شك .

استعد الجيشان للقتال ، ووقف كل منهما لزاء الآخر انتظاراً لأول شرارة
يحدثم بعدها قتال مرير . فهذا جيش المسلمين ، سبعمائة رجل فقط ليس
فيهم راكب واحد ، ولكن فيهم محمد رسول الله ، وفي قلوبهم إيمان مطاق
بالله وبرسوله ، وعهد قطعوه على أنفسهم ألا يفروا وألا ينهزموا ، فالنصر
أو الشهادة وجنة عرضها السماوات والأرض . ومن خلفهم الجبل ، وقد
تسلق رمايتهم جنبات الشعب ونثروا السهم استعداداً للمعركة . وهذا جيش
المشركين . ثلاثة آلاف مقاتل . يملأ قلوبهم حقد دفين ورغبة مجنونة في
الأخذ بثأر قتلاهم يوم بدر . وعلى ميمنتهم مائة فارس يقودهم فارسهم

خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتهم مائتا فارس آخرين يقودهم عكرمة بن
أبي جهل ، وفي مقدمتهم سبعمائة بعير عليها رجال شداد ، ومن خلفهم ألفان
أو أكثر من المشاة . وقد أخذت النسوة وعلى رأسهن هند بنت عتبة يمشين
بين الصفوف ، وفي المقدمة ، وعند الميمنة ، وعند الميسرة ، وفي المؤخرة ،
وهن يضربن بالدفوف والطبول ويحرضن الرجال تحريضاً شديداً قائلات :

ويها بني عبد الدار ويها ثمة الأديار
ضرباً بكل بتار

ويقنن :

إن تقبلوا نعانق ونفـرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وأخذ محمد يخطب في الناس ويحرضهم على الثبات والقتال ويعددهم
بالنصر ، ويثبت قلوبهم ويشجعهم . رفع سيفه ذا الفئار وقال : من يأخذ
هذا السيف بحقه . فقام إليه رجال منهم الزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب
فأمسكه عنهم ، حتى قام أبو دُجانة سيماك بن خرشة أخو بني ساعدة وقال :
وما حقه يا رسول الله ؟

قال : أن تضرب به في العدو حتى ينحني .
قال : أنا أخذه يا رسول الله . فأعطاه إياه .

وكان أبو دُجانة من أشجع الناس وأقواهم ، وكانت له عصاة حمراء
يعتصب بها فيعنتهم ، إذا ما اعتصب بها عرف الناس أنه سيقا تل . فلما تناول
سيف رسول الله . أخرج عصابته فاعتصب بها : فقالت الأنصار : أخرج
أبو دُجانة عصاة الموت . ثم أخذ يتبختر بين الصنن إعجاباً بنفسه وزهواً
بتوته وشجاعته . فلما رآه محمد يفعل ذلك قال : إنها لمشية يبغضها الله
إلا في مثل هذا الموطن .

حى الناس والتقى الجمعان ، وكان أبو عامر أول من أقدم على المسلمين

في الأحابيش وعبدان أهل مكة . وكان قد خرج من المدينة مباعداً لمحمد ومعه خمسون من غلمان الأوس . فلما تقدم من المسلمين نادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . ظناً منه أنهم سينصرونه ، فردوا عليه قائلين : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق !

استمات المسلمون في القتال ، وقاتل أبو دُجانة وحمزة قتالا شديداً حتى أمعنا في الناس . وكانت صبيحة القتال يومئذ : أميت ، أميت ! لم يلق أبو دجانة أحداً إلا قتله . روى كعب بن مالك أن رجلاً من المشركين عليه درع عظيم ، كان يسير في صفوف المسلمين وهو يقول : اجتمعوا كما تجتمع الغنم الذبيحة . وإذا أبو دجانة ينتظره حتى اقترب منه والتقيا ، فلم يمهله أبو دجانة أن ضربه على جبل عاتقه ضربة بالسيف فبلغت وركه وتفرق الرجل فرقتين . ثم كشف أبو دجانة عن وجهه وقال : كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دُجانة . وروى الزبير بن العوام أنه وجد في نفسه عندما أعطى محمد سيفه إلى أبي دجانة ولم يعطه إياه عنده ما طابه ، وهو ابن صفية عمته ومن قريش ، فعمد إلى أبي دجانة ينظر ماذا يصنع ، قال : جعل أبو دجانة لا يلقى أحداً إلا قتله ، وكان في المشركين رجل لا يدع جريحاً إلا أجهز عليه ، فجعل كل منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دُجانة فاتقاه بذرقتة فعضت سيفه ، وضربه أبو دجانة فقتله . ورأى أبو دجانة إنساناً يحبس الناس حمساً شديداً ، فصمد له وحمل عليه بالسيف فإذا به امرأة تولول هي هند بنت عتبة ، فأكرم سيف رسول الله أن يضرب به امرأة .

وبينما المعركة على أشدها في صبيحة هذا اليوم ، تقدم بين الصفوف وحشي ، ذلك العبد الحبشي ، يرقب حمزة بن عبد المطلب ، قال : « خرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قد فاح الحبة قل ما أخطئ بها شيئاً ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، حتى رأيته في عرض

الناس كأنه الجمل الأورق يهْدُ الناس بسيفه هدًا ما يقوم له شيء ، فوالله
إني لأتهدأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو يحجر ليدنو مني ، إذ تقدمني إليه
سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال : هَلَمْ إِلَى يَابْنِ مَقْطَعَةِ الْبُظُورِ
(وكانت ختانة بمكة) فضربه ضربة فكأتما هو أمس الذاهب . ثم هزرت
حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت في ثُلُثته ، حتى خرجت
من بين رجليه ، فاتجه نحوى فغُلِبَ ، فتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيتها
فأخذت حربتي ثم رجعت إلى المعسكر وقعدت فيه ، ولم يكن لى بغيره
حاجة ، إنما قتاته لأَعْتَقَ . وكان وحشياً غلاماً لجبير بن مطعم ، وكان
جبير قد وعدته ، كما سبق ، أن يعتقه إذا هو قتل حمزة بعنه طُعَيْمَةُ بن
عديّ الذى قتل يوم بدر .

وممن أبلوا بلاء حسناً ذلك اليوم وأمعنوا فى المشركين ، رجل من
المنافقين الذين أظهروا الإسلام عن غير عقيدة خالصة يقال له قُرْظَان . تخلف
عن الخروج مع المسلمين أول الأمر ، فلما أصبح غيره نساء بنى ظَفَرَ فقلن
له : يا قُرْظَان ألا تستحي لما صنعت ! ما أنت إلا امرأة ! خرج قومك فبقيت
فى الدار . عندئذ أخذته العزة فقام من توه فدخل بيته وأخرج قوسه وجعبته
وتقلد سيفه ، وكان شجاعاً مقداماً ، فأقدم يعدو إلى حيث جيش المسلمين ،
فوصل قبل المعركة والنبي يسوى صفوفهم ، فتخطى الصفوف حتى وقف
فى أول صف منها . وكان أول من هاجم من المسلمين ، وظل طوال نهاره
يرمى المشركين بسهامه حتى انهزم المسلمون فى آخر النهار ، ففضل الموت
على الفرار وصمد حتى أصيب بهد أن قَتَلَ سبعة رجال فى ساعة واحدة .
فلما مرَّ به أبو الغيثداق وهو يُسَلِّمُ الروح وقال له : هنيئاً لك الشهادة
يا قُرْظَان ، قال : لإنى والله ما قاتلت يا أبا عمر على دين . ما قاتلت إلا على
الحفاظ أن تسير قريش إلينا فتقتحم حرمانا وتطأ سعفنا . فوالله إن قاتلت
إلا عن أحساب قومي . ولولا ذلك ما قاتلت . ثم قتل نفسه .

أما المسلمون الذين كانوا يقاتلون عن عقيدة فقد قاتلوا والله قتالا أشد من هذا وأمرّ . لقد قاتلوا وهم الأقل عدداً وعدّة وهزموا عدوهم في أول النهار حتى صرعوا من حملة اللواء سبعة أو تسعة . كان طلحة بن أبي طلحة العبدريّ حامل لواء المشركين ، وكان فتاكاً ، قد دعى إلى البراز فأحجم عنه الناس ، غير أن الزبير بن العوام برز له فوثب حتى صار معه على جملة ، ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه . فتناول لواء المشركين رجل لآخر منهم فيصرع ، حتى لم يعد أحد منهم يجروء على تناوله حتى تناوله عمرّة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فتجمعوا حوله ، وتناوله صواب وهو غلام حبشي لبنى أبي طلحة ، وهو آخر من أخذه منهم . فقاتل به حتى قطعت يداه ثم برك عليه وأخذه بصدرة وعنقه حتى ناشته سيوف المسلمين فقتل وهو يقول : اللهم قد أعدت . عند ذلك لم يستطع أحد من المشركين الإقدام لرفع اللواء ، وانهمزوا أمام هذا الطوفان الإسلامي ، وتقهقروا عن المعسكر ، وكادت نساؤهم أن يوسرن .

غير أن المسلمين تصرفوا عندئذ تصرفات خرقاء ، فلمنهم بدل أن يشخّوا في عدوهم الفار المهزوم ويمعنوا فيه قبل أن يفريق إلى نفسه ، انقضوا على المعسكر ينهبونه ، وظنوا أنهم ظفروا بعدوهم وأنه سوف لا يعود إليهم ؛ فلما رأى ذلك أصحاب عبد الله بن جبير وهم الرماة الذين عهد إليهم محمد بحماية ظهر الجيش عند شعب الجبل قالوا : الغنيمة ، أى قوم الغنيمة ، انتصر أصحابكم ، فما تنتظرون ؟ فقال لهم عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ؟ وكان عند ما وضعهم موضعهم قال لهم : إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا انتصرنا على عدونا وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم . غير أن أصحاب عبد الله بن جبير عصوا ذلك الأمر وقالوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصيب من الغنيمة . ولم يذعن للأمر غير عشرة أو نحو ذلك ظلوا معه حيث وضعهم محمد لم يبرحوا .

اغتم هذه الفرصة خالد بن الوليد ، فاتجه بفرسانه إلى حيث كان رماة المسلمين فقتل بعضهم وأجلى البقية الباقية منهم ، ودار خلف جيش المسلمين ، وانضم إليه عكرمة بن أبي جهل بفرسانه ، وهجموا هجمة شديدة على المسلمين فأوقعوا الاضطراب في صفوفهم فانهزموا وتركوا عروض الدنيا التي كانوا يجرون وراءها ، وراحو يبحثون عن سيوفهم ، وأخذ يضرب بعضهم بعضاً لا يدرون ماذا يفعلون من الدهش والروع ، وقتل مصعب بن عمير حامل لوأثمهم ، وقتل منهم ناس كثير ، وانقلب اليوم من يوم من أيام النصر العظيم إلى يوم بلاء كبير ومحنة قاسية .

وأشاع ابن قميصة أنه قتل محمداً ، وتنقل الخبر هنا وهناك تنقل البرق أن محمداً قد قتل . فحدث بهتة عظيمة ، وفت هذا الخبر الرهيب في عضد المسلمين ، فدخل الفشل في صفوفهم ، وتفرقوا فرقاً . فانطلقت جماعة منهم فوق الجبل إلى الصخرة وقعدوا هناك وقد أذهلتهم الهزيمة فقال بعضهم : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبيّ فيأخذ لنا أمنه من أبي سفيان ، يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتاوكم . وفل جماعة هاربن ، منهم الوليد بن عقبة ، وخارجة بن زيد ، ورفاعة بن المعلّى ، وعثمان ابن عفان ، وأرادوا العودة إلى المدينة ، غير أنهم استحيوا أن يدخلوها هاربن فارين من العدو ، فضربوا في الصحراء ولم يرجعوا إلا بعد ثلاثة أيام .

وجلس جماعة من المهاجرين والأنصار منهم عمر بن الخطاب وأبو بكر مدهولين من وقع الخبر الذي سمعوا ، فلقيهم أنس بن النضر فقال لهم : ما يجلسكم ها هنا ؟ فقالوا : قُتِل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : وما تصنعون بالحياة بعده ! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن كان محمد قد قتل فإن ربّ محمد لم يُقتل . ثم شد بسيفه واستقبل المشركين وقاتل قتالا عنيفاً حتى قتل . وقد روى أنس بن مالك ، وهو ابن أخيه أنهم وجدوا به يومئذ سبعين ضربة ، فما عرفه إلا أخته ،

عرفته من بنائه . ثم إن الله أنزل في ذلك قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرُّسُلُ أفإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم » (١) .

وبينما المسلمون يقاسون تلك البهتة التي أخذتهم ، كان محمد عليه السلام يقاسى شداائد عظيمة ، تحملها بثبات ليس له مثيل ، وهو يُجمعُ الناس من حوله ، في محاولة لإعادة تنظيم صفوفهم ، وهو يقول : إلى عباد الله ، إلى عباد الله . كاد في تلك الأثناء يقع بين برائن المشركين ليس من حوله غير حفنة من المسلمين يدافعون عنه دفاع المستميتين . رماه عتبة بن أبي وقاص فكسر رباعيته اليمنى السفلى ، وجرح شفته السفلى ، وشججه عبد الله بن شهاب الزهري في جبهته ، وجرح عبد الله بن قمئة وجنته ، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، فجاءه أبو عبيدة فانتزع الحلقتين بأسنانه فكسرت ثنيته . ووقع في حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، فأخذ على بن أبي طالب بيده ورفع طلحة بن عبيد الله ، ويقال إنه عند ما وقع لشقه أغمى عليه ، فلما أفاق قال : كيف يُفليح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله ؟ فأنزل الله قوله تعالى : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فلمهم ظالمون » (٢) .

وكانت أم عُمارة نسيية بنت كعب المازنية ممن ثبت إلى جانبه يذود عنه بالسيف ساعة الهزيمة . وكانت نسيية ممن خرجن من نساء المسلمين منذ أول النهار تنظر ما يصنع الناس ومعها سقاء فيه ماء ، فلما انهزم المسلمون ألقت السقاء وانحازت إلى رسول الله وقامت تباشر القتال بحد السيف تذب عنه ، وترمى عن القوس حتى خالصت الجراح إليها ، إذ ضربها ابن قمئة فجرحها جرحاً كبيراً على عاتقها . وكان قد هجم حيث محمد وهو يقول : دلوني على محمد ، لا نجوت إن نجا . فاعترضت له نسيية ومُصعب بن عمير وأناس ممن ثبت معه ، فضربها هذه الضربة ،

(١) آل عمران ١٤٤

(٢) آل عمران ١٢٨

فردت ضربته قبل أن تخور قواها ضربات ، ولكن لم تؤثر ضرباتها فيه إذ كان عليه درعان .

أما أبو دُجانة فترس دون محمد بنفسه ، وانحنى عاياه يستقبل سهام المشركين في ظهره حتى كثرت فيه السهام . ورمى سعد بن أبي وقاص ، وكان من مشاهير الرماة المعروفين ، رميات صائبات ، ومحمد يقول له مغتبطاً : ارم سعد فذاك أبي وأمي . وأما أبو طلحة الأنصاري فأبلى هو أيضاً بلاء عظيماً في الدفاع عن نبي الإسلام ، إذ حمى محمداً بترس من جلد ، وكان رامياً هو الآخر شديد النزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً ، وكان إذا مرَّ رجل معه جعبة من السهام قال له محمد : انثرها لأبي طلحة . وكان إذا رمى أراد محمد أن يرى أين تقع سهامه فيرفع رأسه وينظر ، فيرفع أبو طلحة صدره ويقول : هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا يصيبك سهم ، نحري دون نحرك . وكان أبو طلحة يُسوّر نفسه بين يدي محمد ويقول : إني جئتُك يا رسول الله ، فوجهني في حوائجك ومرني بما شئت .

واستطاعت هذه الفئة القليلة المؤمنة أن تصمد وتحبط كيد المشركين وتردهم على أعقابهم خاسرين خائبين دون نبيهم . وكان كعب بن مالك أول من عرف محمداً من جموع المسلمين بعد قول الناس قَتِيلَ رسول الله ، قال : رأيت عينيه تزهران من تحت المغفر ، فناديت بأعلى صوتي يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأشار محمد أن أنصت ، خشية أن يسمعه المشركون فيشدون عليه .

فلما انقشعت هذه الدهشة ، تجمع عدد من المسلمين حوله ، فنهض معهم يسير نحو الشعب ، فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير ابن العوام ، ورهط من المسلمين . وكان يسير بين سعد بن أبي وقاص ، وسعد بن عُبادة . فلما استند إلى جانب من الجبل يريد الصعود ، أدركه أبي بن خلف الجُمُحَى وقد حلف ليقتله . فقال محمد : بل أنا أقتله ،

وتناول حربة الحارث بن الصمة وطعنه بها في جيب الدرع فجرح جرحاً خفيفاً ، لكنه وقع وهو ينخور خوار الثور ، فأحتمله زملاؤه وقالوا : ليس بك جراحة فما يجزئك ؟ قال : أليس قال : لأقتلك ! لو كانت تجتمع ربيعة ومضر لقتلهم . فلم يلبث يوماً أو بعض يوم حتى مات من ذلك الجرح .

وكانت جماعة من قريش منهم خالد بن الوليد قد علت الجبل حيث صعد محمد فقال : اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلنوا . وانبرى لهم عمر بن الخطاب في رهط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل ، ونهض محمد إلى الصخرة من الجبل ليعلوها ، وكان قد ثقل من السن ، فضلاً عن درعين يثقلان كاهله ، فلم يستطع ، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها . وصعد في الجبل ونجا بفضل الله وبفضل رجال ذادوا عنه بأرواحهم . فقد كان الرجل منهم يتلقى السهم دونه ، حتى لقد وجد بطلحة وحده يومئذ نيف وسبعون جراحة وشلت يده .

ولما أراد أبو سفيان الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته : أنعمت فعال إن الحرب بجال ، يوم بيوم بدر ، أعل هُبُل ، أى أظهر دينك .

فقال محمد لعمر : قم يا عمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجل ، لا سواء ، قتلتنا في الجنة وقتلاكم في النار .

فقال له أبو سفيان : هل سم إلى يا عمر . فقال محمد لعمر : ائنه فانظر ما شأنه .

فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتانا محمداً ؟

فقال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن . قال : أنت عندى أصدق من ابن قميسة وأبر .

ثم نادى أبو سفيان : إنه كان في قتلكم مثله ، والله ما رضيت وما

سخطت ، وما أمرت وما نهيت . ذلك أن هنداً زوجه كانت قد جادعت أنوف وآذان القتلى واتخذت منها خلاخيل وقلائد ، وبقرت عن كبده حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فاففظتها .

ولما انصرف أبو سفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل . فقال محمد لرجل من أصحابه : قل نعم ، هو بيننا وبينك موعد . ولما انصرف القوم بعث محمد في أثرهم على بن أبي طالب وقال له : اخرج في آثار القوم وانظر ماذا يصنعون وما يريدون . فلما كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فلأنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فلأنهم يريدون المدينة . ثم قال : والذي نفسى بيده إن أرادوا المدينة لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم .

فخرج على أثرهم ينظر ماذا يصنعون . فلذا هم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، ووجهوا إلى مكة .

فلما تبين محمد أن المشركين رحلوا إلى حيث أتوا قال للمسلمين : استوتوا حتى أثنى على ربى عز وجل . فصاروا خلفه صفوفاً فقال : اللهم لك الحمد كله . اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت . ولا مضى لمن هددت . ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت . ولا مقرب لما باعدت . ولا مباعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفصلك ورزقك .

اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول . اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة والأمن يوم الخوف .

اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا .

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا . وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين .

اللهم توفنا مسلمين وأحيينا مسلمين . وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين .

اللهم قاتل الكفرة الذين يُكذِّبون رُسُلَكَ ويصدُّون عن سبيلِكَ ، واجعل عليهم رِجْزَكَ وعذابَكَ . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، إله الحق .

ثم فرغ الناس لقتلهم . وخرجوا يلتمسونهم حيث صرعوا . فخرج محمد يلتمس عمه حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسود رسول الله ، فوجده ببطن الوادي قد بُقيِرَ بطنه عن كبده ، ومثَّل به فجُدع أنفه وأذناه . فلما وقف عليه ورأى به ما رأى قال : « لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت قط موقفاً أغيظ إلى من هذا ! » . ثم قال : « ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم . » فلما رأى المسلمون حزنه وغيظه على من فعل بعمه ما فعل قالوا : والله لئن أظفرننا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مُثْلَةً لم يُمثلنَّها أحد من العرب . غير أن الله أنزل في ذلك قوله : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصَّابرين » (١) .

وعند ذاك عفا محمد وصبر ونهى عن المثلَّة .

وبينا محمد واقف على عمه لم يدفنه بعد ، أقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه نظرة أخيرة ، وكان حمزة شقيةها ، فأمر محمد ابنها الزبير ابن العوام أن يلقاها فيرجعها حتى لا ترى ما بأخيها ، فلقيا وقال لها : يا أمة إن رسول الله يأمرُك أن ترجعي . قالت : ولم ، وقد بلغني أنه مُثِّل بأخي وذلك في الله ، فما أرضانا ما كان من ذلك ، لأحتسبن ولاصبرن إن شاء الله .

فلما رجع الزبير إلى محمد وأخبره بذلك قال : خَلَّ سبيلها ، فأتته فنظرت إليه وصالت عليه واسترجعت واستغفرت .

ثم أمر به محمد فدفن في برده ودفن معه ابن أخته عبد الله بن جحش ، وكان قد مُثِّل به أيضاً ، غير أنه لم يُنقر عن كبده .

وكان محمد بعسد أن صلى على الشهداء قد أمر بأن ينزع عنهم الحديد والجلود وقال : « ادفنوهم بدمائهم وثيابهم » . وكانوا يجعلون الرجاين والثلاثة في القبر الواحد ، ويحفرون لهم حيث صُرِعُوا . وكان بعض أهل القتلى قد حملوهم ليدفنوهم بالمدينة ، فلما علموا بأن محمداً أمر بدفنهم حيث صرَعُوا عادوا بهم ودفنوهم مع رفاقهم في ساحة أحد .

قتل في ذلك اليوم من المسلمين حوالى سبعين رجلاً ، ومن المشركين حوالى عشرين . ولم يؤسر من المسلمين أحد . وأسر من المشركين رجل واحد هو أبو عَزَّة الجُمَحَى الشاعر ، أسيرَ في حمراء الأسد .

الفصل العاشر

غزوة حمراء الأسد

عاد المسلمون في مساء ذلك اليوم بعد أن فرغوا من دفن قتلى أحد ، وبياتت المدينة تبكي بكاء مرّاً ، فقد صرع من الأنصار أكثر من ستين رجلاً . ثم إن المدينة فارت بالنفاق فورَ المِرْجَل . فقد استغل المنافقون واليهود بكاء المسلمين وحزنهم على قتلاهم استغلالاً مأكراً قبيحاً لتفريق كلمتهم وإبعادهم عن نبيهم وتشكيكهم في دينهم .

قالت اليهود : لو كان محمد نبياً ما انتصر عليه المشركون ولا أصيب منه ما أصيب ، ولكنه طالب ملك تكون له اللولة يوماً وعليه آخر . وقال المنافقون مثل ذلك ، وقالوا للذين قاتلوا : لو كنتم أطعمونا ما أصابكم الذين أصابوا منكم .

وراح هذا أو ذاك من أعداء الإسلام يسأل المسلمين ضاحكاً منهم مستهزئاً شامتاً فيهم : إذا كانت بئر آية من الله برسالة محمد ، فإذا عسى أن تكون آية أحد ؟

وبينا المسلمون في هذا البلاء ، إذ قدم رجل من أهل مكة فسأله محمد عن أبي سفيان وأصحابه فقال : سمعتم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكة القوم وحدّهم ، ثم تركتموهم ولم تبتروهم ، فقد بقى منهم رؤوس يجمعون لكم .

ماذا إذن ؟ أي موقف عصيب ! فهذا جيش محمد قد انقسم على نفسه بالأمس وتحلف عنه ثلثه ، وهامم الذين شهدوا موقعة أحد منذ ساعات لم يلعقوا بعد جراحهم ولم تهدأ أنفاسهم . ولكن هيات أن يفت حدث مهما كان أمره ومهما كان خطره في عضد محمد ، وهيات أن يثبط موقف

مهما تأزم من عزمته ، وهيات أن تؤثر محنة كتلك التي شهدتها منذ ساعات
مهما كانت أهوالها في شجاعته ، وفي إيمانه بالله وبنصره وبالرسالة التي
يؤديها .

أيهزم محمد ؟ كلا والله ثم كلا !

قرر الخروج فوراً للملاقاة العدو وبالمسلمين أشد القرح ، حتى يسمع
أهل مكة بأنه هو الآخر يجد في أثرهم ، وأنه لا يهابهم ، وأنه مقدم على
حربهم ومنازلتهم . وعندئذ أمر أصحابه الذين شهدوا معه قتال أحد أن
ينطلقوا معه ، ولم يسمح لأحد ممن لم يشهد القتال أن يخرج معهم ، حتى لقد
رد عبد الله بن أبيّ عند ما أراد الركوب معه . واستخلف على المدينة ابن
أم مكتوم . ولقد قال الله في هؤلاء :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا
منهم واتقوا أجراً عظيماً » (١) .

جد محمد وأصحابه في أثر العدو حتى بلغوا حمراء الأسد ، وهي
تبعد عن المدينة ثمانية أميال . ولم يتخلف أحد ممن شهد موقعة أحد غير
جابر بن عبد الله ، إذ استأذن محمداً لأن أباه أمره بالمقام في المدينة على
أنحواته فأذن له . لم يتخلف جريح لا يقوى على المشي . روى رجل من
بنى الأشهل قال : « شهدت أحداً أنا وأخى ، فرجعنا جريحين ، فلما أذن
موذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج في طلب العدو قلت لأخى
وقال لي : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ؟ والله ما كان لنا دابة نركبها ، وكان
كل منا جريحاً ثقيلاً . فخرجنا مع رسول الله ، وكنت أيسر جرحاً من
أخى . فكان إذا أجهد حملته نوبة وهشي نوبة ، حتى انتهينا إلى ما انتهى
ليه المسلمون » .

وبينما هم معسكرون في حمراء الأسد مرت بمعسكر المسلمين معبّد بن معبد
الخزاعي ، وكان مشركاً ، وكانت خزاعة ، مسلمهم وكافرهم ، موضع سر

محمد بهامة ، وكان حلقهم معه ألا يُخفى أحد منهم عنه شيئاً بها ، تأثر معبد لما أصابه المسلمين فقال : يا محمد ، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم .

ثم إنه خرج من عند محمد قاصداً أبا سفيان بن حرب وقد أضمر خداعه وتضليله حتى لقيه بالروحاء ، وقد أجمع أبو سفيان وأصحابه العودة إلى المسلمين وهم يقولون : أصبنا حدّاً أصحابه وقادتهم وأشرفهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ ! لنكبرن على بقيتهم فلنفرغنّ منهم .

أندم معبد على أبي سفيان ، فلما رآه قال له : ما وراءك يا معبد ؟ . قال : خرج محمد في أصحابه يطالبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً . قد اجتمع معه من كان تخلف عنه يومكم وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحق عليكم شيء لم أر مثله قط .

وأخذ معبد ينهيه عن الرجوع إلى لقاء جيش المسلمين ويخوفه منهم ، حتى دخلت هذه الحيلة على أبي سفيان . ومما لا شك فيه أن أبا سفيان وأصحابه لم ينسوا أن الدائرة كانت عليهم صبيحة يوم القتال ، وأن المسلمين لم ينهزموا إلا عند ما أتوا فعلة خرقاء ، فاختطف منهم فرسان المشركين النصر ، وهذا أمر قد لا يتكرر اليوم . ثم لأنهم يجدون في أثره ومعهم أصحاب لم يقاتلوا بالأمس كما أخبره معبد ، غير مجتهدين ولا وجلين ، يتحرقون شوقاً للقائه ولقاء أصحابه . إذن فليكتف أبو سفيان بما نال من نصر اختطفه اختطافاً من المسلمين بالأمس ، وليحتفظ به . والحق أن أبا سفيان وأصحابه كانوا يدركون جيداً أنهم لم ينتصروا انتصاراً يؤهلهم لاستئصال المسلمين ، فأين الغنائم وأين الأسرى ؟ لا شيء من ذلك ! فأى نصر هذا ؟ ولا غرابة إذن أن يقرر أبو سفيان بعد أن قلب أوجه الرأي أن يعود أدراجه إلى مكة ولا يرجع إلى المسلمين إذ ذاك ، تاركاً أمر القتال إلى وقت آخر . غير أنه فرر أيضاً أن يلجأ إلى حيلة يهدد بها محمداً وأصحابه حتى لا يجدون في أثره ، وفي هذا دليل وأى دليل على ما كان يجول بخاطره من مخاوف .

مرّ في تلك الأثناء ركب من عبد القيس بأبي سفيان ، فلما علم أنهم يريدون المدينة للميرة قال لهم : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه وأحمّل لكم إبلكم هذه غداً زيباً بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم .

فلما مرّ الركب بمحمد وأخبروه بالذى قال أبو سفيان ، قال حسبنا الله ونعم الوكيل . وظل معسكراً بحمراء الأسد الاثني والثلاثاء والأربعاء ، وكان يوقد نيرانه طوال الليل ليدل قريشاً على أنه لا يزال هناك ، وأنه في انتظارهم . وأخيراً انصرفت قريش ، وعاد محمد وأصحابه إلى المدينة ، وقد أصلحت هذه الخطوة كثيراً من الجراح التي كادت تزعزع مركز المسلمين في المدينة .

وفي أثناء عودة المسلمين أسروا أبا عزة الشاعر ، واسمه معاوية بن الجفيرة ابن أبي العاص . وقد كان في الأسارى يوم بدر ، فنزّ عليه محمد بلا فدية من أجل بناته ، واشترط عليه ألا يقاتله . فلما جاءوا به لمحمد ذلك اليوم قال : يا محمد امنن على لبناتى وأعاهدك ألا أقاتلك . فقال محمد : لا أدعك تمسح عارضيك بمكة وتقول : خدعتُ محمداً مرتين . لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ! ثم أمر به فضربت عنقه .

الفصل الحادى عشر

من أحد إلى الخندق

لا مِريّة فى أن الهزيمة التى منى بها المسلمون فى وقعة أحد كانت سبباً فى ضبعة منزلتهم التى اكتسبوها بعد نصرهم المؤزر فى بدر . ولا شك فى أنهم هم أنفسهم قد شعروا الآن بعد هذه الهزيمة بشيء كثير من الحرج والضيق لئلاء ما لاقوا من استهزاء اليهود والمنافقين بهم . ومع أن الكلمة العليا فى المدينة كانت لاتزال لهم ، إلا أن أسهمهم كانت قد انخفضت كثيراً ، حتى لقد طمع فيهم الأعراب واستهانوا بهم ، وحاولت بعض قبائلهم الإغارة على المدينة . وكان ذلك أمراً لا يفكر فيه أحد بعد انتصار المسلمين فى بدر تفكيراً جدياً . إلا بعد أن يحسب ألف حساب .

لم تمض ثلاثة أشهر أو نحو ذلك على وقعة أحد ، حتى باغ مسامع محمد من رجل من بنى أسد أن طليحة الأسدى وأخاه سلمة ابنى خويلد قد جمعا حلفاء لهم من بنى أسد ليغيروا على المدينة ، أو على نعيم المسلمين وهى ترعى فى مراعيها . عندئذ عقد محمد لواء سرية لأبى سلمة بن عبد الأسد عدتها مائة وخمسون رجلاً ، فيهم أبو عبيدة الجراح ، وسعد بن أبى وقاص ، وأسيد بن حضير ، وأمره بالسير إلى أرض بنى أسد والإغارة عليهم ، فسار أبو سلمة وأصحابه ومعهم الدليل الذى أخبر محمداً خبر طليحة وأخيه . حتى فاجأوا القوم فى عَمَابة الصبح ، فنفروا وتركوا نِعْماً كثيراً لهم من الإبل والغنم . فأخذ ذلك كله أبو سلمة ، وأعطى الرجل الأسدى الذى دلم نصيباً وافراً من الغنم . وتَمَسَّ الغنمة . وقسمها بين أصحابه . ثم إن أبا سلمة لم يمكث إلا قليلاً بعد هذه السرية حتى مات . وكان قد جرح جرحاً بالغاً يوم أحد . وظل يداوى منه شهراً حتى برأ . فلما

خرج في هذه السريّة وغاب فيها بضع عشرة ليلة ، انتفض به جرحه فمات منه .

وبعد ذلك بقليل علم محمد أن سفيان بن خالد بن نبيح الهذليّ من بني لحيان المقيم بعمرنة ، وهو جبل لبني أسد شرقي المدينة ، يجمع الجموع لحربه ، فأرسل له عبد الله بن أنيس الجهنّي ليقبضه . فاستأذن عبد الله محمداً أن يتقول حتى يتمكن من قتله ، فأذن له وقال : انتسب لخزاعة . فخرج عبد الله حتى أتى سفيان فأخبره أنه رجل من خزاعة سمع يجمعه لمحمد فأتى ليكون معه . فلم ينكر سفيان ما يرمى إليه ، فاستدرجه عبد الله حتى خلا له الجو فعدا عليه بسيفه فقتله .

ثم إن هذيلاً قوم سفيان ظلت تتحين الفرصة للثأر . فقدم زهط من حلفائهم من عضل والقارة إلى محمد يطلبون منه أن يرسل معهم نفرّاً من أصحابه يفقهونهم في الدين ، وذلك في صفر من السنة الرابعة . فأرسل معهم سبعة من أصحابه على رأسهم عاصم بن ثابت في قول ، أو مرثد بن أبي مرثد الغنوي في قوله . وبينما هم عند ماء هذيل بالحجاز بناحية تدعى الرجيع ، انقض عليهم رجال من هذيل . فلجأ عاصم وأصحابه إلى رابية مشرفة فأحاط بهم القوم وقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً . فرفض عاصم النزول في ذمة كافر وقتلهم حتى قُتِل وثلاثة من أصحابه . أما الثلاثة الآخرون وهم عبد الله بن طارق ، وخبيب بن عدى ، وزيد بن الدثينة ، فلانوا وبقوا ورغبوا في الحياة وأعطوا بأيديهم . فلما استمكن القوم منهم بعد أن أمنوا ونزلوا إليهم حلّوا أوتار قسيهم فربطوهم بها ، وعندئذ قال عبد الله بن طارق : هذا أول الغدر ! وأبى أن يصحبهم ، فجروه وحاولوا اصطحابه فأبى فقتلوه .

وانطلقوا بخبيب وزيد إلى مكة حتى باعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة . فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه به ،

وكان خُبَيْب هو الذى قتل الحارث يوم بدر . واشترى زيد بن الدثينة صفوان ابن أمية ليقتله بأبيه .

فلما خرجوا بخُبَيْب من الحرم ليقتلوه طلب منهم أن يدعوه ليصلي ركعتين ففعلوا ، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، فكان أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين . ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظننوا أنى إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة . ثم قال عند ما قدموه للموت صلباً : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يصنع بنا . ثم قال : اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً .

وعند ذاك اضطجع الحضور على جوانبهم ، وكان معاوية بن أبى سفيان يقول : حضرته يومئذ مع أبى سفيان ، فما أن دعى حتى رأيت أبى يلقينى إلى الأرض فرقاً من دعوته . وكانت العرب تقول إن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه الدعوة .

ثم إنه أنشد قصيدة وهم يهمون بقتله . منها :
ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى شيق كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يُبارك على أوصال شلبي مُمزع

أما زيد بن الدثينة فبعثه صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس ليقتله ، فلما هم بقتله اجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال لزيد حين قدّم ليقتل : أنشدك بالله يا زيد ، أنحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنت فى أهلك ؟

قال : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه نصيبه شوكه تؤذيه وأنى جالس فى أهلى .

قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ! .

وظلت المؤامرات والمؤامرات المضادة تحاك حيناً بعد حين ، وبات الحجاز في ميرجل يغلى بالأحقاد تتطاير هنا وهناك ، ومحاولات النار لا تكف ساعة من ليل أو ساعة من نهار . فهذا أبو سفيان بن حرب يقول لنفر من قريش بمكة : ما أحدٌ يغتال محمداً فإنه يمشی في الأسواق فندرك ثأرنا ؟ فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله وقال له : إن أنت وفيتني خرجت إليه حتى أغتاله ، فإني عارف بالطريق ، معي خنجرٌ مثل خافية النسر . قال أبو سفيان : أنت صاحبنا . وأعطاه بغيراً ونفقة وقال : اطو أمرك فإني لا آمن أن يسمع هذا أحد فيسُميه إلى محمد . قال : لا يعلمه أحد .

فخرج الأعرابي ليلاً على راحلته وسار خمسة أيام حتى وصل المدينة في اليوم السادس ، ثم أقبل يسأل عن محمد فعلم أنه توجه إلى بني عبد الأشهل . فأتاه الأعرابي حيث هو ، فعقل راحلته ، ثم أقبل عليه فوجده في جماعة من أصحابه يحدثهم في مسجده . فلما رآه محمد من بعيد أدرك بفراسته أنه لا يريد خيراً ، فقال لأصحابه : إن هذا الرجل يريد غدراً ، والله حائل بينه وبين ما يريد . تقدم الرجل وقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال محمد : أنا ابن عبد المطلب . فتقدم منه وانحنى عليه كأنه يُسأَرُهُ ، وهنا كان أسيّد ابن حُضَيْر له بالمرصاد فجذبه وقال : تنسّ عن رسول الله ، وجذب بداخل إزاره (١) فلذا الخنجر فقال : يا رسول الله هذا غادر .

أسقط في يد الأعرابي وقال : دمي يا محمد . وكان أسيّد بن حضير قد لبّسَه ، فقال له النبي : اصدقني ما أنت وما أقدمك ، فإن صدقتني نفعتك الصدق ، وإن كذبتني فقد اطلّعتُ على ما هممت به . قال العربي : فأنا آمين ؟ قال : وأنت آمن .

فلما آمن الرجل أخبره بما كان من أمر أبي سفيان وما جعل له . فأمر به فحبسَ عند أسيّد بن حُضَيْر . ثم دعا به في صبيحة اليوم التالي فقال :

(١) ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن .

قد أمتتكَ فاذهب حيث شئت أو خير لك من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله .

فقال الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله .

ثم أضاف قائلا : والله يا محمد ما كنت أفرق من الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعتُ ، ثم اطلعت على ما هممتُ به ، فما سبقته به الركبان ، ولم يطلع عليه أحد ، فعرفت أنك ممنوع ، وأنت على حق ، وأن حزب أبى سفيان حزب الشيطان . فابتسم النبي ، وأقام الرجل أياماً ثم استأذن وخرج من عنده ، ولم يُسمع له بذكر بعد ذلك .

ثم إن محمداً دعا عمرو بن أمية الضمري ، وسلمة بن أسلم بن حريش وقال لهما : اخرجا حتى تأتيا أبأ سفيان بن حرب ، فإن أصبها منه غيرة فأقتلاه . فلما أتيا مكة طافا بالكعبة سبعةً وصليا ركعتين ، فلما خرجا لقيهما معاوية بن أبى سفيان فعرف عمرو بن أمية فنادى يقول : عمرو بن أمية ، واحزنه . فتنجم أهل مكة وقالوا : ما جاء عمرو في خير ، وكان عمرو فاتكاً في الجاهلية . فأسرع عمرو وسلمة بالهروب ، وخرجت قريش في أثرهما ولكنهما تمكنا من الفرار .

وفي صفر من هذه السنة أيضاً ، أى من السنة الرابعة الهجرية ، وفد على محمد بالمدينة أبو براء عامر بن مالك مُلاعِب الأُسنة ، فطمع محمد في إسلامه ، فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه ، غير أنه لم يسلم ولم ينتر ، وإنما قال لمحمد : يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوههم إلى أمرك رَجَوْتُ أن يستجيبوا لك .

فقال : إني أخشى عليهم أهل نجد .

فقال أبو براء : أنا لهم جار .

فبعث محمد المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة في أربعين أو سبعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين ، كانوا يسمون القُرَاء الأكثر قراءتهم

للقرآن وحفظهم له . فساروا وهم لا يخشون غائلة لأن أبا براء عامر بن مالك كان رجلاً مسموع الكلمة لا يخشى أحد أجاره اعتداء عليه . فلما نزلوا بئر معونة وهي أرض بني عامر وحرّة بني سلّيم . بعثوا حرام بن مباحان بكتاب محمد إلى عامر بن الطفيل سيد بني عامر ، فلما قرأ الكتاب لم يكذب فرغ منه حتى عدا على رسول محمد فقتله ، ثم استصرخ على المسلمين بني عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم من قتال القوم ولم يرضوا أن ينقضوا العهد الذي عاهدوه أبو براء ليأبىهم .

فاستصرخ عليهم عامر قبائل من بني سائيم ، عَصِيَّة وذَكْوَان والقَتَارَة ، فأجابوه إلى ذلك ، وقاموا معه فخرجوا إلى أصحاب محمد فغشروهم وأحاطوا بهم ، فاستل أصحاب محمد السيوف وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً فيما عدا كعب بن زيد ، وقع بين القتل وفيه رمق فظنوه قتيلاً فتركوه ، فعاش حتى قُتل يوم الخندق .

وكان عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار من بني عمرو بن عوف يجتابان تلك الناحية في ذلك الوقت وعمرو عائد من مكة ، فرأى الطير تحوم حول العسكر فقالا : والله إن لهذه الطير لشأناً . فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم في دماهم والرجال الذين أصابوهم لا يزلون هناك ، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية : ماذا ترى ؟ فقال : أرى أن نلحق برسول الله فنخبره الخبر . فقال الأنصاري : لكني لم أكن لأرغب بنفسى عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لأخبر عنه الرجال . واقتحم على القوم يقاتلهم حتى قُتل . وأخذ عمرو أسيراً ، فلما علم للقوم أنه من مضر جزّ عامر بن الطفيل ناصيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعم .

وخرج عمرو بن أمية عائداً إلى المدينة ، قيناً هو بالقرفة على ثمانية برد من المدينة إذ لقي رجلين من بني عامر قد نزلا في ظل هو فيه . فلما ناما عدا عليهما فقتلها وهو يعتقد أنه قد أصاب ثأراً من بني عامر في

أصحاب محمد الذين قتلوهم ، فلما قدم على محمد أخبره بما كان من أمر أصحابه في بئر معونة . فقال : هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارهاً منخوفاً : ثم أخبره بقتله للعامريين . فقال : بثس ما صنعت ، لقد كان لهما منى أمان وجوار ، وإني لدافع ديتهما .

وفي ذلك اليوم أيضاً بلغه خبر مقتل عاصم وأصحابه في الرجيع ، فحزن حزناً شديداً ، وظل شهراً يدعو على الغادرين بأصحابه في الصلاة .

ثم إن محمداً توجه إلى بني النضير في منازلهم بجوار قُباء ، بصحبة عدد من أصحابه منهم عمر بن الخطاب ، وأبو بكر الصديق ، وعلى بن أبي طالب ، يستعينهم في دفع دية العامريين اللذين قتلها عمرو بن أمية ، وقد كان بين المسلمين واليهود ذلك العهد الذي تعاهدوا عليه عند مقدم المهاجرين إلى المدينة ، ويقضى بإسهم كل من المسلمين واليهود في الديات ونفقة الحرب وما إلى ذلك . فلما أتاهم وكلمهم في ذلك قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت .

وبينا محمد قاعد إلى جنب جدار بيت من بيوتهم ، لاحظ أن جماعة منهم يتسارون ، فعلم أنهم يتآمرون فيما بينهم على أن يعلو رجل منهم هذا البيت ويلقى عليه صخرة ويريمهم منه . وعند ذاك أسرع فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . فلما غاب ، وكان أصحابه يظنون أنه خرج لقضاء حاجة ، قاموا في طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخل المدينة . فأقبلوا عليه فأخبرهم أن خبراً جاءه من السماء بما أراد القوم به من الغدر . ثم أرسل لهم محمد بن مسلمة ليبلغهم أنه يقول لهم : « اخرجوا من بلادى فلا تذاكنوني وقد هممت بما هممت به من الغدر ، وقد أجلتكم عشرين عاماً ، فمن روى بعد ذلك ضربت عنقه » .

حار اليهود وضعفوا وأذعنوا للأمر واستعدوا للرحيل ، وبينما هم

يتجهزون لترك ديارهم ، أرسل إليهم حليفهم عبد الله بن أبي بن سئول وعدد من المنافقين من بنى عوف ، منهم وداعة ومالك وسويد وداعس ألا يدعونا للأمر ، وشجعوهم على أن يقيموا في حصونهم ، ولا يخرجوا من ديارهم ، وأنهم سيمنعونهم ويقومون دونهم . وفي ذلك تحدث القرآن وكذب المنافقين :

« ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون » (١) .

شجعت هذه الوعود اليهود وأطمعتهم فتأخروا في الخروج ، وأرسل حبيّ بن أخطب إلى النبي : إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك . فكبر محمد وكبر معه المسلمون وقال : حاربت اليهود .

وأمر النبي بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم ، وخرج على رأس أصحابه ، يحمل لواءه على بن أبي طالب ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم . فتحصن اليهود بحصونهم ، وظنوا أنها تمنعهم وأن المنافقين ويهود بنى قريظة سيقومون معهم . ولكن هيات أن ينصرهم أحد . فحاصروهم جيش المسلمين ست ليال . فلما رأى محمد إصرارهم أمر بقطع نخيلهم وتحريقها ، فنادوا من حصونهم . أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه . فما بال قطع النخيل وتحريقها .

غير أن الله تعالى أساغ ما وقع من تحريق ما حرق من نخيلهم وترك ما ترك منها فقال في كتابه الكريم : « ما قطعتم من لينة (وهو جيد التمر) أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » (٢) . وفي

(١) الحشر ١١ - ١٢ .

(٢) الحشر ٥ .

هذا إجازة من الله ، ورفع منه للخرج وتأييد لما رأى رسوله من تحريق هذا النخيل ، وليس بفساد كما قال اليهود ، وإنما هو إظهار للقوة وإخزاء لأعداء الإسلام .

فلما رأى اليهود تلك الشدة ، وأيقنوا أن أحداً من الذين شجعوهم سوف لا يقدم على مساعدتهم ، وأن حلفاءهم جميعاً قد تخلوا عنهم ، وخذلواهم وهم أحوج ما يكونون لنصرتهم ، وأنهم غروهم من أنفسهم ، رضخوا لأمر محمد وسألوه الجلاء وأن يكف عن دماءهم ، فسمح لهم بما حملت الإبل دون السلاح . وتولى الإشراف على خروجهم محمد بن مسلمة ، فاحتملوا كل ما قدرت لإبلهم على حمله ، وخرج بعضهم إلى خيبر وبعضهم إلى الشام . وخلقوا وراءهم غللاً كثيرة وسلاحاً ، أحصى فبلغ خمسين درعاً وخمسين خوذة ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً ، فضلاً عن المزارع والنخيل . فكان هذا كله لمحمد يتصرف فيه كيف شاء . ذلك أن الغنيمة التي تؤخذ بغير حرب تكون كما أمر القرآن : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذی القربی والیتامى والمساكين وابن السبیل کی لا يكون دولة بین الأغنياء منكم » (١) .

لذلك أعطى محمد من هذه الأموال للمهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم دون الأنصار ، فردّ المهاجرون لإخوانهم الأنصار ما كانوا قد أخذوه منهم في أوائل عهدهم بالمدينة . كذلك أعطى محمد من هذه الأموال لسهل بن حنيف ولأبي دُجّانة إذ ذكرا له فقرهما ، ويقال إنه أعطى أيضاً للحارث بن الصَّمة لهذا السبب . ثم إنه أخذ لنفسه نصيباً من الأرض ليزرعها ويدخر منها قوت أهله سنة كما كان يفعل . ولم يسلم من اليهود غير يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب فاحتفظا بأموالهما .

ثم إن محمداً لم يعد ليأمن لليهود بعد أن تكررت بينه وبينهم مثل هذه

المنازعات ، فاستبدل كاتب سره ، وكان يهودياً ، بشاب من شباب المسلمين . فأمر زيد بن ثابت أن يتعلم العبرانية والسريانية ، وكان محمد يكتب رسائله بعض الأحيان بهاتين اللغتين . ولذلك كان مضطراً لاستعمال اليهود قبل ذلك .

وفي ربيع الآخر أو جمادى الأولى من هذه السنة أى سنة أربع من الهجرة ، بلغه أن جوعاً من قبائل نجد يتجمعون لحربه ، هم بنو محارب . وبنو ثعلبة من غطفان ، فخرج لهم على رأس سبعمائة مقاتل ، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان أو أبا ذر . فساروا حتى باغوا منازل القوم ، فإذا هى خاوية قد هجرها الرجال عندما علموا بجمع المسلمين إليهم وتفرقوا في رؤوس الجبال . ثم إنهم تجمعوا ثانية عند ما رأوا أن المسلمين قد احتملوا نساءهم وأموالهم ، وأقدموا على المسلمين يريدون حرباً . غير أنهم عند ما تقاربوا خاف بعضهم بعضاً ولم ينشب قتال . وفى تلك الأثناء حانت صلاة العصر ، فصلى محمد بالمسلمين صلاة الخوف . وهى أن يصلى بجماعة منهم فى حين يظل الآخرون متجهين إلى العدو للملاحظة ، ثم يعود فيصلى بهم . وأخيراً تباعد الجمعان ولم تقع حرب . وتسمى هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع . ويقال إن سبب هذه التسمية إنما يرجع إلى أنهم رقّعوا فيها راياتهم ، أو لأنه كان يقال أشجرة هناك ذات الرقاع ، أو لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم خرقاً من شدة الحر ، أو لأنه كان هناك جبل به بقع حمراء وسود وبيض .

لما أهل شعبان من هذا العام . كان الموعد الذى تواعده محمد وأبو سفيان بعد معركة أحد قد حل . ذلك أن أبا سفيان نادى بعد معركة أحد وهو يهيم بالانصراف أن ذلك اليوم كان يوماً بيوم بدر . وأن مواعدهم بدر العام المقبل . فأجابه محمد إلى ذلك . وكانت العرب تجتمع فى سوق يقام فى بدر فى شعبان ثمانية أيام للتجارة . وبينما المسلمون يتذاكرون هذا

الموعد ويستعدون للخروج ، إذ وصل إلى المدينة نعيم بن مسعود الأشجعي ليقول للمسلمين إن قريشاً قد جمعت لهم جيشاً لا قبيل لأحد من العرب به . لم يكن هذا صحيحاً ، ذلك أن أبا سفيان لم يرد الخروج لهذا الموعد ، فاستأجر نعيم وأرسله إلى المدينة لإشاعة هذا الخبر ظناً منه أن هذا قد يفت في عضد المسلمين فلا يخرجون إلى بدر فيكونون هم الذين أخلفوا الموعد .

والحق أن كثيرين من المسلمين قد تأثروا بهذا الإرجاف وآثروا البقاء في المدينة وعدم الخروج إلى موعد أبي سفيان . غير أن محمداً ، ذلك البطل الذي لم يعرف العرب مثله من قبل ولا من بعد ، ما كان ليحجم ، وما كان ليتراجع ، بل إنه نادى في أصحابه مغضباً : « والذي نفسي بيده لأخرجنَّ وإن لم يخرج معي أحد » :

ثم إنه خرج على رأس ألف وخمسمائة من أصحابه يريد بدرأ ، واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي . وحمل المسلمون معهم بضائع لعله لا تحدث حرب فيتأجرون في السوق . أما قريش فخرجت مع أبي سفيان في ألني رجل . غير أن أبا سفيان رأى أن يرجع بعد مسيرة يومين ، فقال لقومه : يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ، وإن عامكم هذا جذب ، وإن راجع فارجعوا . فرجعت قريش وأطاعته . وانتظر المسلمون قريشاً فلم تقدم ، فتأجروا في بضائعهم التي حملوها معهم فربحوا ربحاً وفيراً وعادوا غانمين سالمين . يقول تعالى : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » (١) .

رجع جيش المسلمين سالماً غانماً وقد استعاد كثيراً من هيئته السابقة التي فقد كثيراً منها بعد أحد . وقضى المسلمون بقية سنتهم وجزءاً من سنة خمس لم يلقوا كيداً من أحد ولم يخرجوا لأحد . وفي ربيع الأول أو ربيع الآخر بلغ محمداً أن جموعاً من بني تميم في شمالي الجزيرة يظلمون من بمر بهم ،

ويعتدون على قوافل التجارة ، وأنهم يفكرون في الدنو من المدينة . فقرر أن يخرج إليهم فيدهمهم في مساكنهم على حدود الشام . وخرج في ألف من المسلمين متجاهلاً قول القائلين إن ذلك مما يفزع قيصر الروم . وكان يسير الليل ويكن بالنهار ، ومعه دليل حاذق ماهر بالهداية في هذه الطرق من بنى عُدْرَةَ يقال له مذكور . فلما دنا من دومة الجندل^(١) ، وهى واحة على حدود الحجاز والشام ، تتوسط الطريق بين البحر الأحمر وخليج العرب . أخبره دليله بسواثم بنى تميم في مراعيها ، فهجم على ماشيتهم ورعيانهم . فاصاب منها ما اصاب وهرب من هرب في كل وجه . فلما علم أهل دومة الجندل بهذا الهجوم تفرقوا ودب الذُّعُرُ في قلوبهم . فتقدم محمد ونزل بساحتهم فلم يجد أحداً ، وأقام أياماً ، بث في خلالها السرايا هنا وهناك فلم يلق كيداً ولا حرباً وعاد يحيشه سالماً غانماً .

وهنا ينبغي لنا أن نشير إلى حقيقة جديدة بدأت تتبدى في أفق جزيرة العرب وتؤثر على مجرى الأحداث فيها . فقد كانت هذه الغزوة أول غزوة يسير فيها محمد إلى أطراف الشام ويتبعد عن المدينة هذه المسافة الكبيرة . وفى هذا ولا شك دليل كبير على أن المسلمين كانوا في ذلك الوقت — وقد انقضى على معركة أحد أكثر من سنة ونصف . قد استعادوا قوتهم وقدرتهم على القتال بدرجة كبيرة جداً . بل زادت هيبتهم في قلوب العرب ، ومثّل ساطانهم للجميع ، وأصبحوا بذلك يهددون جماعات كبيرة من قبائل العرب تهديداً مباشراً في كل مكان . وربما يكون هذا هو السبب الذى ألب عليهم كثيراً من العرب ، فاتحدوا في جمع كبير عدته عشرة آلاف مقاتل ، وهو جمع لم نسمع بمثله من قبل . وساروا إلى المدينة ابتغاء استئصال المسلمين والقضاء عليهم قضاء مبرماً . فإلى غزوة الخندق .

(١) على مسيرة خمسة عشر ليلة من المدينة ونحو ليل من دمشق .

الفصل الثاني عشر

غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب

تطورت العلاقات بين المسلمين واليهود في الفترة السابقة تطوراً خطيراً . فبعد أن عاش اليهود جنباً إلى جنب مع المسلمين حيناً من الزمن في وئام تام لا يخرق أى منهما ذلك العهد الذى عقده سويلاً في بداية عهد المسامين بالمدينة ، بدأ اليهود يسخرون من المسلمين ويستنزئون بهم إذا ألم بهم مكروه أو نزلت بهم نازلة ، أو انهزموا في معركة كمعركة أحد ، وبدأوا يكيدون للإسلام ويتآمرون عليه وعلى نبيه مما اضطر الرسول إلى إجلاء بنى قيسنقاع أولاً ، ثم إلى إجلاء بنى النضير والإستيلاء على أموالهم وأراضيهم كما سبق بيانه .

ولا مرية في أن اليهود لم يقبلوا للمسامين ظهر المجن إلا عندما أيقنوا تماماً وتأكد لديهم أن الإسلام دين قوى ، وأنه أخذ يشقو في القبائل هنا وهناك ، وأن المسلمين يزددون قوة ومنعة يوماً بعد يوم . فكيف يقبل اليهود هذا الوضع وهم الذين يفخرون على العرب وعلى العالمين ويتسامون عابهم بأنهم أهل توحيد ، وأنهم وحدهم الذين اختصوا بين الشعوب بهذه الكرامة العظيمة ، فضلاً عن اعتقادهم بطبيعة الحال بأنهم شعب الله المختار ، وأن دينهم أعظم الأديان لا يطاوله دين آخر ؟ كيف يرضى اليهود لإذن بدين آخر يدعو أيضاً إلى التوحيد مثلما يدعو دينهم الذى يفخرون به ؟ وكيف يسمحون له بأن ينتشر ويعز بين القبائل ويعز أهله الذين يحاربون الأهر والأسود من الناس وترتفع كلمتهم ؟

احترقت قلوب اليهود وطفحت بالحقد والغيط وامتلات نفوسهم بالضغينة على محمد وعلى الإسلام والمسلمين . هنا إذن أثار دينى لن يرجع

اليهود عن الأخذ به ، ولن يتوانوا عن تكذيب النبي الذي جعل منهم مفسدين
لدين إبراهيم وموسى ، وجاهرهم بذلك ودعاهم إلى ترك ما هم فيه إلى دين
إبراهيم وموسى الحقيقي وهو الإسلام ، أو عذاب أليم .

وفضلاً عن هذا كله ، يتبقى ثأرهم الدنيوى ، فقد ظهر عليهم المسلمون
وانتصر عليهم نبي المسلمين ، وهامى منازل بنى قَيْنُقَاع وبنى النضير ،
وكانت أمس بالعِزِّ شائخة ، فإذا بها اليوم يباب ليس بها داع ولا محجب .
وقد تركها أهلها مرغمين ، وتركوا أموالهم وأراضيهم وخرجوا خروج
الدليل الضعيف المغلوب على أمره .

أقبلون الإسلام وتنتهى كل المشاكل والمتاعب بالنسبة لهم ؟ كلا ،
فإن أنفسهم ما كانت لتطيب بأن يصبحوا تابعين لمحمد ، وما كانت لتطيب
أيضاً بأن يراجعوا عنه حتى يأخذوا بثأرهم . ولكنهم لا يستطيعون ذلك
ولا يقدرون عليه وحدهم . فإذا ؟ إذن يؤثرون عايه قريشاً وقبائل العرب
الموتورة منه ، ويجمعونهم له فى حرب طاحنة لا تبقى ولا تذر ولا قبل له
بها ، فتكون خلاصاً لهم منه ، وبلوغاً لثأرهم . ونيلاً لمآربهم ، وشفاء
لصدورهم ، ثم استرداداً لديارهم وأراضيهم .

اجتمع جماعة من زعمائهم منهم حُيَيُّ بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق
من بنى النضير ، وهنُوذَة بن قيس من بنى وائل . وخرجوا فى نفر من
بنى النضير وبنى وائل يقصدون قريشاً أول ما قصدوا فى تلك الجولة التى
قاموا بها بين قبائل العرب ليحرضوها على حرب محمد . فلما اجتمعوا
بالملا من قريش وأخذوا يحرضونهم على محمد ويدعونهم إلى حربه ، وذكروهم
بما بينهم وبينه ويبينون لهم خطره ، ويعيدونهم بأنهم سيكونون معهم حتى
يستأصلونه ، فمكر هؤلاء القرشيون وكأنهم باتوا يشكون فى دينهم وى أن
محمد قد يكون على صواب ، فسألوا وفد اليهود : يامعشر يهود ، إنكم أهل
الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد . أفديننا خير
أم دينه ؟

قالت اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .

وأخيراً اتفقت قريش على الخروج مع اليهود في موعد حددوه . ثم إن اليهود انطلقوا بعد أن ضمنوا خروج أكبر رأس في العرب معهم ، إلى غطفان ، وهي من أكبر وأقوى قبائل العرب . وتقع ديارها في الشمال الغربي من المدينة ، على مائة وعشرين كيلو متراً ، وحرضوا بطونها على حرب محمد والمسلمين وزينوا لهم هذا العمل ، وذكروا من له منهم تيرة بترته ، وقووم بما كان من موافقة قريش على هذه الحرب وواعدها اليهود على الخروج معهم .

وفي شوال من السنة الخامسة الهجرية تجمعت هذه الأحزاب وخرجت تريد المدينة . فخرجت قريش وحلفاؤها في أربعة آلاف مقاتل ، وثلاثمائة فرس ، وألف وخمسمائة بعير ، وعلى رأسها أبو سفيان صخر بن حرب ، ويحمل لواءها عثمان بن طلحة ، الذي حمل أبوه لواء قريش يوم أحد وقتل . وخرجت جموع غطفان ، يقود بنى فزارة عيينة بن حصن في رجال كثيرة وألف بعير ، ويقود بنى مرة الحارث بن عوف في أربعمائة ، وبنى أشجع مسعمر بن ربيعة في ربعمائة أيضاً ، وبنى سليم سفيان بن عبد شمس في سبعمائة ، وهم أصحاب بئر معونة ، وبنى أسد طليحة بن خويلد . وخرج معهم بنو سعد أيضاً ، فبلغت عدة هذه الجموع حوالي عشرة آلاف مقاتل . وأسندت القيادة العامة لأبي سفيان .

وفي تلك الأثناء كانت أخبار هذه الجموع قد بلغت الرسول ، فجمع أصحابه واستشارهم في كيفية مواجهة هذه الجموع . وأخيراً استقر الرأي على أن المسلمين لا قبيل لهم بمواجهة هذه الحشود الكبيرة وجهاً لوجه في ساحة تدور فيها معركة قد تؤدي فعلاً إلى استئصال المسلمين ، وأجمعوا على التحصن في المدينة وملاقاة العدو فيها إذا ما دهمها عليهم . وكان بين المسلمين رجل فارسي اسمه سلمان ، أشار عليهم بخنجر خندق في ناحية المدينة غير

الحصينة ، وهى وسيلة من وسائل الدفاع لم تكن معروفة لدى العرب ، ولكنهم أعجبوا بها ووافقوا عليها . وقرروا حفر خندق فى شمالى المدينة من الحرّة الشرقية إلى الحرّة الغربية ، وهى الجهة التى كان يمكن للعدو أن يدخل المدينة منها . أما بقية حدودها فكانت حصينة متشابكة بيوتها ، وفيها حصون بنى قريظة حلفاء المساميين ، ويسهل الدفاع عنها .

تجهز محمد على رأس ثلاثة آلاف مقاتل ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وحمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة ، ولواء الأنصار سعد بن عباد . وخرج بهم إلى أطراف المدينة وعسكر عند سفح جبل سلع ، وأمر بحفر الخندق . فشمروا المسلمون عن سواعد الجِد ، غير أن جماعة من المنافقين يلوح بأنهم لم يقتنعوا بمسألة حفر الخندق ، إما لجهلهم بمثل هذه الوسائل ، وإما لأنهم أرادوا خذلان محمد كعادتهم ، قد تخلفوا واعتادوا بالضعف ، وانسلت طائفة أخرى خفية بغير إذنه .

وقد أنزل الله تعالى فى هؤلاء وهؤلاء قوله : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم . لا تجعلوا دُعَاء الرسول بينكم كدُعَاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسلَّلون منكم لوأذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم . ألا إن الله ما فى السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يُرجعون إليه فيُنبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم » (١) .

أطاع المسلمون صادقوا الإسلام أمر نبيهم وأجهدوا أنفسهم كل الجهد وتفانوا فى حفر الخندق ، وظلوا طوال ستة أيام يحفرون فيه بكل

بسالة واسمائه . على ما بهم من نصب وحوع . وعلى رأسهم محمد يحضر بيديه
الكريميتين وينقل التراب بنفسه ، حتى لقد كان يغبر من التراب . قال البراء .
رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى التراب جلدة بطنه . وسمعتُه
يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة وهو ينقل التراب يقول :

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلن سَكينة علينا وثبَّت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

وبينا محمد يضرب بفأسه مع الضاربين إذ جاءه جماعة قد اشتدت عليهم
صخرة صلبة لم يقدروا عليها . فنضح شيئاً من الماء عليها ثم ضربها ضربة
فانفلقت ، فقال : الله أكبر ! قصور الشام ورب الكعبة . ثم ضرب ضربة
ثانية فانهاالت وما عادت ترد فأساً ولا مسحاة ، فقال : الله أكبر ! قصور
فارس ورب الكعبة !

فقال عند ذاك المنافقون : نحن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور
فارس والروم .

فنزل فيهم قوله تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض
ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » (١) .

والحق إنها كانت رؤيا صدق ونبوءة تحققت ، وملك هؤلاء العرب
أنفسهم قصور الفرس والرومان وجعلوا ملكهما كأمس الذهب . كل
هذا فى أقل من خمسة عشر عاماً منذ ذلك الوقت الذى كان المسلمون
يخندقون فيه على أنفسهم حول مدينة واحدة فى جزيرة العرب لا يملكون
سواها .

عسكرت جيوش قريش وحانائها من الأحابيش ومن تبعهم من بنى
كنانة وأهل تهامة بمجتمع الأسياح من رومة بين الحُرُف وزغابة . وعسكرت

جموع غَطَفَان ومن تبعهم من أهل نجد بذنب نَقَمَى إلى جانب أحد . وعسكر جيش المسلمين عند سفح جبل سَنَاع ، ونصبت محمد خيمته الحمراء ، والخنديق بينه وبين القوم . وأعد المسلمون أكواماً من الحجارة ليستخدموها عند الحاجة في رمي العدو ، وأخلت المنازل التي خارج الخندق ، ووضع النساء والأطفال في المنازل المحصنة وفوق الحصون .

فوجئت جموع المهاجرين بالخنديق وأسقط في أيديهم . فلا هم يستطيعون عبوره . ولا هم بقادرين على اقتحام المدينة ودخولها من جهاتها الأخرى الحصينة ، فاقتصر القتال على الترامي بالسهام .

لم يجد المشركون عورة يدخلون منها المدينة . وأما يهود بني قريظة فكانوا حتى الآن على عهد الوفاء مع المسلمين ، قد أغلقوا حصنهم دون الأحزاب . غير أن حُيَّ بن أخطب شيطان بني النضير ذهب إلى زعيمهم كعب بن أسد القُرَظِيَّ صاحب عقدهم وعهدهم يريد أن يستمياها إلى الأحزاب ليفتح لهم ثغرة يدخلون منها المدينة من جهة بني قريظة . وذلك أنه كان قد عقد العزم على الانتقام من المسلمين ، ثم إنه خشي أن ترتد هذه الجموع البرّارة التي جمعها ليأخذ بثأره من المسلمين إن لم تستطع اقتحام الخندق ، وهيئات له إذا ارتدت دون هزيمة المسلمين هزيمة ساحقة لا تقوم لهم قائمة بعدها ، أن يجمع مثلها مرة أخرى ، أو ينجو هو نفسه وذووه من سيوف المسلمين البواتر وعقابهم الصارم . فهل يُبقي المسلمون على اليهود الذين جمعوا لهم هذا الجمع الرهيب ليستأصلوهم إن هم نجوا من هذا الحصار ؟ ومن يحمي اليهود إذا ما ارتدت الأحزاب وبقوا وحدهم مع المسلمين ؟

نادى حُيَّ بن أخطب كعب بن أسد . فلما سمع كعب نداءه أغلق باب حصنه دونه . فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له . فناداه : ويحك يا كعب افتح لي ! قال كعب : ويحك يا حُيَّ . إنك امرؤ مشنوم . وإني قد عاهدت محمداً فاست بناقض ما بيني وبينه . ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً .

قال : ويحك افتتح لى أكاملك . قال : ما أنا بفاعل . قال : والله ما أغلقت دونى إلا خوفاً على جشيشتك (طعام) أن آكل منها معك ، فغضب كعب وفتح له . فقال حيي : ويحك يا كعب ! لقد جئتكم بعز الدهر وبحري طام .

قال كعب : وما ذاك ؟ قال : جئتكم بقريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة . وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقةمى إلى جانب أحد . قد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه .

فقال كعب : جئتنى والله بذل الدهر وبجهام (السحاب الذى لا ماء فيه) قله هراق ماؤه رعد ويهرق وليس فيه شيء ، ويحك يا حيي فدعنى وما أنا عليه ، فلانى لم أر من محمد إلا وفاء وصدقاً . وتكلم عمرو بن سعد القرظي فأحسن فيما قال وذكرهم بميثاق محمد وعهده ومعاهدتهم إياه على نصره ، وقال : إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه .

غير أن حيي بن أخطب لم يزل بكعب بن أسد حتى سمع له وانضم للأحزاب ونقض العهد الذى بينه وبين محمد ، على أن يعاهده حيي عهد الله وميثاقه لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل حيي معه فى حصنه يصيبه ما يصيب أسداً عنده . ولم يحفظ عهد المسلمين من بنى قريظة إلا بنو سعنه . أسد وأسيد وثعلبة ، فلهم خرجوا وانضموا إلى محمد .

فلما انتهى الخبر إلى محمد استدعى سعد بن معاذ ، وهو يومئذ سيد الأوس ، وسعد بن عباد ، وهو يومئذ سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، وخوات بن جبير ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنظروا أحقاً ما بلغنا عنهم ، فإن كان حقاً فالحنوا لى لحناً أعرفه ولا تفتوا فى أعضاء المسلمين ، وإن كانوا على وفاء فاجهروا به للناس .

فدبشى القوم إلى اليهود حتى أتوهم فى حصنهم . فقال سعد بن معاذ : إنكم

قد علمتم الذى بيننا وبينكم يا بنى قُرَيْظَةَ ، وأنا خائف عايكم مثل يوم بنى النضير أو أمر منه . فقالوا : أكلت أير أيبك . فقال : غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن . ثم لأنهم نالوا من محمد وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد . فشاتمهم سعد بن مُعَاذ وشاتموه ، وكان رجلا فيه حدة . فقال له سعد بن عباد : دع منك مشاتمهم ، إن ما بيننا وبينهم أكثر من المشامة .

ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى محمد فسلموا ثم قالوا : عضل والقارة ، يشيرون إلى خيانة عضل والقارة بأصحاب الرجيع وقتلهم أصحابه ، فما أن سمع محمد ذلك حتى التف بثوبه واضطجع ومكث طويلا ، فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه اضطجع ، وعرفوا أنه لم يأتيه عن بنى قُرَيْظَةَ خير . ثم إنه رفع رأسه وقال : أبشروا بفتح الله ونصره .

ثم قام وبعث سَلَمَةَ بن أسلم في مائتي رجل ، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل ، وأمرهما بحراسة المدينة من جهة بنى قُرَيْظَةَ والسهل على النساء والأطفال خشية أن يصيبهم سوء من اليهود .

عظم البلاء واشتد الخوف وبات المسلمون في موقف عصيب جداً لا يحسد أحد عليه ، فقد أتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، وظن المؤمنون منهم كل ظن ، وجهر المنافقون بنفاقهم . قال معتب بن قُشَيْرٍ أخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ! وقال أوس بن قَيْظِي علناً : يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو ، فأذن لنا أن نرجع إلى دارنا فلما هنا خارج المدينة .

وهؤلاء وأمثالهم هم المرادون بقوله تعالى : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً . » وإذ يقول المنافقون والذين

فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً» (١) .

فلما اشتد على الناس البلاء وخشى محمد الفتنة ، أراد أن يستميل غطفان ويسالمها ، فأرسل إلى عبيدة بن جحيص ، والحارث بن عوف ، وهما قائدا غطفان يصالحهما على أن يعطيها ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما . وجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا كتاباً بذلك ولكن لم يوقع بعد . فلما انتهى محمد إلى الاتفاق لم يشأ أن يوقعه قبل أن يستشير السعديين : سعد ابن معاذ ، وسعد بن عباد سيدى الأوس والخزرج . فقالا : يا رسول الله ، أمراً تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟

فقال محمد : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا ضيافة أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم !

فقال النبي : أنت وذاك . فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فحماها فيها من كتابة وقال : لِيَسْجِهَكُوا عَلَيْنَا .

ودام الحصار حوالى عشرين يوماً لم يحدث فيها قتال إلا المبارزة التى وقعت بين على بن أبى طالب ، وعمر بن عبد وُد . وذلك أن عمرو بن عبد وُد

أحد بني عامر بن لؤي ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهيرة بن أبي وهب ،
وضرار بن الخطاب أخذتهم الحمية يوماً فلبسوا لباس الحرب وخرجوا على
خييلهم حتى مروا بمنازل بني كنانة فقالوا : تهيأوا يا بني كنانة للحرب ،
فستعلمون من الفرسان اليوم . ثم أقبلوا تسرع بهم الخيل حتى بلغوا مكاناً
من الخندق ضيقاً ، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السَّبْخَةِ
بين الخندق وستلح . فخرج لهم على بن أبي طالب وجماعة من المسلمين .

فنادى عمرو بن عبد ود : من يبارز ؟ فقام على بن أبي طالب فقال :
أنا لها يا بني الله . فقال محمد : إنه عمرو ، اجلس . ثم نادى عمرو : ألا
رجلٌ يبرز ؟ فجعل يؤنبهم ويقول : أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل
منكم دخلها ؟ أفلا تُبرزون إلى رجلا ؟ فقام على فقال : أنا يا رسول الله ،
فقال : اجلس ، ثم نادى عمرو الثالثة وأنشد يقول :

ولقد بحِجَّتْ من النداء لجمعهم : هل من مبارز
ووقفت إذ جـهـن المشـ جمع موقف القيرن المناجز
ولـذاك إني لم أزل متسرعاً قبل المـزاهـ^(١)
إن الشجاعة في الفتى والحدود من خير الغرائز
فقام على بن أبي طالب فقال : يا رسول الله أنا . فقال : إنه عمرو ،
فقال : وإن كان عمرأ ! فأذن له محمد ، فشئى إليه على وهو يقول :
لا تعجـلـنَّ فقد أتـا لك مجيبٌ صوتك غير عاجز
في نيّة وبصيرة والصدق مُنْجى كل فائز
إني لأرجو أن أقي سم عايك نائحة الجناز
من ضربة نجلـاء يـبـيـ قى ذكرها عند المـزاهـ

فقال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا على . قال : ابن عبد مناف ؟
قال : أنا على بن أبي طالب . فقال : يا بن أخي من أعمامك من هو أسن

(١) المـزاهـ : الدوامى والشدائد .

منك ، فلإني أكره أن أهرق دملك ! فقال له علي : لكني والله لا أكره
أن أهرق دملك !

غضب عمرو فنزل عن فرسه وسَلَّ سيفه كأنه شعلة نار . ثم أقبل
نحو علي والشرر يتطاير من عينيه ، فاستقبله على بدرقته ، فضربه عمرو
في درقته ففقدَها وأُثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجَّه ، إلا أن علياً
عاجله بضربة على حبل عاتقه فسقط لتوه ، وصاح المسامون ، وسمع
محمد التكبير فعرف أن علياً قتله . ثم أقبل عليّ على محمد وهو يقول
قصيدته التي منها :

أهلى^١ تقتحم الفوارس مكلنا غنى وعنهم أخشروا أخصاني
عبدة الحجارة من سفاهة رأيه وعبدت ربّ محمدٍ بصواب

أقبل عليّ ووجهه مهلّل ، فقال له عمر بن الخطاب : هلا استلبته درعه ،
فلأنه ليس للعرب درع خير منها ؟ فقال عليّ : استحييت ابن عمي أن
أسلبه . ثم إن بقية الخيل التي اقتحمت الخندق عادت أدراجها إلى الناحية
الأخرى ، ولم يقع قتال غير هذا . ولم يستشهد غير ستة من المسلمين أصابتهم
سهام المشركين ، وقتل ثلاثة من المشركين فقط .

ثم إن المسلمين أقاموا أياماً وهم في أشد ما يكونون من البلاء والخوف
والشدّة ، وعلى الأخص بعد أن نقض بنو قريظة حلفهم مع المسلمين .
وذاث يوم أتى نعيم بن مسعود محمداً وقال له : يا رسول الله إني قد
أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فرفني بما شئت . فقال له محمد :
إنما أنت رجل واحد ، فخذلّ عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان لهم نديماً في الجاهلية
فقال : يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم . قالوا :
صدقت لست عندنا بمتهم .

فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم فيه أموالكم

وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرّون على أن تتحولوا منه إلى غيره . وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه . وقد ناصرتموهم عليه . وبلدكم ونساؤهم وأموالهم بغير هذا البلد ، فليسوا مثلكم . فإن رأوا نهضةً أصابوها . وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين محمد ببلدكم . ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشrafهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تنأجزوهم . قالوا : لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم ودّي لكم وفراقى محمداً ، وإنه قد بلغني أمر قد رأيته على حقاً أن أبلغكم إياه نصيحاً لكم فاكتموه عني . قالوا : نفعل .

قال : ندّم معشر اليهود على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه يقولون : إنا قد ندّمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجلاً من أشrafهم فنعطيكهم فنضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم . فأرسل إليهم : أن نعم . فإن بعثت إليكم اليهود يلتبسون منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً .

ثم خرج من عند قريش حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيري وأحب الناس إليّ ، ولا أراكم تهملوني . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بهم . قال : فاكتموا عني . قالوا : نفعل . ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما جذّروهم .

فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني فريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وعطفان . فقال لهم : يا لئس ، بدار مقام ، هلك الخلف والخافر ، فأعدوا للقتال حتى ساحز محمداً ونهزم مما بيننا وبينه .

فقال اليهود : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث فيه بعضنا فيما مضى حدثاً فأصابهم ما لم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهائن من رجالكم يكونون بأيدينا حتى نثق بكم في حربنا لمحمد ، فلما نخشى إن اشتدت عليكم الحرب وحى القتال أن تعودوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت الرسل إليهم بما قالت بنو قريظة ، لم يعد لدى القوم شك فيما قال نعيم ، قالوا : والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق . فأرسلوا ثانية إلى بنى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة عند ما تأكد لديها أن قريشاً وغطفان لا تدفع إليهم رهائن : إن الذى ذكر نعيم بن مسعود لحق ، فما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك عادوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم . فأرسلوا إلى قريش وغطفان أنهم لا يقاتلون معهم إلا إذا أعطوهم رهائن ، فأبت قريش .

وما هى إلا ساعات حتى انقلب الجوع عاصفاً رهيباً لم يشهد القوم عاصفة مماثلة من قبل ، وما أتت عليهم ليلة قط أشد منها ظلمة ولا أشد منها ريحاً ، فى أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهى ظلمة ما كان يرى أحدهم منها لصبعه . واشتد تهطل المطر وزفرقت الريح وعلا صوتها يصم الآذان ، وراحت تضرب فى الخيام فتقتلعها ، وفى القدور فتكفوها ، حتى لقد انخلعت قلوب الرجال ، وتصور لهم أن السماء ستنطبق على الأرض . وفى تلك الأثناء أدرك محمد بقوة بصيرته أن الأعداء لا بد مرتدين عنده . فنادى فى قومه وما يرى أحدهم الآخر : من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم . فلما تباطأ عنه الرجال من شدة الخوف وشدة الجوع والبرد نادى

محمد : يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون ولا تسجدن شيئا حتى تأتينا .

فتسأل حذيفة ودخل في القوم وقد دخل في روعهم أن جنود الله قد نزلت من السماء تحارب مع محمد . فإذا به يسمع طليحة بن خويلد وهو ينادى : إن محمداً قد بدأكم بشر . فالنجاة النجاة ! وسمع أباسفيان يقول : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الخليل والإبل . وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره . ولقينا من شدة الريح ما ترون . ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء . فارتحلوا فلما فرغوا من رحلتهم . وقامت قريش فارتحلت وتبعها غطفان وجوعها . وعاد حذيفة فأخبر محمداً أنهم يرتحلون .

وما أن أطلت تباشير الصبح وتبين الناظر إلى حيث كان الأعداء معسكرين صورة الأشياء . حتى تأكد لمحمد وللمسلمين أن القوم قد ارتحلوا غن بكره أبيهم . وأصبحوا أثراً بعد عين .

وأنزل الله تعالى قوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . » (١) إلى أن قال « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا حيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . » (٢) ومعنى هذا أن المؤمنين لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم بل صرفهم القوى العزيز بحوله وقوته . وانصرف محمد عائداً إلى المدينة وهو يقول . « لا إله إلا الله وحده . صدق وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . » فلا شيء بعده .

(١) الأحزاب ٩ .

(٢) الأحزاب ٢٥ .

الفصل الثالث عشر

غزوة بني قريظة

لما أصبح محمد ورأى جموع الأحزاب قد ولت الأدبار ، انصرف المسلمون عن الخندق عائدين إلى المدينة ، فوضعوا السلاح ، وحمدوا الله على ما أولاهم من فضله . غير أن جبريل أتى الرسول يخبره كما كان يأتيه بالوحي ، فقال : أَوَقَدْ وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم . فقال جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت إلا الآن من طلب القوم ، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة ، فإنني عامد إليهم فزازل بهم . وهؤلاء الملائكة الذين أشار إليهم جبريل بقوله إنهم لم يضعوا السلاح بعد ، هم الذين أشار إليهم الله تعالى في كتابه الكريم بقوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها » (١) .

أمر محمد من توه بلالا أن يؤذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصَلِّسَنَّ العصر إلا في بني قريظة . وأعطى لواءه لعلي بن أبي طالب وأمره بالتقدم إلى بني قريظة ، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم . فتقدم الناس من كل صوب متجهين إلى بني قريظة ورسول الله في أثرهم على حاره . وما أن مالت الشمس للغروب حتى كانت جموع المسلمين قد توافدت على بني قريظة أفواجا حتى باغت عند العشاء ثلاثة آلاف مقاتل . ولما رأى علي بن أبي طالب محمداً مقبلاً ، تلقاه وقال : ارجع يا رسول الله فإن الله كافيك اليهود . وكان علي قد سمع منهم قولاً سيئاً لمحمد وأزواجه ، فكره علي أن يسمع شيئاً من هذا . فقال محمد : ولم تأمرني بالرجوع ؟

فكتمه على ما سمع منهم فقال : أظنك سمعت فيّ منهم أذى ، فامض فإن أعداء الله لو رأوني لم يقولوا شيئاً مما سمعت .

فلما نزل عليهم بحصنهم . وكانوا في أعلاه . نادى بأعلى صوته نقرأ من أشرافهم حتى أسمعهم فقال : أجيئوا يا معشر يهود ، يا إخوة القردة والخنزير ، قد نزل بكم خزي الله عز وجل . فقالوا : يا أبا القاسم لم تكن فحاشاً . غير أنه اشتد عليهم وأمر أصحابه بمحاصرتهم . فحاصروهم وشدّ دوا عليهم الحصار . ونزل هو على بئر من آبار بني قريظة من ناحية أراضيهم يقال لها بئر أنسى ، واعتصم اليهود في حصنهم لا يقوون على الخروج ، ولا يستطيع أحد اقتحام الحصن خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب ، ولم يعد مفر من التسليم .

فلما أيقن اليهود أن محمداً سوف لا ينصرف عنهم حتى يبلغ منهم ما يريد ، وأنهم سوف لا يحتملون مشقة الحصار بعد ذلك . قال لهم رئيسهم كعب بن أسد : يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون . وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا بما شئتم منها . قالوا : وما هن ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقّه ، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل . وأنه للذي تجدونه في كتابكم ، فتأمّنون على دماءكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيتم على هذه فلنقتل أبناءنا ونساءنا . ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصليين السيوف . لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عايه . وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء .

قالوا : أنقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟ !
قال : فإن أبيتم على هذه . فالبيلة ليله الساب . وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمّنوا فيها . فانزلوا علينا نصيب من محمد وأحمد عرّة

قالوا : أنفسد سبتنا ونحدِّث فيه ما لم يُحدِّث فيه من كان قبلنا ، إلا من قد عليمَت فأصابه ما لم يخفَ عنك من المسخ .

فقال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازماً .
ثم إنهم بعثوا إلى محمد أن ابعث إلينا أبا لُبابة بن عبد المُنذر أخا بني عمرو بن عوف ، وكانوا حلفاءهم ، نستشيرهم في أمرنا .

فأرسله محمد إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرَّق لهم ، فلما سألوه : يا أبا لُبابة ، أترى أن نزل على حكم محمد ؟ قال : نعم . وأشار بيده إلى حلقه أنه الذَّبْح .

فلما فعل ذلك أبو لُبابة ندم ندماً شديداً على خيانتته لمحمد واطلاعه اليهود على حكمه فيهم ، وانطلق على وجهه حتى أتى مسجد الرسول فارتبط إلى عمود من عمده ، وقال : لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليّ مما صنعت . وظلّ مرتبطاً على هذا الحال ست ليال ، تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله ليتوضأ ويصلي ثم يرتبط ، حتى نزلت توبته في قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خاطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم . » (١) .

فلما تباطأ اليهود في إجابة محمد إلى طلبه بالتسليم والنزول على حكمه ، صاح عليّ بن أبي طالب قائلاً : يا كتيبة الإيمان . وتقدم هو والزبير بن العوام وقال : والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو أقتحم حصنهم . فأرسل اليهود إلى حلفائهم من الأوس أن يأخذوا لهم مثلما أخذت الخزرج لإخوانهم بني قَيْنُقاع . عندئذ قالت الأوس : يا رسول الله إنهم كانوا حلفاءنا وقد فعلت مع حلفاء إخواننا الخزرج بالأمس ما قد علمت حين سألك فيهم عبد الله ابن أبيّ ، يشيرون بذلك إلى عفوهم عن بني قَيْنُقاع والاكتفاء بإجلائهم . فقال محمد : يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا :

بلى . قال : فذلك إلى سعد بن مُعَاذ . وقبل اليهود حكم سعد بن معاذ فيهم ، وقد ظنوا أنه على الرغم من خيانتهم للمسلمين وعلى الرغم من مشائمتهم معه عند ما أوفده محمد إليهم ليذكروهم بخلفهم معه الذى خانوه ، فإنه استجابة لنزعات العرب ، سوف لا يقبل أن يعامل حلفاؤه بأقل مما عومل به حلفاء عبد الله بن أبى ، وأنه سوف يحكم بإجلالهم فحسب .

أرسل محمد إلى سعد بن مُعَاذ وكان جريحاً يداوى فى مسجد الرسول إثر جرح أصيب به فى شريان يده فى غزوة الخندق . فأناه قومه من الأوس فحملوه على حمار وقد وضعوا تحته وسادة من جلد ، وكان رجلاً جسيماً جميلاً ، ثم أقبلوا معه إلى محمد وهم يقولون له : يا أبا عمرو أحسن فى حلفائك . فلما ألحوا عليه وأكثروا قال : قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم .

وعند ذاك رجع بعض من كان معه إلى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد . وقبل أن يصدر حكمه فيهم ، وذلك استنتاجاً من تلك الكلمة التى قالها سعد .

فلما انتهى سعد إلى محمد والمسلمين ، قام المسلمون لإليه وقالوا : يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولّاك أمر حلفائك لتحكم فيهم . فقال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ فقالوا : نعم . قال : وعلى من هاهنا . ونظر فى الناحية التى فيها محمد وهو معرض عنه لإجلال له . فقال محمد : نعم . فلما أخذ هذه الموائيق أمر بنى قريظة أن ينزلوا ويسلموا سلاحهم ، ففعلوا .

فأصدر سعد حكمه وهو أن يقتل الرجال ، وأن تسبى النساء والأطفال ، وأن تقسم الأموال .

فقال محمد : لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله . ومصدق هذا ما جاء فى الكتاب الكريم : « وَرَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ

لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً» (١) يشير إلى الأحزاب . « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب (أى بنى قريظة) من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطووها وكان الله على كل شيء قديراً . » (٢) .

أنزل اليهود من حصنهم وقبض عليهم ، وكانت يدا الرجل تجمعان إلى عنقه بحبل ، وحبسوا انتظاراً لتوقيع العقوبة فيهم . ثم خرج محمد إلى سوق المدينة فخذق بها خنادق ، ثم استحضرهم أفواجاً فضرب أعناقهم في تلك الخنادق — وكانوا ستمائة أو سبعمائة ، وقال المكثرون ثمانمائة أو تسعمائة وقيل أربعمائة — ودفنوا فيها .

والحق أن هؤلاء اليهود قد أظهروا من الشجاعة النادرة . والصبر المدهش على هذه المحنة ، والجأء أمام القتل ما يحسدون عليه . عندما أتى بحبي بن أخطب وهو مجموعة يده إلى عنقه ، وكان قد دخل حصنهم بعد رجوع الأحزاب وفاء بعهده لكعب بن أسد أن يشاطرهم المصير إذا ما ارتدت الأحزاب عن المسلمين ، قال له محمد : ألم يخزك الله يا حبي ؟ قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يُخذل .

ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة (٣) كتبها الله على نبي إسرائيل ! ثم جلس فضربت عنقه .

أما الزبير بن باطا فكان شيخاً كبيراً قد عمى ، وكان قد أسر يوم وقعة بُعَاث بين الأوس والخزرج ثابت بن قيس بن شماس ومن عليه وأطلقه ، فأراد ثابت أن يكافئه في ذلك اليوم فجاءه فقال : هل تعرفني يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : وهل يجهل مثلي مثلك . فقال له ثابت : أريد أن أكافئك . قال : إن الكريم يجري الكريم .

· (١) الأحزاب ٢٥ · (٢) الأحزاب ٢٦-٢٧ ·

(٣) الملحمة : الوقعة الشديدة في الحرب .

فجاء ثابت إلى محمد واستطلقه الزبير بن باطا فأطلقه له ، فجاءه ثابت فأخبره . فقال الزبير : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة ! فذهب ثابت إلى محمد فاستطلق له امرأته وولده ، فأطلقهم له . ثم جاءه فقال الزبير : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم ، فما بقاؤهم على ذلك ؟ فأتى ثابت إلى محمد فاستطلق مال الزبير فأطلقه له .

ثم جاءه فأخبره فقال : يا ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة صنيعة تراءى فيها عذارى الحى . كعب بن أسد ؟ قال : قُتِل .

قال : فما فعل سيد الحاضر والبادى حُيَّ بن أخطب ؟ قال : قُتِل . قال : فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا ، عزَّال بن شموال ؟ قال : قُتِل .

قال : فما فعل المجلسان ؟ يعنى بنى كعب بن قُرَيْظَة وبنى عمرو بن قُرَيْظَة . قال : ذهبوا فقتلوا .

قال : فلانى أسألك يا ثابت بيدى عندك إلا ألحقنى بالقوم ، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير ، فما أنا بصابر والله لإفراغة دلو حتى ألقى الأحبة . فقدمه ثابت فضربت عنقه .

ولم يقتل من نساء بنى قُرَيْظَة غير امرأة واحدة كانت قد قتلت خلافاً ابن سُوَيْد الخزرجى إذ طرحت عليه رجا فشدخته شديداً . وكان المسلمون لا يقتلون النساء والأطفال ولكنها قتلت به . وتروى عائشة أنه عند ما هتف هاتف باسمها قالت لها : ويلك مالك . قالت : أقتل ! قالت عائشة : ولم ؟ قالت : لحدث أحدثته . فانطلق بها فضرب عنقها . وكانت عائشة تقول : فوالله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تُقتل !

أما الصبيان فإنهم فرقوا بين البالغ منهم وغير البالغ بمن أنبت ، أى بمن خشن شعر عانته . فقدم فقتل .

وبعد أن فرغ محمد من قتل الرجال ، قسم أموال بني قريظة
ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد أن أخرج الخُمس . وقسم للفارس ثلاثة
أسهم ، سهمين للفارس وسهماً للفارس ؛ وكانت الخيل يومئذ ستاً وثلاثين ،
وقسم للراجل سهماً ، ثم بعث سعيد بن زيد بعدد من سبايا بني قريظة إلى
نجد فباعهم واشترى خيلاً وسلاحاً . ثم إنه اصطفى من نساءهم ريحانة
بنت عمرو بن خنافة ، لإحدى نساء بني عمرو بن قريظة ، وكان قد عرض
عليها الإسلام فامتنعت ، ثم أسلمت بعد ذلك ؛ فسر بإسلامها وعرض عليها
أن يعتقها ويتزوجها . فاخترت أن تستمر على الرِّق ليكون أسهل عليها ،
وظالت في ملكه حتى توفى

الفصل الرابع عشر

زواج النبي بزینب بنت جحش

التي ولي الله عقد زواجها

تزوج محمد في أعقاب غزوة بني قريظة من زينب بنت جحش ، وكانت زينب زوجاً لمولاه وابنه بالتبني زيد بن حارثة . ويجمل بنا هنا أن نذكر قصة زواجها من زيد ، ثم تطايعها وسببه ، ثم كيفية زواجها من محمد ، من غير إطالة ومن غير إفاضة في ذكر سخافات المرجفين وضلالات المضللين من أعداء الإسلام ، ومن غير أن نخوض في بعض أقوال كثير من السلف الصالح الذين لم يفهموا هم أيضاً مغزى هذا الزواج ، وراحوا ينسجون قصصاً كانت في واقع الأمر النواة التي نسج من حولها المبشرون النصاري والمستشرقون من أعداء الإسلام طعونهم في نبي الإسلام .

لما أراد النبي أن يُزوج مولاه وابنه بالتبني زيد بن حارثة ، اختار له زينب بنت جحش ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب . فأتى أهلها ليخطبها ، غير أنها رفضت رفضاً باتاً وقالت : لا أتزوجه أبداً وأنا سيدة أبناء عبد شمس . ورفض أخوها عبد الله بن جحش ، بطبيعة الحال ، لأن العرب كانوا حريصين جداً على تزويج بناتهم من أكفاء لمن ، ولم تكن المرأة أقل حرصاً من الرجل على التمسك بهذا التقليد . ثم إنهم كانوا يعتبرون الزواج من الموالى - وإن اعتقوا - أمراً يباحق بهم عاراً كبيراً . غير أن الإسلام كان في ذلك الوقت قد وضع معياراً جديداً للشرف بين الناس في هذه الدنيا هو قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »^(١) . وإذن كانت التقوى في شريعة الإسلام

هى المعيار الذى يَشْرُفُ به الرجل . لاحسبه وسبه . ولالونه وجنسه .
فاما رفض أهلها ونزلت الآية : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى
الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم ومن يعص الله ورسوله
فقد ضلّ ضلالاً مبيناً »^(١) . لم يعد مفر من إطاعة الله ورسوله وتزويج زينب
بزيد بن حارثة .

غير أن زينب تزوجته وهى كارهة . وكانت تؤذيه ، ويقول بعض
كتاب السيرة إنها ظلت عنده سنة أو أكثر عذراء لم يمسه . وكان زيد
دائم الشكوى منها لمحمد . ودائم الحديث له عن رغبته فى تطليقها ،
وكان محمد ينهيه عن ذلك ويقول : « أمسك عليك زوجك واتق الله »
لأن أبغض الحلال عند الله الطلاق .

ثم إن محمداً علّم أنه سيتزوجها ، وهذا معنى تفسير قوله تعالى « وتحنّى
فى نفسك ما الله مبديه »^(٢) أى تحنّى فى نفسك علمك بأنك ستزوجها بأمر
الله سبحانه وتعالى .

غير أن الزواج من مطلقة الابن بالتبني كان محرماً عند العرب . فاما
نزلت الآية : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم
النبيين وكان الله بكل شيء عايماً »^(٣) ، وهى من آيات التنظيم الاجتماعى
الذى حرم التبني على المسلمين ، لم يعد حرج على النبي أن يتزوج من زينب
بنت جحش . وصار زيد ينادى باسمه القديم « زيد بن حارثة » بدلا من
« زيد بن محمد » وكان قد طاقها .

فلما انقضت عدتها بعث محمد زيد بن حارثة ليخطبها له . فانطلق
حتى أتاها وهى تحمّر عجبها فقال لها : يا زينب أبشرى ، أرسلنى

(٢) الأحزاب ٣٧ .

(١) الأحزاب ٣٦ .

(٣) الأحزاب ٤٠ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أواميرُ ربِّي عز وجل ، ثم قامت إلى مسجدها . ونزل القرآن :

« ولما تقولُ للذي أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه (أى زيد بن حارثة) أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحقُّ أن تخشاه فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً . ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلتوا من قبلُ وكان أمر الله قلراً مقدوراً » (١) .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ما فيها بعد نزول هاتين الآيتين ودخل عليها بغير إذن . ذلك أنه أصبح زوجها بلا عقد ولا شهود من بني البشر ، فقد تم الزواج بنزول هاتين الآيتين ، وكان الله وليها في العقد وجبريل شاهده . وكانت زينب تقول لمحمد : إني لأدُل عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدُلُّ بهن ، أن جدى وجدك واحد — تعنى عبد المطلب — وأنى أنكحنيك الله عز وجل من السماء ، وأن السفير جبريل عليه السلام .

وفي صبيحة عرسها نزلت آية الحجاب موافقة لرأى عمر بن الخطاب ، إذ كان عمر كثيراً ما يذكر الحجاب ويقول : لو أطاع فيمكن ما رأيتكن حين . فنزل قوله تعالى : « وإذا سألتوهنَّ (أى زوجات النبي) متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذاكم أطهر أقوا بهن وقاوبهن » (٢) .

فلما نزلت هذه الآية قال بعض المسلمين : أننهن أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لأتزوجن عائشة !

فقال تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذاكم كان عند الله عظيماً » (٣) .

(٢) الأحزاب ٥٣ .

(١) الأحزاب ٣٧ - ٣٨ .

(٣) الأحزاب ٥٣ .

أما المؤمنات من غير أزواج النبي فنزل فيهن قوله تعالى : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يُبدن زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمُرهن على جيوبهن ولا يُبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (١) .

وكانت النساء في الجاهلية وصدور الإسلام يكشفن عن صدورهن وأذرعهن ويسدين مفاتهن . فنزلت الآية : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدلين عليهن من جلبابهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذيتهن وكان الله غفوراً رحيماً » (٢) والمقصود بقوله : « أن يُعرفن » أى أن يعرفهن الشبان ويفرقون بينهن وبين الإماء ؛ ذلك أن الفتيان كانوا يتعرضون لمغازلة النساء إذا ما خرجن بالليل لقضاء حوائجهم في التخييل والغيطان .

الفصل الخامس عشر

من غزوة بني قريظة إلى غزوة الحديبية

انطبع تاريخ الإسلام بعد الهجرة بطابع حربي جداً ، وأصبح عبارة عن سلسلة من الحروب الصغيرة والكبيرة . فهل الحرب طبيعة في الدين الإسلامي أم أن الظروف التي نشأ فيها هي التي أملت هذه الضرورة ؟ أما الحقيقة الماثلة التي نستطيع تبينها فتدلنا أبلغ دلالة على أن الدين الإسلامي ينهى نهياً مطلقاً عن العدوان « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (١) . وهذا المفهوم جوهر ثابت في أصول هذا الدين لا شك في ذلك . ولكن الدين الإسلامي في مفهومه الأسمى وفي جوهريه الخالص يدلنا أيضاً ، وبطريقة لا مبرية فيها ، على أنه دين الفطرة ودين الحياة . والحق أنه ما كان ينبغي له أن يكون شيئاً غير ذلك ، وما كان ينبغي له أن يكون فيه شيء غير ما في الحياة ذاتها ، وبكل ما نفهم من معاني الحياة ، وما تنطوي عليه الحياة وما ينطوي عليه الاجتماع الإنساني من مبادئ تسيّر الحياة وتحكم الاجتماع . ولأن الإسلام دين الحياة ودين الفطرة ، فليس غريباً بأية حال ولا بأي منطق أن نرى هذا الدين وقد تبلور بالصورة التي تحتكمها الحياة ، وتحتكمها ظروف المجتمع الذي نشأ فيه ، والتي اضطرت مؤسسه الكريم اضطراراً إلى أن يتبع المبادئ التي تحكم الناس الذين يعايشهم .

كان لزماماً على محمد ، وهو يقود المسلمين ويؤسس دولة وديناً في مثل الظروف والبيئة التي وجد فيها ، أن يعامل الناس بالطريقة المثل التي يفهمونها والتي يحترمونها . ولذلك كان لزماماً عليه أن يكون حريياً ، بل حربياً جداً في تلك البيئة العنيفة التي قسمت على الناس فطبتعتهم بطابع العنف

والقوة . وأى عجب فى ذلك فى مجتمع يؤمن بالقوة ويؤمن بان القوى هو الأعظم وأنه الأقدر على الحياة ، بل الأصلح للحياة ، وأنه هو الذى يلغى أن يدين له الآخرون ويقدموا له فروض الولاء والطاعة ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم وذرائعهم .

وهنا يقف أعداء الإسلام من المبشرين ويرفعون أصواتهم عالية ليقولوا إن الإسلام دين السيف ودين العنف وأنه دين حربى ، ويحاولون من ثمة أن يجدوا فى ذلك مطعناً على الإسلام . ونحن لا نريد أن ندخل فى مجادلات مع هؤلاء دفاعاً عن الإسلام ، وإنما يكفى أن نقول مثلاً إن الإنسانية لم تعرف ديناً ارتكبت باسمه الحروب وأريققت باسمه الدماء مثل اليهودية أو المسيحية . ولا يغرنك دعاية المسيحيين التى يقيمونها حول النص القائل « من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً » (متى ٣٩/٥) لأن المسيحيين لم يعملوا قط بهذا النص ، وإنما عملوا بنص آخر نسخ هذا النص هو « ما جئت لأتلى سلاماً بل سيفاً » (متى ٣٤/١٠) . والحقيقة الماثلة هى أن كبار اللاهوتيين قد بذلوا آلاف المحاولات للتوفيق بين النصين خدمة للتبشير فلم يوفقوا . أما اليهودية ، فإن التوراة مليئة بالتحريض لا على الغزو بل على إباد الشعوب . ثم إننا لا يجب أن ننسى أيضاً أن المسيحية ليست نقضاً لليهودية ، فالمسيح عليه السلام يقول : « ما جئت لأنقض (الناموس) بل لأكمل » (متى ١٧/٥) .

إذن فالإسلام من هذه الوجهة لم يخرج فى طبيعته عن طبيعة الدين المسيحى — إلقاء السيف لإحلال السلام . ومن ثمة كان لازماً على محمد أن يبذل أقصى جهده ، فى بيئة لا تعرف غير القوة ، لينال احترام الناس . ماذا كان ينبغى له أن يفعل غير ما فعل ليجبر هذه الأقوام على احترامه وإلزامها حدود الطاعة الواجبة نحوه ونحو تابعيه ، حتى لا يتعرض من هنا أو من هناك إلى عدوان هؤلاء الأقوام عليه وعلى أتباعه ؟

والحق أنه ينبغى لأى قائد فى أى مكان أو زمان أن يتصرف مع الناس

الذين يعايشهم بالطريقة المثلثى التي يقدرونها حق قدرها ، والتي يقتنعون بها ، وإلا لكان نصيبه الفشل لا شك في ذلك ، لأنه إن لم يقنع الذين يعايشهم بالطريقة المثلثى التي تؤثر في نفوسهم وتكبحها لما استطاع أن يحافظ على نفسه هو ولا على النظام الذى يقيمه . ونحن نعلم أن العرب عاشوا في شبه جزيرتهم في قبائل منفصلة تماماً وكأئها جمهوريات مستقلة بعضها عن بعض تمام الاستقلال ، إن لم تحالف وتتعاقد هذه وتلك لم يعد بينهما من رادع أياً كان يمنع أياً من الطرفين من الإغارة على الآخر واستباحته . وهذا قانون لم يضعه العرب ولم ينتهجه بدعة بين شعوب الأرض - أى قانون بقاء الأصلح أو أكل الأقوى للأضعف - فهذا قانون سارت على هديه الإنسانية منذ كانت ، ولا تزال تسير عليه في أزهى عصورها ، ومع وجود منظمة دولية اسمها الأمم المتحدة تحاول الشعوب عن طريقها جاهدة أن تضع حداً لهذا القانون فلم تفاج .

لم يكن من مندوحة إذن لمحمد إذا أراد أن ينتصر ، وإذا أراد لدينه أن ينتشر من أن يدافع عن نفسه في هذه البيئة بأصلح الأسلحة المؤثرة فيها ، وهى رد الصاع صاعين ، وإشعار القبائل التي لا تدين بدينه وليس بينها وبينه مودة أنه قادر على ردها وغزوها ، وأنه قادر على قهرها وعلى حماية دولته ودينه من طغيانها .

استأنف سياسة الردع هذه بعد غزواتي الخندق وبنى قريظة فوراً . فأرسل في المحرم من السنة السادسة محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً لشن الغارة على بنى بكر بن كلاب ، وتقع منازلهم على بعد سبع ليال من المدينة في طريق البصرة بناحية ضربة . وكان يسير الليل ويكون النهار إلى أن بلغ ديارهم فدهمهم وقتل منهم عشرة وفر الباقيون فاستاق مواشيهم وقفل راجعاً إلى المدينة . وبينما هو وأصحابه في بعض الطريق التقوا بشمامة بن أثال من عظماء بنى حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه . فلما قدموه لمحمد عرفه وعامله

بحكمة كما كان يعامل الرؤساء ، فأطلق أساره وأكرمهم وإن أعرض عن الإسلام وأبى الدخول فيه ، فلما خلا ثمامة إلى نفسه وراجعها ، أثرت في نفسه هذه المعاملة وملكت عاياه كل مشاعره ، فارتد إلى محمد وأسلم بين يديه وهو مختار لا مكره وخاطبه قائلاً :

« يا محمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلىّ . والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلىّ من دينك فقد أصبح أحب الدين كله إلىّ . والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك فقد أصبح أحب البلاد إلىّ » .

ثم إن قدّم ثمامة رسخت في الإسلام في أثناء حياة محمد وبعد مماته . ففي أثناء حياته تحدى قريشاً ، وبعد وفاته وقد ارتد أكثر أهل بلاده عن الإسلام ، تصدى ثمامة لمُسَيْلَمَةَ الكذاب ونهى قومه عن الارتداد ، فكان يقول لهم : إياكم وأمرأ مظلماً لا نور فيه ، وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه . فثبت معه الكثيرون .

وفي ربيع الأول ، عقد محمد العزم على الخروج لبني لحيان للثأر منهم في مقتل أصحابه عاصم بن ثابت ورفاقه أصحاب الرجيع الذين مرّ ذكرهم . فخرج في مائتي راكب واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وسلك طريق الشام حتى يُعَمِّسَ على الأعراب مقصده ، وحتى لا يعلم بنو لحيان بمقدمه ، ثم ارتد نحو الجنوب وأسرع المسير ليلحق ببني لحيان ويأخذهم على غيرة . غير أنه عندما نزل بأرضهم وجدهم تركوا ديارهم وتمنعوا في رعوس الجبال . فأقام بديارهم يومين وأرسل بعضاً من أصحابه إلى عسفان ، وهو موضع قرب مكة ، وكان يقول : لو أنا هبطنا عسفان لرات قريش أنا قد جئنا مكة . ثم إنه لم يبق كيداً ، لا هو ولا أصحابه ، فرجع إلى المدينة .

وبعد عدة أيام من عودته أغار عُيَيْنَةُ بن حصن الفزاري في جمع من

غَطَفَانِ عَلَى عَشْرِينَ نَاقَةً حُلُوباً لِلنَّبِيِّ كَانَتْ تَرعى بِالْغَابَةِ ، (وَهُوَ مَوْضِعٌ عَلَى بَرِيدٍ مِنَ الْمَدِينَةِ جِهَةً غَطَفَانِ) وَفِيهَا رَجُلٌ مِنْ غِفَارٍ وَمَعَهُ امْرَأَتُهُ ، فَقَتَلُوا الرَّجُلَ وَأَخَذُوا الْمَرْأَةَ وَالنِّبَاقَ . حَدَّثَ هَذَا فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ ، وَكَانَ سَلْتَمَةُ ابْنِ عَمْرٍو بْنُ الْأَكْوَعِ الْأَسْلَمِيُّ قَدْ خَرَجَ يَرِيدُ الْغَابَةَ مَتَوَشِّحاً قَوْسَهُ وَسَهْمَهُ وَمَعَهُ غَلَامٌ لَطْلِيحَةٌ بَنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَمَعَهُ فَرَسٌ لَهُ يَقُودُهُ . فَمَا أَنْ عَلَا ثَنِيَّةُ الْوُدَاعِ إِذْ رَأَى بَعْضَ خِيُولِ الْقَوْمِ وَقَدْ اسْتَأَقُوا الْإِبِلَ ، فَاعْتَلَى صَخْرَةً نَاحِيَةَ جَبَلٍ سَلَعٍ لِيُسْمِعَ الْمَدِينَةَ وَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : وَاصْبَاحَاهُ ! ثُمَّ امْتَطَى فَرَسَهُ وَأَقْدَمَ يَعْدُو نَحْوَهُمْ وَكَانَ مِثْلَ السَّبْعِ ، حَتَّى لَحِقَ بِهِمْ ، وَجَعَلَ يَرْمِيهِمْ بِالسَّهَامِ وَهُوَ يَقُولُ :

خُذْنَاهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ الْيَوْمَ يَوْمَ الرُّضْعِ (١)

فَإِذَا ارْتَدَّتِ الْخَيْلُ نَحْوَهُ ، انْطَاقَ هَارِباً بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ وَهُوَ يَرْمِيهِمْ بِسَهَامِهِ لِيَرُدَّهُمْ عَنْهُ ، وَكَانَتْ الْخَيْلُ إِذَا دَخَلَتْ بَعْضَ الْمَضَاقِ بَيْنَ الْجِبَالِ تَحَايِلُ حَتَّى يَعْلُو الْجَبَلَ وَيُلْحَقَهُمْ فَيَلْقَى عَلَيْهِمُ الْحِجَارَةَ .

ثُمَّ إِنْ صَيَّاحُ ابْنِ الْأَكْوَعِ بَلَغَ مُحَمَّدٌ فَصَرَخَ بِالْمَدِينَةِ : الْفَرَجُ الْفَرَجُ ! فَتَرَامَتْ إِلَيْهِ فَرَسَانِ الْمُسْلِمِينَ سَرِيعاً كَأَنَّهُمْ عَلَى أَجْنَحَةِ الرِّيحِ يَتَسَابِقُونَ لِنَصْرَتِهِ ، فَكَانَ الْمُقَدِّدُ بْنُ الْأَسْوَدِ أَوَّلُ مَنْ انْتَهَى إِلَيْهِ مِنَ الْفَرَسَانِ . فَمَا أَنْ تَجْمَعُ إِلَيْهِ ثَمَانِيَةَ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ وَأَبُو عِيَّاشَ ، حَتَّى أَمَرَ عَلَيْهِمُ سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ وَأَمْرُهُمْ بِالْخُرُوجِ فَوْرًا فِي طَلَبِ الْقَوْمِ حَتَّى يُلْحَقُوا بِهِمْ . وَقَالَ لِأَبِي عِيَّاشَ : يَا أَبَا عِيَّاشَ ، لَوْ أُعْطِيتُ فَرَسَكَ لَرَجُلٍ هُوَ أَفْرَسُ مِنْكَ . فَقَالَ أَبُو عِيَّاشَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَفْرَسُ النَّاسِ . وَأَطَاقَ لِفَرَسِهِ الْعَنَانَ فَمَا جَرَى بِهِ إِلَّا خَمْسِينَ ذِرَاعاً حَتَّى سَقَطَ ، فَأَعْطَى مُحَمَّدٌ فَرَسَهُ لِعَازِ بْنِ مَاعِصٍ . وَتَلَاخَقَتْ الْخَيْلُ تَجَمُّدًا فِي أَثَرِ الْقَوْمِ .

وَتَبِعَهُمْ مُحَمَّدٌ عَلَى رَأْسِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَمَخَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنُ

(١) أَيْ يَوْمَ هَلَاكِ الْقَنَامِ .

أم مكتوم . فإذا بهم يرون في بعض الطريق قتيلاً عليه بُردُ أبي قتادة ، فاسترجع الناس وقالوا : قُتِلَ أبو قتادة . فقال محمد : ليس بأبي قتادة . ولكنه قتيل قتله أبو قتادة ووضع عليه بُردَه لتعرفوا أنه صاحبه . واستطاع الفرسان أن يستنقلوا بعض النياق ، ونزل محمد بالجبل عند ماء يقال له ذو قَرَد ، ولحقه الناس فأقام يوماً وليلة . وذبح لكل مائة بعيراً وشوى له بلال من الكبدة والسنام .

فلما أصبحوا أُرْدِفَ محمد سَلَمَة ورائه على بعيره ووجهوا راجعين إلى المدينة . فلما كان بينهم وبينها قريب من ضَحْوَة ، نادى رجل من الأنصار كان لا يُسَبِّقُ : ألا من مسابق ؟ ألا رجل يُسابق إلى المدينة ، وأعاد ذلك مراراً ، فرد عليه سَلَمَة وهو خلف محمد على بعيره : أما تُكْرِم كريضاً ولا تهاب شريفاً ؟ قال : لا ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال سلمة لمحمد : يا رسول الله بأبي أنت وأُمي خَلَسَني فلأسابق الرجل . قال : إن شئت . فوثب سلمة عن الناقة ثم جرى خلف الرجل فلمحه وضرب بين كتفيه بيده وقال : سبقتك والله . وضحك الرجل وقال : أظن ذلك . وهكذا كانت حياتهم مع محمد ، سهلة طيبة فيها إخاء ومودة .

فلما قدموا المدينة أقبلت على محمد امرأة الرجل الغيفاري الذي كان يرعى النياق وهي على ناقة من نياقه ، وأخبرته كيف حدثت الغارة ، فلما فرغت قالت : يا رسول الله إني قد نذرت الله أن أنحر هذه الناقة إن نجاني الله عليها .

فتبسّم محمد وقال : « بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجّاك بها ثم تنحرينها ، إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا يملكين . إنما هي ناقة من إبلى ، فارجمي إلى أهلك على بركة الله » .

وفي تلك الأثناء أى في أعقاب غزوة الخندق التي ألب فيها يهود خيبر العرب على المسلمين وجعوا لهم هذا الجمع الكبير ابتغاء استنصال شأقتهم ،

لم ينس محمد بطبيعة الحال أنه من الضروري لردع هؤلاء أن يقدم المسلمون على عمل يشعرونهم به أنهم لهم بالمرصاد .

كان سلام بن أبي الحقيق التاجر اليهودي ، فيمن حزّب الأحزاب على محمد ، فجاءت الخزرج تستأذن محمداً في قتله ، ذلك أن الأوس هم الذين قتلوا من قبل كعب بن الأشرف اليهودي ، وكانت الأوس والخزرج تتصاولان تصاول الفحلين ، لا تصنع الأوس شيئاً فيه غناء عن الرسول إلا وقالت الخزرج : والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله . فلا ينتهون حتى يفعلوا مثلها . وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك .

فلما أرادت الخزرج أن تصنع صنيعاً مشابهاً لصنيع الأوس إذ قتلت ابن الأشرف ، تذكروا أبا رافع سلام بن أبي الحقيق ، وكان تاجراً ثرياً مشهوراً بأرض الحجاز يعيش في قصر له في أرض خيبر . فاستأذنوا محمداً في قتله فأذن لهم ، ونهاهم عن أن يقتلوا وليداً أو امرأة . فخرج إليه خمسة رجال من بني سلمة ، فأتوه حتى قاموا على بابه فاستأذنوا ، فخرجت إليهم امرأته فأخبروها أنهم أناس من العرب ياتمسون الميرة ، فأدخلتهم عايه في غرفة بأعلى الدار ، فأغلقوا الباب وابتدروه بسيوفهم فقتلوه .

وفي هذه السنة ، أي السنة السادسة من الهجرة ، كثرت السرايا وكثرت المناوشات . بعث محمد في ربيع الأول سرية على رأسها عكاشة بن محصن في أربعين راكباً ليغير على بني أسد . وكانوا لا يكفون عن التعرض بالإيذاء للمسلمين الذين يمرون بديارهم . غير أنهم علموا بمقدمه فهربوا ، فلم يجد أحداً غير رجل نائم ، فأمنه أيدهم على مواشي القوم ، فدلهم عليها فاستاقوها ، وهي مائة بعير وقفلوا راجعين إلى المدينة لم يتعرض لهم أحد . وفي ربيع الأول بلغه أن جماعة بدى القصة ، وهي موضع على أربعة وعشرين ميلاً من المدينة في طريق الربدة ، يريدون الإغارة على

مواشى المسلمين التى ترعى بالهيفاء قرب المدينة . فأرسل لهم محمد بن مسلمة فى عشرة من المسلمين ، وصلوا ديارهم ليلا . وكان القوم قد علموا بهم فكنوا لهم حتى إذا ما نام المسلمون هجموا عليهم يرمونهم بالسهام ، فوثبوا يريدون أسلحتهم ، إلا أنهم غلبوا فقتلوهم إلا محمد بن مسلمة ، تركوه ظناً منهم أنه قتل . فعاد إلى المدينة وأخبر محمداً خبر أصحابه ، فأرسل إليهم فى ربيع الآخر من نفس السنة أبا عبيدة بن الجراح ليقصص منهم ، فوجدهم قد نشتوا فاستاق مواشيهم .

وفى ربيع الآخر أيضاً أرسل زيد بن حارثة لبنى سليم ، وكانوا من المتحزبين فى غزوة الخندق ليغير عليهم فى الجحوم ، فلما بلغ منازلهم وجدهم قد تفرقوا ، غير أنهم وجدوا امرأة هناك فدلتهم على مواشيهم فاستاقوها وأسرُوا بعض الرجال .

ثم إنه بلغ النبى فى ذلك الحين أن قافلة لقريش أقبلت من الشام ، فأرسل زيد بن حارثة لاعتراضها ، فتمكن منها وأخذها جميعاً وأسر حراسها وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت محمد ، فاستجار بزينب فأجارته ، ورد محمد عليه كل تجارتها لم يفقد منها شيء ، فعاد إلى مكة وأدى لكل ذى حق حقه ، ورجع إلى المدينة فأسلم فرد عليه محمد زوجه كما سبق بيانه .

وفى جمادى الآخرة أرسل محمد زيد بن حارثة أيضاً فى خمسة عشر رجلاً ليغيروا على بنى ثعلبة الذين قاتوا أصحاب محمد بن مسلمة ، فأقدموا عليهم وهم فى الطرف ، وهو ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة فى طريق العراق ، فحبل لهم أنهم طليعة جيش كبير ، ففروا وتركوا مواشيهم فاستاقها المسلمون ورجعوا .

وفى رجب من نفس هذه السنة أيضاً ، أرسل زيد بن حارثة للانتقام من بنى فزارة لتعرضهم له وهو راجع بتجارة من الشام . وفى شعبان أرسل

عبد الرحمن بن عوف في سبعمئة من الصحابة لغزو بني كلب في دومة الجندل ، وقال له إن هم أطاعوا فتزوج بنت ملكهم . فساروا حتى نزلوا بديارهم فدعواهم إلى الإسلام ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع أسلم رئيسهم الإصبع بن عمرو النصراني ، وأسلم معه جمع من قومه ، فتزوج عبد الرحمن ابنته تماضر .

وفي شعبان أيضاً أرسل عليّ بن أبي طالب في مائة من الصحابة لغزو بني سعد بن بكر بفدك ، وهي قرية على بعد ست ليال من المدينة من جهة خيبر . وذلك لأنه باغاه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين في نظير تمر يعطونه من خيبر . وبينما المسلمون في طريقهم أسروا رجلاً من بني بكر كان يريد خيبر ، فطلبوا منه أن يدلهم على مواشي القوم وهو آمن ، فدلم عليها فاستاقوها وهرب الرعاة وحذروا قومهم فنفروا فرعاً وفرقاً . وعاد المسلمون بغنيمتهم الكبيرة ، خمسمئة بعير وألف شاة .

وبلغ أن بني المصطلق يجمعون الجموع لحربه بقيادة الحارث بن أبي ضرار ، فخرج إليهم في سبعمئة من المسلمين ، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة في رواية ، أو أبا ذر الغفاري ، أو نُمَيْلَةَ بن عبد الله الليثي في رواية أخرى . وحمل لواء المهاجرين أبو بكر الصديق ، ولواء الأنصار سعد بن عُبَادَة ، وسار إليهم حتى لقيهم عند ماء يقال له المُرَيْسِيع من ناحية قديد إلى الساحل . فلما دنا منهم أمر عمر بن الخطاب فنَادَى في الناس أن قولوا : لا إله إلا الله ، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم . فأبوا ، فتراموا بالسهم ، ثم أمر محمد رجاله فحملوا حملة شديدة ، فلم يفلت منهم رجل إلا أسر أو قتل . وكان شعار المسلمين يومئذ : يا منصور أُميت أُميت ! قتل منهم عشرة وأسر سائرهم . ولم يقتل من المسلمين غير رجل واحد يقال له هشام بن صبابه ، أصابه رجل من الأنصار وهو يظن أنه من العدو ، فقتله خطأ . وسُيِّتُ نساؤهم وذرايعهم وفيهم جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار . وغنم المسلمون مواشيهم ، فكانت الإبل ألفي بعير ، والشاة خمسة آلاف شاة .

ثم ورد القوم على الماء ومع عمر بن الخطاب أجبر له من غبار يقال له جهنجهاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهنجهاه وسنان بن وبر الجهني حاييف بن عوف بن الخزرج على الماء فتقاتلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار . وصرخ جهنجهاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي ابن سلول فقال : أَوَقَد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ! والله ما أعيدُنا وجلايب (١) قريش هذه إلا كما قال الأول : سَمْنُ كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم .

فسمع زيد بن أرقم هذا القول ، وكان عند عبد الله بن أبي ، فمشى إلى محمد فأخبره وعنده عمر بن الخطاب ، فقال عمر : مُرُّ به عبّاد بن بشر فليقتله . فقال محمد مقالة صِدْق : فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، لا ولكن أذّن بالرحيل . وذلك في ساعة لم يكن يرحل فيها ، فارتحل الناس .

فلما علم عبد الله بن أبي أن زيد بن أرقم أبلغ محمداً مقالته ، مشى إليه فحلف بالله ما قلتُ ما قال ولا تكلمت به . وكان عبد الله في قومه شريفاً . فقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهمَّ في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل . وذلك حديثاً منهم على ابن أبي ودفاعاً عنه .

فلما سار المسلمون لقي أسيد بن حضير محمداً فقال : يا رسول الله ، والله لقد رحلت ساعة لم تكن ترحل في مثلها ؟

فقال : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال : أي صاحب يا رسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبي . قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إل المدينة

(١) جلايب قريش أي المهاجرين وهو لقب أطلق على من أسلموا وماجروا ، لقبهم به مشركو مكة كناية عما كانوا يلتحفون به من أزر غلاط .

أخرج الأعرز منها الأذل^١ . قال أسيد : فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الدليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله ارقى ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه يرى أنك قد استلبته منك^٢ .

ثم مشى محمد بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، واستمر في مسيره حتى أصبح ، وقضى جزءاً من النهار حتى آذتهم الشمس ، ثم توقف فلم يلبث الناس أن وجدوا مساً الأرض حتى وقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان من حديث عهد الله بن أبي . وبعد أن استراح الناس ، استأنف المسير .

ثم إنه نزل في عهد الله بن أبي قوله تعالى : « يقولون لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن^٣ الأعرز منها الأذل والله العزة^٤ ولسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون^٥ » .

عندئذ مشى عبد الله بن عبد الله بن أبي ، وقد اعتقد واعتقد الناس بعد نزول هذه الآية أن محمداً سوف يأمر بقتل عبد الله بن أبي ، ووقف بين يدي محمد فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فرفني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني ، وإنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله ، فأقتل مومنًا بكافر فأدخل النار .

فقال محمد : بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا . ثم إنه استطاع بهذه السياسة المشثلى أن يحمل الخرج أنفسهم ، على ما كان عبد الله بن أبي فيهم من الشرف ، يعاتبونه ويعنفونه هم أنفسهم إذا ما أحدث حدثاً يغضبه . فلما أثمرت هذه السياسة نظر معام المسلمين الأول إلى عمر بن

(١) المنافقون ٨ .

الخطاب وقال : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعى ديت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . فقال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

ثم إن عبد الله بن عبد الله بن أبي تصدى لأبيه لما بلغ المسلمون مشارف المدينة عائدين من غزوتهم هذه عند مضيق المدينة وقال : قِفْ فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك . فلما جاء محمد استأذنه في ذلك فأذن له .

وكانت جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه فيمن أصيب يومئذ من السبايا . فلما قسم السبايا على أصحابه وقعت جُويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس بن شماس قالت عائشة : « فكاتبته (١) جويرية على نفسها ، وكانت امرأة حلوة حسنة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه . فأنت رسول الله اتستعينه في كتابتها . فوالله ما هو إلا أن رأيها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت . فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله ، أنا جُويرية بنت الحارث بن ضرار سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقت في سهم ثابت بن قيس ، فكاتبته على نفسي فجئتلك أستعينك على كتابتي . قال رسول الله : فهل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أقضى عنك كتابك وأتزوجك ، قالت : نعم يا رسول الله قد فعلت . وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله قد تزوج جويرية بنت الحارث فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأطلقوا السبايا التي بأيديهم فأعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها » .

وكانت عائشة بصحبة محمد في هذه الغزوة ، ذلك أنه كان إذا أراد السفر أقرع بن نسائه فأيتين يخرج سهمها خرج بها معه ، فخرج سهم عائشة

(١) كاتب العبد على نفسه : كتب مع أسره كتابا اتفق فيه على ثمنه فإذا دفعه صار حرا .

في هذه الغزوة . غير أنها تخافت في بعض الطريق وعاد الجيش كله ما عدا عائشة ، إذ وُجدَ هودجها خالياً لا أحد به . ثم إنها وصلت في اليوم التالي وراها الناس وهي تدخل عليهم المدينة على بعير صفوان بن المَعطَّل ، وكان فتى جميلاً مكتمل الرجولية . فلما رأى المنافقون وذوو النفوس الضعيفة عائشة تدخل عليهم المدينة في وضوح النهار مع صفوان وقد تخلّفت عن الركب ليلة كاملة ، أرجفوا بحديث الإفك والسوء ، وكان جديراً بهم أن يترفقوا بها وبنيهم ، ويتحققوا من سبب تخلفها قبل أن تنطلق ألسنتهم بالإفك الذي انطلقت به ، ولكنها النفس الإنسانية إذا ضعفت وتحقرت وانزاحت إلى دركات الضياع ، أمعنت في الآخرين هدماً وتخريباً لإرضاء لزعائهم الخسيسة . عجب وأي عجب ألا يفلت من برائن مثل هذه النفوس رجل كـ محمد وزوجه .

ونحن على أية حال لسنا جديرين باتخاذ موقف الدفاع عن عائشة طالما أن الله سبحانه وتعالى تكرم عاينها وعلى نبيه وأنزل آيات بينات تقطع ألسنة السوء وتؤكد براءتها . وفي هذا الكفاية كل الكفاية ، وإليك القصة كما روتها عائشة . قالت :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فلما كان غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه ، كما كان يصنع ، فخرج سهمي عليهن معه ، فخرج بي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان النساء إذ ذاك يأكلن العساق^(١) لم يهجن اللحم فيثقلن ، وكنت إذا رُحِّل^(٢) لي بعيري جلست في هودجي ، ثم يأتي القوم الذين كانوا يُرحَّلون لي فيحملونني ويأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه ويضعونه على ظهر البعير فيشددونه بحباله ، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به .

(١) العلق : جمع علقة ، وهي كل ما يبلغ به ، أي كل ما يكتفى به .

(٢) رحل البعير : أعد عليه الهودج .

فلما فرَّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سقره ذلك وجهه قافلاً ،
حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل ، ثم أذن مؤذناً
في الناس بالرحيل ، فارتحل الناس ، وخرجت لبعض حاجتي وفي عنقي
عقدلي فيه جزع ظفار^(١) فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري ، فلما رجعت
إلى الرجل ذهبت ألتسه في عنقي فلم أجده ، وقد أخذ الناس في الرحيل ،
فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه ألتسه حتى وجدته ، وجاء القوم خلافي
الذين كانوا يعدون لي البعير ، وقد كانوا فرغوا من إعداده ، فأخذوا الهودج
وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدهوه على البعير ولم يشكروا
أني فيه ، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به .

فرجعت إلى العسكر وما فيه داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس . فتكلمت
بجلباني ثم اضطجعت في مكاني ، وعرفت أن لو افتتقت لرجع الناس إلى .
فوالله إني لمضطجعة إذ مرَّ بي صفوان بن المعطل السلمي ، وكان قد تخلف عن
العسكر لبعض حاجاته فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف
عليّ ، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب ، فلما رآني قال :
إنا لله وإنا إليه راجعون ! طعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأنا متاففة
في ثيابي . قال : ما تخلفك يرحمك الله ؟ فالكلمته . ثم قرب إلى البعير
فقال : اركبي . واستأخر عني .

فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس ، فوالله
ما أدركنا الناس وما افتتقت حتى أصبحت ، ونزل الناس فلما اطمأنوا
طلع الرجل يقودني ، فقال أهل الإفك ما قالوا ، وارتج العسكر ، ووالله
ما أعلم بشيء من ذلك .

ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن مرضت مرضاً شديداً ، ولم يبلغني من ذلك
شيء . وقد انتهت حديث الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى

(١) الجزع : الخرز ، وظفار مدنية باليمن .

أَبَوَيْ ، لا يذكرن لي منه قليلاً ولا كثيراً ، إلا أني قد أنكرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض لطفه بي . فقد كنت إذا اشتكيت مرضاً رحمي ولطف بي ، فلم يفعل ذلك بي في شكواي هذه ، فأنكرت ذلك منه ، وكان إذا دخل عليّ وعندي أمي تمرّضني قال : كيف تبيكم ؟ لا يزيد علي ذلك .

وظل الحال كذلك حتى حزنت فقلت حين رأيت ما رأيت من جفائه لي : يا رسول الله ، لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فرضتني . قال : لا عليك . فانتقلت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان ، حتى نقيت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة ، وكنت أقوماً عَرَباً لا نتخذ في بيوتنا هذه الكُنُف (١) التي تتخذها الأعاجم نعافها ونكرها ، إنما نخرج في فُسْح المدينة ، وإنما كانت النساء يخرجن في كل ليلة في حوائجهن ، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعى أم مِسْطَح ابنة أبي رُهم بن المطلب ، فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها (جبابها) فقالت : تعيس مِسْطَح . ومِسْطَح لقب واسمه عوف . فقالت : بشئ لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين وقد شهد بدرأ . قالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر ؟ قلت : وما الخبر ؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك . قلت : أو قد كان هذا ؟ قالت : نعم . والله لقد كان . فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي ، ورجعت ، فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصّدع كبدي ، وقات لأمي : يغفر الله لك ! تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً ؟ قالت : أي بنية خفي عليك الشأن فوالله لتقل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها .

وكان رسول الله قد قام فخطب الناس ولا علم لي بذلك . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون

(١) جمع كنيف .

عليهم غير الحق ، والله ما علمتُ عايمهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل
والله ما علمت منه إلا خيراً ، ولا يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معي .

وكان كبيرُ ذلك عند عبد الله بن أبيّ بن سَلُول في رجال من الخزرج مع
الذي قال مِسْطَح وحنة بنت جَحْش ، وذلك أن أختها زينب بنت جحش
كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصبنى
في المنزل عنده غيرها . فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً ،
وأما حنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تُضَارِّئى لأختها فشقيت بذلك .

فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك المقال ، قال أسيد بن
حُصَيْر : يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم ، وإن يكونوا من
إخواننا الخزرج فرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تُضْرَب أعناقهم .

فقام سعد بن عُبادة ، وكان قبل ذلك يُرى رجلاً صالحاً فقال : كذبت
لعمر الله ما تُضْرَب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت
أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . فقال أسيد بن
حُصَيْر : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .

وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس
والخزرج شر .

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على فدعا على بن أبي طالب
وأساءة بن زيد فاستشارهما ، فأما أساءة فأثنى خيراً ، ثم قال : يا رسول الله
أهلك وما تعلم منهم إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل . وأما على فإنه قال :
يا رسول الله إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية
فإنها تصدقك . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بُرَيْرَةَ يسألها فقام إليها
على فضربها ضرباً شديداً ويقول : اصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قالت : والله ما أعلم إلا خيراً ، وما كنت أعيب على عائشة إلا أنى كنت
أعجن عجبني فأمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكاه .

ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو أي وعنده امرأة بن الأنصار ، وأنا أبكي وهي تبكي ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا عائشة، إنه قد كان ما بك لك من قول الناس ، فأتى الله ، وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده . فوالله إن هو إلا أن قال لي ذلك فارتفع دمعى حتى ما أحس منه شيئاً ، وانتظرت أبو أي يجيبان عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يتكلموا .

وأيم الله لانا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأننا من أن ينزل الله فى قرآننا يقرأ به ويصلى به ، ولكنى كنت أرجو أن يرى النبى صلى الله عليه وسلم فى نومه شيئاً يكذب الله به عنى لما يعلم من براعتى ويخبر خبراً ، وأما قرآن ينزل فى فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك . فلما لم أزل أبوى يتكلمان قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالا : والله ما ندرى بما نجيبه . والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام . فلما استعجما على استعبرت فبكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله بما ذكرت أبداً ، والله لئن أعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أنى منه بريئة لأقولن ما لم يكن ، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونى . ثم التمت اسم يعقوب أذكره فقلت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف « فصر جميل والله المستعان على ما تصفون » . فوالله ما برح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فسجى بثوبه ووضعت وسادة من آدم (جلد) تحت رأسه ، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فرغت وما باليت ، قد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى . وأما أبو أي فوالذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخترجن أنفسهما فرقاً من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس .

ثم سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاس وإنه ليتحدّر من

وجبه مثل الجُمَمان (اللؤلؤ) في يوم شات ، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : أبشرى يا عائشة ، قد أنزل الله عز وجل براءتك . قلت : الحمد لله .

ثم خرج إلى الناس فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » (١) . إلى قوله تعالى « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٢) .

ثم إنه نزلت بهذه المناسبة أيضاً عقوبة رمى المحصنات : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » (٣) .

وبعد أن انتهى محمد من خطابه في الناس وأسمعهم القرآن ، أمر بمسطح بن أثاثه ، وحسان بن ثابت ، وحنمة بنت جحش ، وهم الذين أفصحوا بالفاحشة فضرب كل منهم ثمانين جلدة ،

وقال قائل من المسلمين في ضربهم :

لقد ذاق حسان الذي كان أهله وحنمة إذ قالوا هجيراً ومسطح (٤)
تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم وسنطة ذي العرش الكريم فأترحوا (٥)

(١) الدور ١١ . (٢) النور ١٦ - ١٩ .

(٣) الدور ٤ . (٤) الهجير : فاحش القول .

(٥) أترحوا : أحزوا ، من الترح .

وَأَذُوا رَسُولَ اللَّهِ فِيهَا فَعُجِّلُوا تَخَازَى تَبْقَى تُحْمَسُهَا وَفُصِّحُوا
وَصُبَّتْ عَلَيْهِمْ مُخَصَّدَاتُ كَأَنَّهُا شَأْيِبُ قَطْرِ فِي ذُرَا الْمَزْنِ تَسْفَحُ
ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ عَفَا بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الَّذِينَ أَرَجَفُوا بِحَدِيثِ الْإِفْكِ . وَاسْتَرَدَّ
حَسَانَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَهُ ، وَعَادَتْ عَائِشَةُ إِلَى مَكَانَتِهَا الَّتِي كَانَتْ تَنْزِلُهَا مِنْ قَلْبِهِ
الْكَبِيرِ ، وَجَرَتْ الْحَيَاةُ فِي مَجَارِيهَا كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلُ وَكَأَنَّ شَيْئاً لَمْ يَحْدُثْ .
وَاعْتَلَزَّ حَسَانَ مِمَّا قَالَ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ بِأَيَّاتٍ مِنْهَا :

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمْ فَلَا رَفْعَ سَوْطِي إِلَى أَنَا إِلَى
فَكَيْفَ وَوُدُّي مَا حَيِّتْ . وَنَصَرْتِي لَأَلَّ رَسُولَ اللَّهِ زَيْنَ الْمُحْسَنِ
وَإِنْ لَهُمْ عَزَا تَرَى النَّاسَ دُونَهُ قَصَاراً وَطَالَ الْعِزُّ كُلَّ التَّطَاوُلِ
وَفِي شَوَالٍ أَرْسَلَ مُحَمَّدُ كُرْزُ بْنُ جَابِرٍ الْفَيْهَرِيُّ إِلَى ذَلِكَ الرَّهْطِ مِنْ
مِنْ عُكْلٍ وَعُورَيْسَةَ الَّذِينَ قَتَلُوا رَاعِيَهُ وَاسْتَأَقُوا لِإِبْلِهِ . وَقِصَّةُ ذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً
مِنْ عُكْلٍ وَعُورَيْسَةَ أَتَوْا وَأَسْلَمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ اشْتَكَوْا إِلَيْهِ مِنْ أَنَّهُمْ
أَنَاسُ أَهْلِ ضَرْعٍ وَلَيْسُوا أَهْلَ رَيْفٍ فَأَضْرَمَهُمْ هَوَاءُ الْمَدِينَةِ . وَكَانُوا سَقَاماً
مُصْفَرَّةً أَلْوَانُهُمْ عَظِيمَةً بَطُونَهُمْ . فَأَمَرَ لَهُمْ بِقَطْعِ صَغِيرٍ مِنَ الْإِبْلِ وَرَاعٍ ،
وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فِيهِ فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِ الْإِبْلِ وَأَبْوَاهَا . فَلَمَّا بَعَدُوا عَنْ
الْمَدِينَةِ بَعْضَ الشَّيْءِ قَتَلُوا الرَّاعِيَّ وَاسْتَأَقُوا الْإِبْلَ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ .
فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ كُرْزُ بْنُ جَابِرٍ فِي عَشْرِينَ فَارِساً فَقَبَضُوا عَلَيْهِمْ وَرَدُّوهُمْ إِلَى
الْمَدِينَةِ . فَأَمَرَ بِمَسَامِيرٍ فَأَحْمِيَتْ فَكُوَاهُمْ وَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَفَقَّأَ أَعْيُنَهُمْ
وَأَلْقَاهُمْ فِي الْحَرَّةِ حَيْثُ قَتَلُوا الرَّاعِيَّ ، حَتَّى مَاتُوا . أَمَّا أَنَّهُ فَقَّأَ أَعْيُنَهُمْ فَلَأَنَّهُمْ
فَقَّأُوا عَيْنِي الرَّاعِيَّ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ .

(١) الْمَوْجِدُ : السَّيْفُ الْعَظِيمُ الشَّدِيدُ الْقُوَّةِ وَالشَّدِيدُ يَجْمَعُ شَوْبُوبَ وَهُوَ الدَّوْمَةُ مِنَ الْمَصْرِ .
وَالْمَزْنُ : السَّحَابُ .

الفصل السادس عشر

غزوة الحُدَيْبِيَّة

لا مُشاحة في أن حجَّ البيت الحرام ركن أساسي من أركان الدين الإسلامي . بل هو ركنه الركين ، والحق أن المسلمين لم يفرطوا في التمسك بهذا المبدأ من أول عهدهم بالإسلام ، ولم يتصوروا في أى وقت من أوقات كفاحهم أن الدين الإسلامي يمكن أن يتأسس ويستقر له قرار بدون الكعبة بيت أبيهم إبراهيم . غير أن مشركى قريش وقفوا للمسلمين بالمرصاد يمنعونهم من اتخاذ الكعبة بيتاً لعبادتهم ، متصورين أن في سماحهم للمسلمين بهذا الأمر اعتداء على حقوق آلهتهم وأصنامهم .

ولكن ما بال المسلمين وقد انقضى الآن ست سنين على هجرتهم من مكة ، لا يتخذون خطوة إيجابية في سبيل تحقيق هدف الدين الأسمى وهو الحج إلى بيت الله الحرام ؟ .

لم يقصّر المسلمون في الحقيقة في التفكير في هذا الواجب المقدس ، وإنما كانت تشغلهم أحداث خطيرة مرت بهم في تلك الفترة السابقة ، هي التي أخرتهم حتى الآن عن المطالبة بهذا الحق ، أى حقهم في الحج إلى البيت الحرام ، وعاقبتهم عن العمل الإيجابى لبلوغ هذا الهدف . ثم إن المسلمين فضلا عن تلك المشاغل الخطيرة التي انشغلوا بها ، وتلك الأحداث القاسية التي مرت بهم ، لم يكونوا في موقف القوة الذى يسمح لهم بالمطالبة بهذا الحق والدفاع عنه .

كان اتخاذ الكعبة قبلة من أهم الأمور التي وجه الله أذهان المسلمين إليها بعد هجرتهم من مكة إلى المدينة ، حتى يظلوا دائماً متطلعين إليها ، وحتى لا يُنسبهم بُعدهم عنها واجبههم المقدس لإزاءها . فقد نزلت في غضون

السنة الثانية من الهجرة الآية الكريمة: « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره »^(١) . وفى هذا تأكيد للمسلمين من ربهم بأن الكعبة مطلب من مطالب الدين الذى لا بد أن يحققوه ، وأنها القبلة التى لا بد للمسلمين من أن يتخذوها على مدى الأعصر والأزمان طالما كان هناك مسلمون على الأرض يقيمون شعائر الإسلام .

ولقد خاطب القرآن الكريم المسلمين فى مواضع متفرقة منه وذكرهم بفضل البيت العتيق وبواجبهم نحوه .

« ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام »^(٢) .

« ولا يجزئكم شأن قوم أن صدكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا »^(٣) .
« وما لهم ألا يعدبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون »^(٤) . ثم آية الحج :
« إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين »^(٥) .

انقضى الآن ست سنين أو نحو ذلك على خروج محمد وأصحابه مهاجرين من مكة ، وأصبحت الظروف فى ذلك الوقت تشير إلى أن المسلمين أصبحوا فى وضع حسن جداً يؤهلهم لاتخاذ خطوة جادة فى سبيل المطالبة بهذا الحق . فأولاً ، بينت الأحداث السابقة أن قريشاً لم تعد تقدم على المسامحة بتلك الجسارة التى سيطرت عليها فى أوائل الصراع المسلح . ولم تعد تتماكبها هذه الرغبة الجارحة فى الانتقام من محمد والمسلمين كسابق عهدها . وهذا الموقف

(١) ١٢٩٠ ر .

(١) المزمرة ١٤٤ .

(٢) أنفال ٣٤

(٣) المائدة ٢

(٥) آل عمران ٩٦ - ٩٧ .

لم يحدث فجأة ، وإنما حدث نتيجة لمقدمات أدت إليه . فقد انتصر المسلمون على قريش انتصاراً حاسماً في بدر . ثم انتصروا عليهم مرة أخرى في أحد في أول النهار . وتعلم قريش جيد العالم أنها لم تنتصر بعد ذلك على المسلمين إلا لأنهم أتوا فعلة خرقاء هي التي أدت إلى هزيمتهم . ولذلك فنحن لا نعجب أن نرى قريشاً وقد تراجعت عن لقاء المسلمين في الموعد الذي ضربه أبو سفيان للقاء في بدر العام التالي لأحد . ثم لأنهم خرجوا للمسلمين في أكبر جمع من العرب في غزوة الأحزاب ، وكانوا يظنون أنهم سيستأصلون محمداً والإسلام . فارتدوا عن المدينة خائبين فرعين هارين مذعورين في ليلة عاصفة شاتية هوجاء . بعد ذلك حدثت مذبحة بني قريظة فأفزعت اليهود والعرب أجمعين . ثم خرجت جيوش المسلمين وسرايا استطلاعهم ، طوال السنة السادسة من الهجرة تؤدب العرب في طول الحجاز وعرضه ، بل نراها قبل ذلك قد تجاوزت الحجاز إلى دومة الجندل على مشارف الشام . وكل هذا يبين بجلاء أن قريشاً لم تعد الآن في مركز القوة الذي يسمح لها بأن تتعنت تحتها السابق مع المسلمين ، كما يبين من ناحية أخرى أن المسلمين هم الذين أصبحوا في المركز الأفضل ، وأنه قد آت الأوان وتبأ الجو الصالح تماماً لهذه الخطوة التي كان لا بد للمسلمين من أن يتخذوها ويسيروا إلى مكة لحج البيت الحرام وأداء ركن ركين من أركان الدين .

خرج النبي في ذي القعدة على رأس ألف وأربعمائة من أصحابه معتمراً لا يريد حرباً . وخرجت معه في هذه السفرة من أزواجه أم سلمة ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم في رواية ، أو نميلة بن عبد الله اللثبي في أخرى . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ، فخرج معه قليل منهم وتخلف معظمهم . وكان يرمى من ذلك إلى تأكيد عزمه على الخروج حاجاً لا غازياً ولا متعرضاً لأحد بحرب . فسار بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب ، ليس معهم من

السلاح غير سيوفهم وسهامهم ، وساق معه الهدى (وهى المواشى الذبيحة المهداة إلى الحرم) . فلما أتى ذا الحليفة أحرم بالعمرة ليعرف الناس أنه خرج زائراً للبيت ومعظماً له ، وألبس الهدى الشعار الدال على أنه هدى تمييزاً له ، وبعث عيناً له من خزاعة يتجسس له الأخبار ، وكانت خزاعة موضع سره من أهل تهامة . فأتاه عينه وهو بغدير الأشطاط وأخبره بأن قريشاً جمعت له الجموع ، وأنهم سوف يقاتلونه ويصدونه عن البيت ويمنعونه .

قال لأصحابه : أشيروا أيها الناس على ، أترون أن أميل إلى عيالم وذرائى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن يأتونا كان الله قد قطع عيناً من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين (أى سلبوا ذرائعهم) .

قال أبو بكر : يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه . قال : امضوا على اسم الله . ولما علم محمد بخروج خالد بن الوليد على رأس مائتى فارس من فرسان مكة للقائه ومنعه من التقدم صوب مكة قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ فتقدم له رجل من أسلم ، فسلك بهم طريقاً وعراً كثير الحجارة بين الشعاب ، فاجتازه المسلمون بصعوبة ومشقة . حتى خرجوا إلى سهل مستو فاتجهوا ذات اليمين فى طريق يؤدى إلى ثنية المزار مهبط الحديدية من أسفل مكة . ولما رأى خالد بن الوليد ما صنع المسلمون قاد فرسانه راجعين إلى مكة .

ولما باغ المسلمون الحديدية بركت القصواء . ناقة محمد ، فظن الناس أنها حرنت وبركت بدون سبب ، فقال محمد : ما حرنت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش اليوم إلى نخطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . ثم أمر الناس بالنزول . فتقيل له : يا رسول الله ما بالوادی ماء ينزل عليه . فأخرج سهماً من كنانته

فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل به في بئر من تلك الآبار التي كانت هناك وغرزه فيه فظهر الماء .

وبينما هم كذلك جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه خزاعة وكانوا موضع سره في تهامة كما قلنا ، مشركهم ومسلمهم لا يخفون عليه شيئاً كان بمكة . وأخبروه أن قريشاً قد خرجت له ، معهم النساء والأطفال ، وأنهم مانعوه وصادوه عن مكة .

فقال : إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكننا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فإن شاعوا هادنتهم مدة ، ويخلوا بيني وبين الناس ، فإن أنتصر وشاعوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد استراحوا ، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي (أي حتى يضرب عنتي) ولينفذن أمر الله .

ثم إن بديل بن ورقاء رجع إلى قريش وبلغهم أن محمداً لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً للبيت معظماً له . فاتهموه وأتهموا من كانوا معه وأغلظوا لهم القول حتى نكسوا جباههم وطأطأوا رؤوسهم ، ثم قالوا لهم : وإن جاء ولا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة ولا تحدث بذلك عنا العرب .

ثم بعثت قريش إليه عدة رسل آمين أن يردوه عنهم بالحسنى أو يحصلوا منه على شروط تحفظ لهم ماء وجههم أمام العرب . فبعثوا له الحليس بن علقمة سيد الأحابيش ، وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه محمد مقبلاً ، وكان يعرف أنه ممن يغالون في تعبدهم قال : إن هذا من قوم يتألهون (يتنسكون ويتعبدون) فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه . فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي رجع إلى قريش ولم يصل إلى محمد إعظاماً لما رأى ، وأخبرهم بما كان من أمره . فقالوا له : اجلس فلنما أنت أعرابي لا عالم لك .

فغضب وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالناكم ولا على هذا عاهدناكم ، أيبصد عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ والذي نفس الحليس

بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أولاً نفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .
قالوا : مه ! كف حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

ثم إنهم كلموا بعد ذلك عروة بن مسعود الثقفي أن يذهب إلى محمد
يفاوضه ، فقال : يا معشر قريش إني قد رأيت ما يأتي منكم من بعثتموه إلى
محمد إذ جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد
(وكان عروة ابن سبيعة بنت عبد شمس) وقد سمعت بالذى نابكم فجاءت
من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى . قالوا : صدقت ما أنت
عندنا بمتهم .

فخرج عروة حتى أتى محمداً وجلس بين يديه ، فقال له مثل
ما قال لبديل . فقال عروة : يا محمد أبجعت أوشاب الناس (أى خليطاً
متفرقاً من الناس) ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ إنها قريش قد
خرجت معها العوذ المطافيل^(١) ، وقد ابسوا جلود النور ، يعاهدون الله
ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، وأيم الله لكأنى بهؤلاء (أى أصحاب محمد)
قد انكشفوا عنك غداً .

وهنا انفعل أبو بكر وقال : امصص بظر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه ؟
قال عروة : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذى نفسى بيده لولا
يد كانت لك عندى لم أجرك بها لأجبتك .

وكان عروة إذا حدث محمداً تناول لحيته ، والمغيرة بن شعبة واقف
على رأسه في حديد الحرب . وقد أغاظه ما يفعل عروة ، فكان كلما تناول
لحية محمد يقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم
ألا تصل إليك . فيقول عروة : ويحك ما أفضلك وأغلظك ! .

(١) العوذ المطافيل هى النياق دوات اللبر ومهما أولادها . وهذا كناية عن انساء معها
الأطفال .

فتبسم محمد ، فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبه . قال : أى غدر^(١) ! وهل غسلت سوائلك إلا بالأمس ؟ ثم إن محمداً لم يزد شيئاً فى حديثه مع عروة عما كلم به من سبقه من رسل قريش إليه ، وأكد له أنه لم يأت يريد حرباً . فقام من عنده ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، لا يتوضأ إلا تزاموا على وضوئه يحملونه إليه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقىصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه ! ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم .

وطالت المباحثات وطال الأخذ والرد . فبعث محمد خراش بن أمية الخزاعى إلى قريش وحمله إلى مكة على بعير له يقال له الثعلب ، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، ويحاول إقناعهم ، غير أنهم عقروا الحمل وأرادوا قتل المبعوث ، فنعهم الأحابيش وخلوا سبيله .

وكانت قريش قد بعثت نحواً من أربعين أو خمسين رجلاً منهم ، وأمروهم أن يطيّفوا بعسكر المسلمين ، وليأسروا لهم أحداً من أصحابه ، فأخذهم المسلمون أخذاً وأسروهم ، لم ينبج منهم غير رجل واحد . فلما أتوا بهم إلى محمد عفا عنهم وخلق سيبلهم ، مع العلم أنهم كانوا رموا فى عسكره بالحجارة والسهام . ومما لاشك فيه أن هذا التصرف الحكيم دليل على رغبته الأكيدة فى مسالمة قريش ، وفيه إفصاح تام عما عقد عليه العزم من المهادنة فى سبيل أداء هذا الواجب الدينى . وهو إذ فعل ذلك أضعف مركز قريش كثيراً عند حلفائها وعند العرب أجمعين ، وأبطل حجتها فى استخدام القوة إذا ما فكرت فى استخدامها .

(١) وكذا المغيرة قد صحب قوماً فى الجاهلية فندبهم ، أحداً له لم ثم أحد ، فقال له النبى . أما لإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء .

ثم إنه عمد تأكيداً لموقفه هذا إلى أن يرسل لقريش واحداً من كبار صحابته القرشيين ، فاستدعى عمر بن الخطاب ليقوم بهذه المهمة . فقال عمر : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدى أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان بن عفان .

فبعث النبي عثمان بن عفان إلى أبي سفيان وأشراف قريش يؤكد لهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء لهذا البيت معظماً لحرمة حاجاً .

فخرج عثمان إلى مكة فلقىه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى يبلغ رسالة محمد ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن محمد ما أرسله إليهم به ، فقالوا لعثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وطالت المفاوضات وطال احتباس قريش لعثمان عندها ، فبلغ المسلمين أنهم قتلوه . فقال عندئذ محمد : لا نبرح حتى نقاتل القوم .

وجمع الناس ودعاهم إلى البيعة فبايعوه تحت شجرة هناك سميت بعد ذلك بشجرة الرضوان . ويقال إن البيعة كانت على الموت في رواية ، وعلى ألا يغروا في رواية أخرى . ولم يتخلف عن البيعة غير رجل واحد هو الجعد بن قيس أخو بني سلمة . وقد أخبرنا جابر بن عبد الله أنه رآه يومذاك لاصتاً بإبط ناقته يستتر بها من الناس . وكان أبو سنان الأسدي أول من بايع الرسول بيعة الرضوان . وفي هذه البيعة نزل قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » (١) .

أما النتيجة التي أدت إليها بيعة الرضوان ، فهي إفهام قريش بطريقة

لا لبس فيها أن المسامحين سوف لا يتراجعون ، وأنهم لا بد حاصلون من قریش على ما يريدون وإلا فلا سبيل غير السيف . ومن ثمه سارع فريس إلى إرسال مبعوث لإجراء صلح مع محمد يكون فيه حفظ لكرامة قریش ، فاختارت قریش سهيل بن عمرو وبهشته لمحمد وقالوا له : ائت محمداً وصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا نتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً .

وعاد عثمان بن عفان بعد أن مهد للصالح . ونحن نعلم أن محمداً كان قد قال : لا تدعوني قریش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . إذن فما لا شك فيه أن عثمان بن عفان كان مزوداً بتفويض من محمد يسمح له بكثير من حرية المفاوضة على أساس يكون فيه حفظ لماء وجه قریش ، وصيانة لحق المسلمين في الحج إلى بيت الله الحرام . ومما لا نزاع فيه أن كلا الطرفين كان حريصاً أشد الحرص على عدم إشعال نار الحرب في الأشهر الحرم ، إلا إذا اضطرت الظروف اضطراباً إلى ذلك . ولكن تدلنا جميع الملابسات على أن كلا الطرفين كان مستعداً لتقديم تنازلات للطرف الآخر .

ثم إن سهيل بن عمرو خرج يريد محمداً . فلما رآه محمد مقبلاً أيقن أن قریشاً قد أرادت الصالح وقال : لقد سهل لكم من أمركم . وانتهى سهيل إلى محمد وطال الحديث بينهما . واتفقا أخيراً حول عدة نقاط . منها أن يرجع المسلمون عامهم هذا ثم يأتون العام القادم ، وأن من جاء إلى المسامحين من قریش مسامحاً يردونه . ومن جاء إلى قریش من المسامحين مرتدلاً لا يردونه . وكان المسلمون لا يشكون في الفتح وفي أنهم سوف يطوفون حول الكعبة ويقومون بشعائر الحج . وذلك لرويا رآها النبي وأخبرهم بها قبل مجيئهم من المدينة . فلما رأوا ما رأوا وسمعوا ما سمعوا تحيروا من أمرهم وداخلتهم الشكوك . حتى لقد وثب عمر بن الخطاب فزعاً مرتاعاً فأتى أبا بكر فقال :

يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال عمر : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر الزم أمره ولا تخالفه فإنني أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم إن عمر بن الخطاب لم يمتنع بهذا فأتى محمداً فقال : يا رسول الله أأنت برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : أنا عهد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني .

وكان عمر يقول بعد ذلك : ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمته ، حتى رجوت أن يكون خيراً .

ثم دعا محمد بن أبي طالب فقال : اكتب : باسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم . فقال محمد : اكتب باسمك اللهم . فكتبها . ثم قال اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال محمد : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ثم كتب ما تصالحا عليه وهو أولاً : وضع الحرب بين قريش والمسلمين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض . وثانياً : أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه . وثالثاً : أن يرجع محمد من غير عمرة عامه هذا ، ثم يأتي العام المقبل فيدخل مكة هو وأصحابه بعد أن يخرج منها قريش ثلاثة أيام ، ليس معهم من السلاح غير السيوف في القراب والأقواس . ورابعاً : أن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

ولقد دخلت خزاعة في عقد محمد وعهده . ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم . وتم الصلح . ولكن المسلمين لم يرتاحوا له كل الراحة وظلوا في حيرة من أمرهم بعض الوقت غير قادرين تماماً على استيعاب ما حدث ، إذ أن في عودتهم من غير أن يطوفوا بالبيت إخلالاً للرؤيا التي حدثهم عنها نبيهم في المدينة ، ولكن الحقيقة أن محمداً لم يحدثهم أنه رأى في رؤياه أنهم داخلون مكة عامهم هذا ، وإنما رأى أنهم داخلون مكة فحسب ، فأقنعهم بهذا التفسير ، وإن ظلوا ذاهلين غاضبين غير مرتاحة أنفسهم ، وأذهانهم لا يزال يترد فيها : أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ وبينما هم يكتبون كتاب هذه الهدنة إذ أقبل عليهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيد من حديد كان أبوه قد وضعه فيه خشية أن يفلت إلى المسلمين . فلما رأى سهيل ولده مقدماً قام وأخذ بتلايبه وضربه على وجهه . وقال : يا محمد قد لحت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت . فجعل سهيل ينتر أبا جندل بتلايبه ويجره ليرده إلى قريش ، وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أريد إلى المشركين يفتنونني عن ديني . فكان هذا أيضاً مما زاد من ألم الناس وحيرتهم .

فقال محمد : « يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » .

أما عمر بن الخطاب فوثب إلى أبي جندل يمشي إلى جنبه وهو يقول : اصبر أبا جندل . ثم إنه كان يذني قائم السيف منه لعله يأخذ السيف فيضرب أباه ، ولكنه لم يفعل . فكان عمر يقول : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه فضن الرجل بأبيه ونفذت القضية .

فلما فرغ من كتابة عهد الهدنة أمر محمد المسلمين أن يقوموا فينحروا الهدى ثم يخلقوا . فلم يقم منهم أحد حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم

منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس ، وقال : هلك
المسلمون ، أمرتهم فلم يمثلوا . فقالت : يا رسول الله اعذرهم فقد حلت
نفسك أمراً عظيماً في الصلح ، ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك
مكرويون ، ولكن اخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد فإذا رأوك
فعلت اتباعوك .

فخرج لم يكلم أحداً فنحر هديه ودعا حالقه فحلقه . فما أن رآه المسلمون
يفعل حتى توابوا على الهدى فنحروه وحاقوا وهم في غم أشد من غمهم
السابق لأنهم تأخروا عن طاعته .

وعاد المسلمون إلى المدينة بعد أن اطمأنت قلوبهم إلى حكمة محمد
وإلى أن ربه سوف لا يخذله ، وأنهم سوف يحضرون العام القادم ويطوفون
البيت الحرام في أمن واطمئنان . وزاد اطمئنانهم وأدخل السكينة على قلوبهم
نزول سورة الفتح وهم في طريق عودتهم إلى المدينة : « إنا فتحنا لك فتحاً
مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك
صراطاً مستقيماً »^(١) . ثم إن مهاجرة جاءتهم هي أم كلثوم بنت عقبة بن
أبي معيط أخت عثمان بن عفان لأمه ، فطلب المشركون ردها عليهم ،
فأنزل الله في سورة الممتحنة قوله :

« يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم
بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم
ولا هم يحلون لهن وآبوهن ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا
آتينكم أبجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر وسألوا ما أنفقتم وليسألوا
ما أنفقوا ذاكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم »^(٢) .

عندئذ لم يعد مفر من استبقاء القرشيات إذا هاجرن وهن لا يبغي من
هجرتهن شيئاً غير الإسلام . فكانت المرأة المهاجرة تستحلف أنها ما خرجت

رغبة بأرض عن أرض ولا من بغض زوج ولا لانتقام دنيا ولا لرجل من المسلمين ، وما خرجت إلا حبا لله ولرسوله . ومتى حلفت بذلك فلنمها لا ترد ، ويعطى لزوجها المشرك ما أنفق عليه ، وبعد ذلك يجوز تزويجها لمسلم .

وفي أعقاب عودة المسلمين إلى المدينة فر أيضاً رجل مسلم من قريش هو أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي ، فأرسلت قريش إلى النبي رجلين في طلبه فأتياه فقالا : العهد الذي جعلت لنا . فدفعه إلى الرجلين وأمره بالرجوع معهما فقال أبو بصير : يا رسول الله أتردني إلى الكفار يفتنونني عن ديني بعد أن خلصني الله منهم ؟ فقال : إن الله جاعل لك ولإخوانك مخرجاً . فلم يجد الرجل بداً من الإذعان والسير مع الرجلين . فلما بلغا ذا الحليفة نزلوا يأكلون من تمر كان معهم . فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً . فاستله الآخر فقال : أجل والله إنه لجيد ولقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه . فلما أمكنه منه ضربه حتى قتله وفر الآخر . ورجع أبو بصير إلى المدينة فقال لمحمد : يا نبي الله قد أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم . فقال النبي : ويل أمه ! مسعر حرب لو كان له أحد ؛ فلما سمع أبو بصير النبي يقول ذلك فهم أنه سرده إليهم . فخرج حتى أتى ساحل البحر عند مكان تمر به قوافل الشام وأقام به .

ثم إن أبا جندل بن سهيل بن عمرو هرب من مكة ولحق به ، واجتمع إليهم كل من أسلم بمكة ، وانضم إليهم جماعة من الأعراب حتى اجتمعت منهم عصابة قوية . عمدت إلى قوافل تجارة قريش في ذهابها إلى الشام أو إيابها منه تهاجها وتقتل الرجال وتأخذ الأموال . فلما ضجت قريش من أعمالهم استغاثوا بمحمد وسلموا بإبطال الشرط الذي عقدوه معه برد من جاءه منهم مسلماً . فقبل منهم ذلك . وكفت هذه العصابة عن قريش . وانراح عن المسلمين شرط من الشروط التي كانت تؤلمهم .

فأبى أبو بكر ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية . والحق

أننا إذا نظرنا في هذه الغزوة وفي الصلح الذي عقده محمد ، ذلك الصلح الذي قصر رأى المسلمين وقتذاك عن إدراك ما ينطوى عليه ، لوجدنا أن الخطوة التي رسمها وانتهجها وحقق ما يريد منها ، إنما كانت خطوة بارعة جداً . نستبين من الخطوات التي اتبعها أنه كان يدرك تماماً أن أسهم الإسلام في ارتفاع ، وأن أسهم قريش في نزول . ثم إنه أدرك أيضاً أن قريشاً لم تعد تمتلكها تلك الرغبة المجنونة المحمومة ضده ، وأنه إذا ما أتاها في الأشهر الحرم وظل خارج مكة ، ولح إليها بالصلح لأسرعت وأجابته إليه . وهذا ما حدث فعلاً .

والحق أن محمداً استفاد فوائد كبيرة جداً من هذا الصلح . أولاً ، حصل على إقرار من قريش بحقه وحق المسلمين في اتخاذ البيت الحرام بيتاً لهم .هم أيضاً ، وبحقهم في إتيانه ليطوفوا حوله ويؤدوا شعائر دينهم في حرية وأمن . وهذه خطوة كبيرة جداً في سبيل تدعيم الإسلام في جزيرة العرب . وثانياً ، كان في هذا الإقرار سند كبير لمحمد في مخاطبة قبائل العرب ودعوتها للإسلام بطريقة أنسب . فأي شيء الآن يمنع قبائل العرب من الدخول في الإسلام وقد قرب جداً إلى مفاهيمهم بعد أن سلمت قريش بحق المسلمين في أداء فرائض دينهم في الكعبة ؟ أما مسألة الأصنام وتشبث هؤلاء الأعراب بها ، فإن الإسلام كان قد أضعف هذا الوهم بدرجة كبيرة ، وبدد كثيراً من التصورات التي كانت تسيطر على خيال هؤلاء الأعراب حول قوة هذه الأصنام ، إذ هاهو محمد لا يكف منذ حوالي عشرين سنة عن سبها وعن تسفيه أحلام عابديها ، وهي بعد لم تصبه بسوء ، بل على الضد ، يكثر أعوانه وينتصر في حروبه . فإذا ما رأت قبائل العرب الآن أن قريشاً سدن البيت وحجابه قد قبلوا أن يدخل المسلمون البيت ويطوفوا به ويؤدوا فيه شعائر دينهم ، وهم الذين يعيبون الأصنام ويسبونهم ، أفلا يكون في ذلك إيجاء لهم بأن قريشاً قد بدأت تتخاذل أو أنها تخاذلت فعلاً ؟ .

ومصدق هذا كله ما أنزل الله على نبيه وهم في طريقهم من الهدية إلى المدينة من آيات بينات : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » (١) إلى أن قال : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّين رعوكم ومتصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » (٢) .

ثم إن محمداً بدأ بعد هذه الهدنة في إرسال مبعوثيه إلى الملوك والأمراء هنا وهناك ، في جزيرة العرب وخارجها ، وكأنه قد أيقن فعلاً ورأى رؤيا صدق أن دينه قد استقر نهائياً ، وأن مسألة إقناع بقية العرب ودخولهم فيه لم تعد أكثر من مسألة وقت لا غير .

(١) الفتح ١ - ٣ .

(٢) الحج ٢٧ .

(١٩ - محمد)

الفصل السابع عشر

دعوة الملوك والأمراء للإسلام

بعد أن عقد محمد عهد الحديبية مع قريش أمن بذلك كيد العرب وحربهم ، لأن أحداً من العرب غير قريش لم يكن في مقدوره أن يجمع الجموع ضده كما تفعل قريش . ولم يكن يملك المنزلة الدينية التي تؤهله لأن يتصدى لمن يعتدى على حرمة الدين . فإذا كانت قريش قد تراجعت هذا التراجع وسمحت لمحمد الذي يسب آلهتها وآلهة العرب ويعيبها ، ولا يكف منذ حوالي عشرين سنة يدعو لهدمها وعبادة رب واحد هو الله ، إذن فأى من العرب بعد ذلك يتصدى لمحمد ، وبأية روح أو دافع يقف ضده إذا كانت قريش ذاتها قد صالحته وهادنته ؟ لا أحد على وجه الإطلاق . ولذلك بدأ محمد ، وكأن دينه قد ظهر على أديان العرب كلها ، يتطلع إلى رحاب العالم الفسيح ، وبدأ يضع الخطط الجديدة على هذا الأساس .

لذلك نراه — انطلاقاً من هذا المفهوم — قد أعد بعد عودته مباشرة من غزوة الحديبية مبعوثين يرسلهم إلى الملوك والأمراء والرؤساء في شبه الجزيرة العربية وخارجها ، يدعوهم للإسلام ويخبرهم بأنه نبي مرسل أرسله الله ليبلغ دينه الحق للناس كافة . غير أن كتاب السيرة يختلفون في تحديد الفترة التي أرسل فيها مبعوثيه . فمنهم من يقول بأنه أرسلهم دفعة واحدة بعد غزوة الحديبية في أواخر سنة ست من الهجرة . ومنهم من يقول بأنه أرسلهم الواحد إثر الآخر منذ ذلك التاريخ وعلى فترات متقطعة حتى وفاته . والأرجح أنه أرسلهم متفرقين . ونحن نعلم على أية حال أنه أرسل رسلاً إلى نجاشي الحبشة ، وإلى هرقل إمبراطور الروم ، وإلى كسرى الفرس ، وإلى

المقوقس حاكم مصر ، وإلى أمير بصرى ، وإلى الحارث بن أبي شمر ، وإلى المنذر بن ساوى ملك البحرين ، وإلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عمان ، وإلى هوزة بن على ملك اليمامة . وهؤلاء هم الذين بلغنا من كتاب السيرة القدماء أنه أرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام . وإليك الكتب التى أوردها كتاب السيرة ننقلها كما جاءت فى كتاباتهم . ولقد اتخذ محمد عند ما شرع فى إرسال هذه الرسائل خاتماً من الفضة نقش عليه « محمد رسول الله » .

أرسل أول رسله عمرو بن أمية الضميرى إلى نجاشى الحبشة ، وكانت علاقات المسلمين به حسنة كما نعلم ، ودفع إليه كتابين ، أحدهما يدعو به للإسلام والآخر يفوضه فى تزويجه من أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت من مهاجرات المسلمين إلى الحبشة ، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش فارتد هناك عن الإسلام وتنصر .

أما كتابه إلى النجاشى فهذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة . سلام . أما بعد ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده . وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالة والطاعة ، وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل . وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » . فجامله النجاشى ورده رداً جميلاً .

أما كتابه إلى قيصر الروم هرقل فدفعه إلى دحية الكلبي ، وأمره أن يدفعه إلى والى قيصر على بصرى ليوصله إليه ، وفيه يقول : « من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ،

فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، اسلم تسلم يؤتلك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (الفلاحين ، أى الرعايا) « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فاقواوا شهدوا بأننا مسلمون » .

فلما وصل هذا الكتاب إلى قيصر ، وكان وقتئذ بالشام بعد حربه مع كسرى واسترداده الصليب الأعظم الذى كان استولى عليه الفرس ، أمر بعض أتباعه أن ينظر له أحداً من قوم هذا الرجل الذى يدعى النبوة فيجيئه به . وكان أبو سفيان فى ذلك الوقت فى تجارة لقريش بالشام فأتوه به فى جمع من أصحابه ، ودار بينهما حديث نورده بنصه كما أورده الكتاب التدماء لا ننقده ولا نزيد عليه ولا ننتقص منه .

فلما انتهوا إلى مجلس قيصر قال : أيكم أمس به رحماً ؟ فقال أبو سفيان أنا . قال هرقل : أدنوه منى . ثم أجاسه بين يديه ، ثم أمر أصحابه فأجلسهم خلفه ، وقال : إن كذب فردوا عليه .

ولقد قال أبو سفيان فيما بعد إنه كان يعلم أن أصحابه مشركى قريش ما كانوا ليردوا كلامه ويكذبوه ، ولكنه كان يستحى إذ هو رجل سيد فى قومه أن يكذب ، فيتحدث بذلك أصحابه فى مكة ، فلم يكذب ..

فلما طلب منه هرقل أن يحدثه فى شأن هذا الرجل الذى يدعى النبوة ، زهد أبو سفيان فى ذلك مصغراً له من أمره ، غير أن هرقل لم يلتفت إلى شيء من ذلك ، وأمره أن يخبره عما يسأله عنه .

قال هرقل : كيف نسبه فيكم ؟ قال : من أشرفنا نسباً .

قال : هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله فهو يتشبه به ؟

قال : لا .

قال : فأخبرنى هل له ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوه

عليه ؟ قال : لا .

قال فأخبرني عن أتباعه ، من هم؟ قال : الأحداث والضعفاء والمساكين ، فأما أشرفهم وذوو الأنساب منهم فلا . قال : فأخبرني عن صحبه أيجبه ويكرمه أم يقلبه ويفارقه ؟ . قال : ما صحبه رجل ففارقه .

قال : فأخبرني عن الحرب بينكم وبينه ؟ قال : سجال يدال علينا ونдал عليه .

قال : فأخبرني هل يغدر ؟ قال : لا ونحن منه في مدة ولا نأمن غدرة فيها (وهنا أراد أبو سفيان أن يغمزه فلم يلتفت إليه هرقل) .

قال : زعمت أنه من أمحضكم نسباً ، وكذلك يأخذ الله النبي ، لا يأخذه إلا من أشرف قومه . وسألتك : هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله فهو يتشبه به ؟ فقلت : لا . وسألتك : هل كان له من ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ فقلت : لا . وسألتك عن أتباعه ، فزعمت أنهم الأحداث والضعفاء والمساكين . وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان . وسألتك عن يتبعه أيجبه ويكرمه أم يقلبه ويفارقه ؟ فزعمت أنه قل من يصحبه فيفارقه . وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه . وسألتك كيف الحرب بينكم وبينه ؟ فزعمت أنها سجال يدال عليكم وتداولون عليه . وكذلك يكون حرب الأنبياء ولهم تكون العاقبة . وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر . فلئن كنت صدقتني ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين .

ثم إنه أمر أبا سفيان أن يلحق بشأنه . فقام أبو سفيان وهو يضرب إحدى يديه على الأخرى ويقول : يا عباد الله لقد أمر ابن أبي كبشة ، وأصبح ملوك بني الأصفر يخافونه في ساطنهم .

وأرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصرى ، فبينما هو في طريقه تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني في قرية من عمل الباقاء بالشام فسأله أين يريد فقال الشام . قال : لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم .

فأمر به فضربت عنقه . وهو المبعوث الوحيد الذى قتل من مبعوثى محمد ،
وقد حزن عاينه حزناً شديداً .

وبعث شجاع بن وهب إلى أمير دمشق الحارث بن أبي شمر عامل
هرقل بكتاب فيه « باسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث
ابن أبي شمر ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق . وإني أدعوك أن
تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ما بكك » . فلما قرأ الحارث الكتاب غضب
ورمى به وقال : من ينزع منى ملكى ؟ وأراد أن يرسل جيشاً لحرب محمد
والمسلمين ، وقال للمبعوث : أخبر صاحبك بما ترى . غير أن قيصر
لم يأذن له بذلك ، وكتب إليه يثنيه عن هذا العزم . فصرف الحارث شجاع
ابن وهب بالحسنى .

ووجه لحاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من قبل
هرقل وهو بالإسكندرية : « باسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله
إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد . فإني أدعوك
بدعاية الإسلام . اسلم تسلم يوثك الله أجرك مرتين . وإن توليت فإنما عليك
الإثم القبط . ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا ألا نعبد إلا الله
ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا
فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

فلما قرأ المقوقس الكتاب قال لحاطب : إني أسألك عن كلام فأحب أن
تفهم عني . قال : هلم . قال : أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي ؟ قال
حاطب : بلى . هو رسول الله . قال المقوقس : فما له حيث كان هكذا
لم يدع على قومه حيث أخرجه من بلده إلى غيرها ؟ قال حاطب : عيسى
ابن مريم أليس تشهد أنه رسول الله ؟ قال : بلى . قال : فما له حيث أخذه
قومه فأرادوا أن يصلبوه . ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه
الله إلى السماء الدنيا ؟ فقال : أنت حكيم قد جاء من عند حكيم .

ثم إنه رده رداً جليلاً وأخبره أنه يعلم أن نبياً آن أوانه ولكنه ينتظر ظهوره على ما يعتقد في الشام . وأرسل معه إلى محمد هدية هي جارينتان قبظيتان ، إحداهما مارية التي تسرى بها محمد فولدت له ابنه إبراهيم ، والأخرى سيرين التي وهبها محمد لحسان بن ثابت فولدت له ابنه عبد الرحمن . وكان في جملة الهدية بغلة بيضاء اسمها الدلدل لم يكن يجزيرة العرب بغلة في مثل بياضها ، وحمار اسمه اليعفور ومقدار من المال وبعض خيرات مصر ، وغلām أسود خصي اسمه مأبور . وكان مأبور يدخل على مارية كمعادة أهل مصر ، فجعل بعض الناس يتكلم في ذلك وهم لا يعلمون بأنه خصي ، فأمر رسول الله على بن أبي طالب بقتله ، فوجده خصياً فتركه .

ووجه عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس بكتاب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . » فإن تسلم تسلم ، فإن أبيت فلأنما عليك لثم المحوس ، فلما قرأ المترجم الكتاب لكسرى غضب غضباً شديداً حين بدأ محمد بنفسه ، وصاح ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه وأمر بمبعوث محمد فأخرج . وأرسل إلى باذان وهو نائبه على اليمن : أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيا به . وفي هذا التصرف دليل وأى دليل على أن كسرى كان يجهل تماماً مقدار القوة التي كان قد وصل إليها الإسلام في ذلك الوقت . أما محمد فإنه عند ما بلغه أن كسرى مزق كتابه قال : « مزق الله ملكة » . ولقد تمزق في عدة سنين بعد ذلك .

وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمد الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا

فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول . من أحب ذلك من المخبوس فإنه آمن ومن أبى فلإن عليه الجزية . فلما قرأ الكتاب أسلم وكتب في جوابه : أما بعد يا رسول الله فلإني قرأت كتابك على أهل البحرين . ففهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه . وبأرضي مجوس ويهود فأحدث إلى في ذلك أمرك . فكتب إليه يقول : « باسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك ، فلإني أخذ الله إليك الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد فلإني أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً ، وإني شفعتك في قومك فأتارك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فأقبل منهم ، وإنك مهما تصالح فلن نغيرك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية » .

وبعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان بكتاب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فلإني أدعوكم بديعة الإسلام . أسألما تسلموا ، فلإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحيى للقول على الكافرين . وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما فلإن ملككما زائل وخيل تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما » .

سأل عبد بن الجلندي عمرو بن العاص عما يأمر به محمد وعما ينهى عنه ، فقال : يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . فتال عبد : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ، ولو كان أخى يتابعني لركبنا حتى نوؤمن بمحمد ونصدق به . ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه يصير تابعاً . قال عمرو : إن أسلم أخوك ملكه

رسول الله على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم . فقال عبد : إن هذا خلقت حسن . وما الصدقة ؟ فأخبره عمرو بما فرض الله من الصدقات في الأموال . ولما ذكر المواشي قال يا عمرو : يؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياه ؟ قال : نعم . فقال عبد : والله ما أرى قومي على بعد دارهم وكثرة عددهم يرضون بهذا . ثم نهض عبد فأوصل عمرأ لأخيه جيفر فتكلم معه عمرو كلاماً ألان قلبه حتى أسلم هو وعبد .

وبعث سليط بن عمرو العامري بكتاب إلى هوزة بن علي ملك اليمامة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هوزة بن علي : سلام على من اتبع الهدى . واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخلف والحافر ، فاسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك » . فلما قرأ الكتاب جاء في رده : « ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمر أتبعك » . فلما بلغ محمد رده هذا قال : لو سألتني قطعة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما في يديه : فلم يلبث أن مات بعد أن انصرف محمد من فتح مكة .

وكان محمد يولي على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم .

الفصل الثامن عشر

غزوة خيبر

نعلم مما سبق أن يهود خيبر كانوا أكثر المتحمسين لتجميع القبائل ضد المسلمين وأكثر الدعاة في شبه جزيرة العرب ضد محمد وضد الإسلام ، ونعلم أنه كان من نتيجة سعيهم هذا أن تجمعت الأحزاب في غزوة الخندق ، وأقدمت جموع على المدينة لا قبل للمسلمين بها ، ربما كان من شأنها أن تستأصل شأفتهم تماماً ، لولا حكمة محمد وحكمة رجاله ، والعاصفة الهوجاء التي هبت في تلك الليلة فأدخلت الرعب في قلوب الأحزاب فارتدوا عن المدينة بما يشبه المعجزة ، فسام المسلمون من مكر اليهود .

ثم إننا نعلم أيضاً أن بني قريظة وهم يهود المدينة جيران المسلمين وحلفاؤهم الذين اعتمد المسلمون عليهم في حماية جانب من المدينة ، قد قلبوا للمسلمين في أحلك ساعات الحصار ظهر الحن وانحازوا للأحزاب ، ولولا لطف الأقدار وحدث تلك العاصفة التي اقتلعت خيام الأحزاب وكفأت تدورهم فانخلعت لها قلوبهم قبل أن تنفذ خيانة بني قريظة لربما تغير وضع المعركة تغيراً كاملاً وشاملاً . لذلك كان لزماً على محمد أن يعاقبهم على هذه الخيانة . والحق أن بقاء قلة متعصبة خائنة مفسدة وأى مفسدة لجسم الأغلبية وشوكة دائمة في جنبها . ولا مزية في أن سياسة استئصال هذه الأقلية سياسة حكيمة جداً . مبررها الحفاظ على حياة الأغلبية التي هي أحق بالبقاء آمنة مطمئنة في أرضها ووطنها .

تظهرت المدينة من هذه الأقلية المفسدة ، ولكن يهود خيبر هناك في شمال غربي المدينة على مسافة تبعد مئة وخمسين كيلومتراً أو أكثر قليلاً يهددون المسلمين من الشمال ، وعلى الأخص لأن يهود خيبر إذا اجتمعوا

مع غطفان التي لا تبعد ديارها كثيراً عنهم ، أصبحوا قوة كبيرة تهدد المسلمين تهديداً فعلياً .

أما النتيجة الطبيعية التي اتجهت إليها الأحداث بعد عهد الحديبية وتأمين المسلمين لحدودهم الجنوبية ، فكانت على الضرورة استغلال هذا الظرف المواتي والقضاء على هذا العدو الرابض هناك يؤلب العرب ويكيد للإسلام . فلم يكذب النبي يرجع من الحديبية في أواخر ذي الحجة من سنة ست من الهجرة ، وأوائل الحرم من سنة سبع ، حتى أمر أصحابه بعد راحة قابلة للتجهز للخروج إلى خيبر . فسار إليهم في النصف الثاني من الحرم سنة سبع ، وكان عند ما استنفر الناس للخروج معه وجاء الذين تخلفوا عن الحديبية أفهمهم أنهم لا يخرجون معه في هذه الغزوة إلا رغبة في الجهاد لا طمعاً في الغنيمة ، وأنه لن يعطيهم منها شيئاً . فخرج معه مثنان زيادة عن كانوا معه في غزوة الحديبية ، فأصبحوا جميعاً ألفاً وسبعمائة مقاتل ، منهم مائة فارس ، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري في رواية أو نميلة بن عبد الله الليثي في رواية أخرى .

سار محمد بجيشه حتى نزل به بواد يقال له الرجيع ، وهو واد يقع بين خيبر وغطفان ، وقصد من ذلك أن يقطع بينهما الاتصال فيحول بين غطفان أن تمتد خيبر . ولقد تحقق له ما أراد فعلاً ، إذ أن غطفان كانت قد همت بالخروج ليساعدوا أهل خيبر ، فما أن ساروا قليلاً حتى سمعوا حساً فخافوا على أموالهم وأهاليهم ، فرجعوا على أعقابهم وتخلوا عن نصرة أهل خيبر نجاة بأنفسهم وأموالهم .

وكان محمد إذا غزا قوماً لا يغير عليهم يوم وصوله ديارهم ، بل كان ينتظر حتى يصبح . فإن سمع أذاناً أسك عن الإغارة عليهم ، وإن لم يسمع أذاناً أغار . وصل جيش المسلمين خيبر ليلاً فبات الجيش حتى أصبح ، فلم يسمع أحد أذاناً ، فركب محمد حماره ، ويقال إنه كان على فرس

لا على حمار في ذلك اليوم ، وركب الناس وتقدموا نحو حصون اليهود . وقد استقبلهم عمال خيبر وهم خارجون من الحصون بمساحيقهم ومكائيلهم ، فلما رأوا محمداً والمسلمين صاحوا قائلين : محمد والخيس (١) ! وعادوا هارين ، فقال محمد : الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

أما حصون خيبر فكانت ثلاثة مجموعات من الحصون منفصلاً بعضها عن بعض : حصون النطاه وهي ثلاثة : حصن ناعم ، وحصن الصعب ، وحصن قلة ، وحصون الكتيبة وهي حصنان : حصن أبي ، وحصن البريء ؛ وحصون الشق وهي ثلاثة : حصن القموص ، وحصن الوطيح ، وحصن السلام .
والحق أن يهود خيبر كانوا أقوى طوائف اليهود في بلاد العرب وأكثرهم نفوذاً ومالاً وسلاحاً .

بدأ المسلمون الهجوم على حصن ناعم ، فعسكروا بعيداً عن مرمى السهام ، وأمر النبي بأن يقطع نخلهم حتى يفت إهلاك المال في عضدهم ، فقطع المسلمون حوالي أربعمئة نخلة ، فلما لم يستسلم اليهود ، ورأى المسلمون أنهم صمموا على الجلاء والحرب ، أمر محمد المسلمين بالكف عن تقطيع النخيل . وكان شعار المسلمين يوم خيبر : يا منصور أمت أمت !

وكان اليهود قد أدخلوا أهوالهم وغيالهم في حصن الوطيح والسلام ، وأدخلوا ذخائرهم في حصن ناعم ، والمقاتلة وأهل الحرب في حصن آخر . بدأ الهجوم على حصن ناعم بالمرامة بالسهام ، وكان لواء المسلمين في اليوم الأول بيد رجل من المهاجرين فلم يصنع شيئاً ، وقتل في ذلك اليوم محمود ابن مسلمة أخو محمد بن مسلمة إذ ألقيت عليه رchy من داخل الحصن فقتلته : وكان محمد يصحب في كل يوم جماعة من المهاجرين ويخاف على العسكر أحد المسلمين . ومرت الأيام والحصن منيع واليهود مستقفلون في

الدفاع عنه . حتى إذا كانوا في الليلة السابعة أسر عمر بن الخطاب - وهو حارس الجيش يومئذ - يهودياً كان خارجاً في جوف الليل من الحصن لأمر يريده ، فأقن به إلى محمد . فلما أدرك الرجل الرعب ورأى الموت بعينه قال : إن أمتموني أدلكم على أمر فيه نجاتكم . فلما أمنوه أخبرهم أن أهل هذا الحصن قد خارت قواهم وأدركهم الملل والتعب من المحاصرة ، وأنه تركهم وهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشق لأنهم عقدوا العزم على الخروج في الغداة للقاء المسلمين . وقال لهم إنه إذا كتب لهم الغلبة على أهل الحصن فإنه سوف يدهم على مخزن بالحصن فيه منجنيق ودبابات^(١) ودروع كثيرة وسيوف تساعدهم على فتح بقية الحصون .

وكان محمد في خلال الأيام السابقة قد أخذته الشقيقة ، وهي صداع نصفي كان يصيبه بعض الأحيان ، فأعطى الراية لعدد من الصحابة ، فأعطاه يوماً لأبي بكر فقاتل ورجع ، وأعطاها لعمر فقاتل ورجع دون فتح الحصن . وفي ذلك اليوم سأل عن علي بن أبي طالب ، وكان يومئذ أرمده العينين ، فاستدعاه وأعطاه الراية وقال له : « اذهب فقاتل حتى يفتح الله عليك » . قال علي : على ما أقاتل الناس ؟ قال : « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منا دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » .

فخرج على يصول ويهرول هرولة نحو الحصن والمسلمون يتبعون أثره حتى ركز رايته في كومة من الحجارة تحت الحصن . فلما دنا المسلمون من الحصن خرج إليهم اليهود يقاتلون أشد قتال ، حتى لقد ضرب رجل منهم على بن أبي طالب ضربة هائلة طار على أثرها ترسه من يده ، فأسرع على وتناول باباً تترس به عن نفسه ، فلم يزل الباب بيده حتى انهزم اليهود ،

(١) الدبابات آلة يتخذها المحاربون في حصار الحصون ، يدخلون تحتها ويتقدمون إلى الحصن في حمايتها فيتمبون فيه ثغرة يدخلونه منها .

فجعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها إلى داخل الحصن . وقتل في هذه
الموقعة الحارث بن أبي زئب قائد الحصن . كما قتل مَرْحَبٌ أيضاً وكان
أشجع اليهود ، وكان قد خرج من الحصن وهو يرتجز :

قد عامت خيبرُ أنى مَرْحَبُ شاكي السلاح بطل مجرَّبُ
أطعن أحياناً وحيناً أُضربُ إذا الليوث أقبلتْ تحمَّرُ
إنَّ حمايَ للحمي لا يُقربُ يُحجمُ عن صوتي المجربُ

وجعل يقول : هل من مبارز ؟ فقال محمد : من لهذا ؟ فقال محمد بن
مسلمة : أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور والثائر ، قتلوا أخي بالأمس .
فقال : قم إليه ، اللهم أعنه عليه .

فلما دنا أحدهما من الآخر اعترضتهما شجرة ، فجعل كل منهما يلوذ
من صاحبه بها ، كلما ضرب ضربة اقتطع بسيفه جزءاً منها حتى صارت
بينهما كالرجل القائم ليس فيها غصن واحد . فحمل مرحب على محمد بن
مسلمة وضربه بسيفه فأتقاه بالدرة فعض سيفه فيها فعاجله محمد بن مسلمة
وضربه حتى قتله .

وعاد محمد وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبرُ أنى ماض حلوا إذا شئت وسمَّ قاض

ويقال إن محمد بن مسلمة قطع رجلى مرحب فقال له : أجهز على .
فقال : لا ، ذق الموت كما ذاقه محمود بن مسلمة . فربه على بن أبي طالب
وقطع رأسه ، فاختصما في سلبه إلى محمد ، فأعطى محمد بن مسلمة سيفه
ورمحه ومغفره وببضته . وكان على سيفه :

هذا سيف مرحبُ من يدقه يعطب

فلما قتل مرحب خرج أخوه ياسر وهو يقول : هل من مبارز ؟ فخرج
له الزبير بن العوام ، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب : يقتل ابني
يا رسول الله . فقال : بل ابنك يقتله إن شاء الله . فالتقيا فقتله الزبير

والحق أن اليهود قاتلوا قتالا مريراً ودافعوا عن حصونهم دفاعاً لا هوادة فيه ، غير أنهم انهزموا وتوالى سقوط الحصون في أيدي المسلمين .

فبعد أن سقط حصن ناعم ، وكانت فيه ذخيرة اليهود الحربية . وحصن للصعب بن معاذ ، وكان فيه غنائم كثيرة من الطعام والمؤن وعلائف الدواب ، تحولت اليهود إلى قاعة الزبير فحاصروهم محمد ثلاثة أيام ، لم تلن لهم فيها قناة ، فأتاه رجل من اليهود يقال له عزال وقال له : يا أبا القاسم تؤمنني على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة وتخرج إلى أهل الشق ، فإن أهل حصون الشق قد هلكوا رعباً منك ؟ .

فلما أمنه على أهله وماله قال اليهودي : إنك لو أقمت شهراً تحاصروهم ما بالوا بك ، فإن لهم تحت الأرض جداول ماء يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعهم . فقطع عنهم محمد هذه الجداول ، فخرجوا مضطرين وقاتلوا أشد قتال ، ثم استسلموا بعد أن قتل نفر من المسلمين وقتل عشرة من اليهود ، وكان هذا الحصن آخر حصون النطاة . وتحول المسلمون بعد ذلك إلى حصون الشق ، فبدأوا يحصن أبي ، وقام محمد بنفسه على رأس المهاجمين الذين هاجموا قلعة يقال لها سموان فقاتل قتالاً شديداً ، فخرج منها رجل اسمه عزول فدعا إلى البراز ، فبرز له الحباب بن المنذر ، فقطع يده اليمنى من نصف ذراعه ووقع السيف من يده ، وفر اليهودي راجعاً إلى القلعة فلم يمهله الحباب وأسرع إليه وضربه ضربة أطار بها عرقوبه . ثم برز منهم رجل آخر فتقدم له رجل من المسلمين فقتله اليهودي ، فهض إليه أبو دجانة فقتلك به فتكاً شديداً وأخذ سلبه . بعد ذلك أحجم اليهود عن البراز فكبر المسلمون . واقتحموا يقاتلون وأمامهم أبو دجانة بعماءته الحمراء ، عصابة الموت ، يذلل لهم الطريق بسيفه البتار حتى دخلوا القلعة ، فوجدوا فيها أثاثاً ومتاعاً وغنائم وطعاماً كثيراً .

وكان المسلمون إذ طال الحصار قد أصابهم مجاعة شديدة حتى لقد ككلوا

الخمير ، فنهاهم محمد عن أكلها . فلما فتحت بعض الحصون تهاوتوا على الطعام أول شيء .

روى عبد الله بن مغفل المزني أنه أصاب في خيبر جراب شحم ، فاحتمله على عنقه إلى حيث رحله وأصحابه ، فلقبه صاحب المغنم الذي جعل عليها ، فأخذ بناصية الجراب وقال : هلم حتى تقسمه بين المسلمين . فقال : لا والله لا أعطيك إياه . وأخذ الرجلان يتجاذبان الجراب حتى رأهما محمد وهم يصنعان ذلك فتبسم ضاحكاً وقال لصاحب المغنم : نخل بينه وبينه . فانطلق به عبد الله إلى رحله وأصحابه فأكلوه .

ويروى لنا أبو اليسر كعب بن عمرو ، طرفاً من أخبار هذا الجوع الذي أصاب المسلمين في أثناء حصارهم خيبر . قال : لى لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ذات عشية إذ أقبلت غنم لرجل من اليهود تريد حصنهم ونحن محاصروهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يطعمنا من هذه الغنم ؟ فقلت : أنا يا رسول الله . قال : فافعل . فخرجت مسرعاً مثل الظليم (ذكر النعام) فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مولياً قال : اللهم أمتعنا به . فأدركت الغنم وقد دنطت أولها الحصن ، فأخذت شاتين من أخراها فاحتضنتهما تحت يدي ، ثم جثت بهما مسرعاً كأنه ليس معى شيء حتى ألقيتهما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذبجوهما فأكلوهما . وكان أبو اليسر من آخر أصحاب النبي موتاً . وكان إذا حدث هذا الحديث بكى ثم قال : أمتعوا بنى لعمري ! حتى كنت من آخرهم .

لما بدأت الحصون تقع في أيدي المسلمين فر المقاتلون من اليهود إلى حصن البزة بالشق وتمنعوا به أشد الامتناع ، فزحف إليهم النبي وأصحابه فتراموا بالسهام ، ورمى يومئذ محمد بيده الكريمة ، حتى أصاب سهم من سهام بنانه . وحى الوطيس واشتد القتال واقتحم المسلمون الحصن وأخذوا اليهود أخذاً باليد .

وتحول محمد وأصحابه إلى يهود الوطيح والسلام ، حصنى أبى الحقيق ، فتحصن اليهود أشد تحصن واستأثروا فى الدفاع ، وكان كل من انهزم من النطاة قد جاء إليهم ، فتجمعوا فى حصن القموص والكتيبة والوطيح والسلام . وكانت حصوناً منيعة جداً ، وامتنعوا عن الخروج منها . فهم محمد بأن ينصب المنجنيق عليهم ليضربهم به . فلما أيقنوا بذلك وبأنهم هالكون وأن المسلمين قد حصروهم ولن يرجعوا عنهم ، وكان الحصار قد دام أربعة عشر يوماً حول هذه الحصون جهد فيها اليهود ، نزل ابن أبى الحقيق إلى محمد فصالحه على حقن دمائهم وعلى أن يتركوا جميع ما كان لهم من الأرض والأموال والسلاح والمواشى ، ولا يخرجون إلا بما يحمل الإنسان على ظهره . فرضى بذلك محمد ، واشترط عليهم ألا يكتسبوا ولا يخفوا شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد . فرضوا بذلك . وتم الصلح .

غير أنهم أخفوا مسكاً (جلداً) فيه مال وحلى لحى بن أخطب ، كان قد احتمله معه إلى خيبر عند ما أجليت بنو النضير من المدينة ، فقال محمد : وأين مسك حى الذى جاء به من النضير ؟ قال ابن أبى الحقيق : أذبهته النفقات والحروب . فقال محمد : العهد قريب والمال أكثر من ذلك . ثم إنه دفعه إلى الزبير بن العوام فعذبه حتى أقر بأنه كان رأى حياً قد دخل خربة يطوف بها ، وأشار إلى وضع بالحصن . فلما نقبوا فيه وجدوا المسك ، وكان فيه أساور ودمالج وخلخيل وأقراط وخواتم من الذهب ، وعقود من الزمرد وغير ذلك .

تحلل عندئذ محمد من العهد الذى عقده معهم ، ذلك أنهم نكثوه بأنفسهم فلم يصبح لهم عنده ذمة ولا عهد ، فقتل ابنى أبى الحقيق ، وكان أحدهما زوج صفية بنت حى بن أخطب ، وسبى نساءهم وأبناءهم وقسم أموالهم . ولما أراد إجلاءهم طلبوا منه أن يبقينهم فى ديارهم وأراضيتهم يعملون

فيها مزارعة بالنصف مما خرج منها ، فأقرهم على ذلك خشية أن يصيب هذه الأموال الكثيرة أضرار إذا ما تولاهها المسلمون وهم على غير معرفة بإدارتها : غير أنه اشترط عليهم أن يخرجهم منها في أى وقت شاء ، فارتضوا ذلك : ثم إنه أرسل إلى يهود فلدك إنذاراً بأن يشهدوا شهادة الحق أو يسلموا أموالهم . فلما لم يجدوا في أنفسهم قدرة على قتال المسلمين ، وكانوا قد رأوا ما حدث لليهود خيبر ، تصالحوا على البقاء في ديارهم والعمل في أراضيهم مزارعة بالنصف في كل ما خرج منها . فكانت فلدك خالصة لرسول الله وحده ليس للمسلمين فيها شيء لأنها لم تؤخذ عنوة ولا حارب في سبيلها أحد . كذلك صالح يهود تيماء ، وهى قرية على ثمانى مراحل من المدينة ، على دفع الجزية . ثم إنه انتهز فرصة القضاء على هؤلاء اليهود الأقوياء للتخاض أيضاً من يهود وادى القرى ، فر عليهم وهو في طريق عودته إلى المدينة وعرض عليهم الاستسلام فأبوا فقاتلهم ، فإكان منهم إلا الاستسلام والإذعان للصالح . وبذلك انكسرت شوكة اليهود نهائياً من جزيرة العرب .

وكان في خيبر وحدها أربعون ألف نخلة للمسلمين نصف ثمارها ، حتى لقد قال ابن عمر : ما شعبنا تمرأ حتى فتحنا خيبر . وقالت عائشة عند فتحها : الآن نشبع من التمر .

قسم محمد الغنائم على المسلمين فأعطى للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً ، وأعطى للعبيد والنساء الذين شهدوا خيبر نصيباً غير محدد . روت فتاة من بنى غفار قصة ذهابها مع محمد في هذه الغزوة قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بنى غفار فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ، فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال : على بركة الله . فمخرجنا معه . وكنت فتاة حديثة السن فأردفنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حقيبة رحله ، فوالله لنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبح ونزلت عن حقيبة رحله ، وإذا

بها دم منى ، وكانت أول حيضة حضتها ، فتقبضت إلى الناقة واستحييت ،
فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي ورأى الدم قال : « مالك ؟
لعلك نفست » . قلت : نعم . قال : « فأصلحي من نفسك ثم خذى إناء
من ماء فاطرحى فيه ملحاً ثم اغسلى ما أصاب الحقيبة من الدم ، ثم عودى
لمركبك » .

واستطردت تقول لمن تحدث : « فلما فتح الله خيبر أعطانا رسول الله
من الغنيمة ، وأخذ هذه القلادة التى تزين عنق فأعطانيها وعلقها بيده
فى عنق ، فوالله لا تفارقنى أبداً » . وظلت القلادة فى عنقها حتى ماتت ،
ثم إنها أوصت أن تدفن معها تيمناً بها .

كانت صفية بنت حيى بن أخطب زوجة ابن أبى الحقيق فى جملة السبايا
الذين سباهم المسلمون من خيبر ، وقد وقعت فى نصيب دحية الكلبي .
وكانت صفية سيدة قريظة والنضير ، وكانت فتاة قريية عهد بعرض ، فجاء
رجل من المسلمين إلى محمد فقال : يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيى
سيدة قريظة والنضير ، وهى ما تصلح إلا لك . قال : « ادعوا بها » . فلما
نظر إليها النبي قال لدحية : « خذ جارية من السبي غيرها » . ثم إنه أعتقها
وتزوجها وجعل عتقها صداقها . وكانت صفية تقول : كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم من أبغض الناس إلى ، قتل زوجى وأبى ، فما زال يعتذر
إلى ويقول : إن أباك ألب على العرب وفعل ما فعل ، حتى ذهب ذلك من
نفسى . ثم إنه بنى بها وهم عائدون إلى المدينة فى سد الصهباء ، وهو موضع
بينه وبين خيبر مرحلة .

وكانت التى جعلتها إليه ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان
أم أنس بن مالك . ولقد بات بها فى قبة ، وبات أبو أيوب متوشحاً بسيفه يحرسه
ويطيف بالقبة حتى أصبح . فلما رآه مكانه قال : « مالك يا أبا أيوب ؟ »
قال : خفت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأة قد قتلت أباهاً وزوجها
وأهلها ، وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك .

وكان النبي إذا ركب بعيره يحوى لها وراءه بعباءة ثم يجاس فيضع لها ركبته فتضع صفيّة رجلها عليها حتى تركب .

غير أن محمداً لم يسلم من مكائد اليهود وغلهم وضغيتهم وجسارتهم وهو في أوج انتصاره . إذ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم وبنت أخي مرحب بعد الصباح شاة مشوية مسمومة . وسألت أى عضو أحب إلى النبي فقبل لها الذراع . فأكثر فيها السم ، ثم سمت سائر الشاة ثم حملتها إليه ، فوضعتها بين يديه . فتناول الذراع ولاك منها مضغة فلم يسفها فقال لأصحابه : « أمسكوا فلانها مسمومة » . فأمسكوا ، ولكن كان بشر بن البراء ابن معرور قد بلع لقمته فمات منها لساعته . فاستدعى المرأة وقال لها : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قالت : أردت أن أعلم إن كنت نبياً فسيطلعك الله عليه ، وإن كنت كاذباً أريح الناس منك . فخلى سبيلها ولم يعرض لها بشر .

وقام فاحتجم^(١) . غير أن الألم ظل يعاوده ، حتى إذا كان في وجعه الذى توفى فيه بعد ذلك بثلاث سنين قال : « ما زلت أجعد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر معاودة للألم حتى كان هذا أو انقطاع أبهرى^(٢) . لهذا يرى المسلمون أنه مات شهيداً .

وفى أثناء إقامتهم بخيبر أو بعد ذلك فى رواية أخرى ، رجع المسلمون الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة بعد أن قضوا هناك عشر سنين ، وفيهم جعفر بن أبى طالب والأشعريون ، أى أبى موسى الأشعري وقومه . وقد فرح محمد برجوعهم فرحاً عظيماً ، وأعطى للأشعريين من غنائم الحصون المفتوحة صلحاً ، وكان معهم أيضاً أم حبيبة بنت أبى سفيان التى كان محمد قد تزوجها وهى فى الحبشة ، وزوجه إياها النجاشى نفسه بكتاب كتبه إليه ومهرها أربعة آلاف درهم . وفى قدوم جعفر قال محمد : « والله ما أدرى بأيهما أفرح ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » .

(١) الاحتجام هو جذب دم المريض بآلة كال كأس توضع على جسم المريض فمصر الدم .

(٢) الأبهر : ورید العنق ، ويراد بانقطاع الأبهر الهلاك .

الفصل التاسع عشر

عمرة القضاء

لما رجع حمد من خيبر إلى المدينة أقام بها شهرى ربيع وجماديين ورجب وشعبان ورمضان وشوالا . على أن هذه الأشهر لم تمض وادعة هنيئة ، فقد كانت جزيرة العرب تغلى كالمرجل ، وكان محمد لا يكف عن إرسال السرايا في تلك الأثناء إلى هنا وهناك . فأرسل سرية أبي بكر الصديق إلى بني فزارة ، وسرية عمر بن الخطاب إلى تيربة من أرض هوازن وراء مكة بأربعة أميال ، وسرية عبد الله بن رَوَاحَة إلى يسير بن رِزَام اليهودى ، وسرية بشير بن سعد إلى فَدَك ، وسرية أبي حذَرْد إلى الغابة ، وغير ذلك من السرايا .

ثم إنه خرج في شهر ذى القعدة ، وهو الشهر الذى صده فيه المشركون في العام السابق ، معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التى صدوه عنها . ويقال لهذه العُمرة أيضاً عمرة القِصاص لأن قريشاً صدته عنها في ذى القعدة في الشهر الحرام من سنة ست عند ما أراد العمرة ، فاقصص منهم فدخل مكة في ذى القعدة من سنة سبع في الشهر الحرام الذى صدوه فيه . وفي ذلك أنزل الله تعالى : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحُرُمات قصاص »^(١) . ويقال لها أيضاً عمرة القضية ، وهى من المقاضاة التى كان قاضاهم عليها على أن يرجع عنهم عامه هذا ، ثم يأتى في العام المقبل ، ولا يدخل مكة إلا بالسيوف في أجربتها ، وألا يقيم بمكة أكثر من ثلاثة أيام فقط .

وهذه العمرة هى المذكورة في قوله تعالى في سورة الفتح : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين

رعو سبكم ومقصرين لا تخافون»^(١) . وهى أيضاً الموعود بها فى قول النبى
لعمر بن الخطاب حين قال له : ألم تكن تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف
به ؟ قال : بلى أفأخبرتلك أنك تأتية عامك هذا ؟ قال : لا . قال : فإنك
أتية ومطوف به .

خرج محمد لقضاء هذه العمرة فى ألفين من أصحابه ، واستخلف على
المدينة أبا ذر الغفارى . وساق أمامه فى هذه العمرة ستين بدنة . وسار يلى
والمسلمون معه يلبون . ومضى أمامهم محمد بن مسلمة على رأس مائة فارس
حتى إذا ما بلغ مر الظهران وجد نفراً من قريش ، فسألوا محمد بن مسلمة
فعلموا منه أن محمداً سيصل هذا المكان بالغد ، فلما رأوا سلاحاً كثيراً يتقدم
المسلمين مع بشير بن سعد ، رجعوا مسرعين إلى قريش فأخبروهم بأمر
السلاح الذى أحضره محمد وبأمر الخيل ، ففزعت قريش لأن العهد الذى
قطعوه مع محمد فى الحديبية كان يقضى بدخول المسلمين مكة بسلاح
المسافر لا غير ، أى بالسيوف فى أجربتها .

بعثت قريش عندئذ مكرز بن حفص بن الأحنف فى نفر من قريش
يستطلع لهم من محمد الخبر ويسألوه لماذا يغزوهم ، فلقوه بطن يأجج فى
أصحابه ، والهدى والسلاح قد تلاحقوا ، فقالوا : يا محمد ما عرفت صغيراً
ولا كبيراً بالغدر ، تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك ، وقد شرطت لهم
ألا تدخل عليهم إلا بسلاح المسافر السيوف فى القراب . فقال : إني لا أدخل
عليهم بسلاح . فقال مكرز بن حفص : هذا الذى تعرف به ، البر والوفاء .
وأما حمل النبى للسلاح فلم يكن على التأكيد للغدر بقريش ، وإنما كان
احتياطاً مشروعاً خشية أن تغدر قريش به فيكون السلاح قريباً منه .

ترك محمد السلاح خارج الحرم ، والهدى بدى طوى ، وخرج وهو على
ناقته القصواء وأصحابه محذقون به يلبون وهم متوشحون بالسيوف حتى دخلوا

مكة وهم يصيحون : لبيك لبيك . وعبد الله بن رواحة يرتجز بشعره ويقول .
وهو آخذ بزمام القصواء :

خلوا بنى الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقييله أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهمام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

أما أهل مكة فخرجوا منها كارهين أن يروا محمداً والمسلمين يطوفون
باليث . طاف محمد وقد اضطجع بردائه^(١) وأخرج عضده اليمنى ،
وذلك حتى يرى المشركون معنى الفتوة ، وقال : « رحم الله امرئاً أراهم
اليوم من نفسه قوة » . واستلم الركن الأسود ثم هرول ، أى أسرع في مشيته ،
حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش ، وكانت
تنظر من فوق أبي قبيس : ما يرضون بالمشى ، أما لأنهم لينفرون نفر الظباء !
ركان المسلمون كلها هرول النبي هرولوا خلفه ، وكلما مشى مشوا
خلفه . فمل ذلك ثلاثة أطواف فكانت سنة . وفي غمرة هذه الحماسة الشديدة
همى عبد الله بن رواحة وهم بأن يصيح في وجه قريش صيحة الحرب ،
فمنعه عمر ، وقال له محمد : مهلا يابن رواحة ، وقل لا إله إلا الله وحده ،
نصر عبده ، وأعز جنده ، وخذل الأحزاب وحده . فنادى بها عبد الله
ابن رواحة بأعلى صوته ، والمسلمون يرددون هذه الصيحة ، فتجاوبت بها
أصداء مكة جميعاً ، والمشركون وجوم كأن على رؤوسهم الطير .

ولما أتم محمد الطواف بالكعبة ، انتقل ومن خلفه المسلمون إلى الصفا
والمروة ، فركب بينهما سبعاً كما كان يفعل العرب ، ثم نحر الهدى عند
المروة وحلق رأسه ، وبذلك تمت فرائض العمرة . وفي اليوم التالي أصبح
فدخل الكعبة ومكث بها حتى صلاة الظهر ، وأمر بلالا أن يعاوها ليؤذن

(١) أ أدخل بعضه تحت عضده وجعل طرفه على مكبته .

للصلاة ، فقام بلال وأذن للصلاة بين أصنام الكعبة . وصلى محمد والمسلمون فيها . فلما رأى المشركون ذلك وسمعوا بلالا يؤذن اغتاظوا أشد الغيظ حتى لقد قال عكرمة بن أبي جهل : لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول ! وقال صفوان بن أمية : الحمد لله الذى أذهب أبى قبل أن يرى هذا . وقال خالد بن أسيد : الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم حتى يقوم بلال ينهق فوق البيت . وأما سهيل بن عمرو وعدد من أصحابه فلم يهتم غطوا وجوههم لما سمعوا بذلك .

وفى أثناء إقامته بمكة بعث جعفر بن أبى طالب يخطب له ميمونة بنت الحارث فزوجه إياها العباس بن عبد المطلب ، ذلك أن ميمونة كانت قد جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل ، فجعلت أم الفضل أمرها إلى زوجها العباس ، فزوجه من محمد وأصلدها عنه أربع مائة درهم . ويقال بأنه لما انتهت إليها أخبار خطبة محمد لها وهى راكبة بعيراً قالت : الجمل وما عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيها نزلت الآية : « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » (١) . وقد تزوجه محمد وهو محرم ودخل بها وهو حلال بعد مغادرته مكة بمكان يقال له سرف .

أقام محمد وأصحابه بمكة ثلاثة أيام ، فلما أتى الصبح من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، وهو فى مجلس من الأنصار يتحدث مع سعد بن عباد ، فصاح حويطب : نناشدك الله والعقد أن تخرج من أرضنا ، فقد مضت الثلاث . فقال سعد بن عباد : كذبت لا أم لك ليس بأرضك ولا بأرض آبائك والله لا يخرج . وقال محمد لسهيل وحويطب : « إني قد تزوجت منكم امرأة فما يضر أن أمكث حتى أدخل بها ونصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا » . فقالوا : نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا .

عندئذ أمر أبا رافع فأذن بالرحيل . وبينما ركب المسلمون يغادر مكة
تبع النبي عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب ، وكانت مع أمها سلمى بنت
عميس بمكة ونادته : يا عم ياعم . فتناولها على فأخذ بيدها وقال لفاطمة : دونك
ابنة عمك . ثم إن علياً وزيداً وجعفرأ اختصموا ، كلهم يريد أن يكفلها ،
فحكّم بها النبي لجعفر ، ثم زوجها لسلمة بن أبي سلمة بعد أن رفض جعفر
أن ينزوجها ، إذ كانت ابنة أخيه من الرضاعة . وكان النبي يقول لسلمة :
هل جزيت أبا سلمة ، ذلك أنه هو الذي زوجه بأمه أم سلمة ، لأنه كان
أكبر من أخيه عمر بن أبي سلمة .

الفصل العشرون

إسلام خالد بن الوليد وصاحبيه

عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة

كان لمقدم محمد إلى مكة معتمراً في غزوة الحديبية ، والصلح الذي عقدته معه قريش على أن يدخل مكة في العام المقبل معتمراً على رأس المسلمين ، أثر بالغ في نفوس الكثيرين من قريش ، وعلى الأخص في نفوس أولئك الذين رأوا بثاقب فكرهم وبعد نظرهم أن الإسلام غالب ، وأن محمداً لا محالة منتصر على قريش ، ذلك بأن إقرار قريش لمحمد وأصحابه بحقوقهم في الكعبة وسماحتهم لهم بالدخول إلى حرماها وإقامة شعائر دينهم فيها ، فضلاً عن إقامتهم بمكة ثلاثة أيام تهجروها فيها قريش ، كان الدليل الأكبر على أن قوة قريش قد اضمحلت فعلاً إلى جانب قوة الإسلام المتزايدة التي لم يعد لأحد قبل بها .

والدليل على ذلك تلك البلبلة التي أصابت نفراً من دهاة قريش ، على رأسهم عمرو بن العاص ، الذي يروى لنا بنفسه صورة من هذه الحيرة التي خيمت على أفكارهم فاضطربت لها نفوسهم أشد اضطراب . كان يقول : كنت للإسلام مجانباً معانداً ، حضرت بدرآ مع المشركين فنجوت ، ثم حضرت أحداً فنجوت ، ثم حضرت الخندق فنجوت . فقات في نفسى : كم أدبر وأحارب ؛ والله ليظهرن محمداً على قريش . فلحققت بمالى بالرهط (موضع) وأقللت من لقاء الناس .

فلما حضر الحديبية وتم الصلح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجعت قريش إلى مكة ، جعلت أقول : يدخل محمد العام المقبل مكة بأصحابه ، فما مكة بعد الآن بمنزلة ولا الطائف ، ولا شيء خير من الخروج

والهجرة ، وأنا بعد ناء عن الإسلام ، وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسام .

فقدمت مكة وجمعت رجالا من قومي ، وكانوا يرون رأى ويسمعون منى ويقدموننى فيما نأهم ، فقلت لهم : كيف أنا فيكم ؟ قالوا : ذو رأينا ومدرهنا (أى المدافع عنا فى يمن نفسه وبركة أمره) . قلت : تعلمون والله أنى لأرى أمر محمد أمراً يعلو الأمور علواً منكراً ، وإنى قد رأيت رأياً . قالوا : وما هو ؟ قلت نلحق بالنجاشى فنكون معه ، فإن ينتصر محمد كنا عند النجاشى . وإنا إن نكن تحت يد النجاشى أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد ، وإن تنتصر قريش فنحن من قد عرفوا . . . إلى آخر القصة . هذه صورة من اليأس الذى خيم على أفكار صناديد قريش وذوى الرأى فيها بعد صلح الحديبية . إذن لم يكن غريباً أن يخلو رجل مثل خالد بن الوليد إلى نفسه ليعمن النظر فى مجريات الأمور ، وفى هذا الحدث الذى يحدث فى بلاد العرب ، ويحاول مستعيناً بشرف نفسه وعلوها أن يعقد مقارنة بسيطة بين ما يدعو إليه محمد وبين الدين الذى تدين به قريش ، ويستعلى بروحه الكبيرة ويخلصها مما طبعته فيها تقاليد الجاهلية القبلية ، تلك التقاليد التى كانت من أكبر أسباب النزاع الذى قام فى قريش بين محمد وساداتها الآخرين .

واستدار العام ونفذت قريش صلح الحديبية ودخل محمد وأصحابه مكة فى عمرة القضاء . كل هذا يحدث والأفكار تدور فى رأس الكثيرين من سادة قريش وذوى الرأى فيها حتى استبان لهم الحق من الباطل . وها هو خالد بن الوليد بن المغيرة فارس قريش المعلم وبطلها لم تفارق صورة المسلمين وهم يطوفون حول الكعبة خياله ، ولم تنزع من قلبه ، ولا فارقت الأفكار التى كانت تدور برأسه ذهنه . فلم يكذب يخرج المسامون من مكة بعد عمرة القضاء حتى بلغ اليقين عند خالد برسالة محمد مبلغاً لم يعد اخفاؤه أمراً ممكناً ، فخرج إلى متدى قومه ووقف على رموس الأشهاد يقول :

« لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لب أن يتبعه » .

فابتدعه عكرمة بن أبي جهل قائلاً : لقد صبهت يا خالد . قال : لم أصبوا ولكني أسلمت . قال عكرمة : والله إن كان أحق قریش ألا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت . قال : ولم ؟ قال عكرمة : لأن محمداً وضع شرف أبليك حين جرح ، وقتل عمك وابن عمك بيدر ، فوالله ما كنت لأسلم ولا تكلم بكلامك يا خالد . أما رأيت قریشاً يرون قتاله ! قال خالد : هذا أمر الجاهلية وحميتها . لكني والله أسلمت حين تبين لي الحق .

ثم إن خالداً أرسل إلى النبي أفراساً وبعث إليه بإقراره بالإسلام . فلما بلغ أبا سفيان إسلام خالد ، بعث إليه وسأله في هذا الأمر ، فأقر خالد بالإسلام . فغضب أبو سفيان غضباً شديداً وقال : واللوات والعزى لو أعلم أن الذي تقول حق لهدأت بك قبل محمد . قال خالد : فوالله إنه لحق على رغم من رغم . فقام له أبو سفيان محتداً ، فحجز بينهما عكرمة بن أبي جهل وقال : مهلاً يا أبا سفيان . فوالله لقد خفت للذي خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه . أنتم تقتلون خالداً على رأى وآه وهذه قریش كلها تبايعت عليه . والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم . ويقول خالد : فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : من أصحابي إلى رسول الله ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت : يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن كأضراس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد واتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف ؟ فأبى أشد الإباء وقال : لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً . فافترقنا وقلت : هذا رجل قتل أخوه وأبوه بيدر . فلقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية . فقال لي مثل ما قال صفوان .

فأمريت بإراحتي فركبتها وخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة

فقلت : إن هذا لى صديق ، فلو ذكرت له ما أرجو . ثم ذكرت من قتل من آبائه ، فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : وما على وأنا راحل من ساعتى . فذكرت له ما صار الأمر إليه ، فقلت : إنما نحن بمنزل ثعلب فى جحر لو صب فيه ذنوب^(١) من ماء لخرج ، وقات نحواً مما قلت لصاحبى ، فأسرع الإجابة . فقلت له : إني غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتى بفتح مناخة . فاتعدت أنا وهو يأجج ، إن سبقنى أقام وإن سبقته أقمت حتى يأتى .

فشيننا ليلتنا حتى إذا طلع الفجر التقينا بيأجج ، فغدونا حتى انتهينا إلى الهداة فوجدنا عمرو بن العاص بها ، فقال لنا : مرحبا بالقوم . فقلنا : وبك . فقال : : إلى أين مسيركم ؟ فقلنا : وما أخرجك ؟ فقال : وما أخرجكم ؟ قلنا : الدخول فى الإسلام واتباع محمد صلى الله عليه وسلم . قال : وذاك الذى أقدمنى .

فسرنا معاً حتى دخلنا المدينة فأئخنا بظهر الحرة ركائبنا فأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر بنا . فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت إلى رسول الله فلقينى أخى الوليد بن الوليد فقال : أسرع فإن رسول الله قد أخبر بك فسر بقدمك وهو ينتظركم .

فأسرعنا المشى وأقدمنا عليه ، فما زال يتبسم إلى حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق ، فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . فقال : تعال . ثم قال : « الحمد لله الذى هدأك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير » . قلت : يا رسول الله إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق فادع الله أن يغفر لى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الإسلام يجب ما كان قبله » . قلت : يا رسول الله على ذلك . قال :
« اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيل الله » .
ثم تقدم عثمان بن طلحة ، وعمرو بن العاص فبايعا رسول الله . ثم قال :
والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بي أحداً من أصحابه فيما
حزبه . وكان قدوم هؤلاء الثلاثة في صفر من سنة ثمان . وبإسلامهم أسلم
كثير من أهل مكة ، وأصبح فتح مكة أمراً لم يعد يشك فيه أحد .

الفصل الحادى والعشرون

سرية مؤتة

استمر القتال بين المسلمين والمشركين منذ أن بدأ بعبد الهجرة إلى المدينة . وكان إذا توقف حيناً عاد ثانية ليشب أعنف وأضرى مما كان . ولقد استأنف النبي بعد عودته من عمرة القضاء إرسال السرايا المقاتلة ، فبعث عمر بن الخطاب إلى هوازن ، وأبا بكر إلى بنى كلاب ، وغالب ابن عبد الله الليثى إلى بنى عواد ، وابن أبي العوجاء السلمى إلى بنى سليم ، وكعب بن عمرو الغفارى إلى ذات أطلاح من أرض الشام . غير أن أشهر السرايا التى بعثها فى تلك الفترة ، كانت سرية زيد بن حارثة إلى أرض البلقاء من أطراف الشام ، وكانت فى ثلاثة آلاف مقاتل .

نعلم أن محمداً أرسل بعد صلح الحديبية رسلاً إلى الملوكة والأمراء فى خارج جزيرة العرب وفى داخلها يدعوهم إلى الإسلام . وكان الحارث بن عمرو الأزدى مبعوثه إلى ملك بصرى . فلما بلغ الحارث مؤتة لقيه شرحبيل ابن عمرو الغسانى فقتله . وكان الحارث المبعوث الوحيد الذى قتل من مبعوثى محمد ، فشق ذلك على نفسه ، وانتهز فرصة سانحة ليجهز فيها جيشاً يرسله للانتقام من أهل مؤتة . غير أنه يقال فى رواية أخرى إن بعثة هذه السرية كان انتقاماً لسرية كعب بن عمرو الغفارى التى أرسلها إلى ذات أطلاح من أرض الشام يدعو أهلها إلى الإسلام فقتلوه ومن معه ، لم ينج منهم غير رجل واحد جريح ، تحامل على نفسه حتى عاد إلى المدينة وأخبر محمداً الخبر .

جمع محمد فى جمادى الأولى من سنة ثمان ثلاثة آلاف من خيرة المسلمين وأمرَ عليهم زيد بن حارثة ، وقال : « إن أصيب فجعفر بن

أبى طالب على الناس ، فان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس ،
فإن قتل فايرتض المسلمون من بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم » .

ثم أن أوان الرحيل وأخذ الناس يودعون الأمراء ، فلما ودعوا عبد الله
ابن رواحة بكى ، فقالوا : ما يبكيك يا ابن رواحة ؟ قال : أما والله ما في
حب الدنيا ولا صباة بكم ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار « وإن منكم إلا واردةا كان على
ربك حتماً مقضياً » (١) . فلست أدري كيف لي باله بعد الورود ؟ !

فقال المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

فأنشد عبد الله بن رواحة :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة	وضربة ذات فرغ تقذف الزبداء (٢)
أو طعنة يبدى حران مجهزة	بحربة تنفذ الأحشاء والكبداء
حتى يقال إذا مروا على جدتي	أرشده الله من غاز وقد رشدا

ثم قال :

فتبت الله ما آتاك من حسن	تثببت موسى ونصراً كالذي نصرنا
إني تفرست فيك الخير نافلة	الله يعلم أني ثابت البصر
أنت الرسول فمن يحرم نوافله	والوجه منه فقد أزرى به القدر

ثم خرج الجيش وخرج محمد معه يشيعه حتى إذا ودعهم وانصرف ،
قال ابن رواحة :

خلف السلام على امرئ ودعته في النخل خير مشيع وخلييل
ومضى الجيش إلى وجهته حتى إذا بلغ تخوم البلقاء من أطراف الشام
لقيته جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ،
فانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ، وعندها التقى الجمعان ودارت رحى
المعركة . ويقال بأن جموع الروم والعرب المواليين لهم بلغت ثلاثمائة ألف

(١) مريم ٧١ . (٢) الفرغ : السمة . (٣) الحران : الشديد .

في رواية ، ومائتي وخمسين ألفاً في رواية ، وأقل المقلين جعلها مائة وخمسين ألفاً . غير أن هذا العدد مبالغ فيه جداً على أية حال ، وإن كانت جموع الروم والعرب أكثر كثيراً من جموع المسلمين . ذلك أن شرحبيل كان قد علم بمقدم المسلمين فأعد جيشاً كبيراً من العرب ، وكتب إلى عاهل الروم فأمدّه بجيش كبير آخر .

قال أبو هريرة وكان في الجيش : شهدت موثة فلما دنا منا المشركون رأينا ما لا قبل لأحد به من العدة والسلاح والخيل والديباج والحرير والذهب ، فبرق بصرى ، فقال لى ثابت بن أرقم : يا أبا هريرة كأنك ترى جموعاً كثيرة ؟ قلت : نعم . قال : إنك لم تشهد بدمراً معنا ، إنا لم ننصر بالكثرة . غير أن الناس لما أيقنوا أن جموع المشركين تفوق جمعهم أضعافاً مضاعفة ، جعلوا يتشاورون في أمرهم ، فقال قائل نرسل إلى رسول الله نخبه بعده عدونا ، فلما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له . غير أن عبد الله بن رواحة شجع الناس وقال : يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا بكثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين ، إما ظهور وإما شهادة .

فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة ، وتقدموا للحرب .

ثم التقى الجيشان واقتتل الناس قتالاً شديداً ، فقاتل زيد بن حارثة راية الرسول حتى مزقته رماح الأعداء . فنزل جعفر عن فرس له شقراء كان يركبها وذبحها^(١) ، ثم تناول راية محمد وقاتل القوم حتى قتل ، وهو يقول :

يا حبيذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شراها

(١) جاوز العلماء قتل الحيوان خشية أن ينتفع به العدو ، وكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر حيواناً في الإسلام لهذا الغرض .

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

على إن لاقيتها ضرابها

ويقال بأن جعفرأ أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل . وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة عندئذ ، وفي رواية ابن إحدى وأربعين سنة ، وربما هذا أصح . وقد روى ابن عمر أنه وقف على جعفر بن أبي طالب وهو يومئذ قتييل فعدد به خمسين بين ضربة وطعنة ليس منها شيء في ظهره . ويقال أيضاً إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين .

فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فجعل يقدم رجلاً ويؤخر أخرى متردداً بعض التردد وهو يقول :

أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالى أراك تكهرين الجنه^(١)
قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنه^(٢)
ثم قال :

يا نفس إن لا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت قد أعطيت إن تفعلى فعلهما هديت^(٣)
ثم نزل عن فرسه فأثاه ابن عم له بعرق من لحم وقال : شد بهذا صلبك فلأنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت . فأخذه من يده فانتش منه نهشة ، ثم سمع ضربات السيوف وجلبة المعركة فقال : وأنت في الدنيا ! ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه ثم تقدم ، فقاتل حتى قتل .

عندئذ أخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بني العجلان فقال : يا معشر المسلمين اصطلمحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل .

(١) أجلب الناس : تجمعوا من كل جهة للحرب . الرنة : الصيحة الشديدة .

(٢) الشنة : القرية الصغيرة القديمة كناية عن الجسم .

(٣) فعلهما : أى فعل زيد وجعفر .

فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، وكان قد خرج مع الجيش متطوعاً ليدل بذلك على حسن إسلامه ، وكان حديث عهد بالإسلام . فلما تناول الراية عمل بالحكمة الإلهية القائلة : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (١) . ذلك أنه أيقن تماماً بأن المسلمين سوف يهلكون عن آخرهم إن هم استمروا في قتال عدو يفوقهم أضعافاً مضاعفة لا قبل لهم بها .

استلم خالد الراية عند المساء لما قتل ابن رواحة في أواخر ساعات القتال . فبات ليلته وهو يفكر في مكيدة حربية يوهم بها العدو أن مدداً قد وصل إلى المسلمين . فلما أصبح جعل مقدمة الجيش مؤخرة ، ومؤخرته مقدمة ، وميمينته ميسرته ، وميسرته ميمينته . ونجحت الخطة إذ أنكر العدو ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم في اليوم السابق ، وظنوا أن مدداً قد جاءهم ، فقت ذلك على أية حال في عضدهم لما شهدوا من ضراوة المسلمين في القتال على قلة عددهم في اليوم السابق ، فأحجموا عن مبادأتهم بالقتال ، واستطاع خالد بحكمته ومهارته الحربية أن يناور مناورة بأسلة وينسحب بجيش المسلمين شيئاً فشيئاً داخل الصحراء . كل هذا من غير فرار حتى لا بطمع فيهم العدو ، ومن غير قتال حتى لا يهلك أصحابه ويقبحنهم فيما لا طاقة لهم به . فلما توغل في الصحراء ، ارتد المشركون ، ورجع المسلمون مالمين إلى المدينة ، لم يقتل منهم غير ثمانية في قول ، واثني عشر في قول آخر . وهذا ولا شك أمر عظيم جداً ، ذلك أن جيشين متعاديان في الدين ، أحدهما فئة قليلة تقاتل فئة كثيرة ، فلا يقتل من الفئة القليلة إلا هذا العدد فحسب . وفي هذا دليل على ما ذهبنا إليه من أن عدد المشركين لم يكن بمثل تلك الكثرة التي حدثنا عنها كتاب المغازي . وربما لم يشترك في القتال ذلك اليوم كل جموع المشركين ، لأنها لو اشتركت كلها لكان تصديق ذلك عسيراً .

لما بلغت المدينة أنباء عودة الجيش وعلم النبي بمقتل أصحابه الثلاثة ، زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وكانوا من

أعز أصحابه على نفسه ، حزن حزناً شديداً حتى إنه لم يتمالك عبرات أن تتحادر على خديه . توجه بنفسه إلى بيت جعفر بن أبي طالب . وكانت زوجته أسماء بنت عميس قد قامت بشئون البيت فعمجت وغسلت بنيتها ودهنتهم ونظفهم ، فقال : ائتني ببني جعفر . فلما أتته بهم شمهم وذرفت عيناه ، فاضطربت أسماء وقالت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ! ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال : نعم أصيبوا هذا اليوم . فقامت تصيح واجتمع إليها النساء ، وخرج محمد إلى أهله فقال : « لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم » .

ولما دنا الجيش من المدينة خرج المسلمون للقائه ، وأسرع الصبيان في أعقابهم ، وأقبل محمد على دابة مع القوم ، ونظر إلى الناس فقال : خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر . فأتوا له بعبد الله بن جعفر فحمله بين يديه ، والناس يصبون على الجيش التراب ويقولون : يا فرار ، فررت في سبيل الله ! فقال محمد : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله » . ثم إنه أثنى على مهارة خالد .

ولقد صدق قوله هذا كل الصدق ، فقد كروا بعد ذلك بأقل من عشر سنين على أكبر إمبراطوريتين في العالم ، فما هي إلا أعوام تعد على أصابع اليد الواحدة حتى كان ملك الروم والفرس كأمس الناهب .

وفي أعقاب سرية مؤتة ، بعث محمد في جمادى الآخرة سرية في ثلاثمائة من الأنصار ، والمهاجرين إلى ذات السلاسل من مشارف الشام في بلى وعبد الله ومن يليهم من قضاة . ويقول بعض رواة السيرة إن هذه السرية وجهت إلى جمع من قضاة بلغ الرسول أنهم تجمعوا في ديارهم وراء وادي القرى ليغيروا على المدينة ، ويقول آخرون إنه أرسل عمرو بن العاص ليستنفر هؤلاء العرب إلى الإسلام . وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بني بلي . وقصد من تأمير عمرو بن العاص أن يتألف بذلك قلوبهم .

سار عمرو على أية حال يقود رجاله حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل - وبه سميت هذه السرية بذات السلاسل - خاف كثرة عدوه فبعث إلى محمد يستمده ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين من المهاجرين الأولين ، فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : « لا تختلفا » .

فلما قدم أبو عبيدة على عمرو بن العاص ، قال له عمرو : إنما جئت مدداً لي ، فقال له أبو عبيدة : لا ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه .

وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا ، فلما أصر عمرو ابن العاص على أنه الأمير وأن أبا عبيدة مدد له ، قال أبو عبيدة : يا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لي « لا تختلفا » وإنك إن عصيتني أطعتك . فقال له عمرو : فلاني أمير عليك وإنما أنت مدد لي . فامثل أبو عبيدة للأمر ، وصلى عمرو بن العاص بالناس ، وتولى أمر الجيش في كل صغيرة وكبيرة . حتى لقد قيل إنه لما أراد رجال من الجيش إيقاد نار ففنعهم عمرو ، وأنكر ذلك عليه عمر بن الخطاب ، قال له أبو بكر : إنما بعثه رسول الله علينا رئيساً لمعرفته بالحرب أكثر منا فلا تعصه ، فامثل للأمر . والحق أن عمرو بن العاص كان داهية من كبار الدهاة الذين لا يتكرر مثلهم كثيراً . فقد وطىء بلاد بلي ودوخها ، وكان كلما انتهى إلى موضع قيل له إن به جمعاً ، لم يجد به داعياً ولا مجيباً ، ذلك أن الأعراب كانوا إذا سمعوا بمقدمه تفرقوا ، وظل على هذه الحال حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلي وعذرة وبلقين . وأخيراً التقى بجمع صغير ، فإنا أن دار القتال ساعة وحمل عليهم المسلمون حتى انهزم الأعراب وتفرقوا في الصحراء .

وأقام عمرو بجيشه أياماً بتلك البلاد لا يسمع بجمع لهم ولا مكان صاروا فيه حتى يهاجمهم . وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم فينحرون ويأكلون .

ولم يكن شيء أكثر من ذلك ، أى لم تكن هناك غنائم تقسم ، فقفل راجعاً بالجيش ظافراً .

ومن طريف ما يروى أن عمرو بن العاص احتلم وهم في الطريق في ليلة باردة كأشد ما تكون من البرد . فلما أصبح أشفق على نفسه أن يغتسل في هذا البرد فتيّم وصلى بالناس صلاة الصبح . فلما عادوا إلى المدينة وجلسوا إلى محمد يحدثونه عن غزوتهم ، وأخذ يسألهم عن أنباء سفرتهم كعادته إذا أرسل سرية هنا أو هناك ، أخبروه بما كان من عمرو بن العاص عند ما منعهم من إيقاد النار ، ونهيه لهم عن اتباع العدو ، وكانوا يريدون اقتفاء أثره فرفض ، ثم صلاته جنبا . فلما سأله النبي عن ذلك قال : منعهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قلوبهم فيطمع فيهم ، ونهيتهم عن اتباع العدو خشية أن يكون له كمين ، أما صلاتي جنبا فوالذي بعثك بالحق لو أني اغسلت لمت ، لم أجد برداً قط مثله ، وقد قال تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً . » (١) فضحك النبي عندئذ ولم يقل شيئاً .

وفي رجب من نفس السنة أى سنة ثمان من الهجرة ، بعث النبي سرية إلى شاطئ البحر عدتها ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار بقيادة أبي عبيدة ابن الجراح . وفي شعبان أرسل أبا قتادة بن ربعي الأنصاري إلى خضرة وهي أرض محارب بنجد على رأس عشرين مقاتلاً أو نحو ذلك للإغارة على غطفان . وفي رمضان سار بنفسه على رأس أكبر جيش عرفه المسلمون حتى ذلك الحين ، ووجه إلى مكة .

الفصل الثاني والعشرون

غزوة الفتح الأعظم

فتح مكة

لم يعرف أحد محمداً إلا صادقاً صغيراً وكبيراً ، وإلا وفياً بعهدده صغيراً وكبيراً ، وإلا برأ بأهله وبالناس خيماً صغيراً وكبيراً . فأى شيء حدث الآن ليخرج على رأس أكبر جيش إسلامي عرف حتى ذلك الحين ليغزو مكة ، وعهد الحديبية لم تنقض مدته بعد ؟ أينقض محمد العهد ؟

نعلم مما سبق أنه جاء في صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهدده دخل ، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل . فدخلت خزاعة في عقد محمد وعهدده ، ودخل بنو بكر في عقد قريش وعهدهم . غير أن بني بكر بعد نحو سبعة عشر أو ثمانية عشر شهراً ، هاجموا خزاعة ليلاً عند ماء يقال له الوثير ، وهو قريب من مكة ، فأعانتهم قريش بالخيال والسلاح وقتلوا معهم ظناً منهم أن الليل من شأنه أن يخفي هذا العمل القبيح . عندئذ خرج بديل بن ورقاء في نفر من أصحابه حتى قدموا على محمد في المدينة ، وأخبروه بما أصيب منهم ، وما كان من مناصرة قريش لبني بكر عليهم . وأنشده عمرو بن سالم أبياتاً من الشعر يستنصره بها على بني بكر ، قال :

يا ربِّ إني ناشد محمداً	حلفَ أيه وأبيننا الأتلا
قد كنتم ولداً وكننا والدأ	ثُمَّتْ أسلمنا فلم نزع يدا
فانصر رسول الله نصراً أبدا	وادعُ عبادَ الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا	إن سيمُ خَسَفًا وجهُهُ تربدا
في قبيلتي كالبحر يجري مزبدا	إن قريشاً أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لي في كداء رسدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا فهم أذل وأقل عدا
هم يبتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعاً وسجدا
فقال عندئذ محمد : نصرت يا عمرو بن سالم .

أما السبب الذي أدى إلى نشوب هذا القتال فيرجع إلى خصومات ومشاحنات وقعت بين خزاعة وبنى بكر قبل الإسلام . فيقال إن رجلاً من بنى الحضرمي اسمه مالك بن عباد من حلفاء الأسود بن رزن كان قد خرج تاجراً . فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله . فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه . فعدت خزاعة على بنى الأسود بن رزن الدثلي . وهم مفخر بنى كنانة وأشرفهم . سلمى وكلثوم وذوئيب ، فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم .

وجاء الإسلام وهم على هذا الحال . فلما كان يوم الحديبية دخل بنو بكر في عقد قريش . ودخلت خزاعة في عقد محمد ، وكانت الهدنة ، وعند ذلك اغتنمها بنو الدليل من بنى بكر . وخزاعة مطمئنة ، وأرادوا أن يصيبوا منها ثأراً ، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في قومه وهو يومئذ سيدهم وقائدهم . ولكن لم تكن كل بنى بكر تتبعه . فبيت خزاعة وهم على ماء لهم يقال له الوتير فأصابوا منهم رجلاً واقتتلوا . ثم إن قريشاً أمدت بنى بكر بالسلاح . وقاتل معهم جماعة من قريش بالدليل وهم مستخفون حتى ساقوا خزاعة إلى الحرم . حتى لجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء بمكة . وإلى دار حليف لهم يقال له رافع .

ثم إن القوم خرجوا راجعين إلى مكة . فلقوا أبا سفيان عند مكان يقال له عسفان . وكانت قريش قد شعرت بنقضها للعهد وتخوفت مغبة ذلك ، فأرادت منه أن يطلب من محمد أن يشهد لهم العقد ويزيد في المدة . فلما لقي أبو سفيان بديلاً قال له : من أين أقبلت يا بديل ؟ فقال : سرت في خزاعة

في هذا الساحل في بطن هذا الوادي . غير أن ذلك لم يقنع أبا سفيان ، فما شك في أنه أتى محمداً ، فقام إلى حيث بركت ناقته فأخذ من بعرها ففتته فرأى فيه النوى ، وهو من علائف يثرب فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

وقدم أبو سفيان على محمد في المدينة ، وكان طبعياً أن يذهب إليه في دار ابنته أم حبيبة . فلما هم بأن يجلس على فراش النبي طوته ، فقال : يا بنية ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ فقالت : هو فراش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراشه . فقال : يا بنية والله لقد أصابك بعدى شر ! وخرج .

ثم إنه أتى النبي وطلب منه أن يشدد العقد ويزيدهم في المدة . فسأله محمد : ولذلك قدمت ؟ هل كان من حدث قبلكم ؟ فقال أبو سفيان : معاذ الله ! نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبذل . فلم يزد محمد عندئذ على ذلك شيئاً ، وظل صامتاً .

فلما رأى أبو سفيان أن النبي لم يجبه إلى طلبه ، ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم محمداً ، فلم يقبل . فأتى عمر بن الخطاب ، فقال عمر : أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فوالله لو لم أجد إلا التل لجاهدكم به . فخرج من عنده وذهب إلى علي بن أبي طالب فوجده مع زوجته فاطمة بنت محمد ، وعندهما الحسن وكان لا يزال غلاماً ، فقال : يا علي إنك أمس القوم بي رحماً وأقربهم مني قرابة ، وقد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلى محمد . فقال علي : ويحك أبا سفيان ! والله إذا عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت أبو سفيان إلى فاطمة فقال : يا بنت محمد هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ فقالت :

والله ما بلغ ثبني ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير^(١) أحد على النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال : يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت فانصحنى . قال : والله ما أعلم شيئاً يغني عنك ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . فقال : أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟ قال : لا والله ما أظن ، ولكن لا أجد لك غير ذلك .

فدخل أبو سفيان على محمد فقال : يا محمد إني قد أجرت بين الناس ، لا والله ما أظن أن يخفروني أحد ولا يرد جوارى . فما كان من النبي إلا أن قال : أنت تقول يا أبا حنظلة . عندئذ خرج أبو سفيان لتوه وقفل راجعاً إلى مكة .

فلما قدم مكة قالت له قریش : ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟ قال : لا والله لقد أتني على ، وقد تبعت أصحابه فارأيت قوماً للملك عليهم أطوع منهم له ، غير أن علي بن أبي طالب قد قال لي : التمس جوار للناس عليك ولا تجر أنت عليه وعلى قومك ، وأنت سيد قریش وأكبرها وأحقها ألا تخفر جواره . فقممت بالحوار ثم دخلت على محمد فذكرت له أني أجرت بين الناس وقلت : ما أظن أن تخفروني . فقال : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة . فقالوا : رضيت بغير رضى ، وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً ، وإنما لعب بك على لعمر الله ! ما جوارك بجائز وإن إخفارك عليهم هين .

ثم قام فدخل على هند زوجته ، فلما حدثها بما صنع قالت : قبحك الله من وافد قوم ! فما جئت بخير .

(١) نحن نعلم أنه إنما يجير على المسلمين أدناهم ، وقد قبل الرسول جوار ابنته زينب عندما أجارت زوجها أبا العاص بن الربيع وقبل جوار غيرها ، ولكن مفهوم كلام فاطمة هنا يعني أن المراد بقبول جوار أدنى المسلمين هو جواره في فرد واحد أو نفر يسير ، أما من يجير عدداً كبيراً من غزو الإمام إمام فليس له ذلك .

لم تمض أيام حتى بدأ النبي يعد عدته للغزو ، فأمر عائشة أن تجهز للسفر وأن تخفي ذلك . فبينما هي في دارها وعندها حنطة تنسف وتنقئ إذ دخل عليها أبو بكر ، فقال لها : يا بنية لم تصنعين هذا الطعام ؟ فسكتت . فقال : أريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغزو ؟ فصمتت . فقال : يريد بني الأصفر - أى الروم - ؟ فصمتت ، قال : فلعله يريد أهل نجد ؟ فصمتت . قال : فلعله يريد قريشاً ؟ فصمتت .

فلما دخل محمد قال له : يا رسول الله أتريد أن تخرج مخرجاً ؟ قال : نعم . قال : فلعلك تريد بني الأصفر ؟ قال لا . قال : أتريد أهل نجد ؟ قال : لا . قال : فلعلك تريد قريشاً ؟ قال : نعم . فقال أبو بكر : يا رسول الله أليس بينك وبينهم مدة ؟ قال : ألم يبلغك ما صنعوا ببني كعب ؟ ثم إنه أذن في الناس بالغزو وأمرهم بالتجهز ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة . فقدمت جموع من قبائل غفار ومزينة وأشجع وجهينة ، غير أنه أخفى عن الناس مقصده حتى لا يشيع الخبر فيبلغ قريشاً فتتجهز للقائه ، وكان لا يريد حرباً في مكة ، بل يريد أن يبيت قريشاً من غير حرب ولا لإراقة دماء ولا مساس بحرمتها . فكان يدعو ربه قائلاً : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها .

غير أن حاطب بن أبى بلتعنة وهو من أوائل المهاجرين ومن أصحاب الرسول في بدر ، قد سارع في لحظة من تلك اللحظات التي تضعف فيها النفوس ، وكتب كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه أن محمداً قد نفر ، إما إليكم ، وإما إلى غيركم ، فعليكم الحذر . ودفع بالكتاب إلى امرأة قيل إنها من مزينة ، وقيل إنها سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه ضميرتها وخرجت به إلى مكة . غير أن محمداً علم بأمر هذا الكتاب ، فبعث في أثرها على بن أبى طالب ،

والزبير بن العوام ، وقال لهما : أدركا امرأة قد كتبت معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم . فخرجوا وراءها حتى أدركاها في بعض الطريق ، فاستنزلاها من فوق بعيرها وقتلوا عن الكتاب في الرحل فلم يجدوا فيه شيئاً ، فقال لها على : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كذبنا ، ولتخرجن هذا الكتاب أو لنكشفنك . فلما رأت الجلد منه قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت صفائر رأسها واستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فرجعا به .

استدعى النبي حاطباً فقال له : يا حاطب ما حملك على هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل علي ، إني كنت امرأة ليس لي في قريش من أصل ولا عشيرة ، ولي بين أظهرهم ولد وأهل ، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يجمعون بها أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام .

فقال محمد : أما إنه قد صدقكم . فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال : أنقتل رجلاً من أهل بدر ؟ وعفا عنه .

وأنزل الله في حاطب قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » (١) إلى آخر القصة .

وفي العاشر من رمضان سنة ثمان من الهجرة ، خرج النبي على رأس جموع غفيرة من المسلمين يريد مكة ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم . وكان كلما تقدم نحو مكة انضمت إليه جموع جديدة من سائر

قبائل المسلمين الذين استنفروهم للخروج معه ، حتى أربى الجيش على عشرة آلاف مقاتل أو نحو ذلك . وسار الناس وهم صائمون حتى إذا بلغوا الكديد أجهدهم الصوم . فقال بعضهم لمحمد إن الناس قد اشتد عليهم الصوم ، وإنما ينظرون كيف فعلت . فدعا بماء فشرب وهو على ناقته والناس ينظرون ، يعلمهم بذلك أنه قد أفطر . فأفطر المسلمون .

وما أن بلغوا الجحفة حتى لقيهم العباس بن عبد المطلب مهاجراً بعياله ، وكان حتى ذلك الحين لا يزال مقيماً بمكة متولياً سقاية الحاج والنبي راض عنه . ويقال بأنه كان قد أسلم سراً . ومن اتى الرسول أيضاً في تلك الأثناء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبي أمية ، إذ كانا قد خرجنا من مكة أيضاً للقائه فلقياه بقيق العقاب والتسا للدخول عليه . ولعله كانت قد بلغت قريشاً أبناء الزحف الإسلامي ، فخرج هؤلاء يطلبون الأمان من محمد قبل أن تدهم مكة بجيوشه فلا يكون لهم عذر بعد ، وكانا ممن أساء إليه من أهله في أثناء إقامته بمكة يدعو الناس إلى دين الحق . فلما التمسوا الدخول عليه كلمته زوجته أم سلمة فيهما فقالت : يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك . قال : لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتكت عرضى ، وأما ابن عمتى فهو الذى قال لى بمكة ما قال (١) .

فلما بلغهما أنه يرفض لقاءهما قال أبو سفيان وكان معه بنى له : والله ليأذنن لى أو لأخذن بيد بنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فلما سمع محمد بذلك ، تجأت العاطفة العربية الجياشة إزاء الأهل والأقرباء بأجلى معانيها . فضلاً عما عرف به من البر بأهله ، فرق لهما وأذن لهما فدخلوا عليه وأسلما ، وأنشده أبو سفيان قوله فى إسلامه واعتذر إليه بما كان قد مضى من فعالة ، وعفا عنهما .

لما انتهى محمد إلى مر الظهران نزل فيه فأقام ، وأغلب الظن أنه أراد

(١) وهو الذى قال له بمكة : والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله قد أرسلك .

أن يستأخر بعض الوقت عن الوصول إلى مكة لعل أهلها يقدمون عليه ويستأمنونه ويدخلون في الإسلام ، فلا يدخل مكة عنوة ، فيقتل الأهل ويستباح الحرم .

روى بعض الصحابة من أخبار تعايشهم في تلك الأيام ما يدل على روح البساطة والصفاء النفسى الذى انطبع به هذا المجتمع . روى جابر أنهم عندما نزلوا بمر الظهران أخذ الناس يجتنون الكباث وهو ثمر الأراك^(١) ، وكان النبي يقول لهم : عليكم بالأسود منه فإنه أطيب . فقالوا : يا رسول الله أكنت ترعى الغنم ؟ قال : نعم ، وهل من نبي إلا وقد رعاها . وكان الرجل منهم إذا أصاب حبة طيبة منها قذفها في فيه ، وكانوا ينظرون إلى دقة ساقى ابن مسعود وهو يرقى الشجرة ويضحكون ، فقال لهم محمد : تعجبون من دقة ساقية ؟ فوالذى نفسى بيده لهما أثقل في الميزان من أحد !

وكان ابن مسعود إذا اجتنى شيئاً جاء به وخياره فيه إلى النبي . قال في ذلك :

هذا جناى وخيارى فيه إذ كل جان يده إلى فيه

وروى أنس بن مالك أنه وجماعة من أصحابه أثاروا أرنباً وسعوا إلى اصطياده فأدركها أنس فأتى بها إلى أبي طلحة فذبحها ، وبعث إلى محمد بوركها فقبله . وكان عليه السلام سمحاً جواداً كريماً رقيقاً مع أصحابه ، يقبل منهم الهدية مهما صغرت ومهما قلت قيمتها ويكافئ عليها .

ولما خيم الظلام في تلك الليلة أمر محمد أصحابه فأوقدوا نيراناً لم ير أحد مثلاً من قبل . ويقال إنهم أوقدوا عشرة آلاف نار ، وذلك حتى يهرب قريشاً فتأتى طائفة مختارة بدون حرب ، وتظل مكة حراماً كما كانت ، وكما ابتغى لها أن تكون .

والحق أن قريشاً كانت قد انهزمت فعلاً ولم يعد من شيء إلا أن تستسلم ،

(١) ضرب من الشجر ترعاه الماشية ، له ثمر كعناقيد العنب .

ولكن بصورة تحفظ لها ماء وجهها على الأقل . لقد أضعفها عهد الحديبية كما قلنا ، بل إنه أفصح عن ضعفها الشديد إزاء محمد . ثم هزت عمرة القضاء هيبتها ، وأخيراً ضعفتها سفارة أبي سفيان عند ما أراد أن يشد العقد ويزيد من مدة الحديبية ، فعاد خائباً خاسراً مرفوضاً طلبه . عندئذ كانت قريش في واقع الأمر قد نزلت إلى الخضيض . كل هذا كان من شأنه أن يشير بوضوح إلى أن نهاية قريش قد أصبحت محتومة ، وأن دخول محمد على رأس المسلمين مكة أصبح أمراً لا يُشك فيه ، وكان العباس بن عبد المطلب عند ما رأى تلك النيران وقدر قوة المسلمين ، قد دخل في روعه أن مكة هالكة لا محالة إن هي لم تستأمن النبي . وهذا أمر لم يكن يرتضيه العباس ولا ابن أخيه .

قال العباس : واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر . وهنا يروى لنا العباس كيف استأمنت قريش ، يقول : جلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء فخرجت عليها حتى جثت الأراك فقلت : لعل أجد بعض الخطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ليخرجوا فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة . فوالله إنى لأسير عليها وأتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان^(١) ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً . فيقول بديل : هذه والله خزاعة تحمّسها الحرب . فيقول أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . فعرفت صوته فقلت : يا أبا حنظلة ؟ فعرف صوتي فقال : أبو الفضل ؟ قلت : نعم . قال : ما لك فداك أبي وأمي !

(١) وكان أبو سفيان قد خرج من مكة مع حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء فيجسسون الأخبار لهم يجدون خبراً أو يسمعون من المسافرين شيئاً .

قلت : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس . فقال : واصباح قريش والله ! فما الحيلة فذاك أبي وأمي ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله فأستأمنه لك . فركب خلني ورجع صاحباه . وكنت كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا : عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام إلى . فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد .

فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه غمر فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلاضرب عنقه . فقلت : يا رسول الله إني قد أجزته . ثم جلس رسول الله فأخذت برأسه فقلت : والله لا يناجيه الليلة دوني رجل . فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مهلا يا عمر ! فوالله لو كان من رجال بني عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف . فقال : مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ! وما بي أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب . فقال محمد : « اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به » .

فذهبت به إلى رحلي فبات عندي ، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه قال : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ » فقال : بأبي أنت وأمي ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد !

قال : « ويحك ! يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » .
فقال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه فإن فى
النفس منها حتى الآن شيئاً !

فقال له العباس : ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً
رسول الله قبل أن تضرب عنقك ؟
فشهد شهادة الحق فأسلم .

فقال العباس للنبي : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر
فاجعل له شيئاً . قال : « نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » .
فقال أبو سفيان : وما تسع دارى ؟ فقال : « ومن دخل الكعبة فهو آمن » .
قال : وما تسع الكعبة ؟ فقال : « ومن دخل المسجد فهو آمن » . قال :
وما يسع المسجد ؟ فقال : « ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » . فقال
أبو سفيان : هذه واسعة .

فلما سار أبو سفيان أمر محمد العباس أن احبس أبا سفيان عند مضيق
الجلل حتى ينظر إلى المسلمين . ولقد أراد من ذلك أن يرى أبو سفيان بنفسه
عزة المسلمين وقوتهم فيحدث قريشاً بها عند عودته فتتكسر شوكتهم نهائياً
فلا يطمعون فى قتال . فصحب العباس أبا سفيان ووقف معه حيث أمره
محمد ، فكان كلما مرت بهم قبيلة يسأل عنها العباس فيقول : بنى فلان ،
حتى إذا مرَّ محمد فى كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى
منهم إلا الخندق من الحديد ، قال : سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء ؟
قال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار .
قال أبو سفيان : ما لأحد هؤلاء من قبيل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد
أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ! قال : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال :
تعم إذن . قال العباس : النجاء إلى قومك .

فأسرع أبو سفيان إلى مكة وصاح بأعلى صوته فى قريش : يا معشر

قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة ، وكانت امرأة عنيدة جداً مقدامة لا تهاب شيئاً ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأحس (١) . قبح من طليعة قوم .

فقال أبو سفيان : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ! وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فنفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وتقدم جيش المسلمين نحو مكة ، حتى إذا وصل إلى ذى طوى ، ورأى النبي مكة هادئة مستسلمة ، وقف على راحلته وعلى رأسه عمامة من شقة برد حمراء ، قد ارتد طرفها على وجهه ، وانحنى انحناء كبيرة خافضاً رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه به من الفتح ، حتى لقد كادت لحيته تمس واسطة الرحل (٢) .

يا لجلال تلك اللحظات ، ويا لروعة هذا النصر .

هذه قريش تستسلم أخيراً عند قدميه ، وهذه مكة مهبط الوحي ومقر البيت العتيق تستقبله بالراحتين ، وكأنى بها ودموع الفرح على خديها ترحب بهذا القادم العظيم ، بهذا النبي الأُمى ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، ومعجزة الإنسانية ، وتقول له : تقدم فخذنى ، أنا طوع بنائك وتحت أمرك . تقدم فاعتل شامخ أنحأى ، وتربع على قمة مجدى . أستغفر الله أن أكون إلا مدينتك ، مستقط رأسك ، ومهبط وحيك ، ومنزل سعدك .

(١) الحميت : وعاء السم ، والدسم : السمين ، والأحس : الكثير اللحم .

(٢) ما يوضع على ظهر الجمل ليركب .

اغفر لى يا أعظم البشر ، ويا أحن البشر ، ويا أرق البشر ، سابق ذنوبى ،
واطلب لى من السماء العفو عن أخطائى ، والتغاضى عن جهالاتى ، والتغافل
عن سفاهاتى . أنت نبي ومعلمى وسيدى . ها أنا ذا لك فخذنى .

فرق النبي جيشه أربع فرق ليدخلها من أربع جهات . وأمر أمراء الفرق
ألا يقاتلوا إلا إذا أكرهوا على القتال . فكان الزبير بن العوام أمير الفرقة التى
أمرها أن تدخل مكة من جهة جبل كدى بأسفل مكة ، وسعد بن عباد
الخزرجى أمير الفرقة التى أمرها بالدخول من جهة جبل كداء بأعلى مكة ،
وأبو عبيدة بن الجراح أمير المهاجرين الأولين ، ومعهم النبي ليدخلوا
مكة محاذين لجبل هند ، وخالد بن الوليد أمير الفرسان ، وأمره أن يدخلها
من جهة الليث حيث يقيم أشد قريش عداوة للرسول وعلى رأسهم عكرمة بن
أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية .

ويقال بأن سعد بن عباد عند ما تأهب لدخول مكة بفرقته قال :
اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمه ، اليوم أذل الله قريشاً . فلما شاع
ذلك بين الناس ، أسرع عمر بن الخطاب إلى محمد فقال : يا رسول الله
اسمع ما قال سعد بن عباد ، ما تأمن أن يكون له فى قريش صولة ! وعندئذ
أمر محمد بالراية فأخذت من سعد بن عباد ، غير أنه أحب ألا يغضبه ،
فأعطيت لابنه قيس بن سعد بن عباد . ثم إن محمداً نهى عند ذاك عن القتل
إلا سبعة عشر شخصاً لم تدركهم رحمته على سعتها ، فأمر بقتلهم ولو وجدوا
متعلقين بأستار الكعبة .

أطبقت جيوش الإسلام على مكة من أربع جهاتها ، ومكة خاشعة
طائعة مستسلمة ، لم يعكر صفو هذا السلم غير جماعة من المتعصبين الموغلين
فى عداوتهم للإسلام ونبي الإسلام ، على رأسهم عكرمة بن أبى جهل ،
وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، فحملوا السلاح فى وجه خالد بن
الوليد ، فهاهى إلا ساعة حتى كان خالد قد قتل منهم اثني عشر أو ثلاثة
عشر رجلاً ، ثم انهزموا شر هزيمة وفر عكرمة وسهيل وصفوان .

ولما رأى محمد تلماع السيوف وخالد مجد في القتال قال : ألم أنه
عن القتال ؟ قيل : يا رسول الله إن خالد بن الوليد قاتل فقاتل ، فقال :
قضاء الله خير .

ولم يقتل من فرسان خالد غير ثلاثة منهم اثنان قتلا خطأ إذ شذا عن
طريقه . وكان شعار المهاجرين يوم الفتح : يا بنى عبد الرحمن . وشعار
الخزرج : يا بنى عبد الله ، وشعار الأوس : يا بنى عبيد الله .

دخل محمد بفرقة آمنة مطمئناً لم يعترضه عائق ولا مانع ، ودخلت
الفرقتان الأخريان بغير قتال أيضاً . وكان دخوله مكة من أواخر ، وكان
مردفاً أسامة بن زيد ، ولقد نزل بأعلى مكة فضربت له خيمة ، فيها من
زوجاته ميمونة وأم سلمة .

وكان منادى محمد ينادى في مكة عند دخول الجيوش : من دخل
دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه
بابه فهو آمن . وبعد أن استراح محمد قليلاً في خيمته ، قام بعد أن اطمأن
الناس ، فسار وبجانبه أبو بكر وهو يقرأ الفتح حتى بلغ البيت العتيق ،
فطاف به سبعاً وهو على ناقته . وكان في يده محجن يلمس به الحجر الأسود .
وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنماً . فضلا عن هبل بداخلها ، فجعل
يشير إليها بالمحجن الذي في يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل
كان زهوقاً » . وأمر بتكسير الأصنام فألقيت إلى وجوها وظهورها ،
ودعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ، وأمر بفتحها وإخراج الأصنام
منها ، فلما أخرجت صورة إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزام قال :
« قاتلهم الله ! لقد عاشوا ما استقسما بها قط » . وكان في الكعبة صور فأمر
عمر بن الخطاب أن يحجوها قبل عمر ثوباً ومحاًها به . فدخاها وما فيها
شيء منها .

فلما فرغ أتى الصفا فعلا عليه حتى نظر إلى البيت ، ثم رفع يده وجعل

يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو ، وقد أهدت به الأنصار . فلما رأوا ذلك قالوا فيما بينهم : أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ فلما فرغ من دعائه قال : بماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال : معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم .

ثم إنه عاد إلى الكعبة فوقف ببابها وخطب في الناس أول خطبة خطبها بعد الفتح ، وفيها بين كثير من الأحكام الإسلامية ، ثم قال : « يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » . ثم تلا الآية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » (١) . ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم جلس في المسجد ، وأمر بفتح الكعبة فأعطاه لعمان بن طلحة لتكون له سدانتها كما كانت لأبيه ، وقال : هاك مفتاحك يا عثمان فاليوم يوم بر ووفاء . وجعل للعباس السقاية كما كانت في يده . ودعا بلالا وأمره أن يصعد فوق الكعبة فيؤذن ، فصعد بلال وأذن :

« الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة حى على الصلاة ، حى على الفلاح حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

حدث هذا كله في صبيحة يوم واحد ، وقضى كفاح مريـر استمر أكثر من عشرين سنة على عبادة الأصنام ، ولم يعد يُنادى من فوق الكعبة إلا باسم الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له . انتصر محمد وانتصر دينه . أما قريش فوقفت مذهولة لا تملك من أمرها كثيراً ولا قليلاً ، وهى تنظر إلى هذا كله

مفغورة أفواه كبيرهم وصغيرهم دهشة وعجباً مما يحدث في هذه الساعات .
ولقد أخذ منظر بلال وهو يؤذن من فوق الكعبة باب رجل من قریش فهمس
للحارث بن هشام مستنكراً . وكان لا يزال على شركه : ألا ترى إلى هذا
العبد أين صعد ؟ فقال الحارث : دعه فلم يكن الله يكرهه فسيغيره . أما
المسلمون فلمنهم لم يزالوا ذلك اليوم في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى
أصبحوا .

ثم إن الناس توافدوا يبايعون محمداً على الإيمان بالله وشهادة أن لا إله
إلا الله وأن محمداً رسول الله . فأتى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه محمد
قال : هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه ؟ قال أبو بكر :
يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه . فأجلسه بين يديه
ثم مسح صدره ثم قال : أسلم . فأسلم ، وفرح كثيراً بإسلامه ، وجاء رجل
يبايعه وهو يرتعد خوفاً ووجلًا فقال له : « هون عليك فلاني لست ماركاً ،
إنما أنا ابن امرأة من قریش كانت تأكل القديد » .

فلما فرغ منبيعة الرجال بايع النساء . وكانت هند بنت عتبة زوج
أبي سفيان فيهن متنقبة وجللة تخفى حديثها خشية أن يعاقبها بما صنعت بحمزة
يوم بدر . فلما دنين منه ليبايعهن قال : « بايعنني على ألا تشركن بالله
شيئاً » . فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال .
ثم قال : « ولا تسرقن » فقالت : والله إني كنت لأصيب من مال أبي سفيان
الهنة بعد الهنة . وما كنت أدري أكان ذلك علينا حللاً أم لا ؟ فقال
أبو سفيان وكان شاهداً لما تقول : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل .
وعندئذ عرفها محمد فقال « وإنك لهند بنت عتبة » قالت : نعم . فاعف عما
سلف عفا الله عنك . ثم قال : « ولا يزنين » . فقالت هند : يا رسول الله
وهل تزني الحرة ؟ ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » فقالت : قد رببناهم
صغاراً أفنقتلهم كباراً ؟ فأنت وهم أعلم ! فضحك عمر بن الخطاب حتى
بدت نواجذه . ثم قال : « ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن » ،

فقلت : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل . ثم قال : « ولا يعصينني » فقالت : في معروف . فقال عندئذ لعمر بن الخطاب « بايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » . فبايعهن عمر وكان محمد لا يوافق النساء ، ولا يمسه إلا امرأة أحلها الله له ، أو ذات محرم منه . أما الذين أهدر محمد دماءهم ، فقد ضاقت بهم الأرض على سعتها ، فيها هي عشرة آلاف سيف مملوذة إليهم يجد أصحابها كل الجدة في طلبهم . فأين النجاء ، وكيف المفرة ، وإلى أين ؟ لقد فروا في كل وجه واستخفوا هنا وهناك ، ولكن على الرغم من أن هذا النفر من الناس قد آذوا الرسول أشد الإيذاء في شخصه أو في دينه أو ارتكبوا من الجرائم ما لم يشأ أن يغفره لهم ، فإن رحمته وبره وسعة صدره قد وسعت هذا كله ، فاستطاع معظمهم أن يستأمن منه ، ولم تعاجل السيوف غير أربعة نفر منهم فقتلوا بأعمالهم ، لم يقتل غيرهم . ومن مشاهير الذين عفا عنهم العفو الجميل سعد بن أبي سرح ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وكعب بن زهير . أما سعد بن أبي سرح فكان يكتب الوحي ثم ارتد وافتري عليه كذباً فكان يقول : إن محمداً كان يأمرني بأن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم ، فيقول كل جيد ! وكان سعد أخا عثمان بن عفان من الرضاعة ، فلما دخل محمد مكة وقد أهدر دمه ، فر إلى عثمان فأخفاه عثمان حتى هدأ الناس ثم جاء به ، يستأمن له من محمد ، وقال له : يا رسول الله قد أمنت فبايعه ، فأعرض عنه ثلاث مرات ثم قال : نعم . فلما انصرف مع عثمان قال النبي لمن حوله : « أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رأي قد صمت فيقتله » فقالوا : يا رسول الله هلا أومأت إلينا ؟ فقال : « إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » . وأما عكرمة بن أبي جهل فكان من ألد أعداء محمد وأكثرهم إيذاء له . هرب وأراد أن يركب البحر إلى الحبشة ، فاستأمنت له زوجته وبنت عمه أم حكيم بنت الحويرث ، وكانت قد أسلمت قبل الفتح ، فأمها محمد فخرجت في أثره حتى لحقته

فقلت : جئتك من عند أبر الناس وخيرهم ، لا تهلك نفسك ، وإني قد استأمنتك لك ، فرجع ، فلما رآه محمد بش له وفرح ووثب قائماً وقال : مرحباً بمن جاءنا مهاجراً مسلماً . ثم إن عكرمة أسلم بين يديه وأصبح من خيرة المسلمين وأغيرهم على الإسلام .

وأما صفوان بن أمية فخرج هو الآخر يريد أن يركب البحر إلى الحبشة . فاستأمن له عمير بن وهب ، إذ جاء محمداً فقال له : يا نبي الله إن صفوان ابن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر ، فأمنه يا رسول الله صلى الله عليك . فقال : هو آمن . فقال : يا رسول الله اعطني آية يعرف بها أمانك . فأعطاه عمامته التي دخل فيها مكة . فلبقه عُمر وهو بهم بركوب البحر فقال : يا صفوان فذاك أبي وأمي الله الله في نفسك أن تهلكها ، هذا أمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد جئتك به . قال : ويلك اعزب عني فلا تكلمني . قال : أي صفوان فذاك أبي وأمي أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس ، ابن عمك عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك . قال : إني أخافه على نفسي . قال : هو أحلم من ذلك وأكرم . فرجع معه فقدموا إلى محمد ، فقال صفوان : إن هذا يزعم أنك أنتني ؟ قال : صدق . قال : فاجعلني بالخيار فيه شهرين . قال : أنت بالخيار أربعة أشهر .

أما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية فقد استجارا بأُم هانئ بنت أبي طالب . فدخل أخوها على عليهما يريد قتلهما فنعتهم ، وجاءت محمداً فقالت : يا نبي الله أمنت رجلين من أحماني فأراد علي قتلهما . فقال النبي : قد أجزنا من أجزت يا أم هانئ .

أما كعب بن زهير ، وهو ممن كانوا يهجون النبي ، فجاء المدينة بعد أن عاد إليها محمد ، وأسلم بين يديه وأنشده قصيدته الشهيرة التي مطلعها « بانئت سعاد » التي يقول فيها :

تسعى الغواة جنبابها وقولهم
وقال كل صديق كنت آمله
فقلت خلّوا سبيلي لا أبا لكم
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم
إلى أن قال :

إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلّول
نبئت أن رسول الله أوعى لى
والعفو عند رسول الله مأمول
فلما قال كعب هذين البيتين ، أشار محمد إلى من معه أن اسمعوا ، ثم
خلع عليه برده تكريماً له ، وعفا عنه أجمل عفو .

أما الذين قتلوا فعبد الله بن خطل ، وكان محمد قد أرسله جايئاً للصدقات
وبعث معه رجلاً من الأنصار ، وكان معه مولى له فغضب عليه غضبة
فقتله ، ثم ارتد مشركاً ، وكان له قينتان (١) فكانتا تغنيان بهجاء محمد
والمسلمين ، فلهذا أهدر دمه ودم قينتيه . ولقد قتل عبد الله هذا وهو متعلق
بأستار الكعبة ، قتله رجلان ، وقتلت إحدى قينتيه واستؤمن للأخرى .
وأما الحويرث بن نقيد ، فكان ممن يؤذون محمداً بمكة ، وهو الذى نحس
جمل فاطمة وأم كلثوم بنتى محمد عندما أركبهما العباس ليلحقا بأبيهما
بالمدينة فى أوائل الهجرة فسقطتا إلى الأرض . قتله على بن أبى طالب .
وأما مقيس بن صُبابه فأهدر دمه لأنه قتل قاتل أخيه خطأ بعد أن أخذ الدية
ثم ارتد مشركاً ، قتله رجل من قومه يقال له نميلة بن عبد الله . وهو بين
الصفاء والمروة .

والحق أن محمداً كان حريصاً أشد الحرص على أن تظل مكة بلداً

(١) القينة : المغنية .

حراماً لا يحل فيها القتل إلا لتلك الضرورات التي ارتآها ذلك اليوم .
ولا لشيء غير ذلك على إطلاق القول مهما كانت الظروف . فلما قتلت
خزاعة رجلاً مشركاً من هذيل يوم الفتح أخذاً بثأر قديم ، قام النبي خطيباً
في الناس فقال : « يا أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات
والأرض ، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة ، لا يحل لامرئ يؤمن
بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمأً أو يعصده^(١) فيها شجراً . لم تحلل لأحد
كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي . ولم تحلل لي إلا هذه الساعة غضباً على
أهلها ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب . فمن
قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها
لكم يا معشر خزاعة . ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر إن نفع ، لقد
قتلتم قتيلاً لأدينه ، (أى لأدفع ديته) . فمن قتل بعد مقالي هذا فأهله بخير
المنظرين ، إن شاءوا قدم قاتله وإن شاءوا فعقله (أى ديته) . » ثم دفع دية
الرجل الذي قتله خزاعة .

أقام بمكة خمسة عشر يوماً ، قضاها في تقبل مبايعة الناس له وفي
تنقيتهم في دينهم وتبيان الأحكام لهم ، وفي إرسال السرايا إلى القبائل لدعوتهم
إلى الإسلام ، وعلى الحملة في العمل على القضاء على جميع مظاهر الشرك .
أرسل خالد بن الوليد في سرية لهدم العزى ، وكانت بيتاً بنخلة يعظمه قريش
وكنانة ومضر فهدمه . وأرسل عمرو بن العاص لهدم سُوَاع ، وكان هيكله
على ثلاثة أُميال من مكة فهدمه . وبعث سعد بن زيد الأشهلي لهدم مناة ،
وهي صنم لكلب وخزاعة وهيكلها بالمشال وهو جبل على ساحل البحر يهبط
منها إلى قديد فهدمه .

ثم إنه أرسل أيضاً خالد بن الوليد إلى بني جذيمة بن عامر يدعوه إلى
الإسلام ولم يبعثه مقاتلاً . ومعه قبائل من العرب وسليم بن منصور ومدلج

(١) عصده الشجرة أى قطعها بالمعصده وهو حديدة كالمنجل .

ابن مَرْة . فدهموا بني جذيمة في أرضهم . فلما رأوه أخذوا السلاح وهتوا بقتاله . فأمرهم خالد بوضع السلاح . وقال لهم إن الناس قد أسلموا . غير أن رجلا منهم يقال له جحدم رفض وضع السلاح وقال لقومه : ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد ! والله ما بعد وضع السلاح إلا الإِسار ، وما بعد الإِسار إلا ضرب الأعناق ، والله لا أضع سلاحى أبداً . فقال له رجال من قومه : يا جحدم ، أتريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وآمن الناس . ولم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه . ووضع القوم سلاحهم لقول خالد .

غير أن خالداً أمر بهم فكتفوا ، ثم أعمل فيهم القتل ، حتى قتل نفرأ منهم . فأتى رجل وأخبر محمداً بما كان من فعل خالد ، فقال : هل أنكر عليه أحد ؟ قال الرجل : نعم أنكر عليه رجل أبيض ربعة فنهزه خالد فسكت عنه ، وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب فاشتدت مراجعتهما . فقال عمر بن الخطاب : أما الأول يا رسول الله فابني عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى بني حذيفة . عندئذ دعا محمد على بن أبي طالب فقال : « يا على اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » . ويقال إن خالد بن الوليد صنع هذا ليثأر لعمه الفاكهة بن المغيرة ، وكان بنو جذيمة قد قتلوه في الجاهلية . ويقال في رواية أخرى إنه لم يفهم أنهم أسلموا إذ قالوا : صبياناً صبياناً ، ولم يقولوا أسلمنا ، وهم يقصدون بذلك الإسلام .

فخرج على بن أبي طالب ومعه مال جهزه به محمد حتى أتى القوم فدفع ديات من قتل منهم وعوضهم عن أموالهم ، حتى إنه كان يعرضهم عن ميلة الكلب . حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا عوض عنه ، بقيت معه بقية من المال . فقال لهم على حين فرغ : هل بقي لكم دم أو مال لم يؤد إليكم ؟ قالوا : لا . قال : فإني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال

احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون .
 فلما رجع وأخبر محمداً بما صنع ، قال : « أصبت وأحسن » .
 ثم قام فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه ليرى ماتحت منكبيته ،
 وقال ثلاثاً : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » .
 دخل محمد مكة في العشرين من رمضان ، وخرج منها في الخامس من
 شوال لما علم بما كان من شأن هوازن وجمع مالك بن عوف سيدها الجموع
 لحربه ، فكانت وقعة حُنين .

الفصل الثالث والعشرون

غزوتاً حُنين والطائف

أثار فتح مكة هواجس هوازن ، فتوقعت أن يدهمها محمد وجيوشه في بلادها غازياً بعد أن تمكن له الأمر في أم القرى . فجمع مالك بن عوف سيد هوازن أشراف قبائلها ورؤساء بطونها ، واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، ونصر ، وجشم ، وسعد بن بكر ، ورجال من بني هلال ، وتخلف من هوازن كعب وكلاب . وبعد أن تشاور هؤلاء السادة أجمعوا رأيهم على حرب النبي وأتباعه ، وعلى الخروج إليهم غازين قبل أن يدهمهم في بلادهم .

فلما خرجت جيوش هوازن وحلفائها ، أخرج مالك بن عوف مع المقاتلة أمواهم ونساءهم وأبناءهم . فلما نزلت بجوعهم بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وكان في جشم دريد بن الصمة ، الشاعر الفارس الشهير ، وكان قد كبر وبلغ من السن أرذله ، وإنما حملته جشم معها وهو يرعش من الكبر للتيمن برأيه لما خبر من حروب في سابق أيامه . فلما نزل من شجاره (هودج مفتوح من أعلاه) قال : مالي أسمع رغاء^(١) البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار^(٢) الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أمواهم ، ونساءهم وأبناءهم . فقال : أين مالك ؟ فلما دعوه إليه سأله دُرَيْد عن سبب ذلك ، فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم .

فزجره دريد ، ثم قال : « راعى ضأن والله ! هل يردُّ المنهزمَ شيء ؟ »

(٢) صوت النجم .

(١) صوت الجمال

إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلِكَ ومالك .

وتناقش الرجال واحتدت المناقشة ، فأخذت حمية الشباب مالك بن عوف ، وكان في الثلاثين أو دون ذلك ، فقال لدريد : إنك كبرت وكبر عقلك ! ثم قال لقومه : والله لتطيعنني يا معشر هوزان أو لا تكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري . وكره أن يكون لدريد فيها رأى أو ذكر . فأطاعوه ولم يستمعوا لرأى دريد .

فلما بلغت مسامع محمد ما أجمعت عليه هوازن ، بعث إليهم عبد الله ابن أبي حنود الأسلمي ، وأمره أن يدخل بينهم ، ويقيم فيهم حتى يعلم خوافيهم ويأتيه بخبرهم . فلما رجع وأخبره بما رأى من إجماعهم على حربه ، استقر رأيه على الخروج إليهم ، فأمر المسلمين بالتجهيز للحرب وأذن بالسير إلى هوازن .

وبينا المسلمون يتجهزون للحرب ويعلمون عدتها ذكر لمحمد أن عند صفوان بن أمية أدرعاً وسلاحاً كثيراً ، فأرسل إليه وهو يومئذ لا يزال مشركاً أن أعزنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً . فقال صفوان : أغصباً يا محمد ؟ قال : بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك . قال : ليس بهذا بأس . وأعطى للنبي مائة درع بما يكفيها من السلاح . ويقال إن النبي سأله أن يكفيهم حملها ففعل .

وخرج محمد في جمع لم يشهد المسلمون مثله من قبل ، بلغ اثني عشر ألف مقاتل ، منهم عشرة آلاف قدموا من المدينة في غزوة فتح مكة ، وألفان من مكة ، مسلمين ، ومشركين ، فيهم صفوان بن أمية وغيره من المشركين . وانضم للجيش جماعة من نساء المسلمين ، وعدد كبير من نساء المشركين يرجون الغنائم . لا يهمهم من أمر الإسلام أو المسلمين شيء ، ولا يكرهون أن تكون الدائرة عليهم . واستخلف النبي على أهل مكة عتّاب

ابن اسيد بن أبى العيص بن عبد شمس الأموى ، وهو يومئذ ابن عشرين سنة . خرج هذا الجيش من مكة فى السادس من شوال سنة ثمان ، تعجب المسلمين كثرتهم ، حتى لقد قال أبو بكر : ان نُغْلِبَ اليومَ من قِلَّةٍ ، وانتهى إلى حنين فى عاشره .

أما مالك بن عوف فسبق المسلمين إلى حنين ، وأعد هناك جيشه وتحصن فى مضائق الوادى وأحناؤه . فلما أقبل جيش المسلمين يتقدمه خالد ابن الوليد على رأس بنى سليم ، وفى مؤخرته النبی ممتطياً بغلته البيضاء ، وكان ذلك فى عمية الصبح ، انقضت عليهم جموع هوازن وحملت عليهم حملة رجل واحد ، واثارت الخيل فى وجوههم وأمطرهم رماة السهام بوابل من سهامهم ، ففزعت خيل المسلمين ، وركبت الإبل بعضها بعضاً ، وارتد الرجال على أعقابهم لا يقبل أحد على أحد منهزمين من شدة المفاجأة ، وفر الرجال فى كل وجه ، وأخذت الدهشة بالكثيرين منهم كل مأخذ حتى لقد بلغ ببعضهم الفرار مبلغاً كان من شأنه أنهم لم يتوقعوا إلا فى مكة . وكان أول من انهزم بنو سليم ، ثم أهل مكة ، ثم بقية الناس .

فلما انهزم المسلمون تصور جماعة من ضعيفى الإسلام والمشرکین أن الدائرة دارت على المسلمين ، وأنه لا نجاة لهم ذلك اليوم من هوازن ، فوقفوا يتفرجون وهم شامتون فرحون . فقال أبو سفيان صخر بن حرب ، وكان إسلامه لا يزال ضعيفاً والأزلام لا تزال معه يومئذ : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ! وقال أخ لصفوان بن أمية من أمه : ألا بطل السحر اليوم . غير أن صفوان ، وكان لا يزال مشركاً ، لم يعجبه ما حدث ، ولم يرضه ما يقال ، فرد على أخيه قائلاً : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يملكنى رجل من قریش أحب إلى من أن يملكنى رجل من هوازن . ومَرَّ على صفوان رجل من قریش فقال : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لا يجتبرونها^(١) أبداً .

(١) أى لا يصلح حالهم بعدها أبداً .

فقال له صفوان مغضباً : تبشرني بظهور الأعراب ؟ فوالله لربُّ من قرش أحب إلى من ربُّ من الأعراب . وقال عكرمة بن أبي جهل وكان حاضراً : أما كونهم لا يجتبرونها أبداً فليس بيدك ، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء . إن أدبل عليه اليوم فإن العاقبة له غداً . فقال سهيل بن عمرو : والله إن عهدك بخلاف ما تقول لحديث . فقال عكرمة : يا أبا يزيد إنا كنا على غير شيء وعقولنا ذاهبة ، نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع .

أما محمد فما كان مثله لينهزم أبداً ، ولو انهزم من حوله عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً أو مائة ألف . انحاز ذات اليمين وهو يقول : « أين أبها الناس ؟ هلموا إلى » أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله . غير أن أحداً من المهزمين لم يشبه لرشده في تلك اللحظات ، فقد كانت القبائل تمر عليه منهزمة الواحدة تلو الأخرى ، وكأنهم لا يسمعون ولا يرون شيئاً من هول ما أصابهم من الفرع . ولم يثبت من حول محمد غير جماعة من أهل بيته فيهم علي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث ، وابن عبد المطلب ، وأخوه ربيعة ، والفضل بن العباس ، وأيمن بن أم أيمن ، وأسامة بن زيد ، ورهط من المهاجرين فيهم أبو بكر ، وعمر ، لا يزيدون على مائة رجل .

ماذا إذن ؟ ألا يتوقف هؤلاء الناس ؟ أنتتصر هوازن ؟ أينهم محمد في ساعة من نهار ؟ أبيضج جهاد هذه السنين الطوال ؟ كلا ثم كلا !

وقف محمد في الركابين وهو ممتط بغلته البيضاء ، ورفع يديه إلى الله يدعوه ويقول : « اللهم إني أنشدك ما وعدتني ، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا » . ثم أخذ ينادى أصحابه ، ويحرضهم على القتال ، ويدكرهم بعهودهم وبيعاتهم له ، وبالجهاد في سبيل الله ، فنادى : « يا أصحاب البيعة يوم الحديبية ، الله الله الكثرة على نبيكم » . و « يا أنصار الله وأنصار رسوله ، يا بني الخزرج ، يا أصحاب سورة البقرة » . وأمر العباس أن ينادى ، وكان

جهورى الصوت : يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة (أى بيعة الرضوان) إن محمداً حى فهاكموا .

ثم إن الحمية أخذته ، وسيطر على جماع نفسه يقين الأنبياء ، فأخذ يركض بغلته قبل الكفار ، فتشبث العباس بن عبد المطلب بلجامها خشية أن تسرع ، وتعلق أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فى الركاب فى محاولة مستميتة لمنع البغلة من اقتحام صفوف العدو الناصر فيكون ما لا تحمد عقباه ، ومحمد عليه السلام ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، مصر على النصر ، مقدم للملاقاة عدوه وهو يقول وسيفه فى يده :

أنا النسي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فلما سمع الناس النداءات ، ورأوا ما رأوا من إصرار نبيهم على القتال وثباته فى مواجهة عدوه وعدوهم ، ثابوا إلى رشدهم ونزلت عليهم سكينه ، فأخذوا يوقفون جمالم فلا يقدررون ، فكان الرجل إذا لم يقدر على إيقاف جملة الجامح ، يقذف درعه عن عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويؤم الصوت . ثم تعالت صيحاتهم من كل صوب : لبَيْتِكَ ، لبَيْتِكَ ، ثم تجمعوا نحو الصوت ، وهدأ سبل الفرار ، ثم توقف ، ثم استل المسلمون سيوفاً كأنها الشهب ، وبدأ قتال رهيب . وعندئذ هدأ محمد ، ووقف فى الركابين يشرف على سير المعركة ، وقد اطمأن قلبه إلى نتيجهما عند ما رأى جلادة أصحابه فقال : « الآن حمى وطيس الحرب » . ثم طلب من العباس أن يناوله حنفية من الحصى ، فألقاها فى وجوه العدو قائلاً : « شامت الوجوه » ، ثم قال : « انهزموا ورب العكمة ! »

وكان رجل من هوازن يركب جملاً أحمر وبيله راية سوداء فى رأس رمح طويل يتقدم هوازن ، وكان إذا أدرك مسلماً طعنه برمح ، وإذا فاته الناس رفع رمح له من وراءه من هوازن فاتبعوه . فبينما هو كذلك يُقتل فى

الناس ، تقدم نحوه على بن أبي طالب ، ورجل من الأنصار يريدانه ،
فأتى على من خلفه فضرب عرقوبه الجمل فوقع على عجزه ، ووثب
الأنصارى على الرجل فضربه ضربة فأطار قدمه بنصف ساقه .

وحيت الحرب واشتد القتال ، وبدأ المسلمون يضربون في عدوهم
ضرباً لا هوادة فيه . وكان محمد قد أذن في الناس أن من قتل قتيلاً فله
سلبه . فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم . وكانت زوجته
أم سليم معه تجول بين الصفوف ، وقد استلت خنجرأ وحزمت وسطها ببرد.
وهي يومئذ حامل بعبد الله بن أبي طلحة . فلما رآها أبو طلحة ، قال :
ما هذا ؟ قالت : خنجر ، إن دنا مني بعض المشركين بعجته في بطني . فقال.
أبو طلحة لمحمد : أما تسمع ما تقول أم سليم ؟ فضحك محمد ، فقالت :
نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل
الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل . فقال : « إن الله قد كفى وأحسن يا أم
سليم » . ومروا محمد يومئذ بجماعة قد تجمعوا حول امرأة قتلها خالد
ابن الوليد ، فقال « ما كانت هذه لتقاتل » ثم أمر بعض أصحابه أن يلحق
بخالد بن الوليد فيقول له : « إن رسول الله ينهك أن تقتل وليداً أو امرأة
أو عيسياً » (١).

وما لبثت هوازن غير قليل حتى أدركت أن الدائرة قد دارت عليها ،
وأن النصر من نصيب المسلمين حتماً ، فتخاذل المقاتلة وفر رؤسائهم وفيهم
مالك بن عوف . وما هي إلا ساعة حتى كانت جحافل المسلمين قد أطبقت
على جموع هوازن وساقى الرجال مكتوفين عند نبيهم ، ومن خلفهم النساء
والأطفال ، واستولت على مواشيهم وأموالهم .

لا شك في أن المسلمين خرجوا في هذه الغزوة تعجبهم كثرتهم . وقد
استهانوا بقله عدوهم . غير أن أحداث المعركة أثبتت لهم أن الكثرة لا تغنى

(١) الذي يسير على غير هدى .

شيئاً إذا لم تكن كثرة مؤمنة بهدف مشترك . ذلك أن جموع المسلمين في ذلك اليوم كانت تداخلها أخلاط كثيرة من مشركين وأعراب وحديثي عهد بالإسلام ، لا يهمهم كثيراً ولا قليلاً نصر أو هزيمة . لذلك حدثت هذه البلبلة التي كادت أن تُحدث كارثة في صفوف المسلمين ، لولا ثبات محمد وإيمان المسلمين صحيحى الإسلام بالهدف المشترك الذى يدافعون عنه ، فما لبثوا أن ثابوا إلى رشدهم ، وانقضت عنهم الغمامة التي تاهوا فيها ساعة أو بعض ساعة ، وارتدوا يجاهدون في سبيل الله ، وفي سبيل الهدف المشترك الذى تجمعوا من حوله وعاهدوا نبيهم على حرب الأحمر والأسود من الناس في سبيله .

ولقد نزل من القرآن في هذه الواقعة قوله تعالى : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » (١) .

بلغت جملة الأسرى من الرجال ، والسبايا من النساء والذرية ، حوالى ستة آلاف نسمة . وبلغت جملة الغنائم نحواً من أربعة وعشرين ألف بعير ، وأكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة . فجمع ذلك كله وأمر محمد بالحفظ عليه في وادى الجحيرة ريثما يعود من مطاردة فلول هوازن المنهزمة والقضاء عليها . وكانت هذه الفلول قد تفرقت فرقاً ثلاثاً : فرقة منهم فيهم الرئيس مالك بن عوف لحأوا إلى الطائف وتحصنوا بها ، وفرقة عسكرت بمكان يقال له أوطاس ، وفرقة صغيرة اتجهت نحو نخلة . فأرسل النبي في آثار من توجه منهم إلى أوطاس أبا عامر الأشعري في جماعة فيهم أبو موسى الأشعري ، فقاتل أبو عامر واستبسل

في القتال وأثنى في أعداء الإسلام القتل حتى قُتل ، فولى الناس أبا موسى ، فتم له النصر ، وجمع ما تبقى مع القوم من الغنائم .

وفي أثناء هذه المطاردة أدرك ربيعة بن ربيع بن أهان السلمى ويعرف بابن الدغينة - وهى أمه - دريد بن الصمة ، فأخذ بخطام جملة وهو يظن أنه امرأة ، وذلك لأنه كان في شجار (ضرب من الهودج) . فلما أناخ البعير إذا بشيخ قد حطمت السنون لا يعرفه الغلام ، فقال دريد : ماذا تريد بي ؟ قال : أقتلك . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بن ربيع السلمى . ثم ضربه بسيفه فلم يصب منه مقتلاً . فقال له دريد : بئس ما سلحتك به أملك ! خذ سيفي هذا من مؤخر رحلي في الشجار ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ ، فلمنى كذلك كنت أضرب الرجال ! ثم إذا أتيت أملك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب والله يوم منعت فيه نساءك ! فلما رجع ربيعة إلى أمه وأخبرها بقتله دريداً قالت : أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً .

وكان المسلمون قد أصابوا نساء من سبي أوطاس لهن أزواج ، فكروهوا أن يقعوا عليهن ولهن أزواج ، فلما سألوا النبي في ذلك نزلت الآية الكريمة : « والمحصنات من النساء إلا ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ »^(١) فاستحل المسلمون بها نساء المشركين وإن كن ذوات أزواج .

أما محمد فسار على رأس بقية الجيش إلى الطائف حيث تحصن بها أهلها ومن تجمع فيها من هوازن ، وجعل على مقدمته خالد بن الوليد . ولقد سلك طريقاً مر على نخلة اليمانية ، ثم على قرن ، ثم على المليح ، ثم على بحرة الرغاة من لية حيث ابنتى بها مسجداً فصلى فيه . وأمر وهو بلية بهدم حصن هناك لمالك بن عوف فهدم . ومر ببستان لرجل من ثقيف فأرسل له إما أن يخرج إلينا ، وإما أن نُخرب عليك بستانك ، فأبى الرجل أن يخرج ، فأمر ببستانه

أن يُخرب ، فخرَّب . ولما وصل المسلمون إلى الطائف وجدوا أهلها ومن تجمع إليهم من هوازن قد تمنعوا في حصنها واستعدوا لحصار طويل فأدخلوا معهم قوت سنتهم ، وكان حصن ثقيف من أمنع الحصون وأقواها . فلما عسكر المسلمون قريباً من الحصن ، رمتهم ثقيف رمياً شديداً بالسهم ، فأصيب منهم كثيرون بجراح بالغة ، فأصيب عبد الله بن أبي بكر بجرح ظل ينغر عليه حتى قتله في خلافة أبيه ، وفقت عين أبي سفيان صخر بن حرب ، ومات نحواً من اثني عشر رجلاً . فلما رأى ذلك محمد أمر جنده بالانسحاب بعيداً عن مرمى السهم ، فانسحبوا إلى حيث بنى مسجد الطائف فيما بعد . وضربت في هذا المكان الآمن خيمتان من جلد أحمر لزوجتي النبي أم سلمة وزينب . وكان النبي يقيم صلواته بين هاتين الخيمتين . غير أن ثقيفاً امتنعت عن جنده الإسلام في حصونها ، وكان خالد بن الوليد يتأذى كل يوم بالبراز فلا يخرج له أحد . وذات يوم ناداه عبد ياليل رئيس ثقيف وعظيمها ، وقال : إن أحداً سوف لا ينزل إليك منا ، ولكن نقيم في حصننا ، فان فيه من الطعام ما يكفيننا سنين ، فإن أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافتنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا .

فلما طال أمد الحصار ، استشار النبي أصحابه ، فأشار عليه بعضهم برميهم بالمنجنيق^(١) ، ويقال بأن سلمان الفارسي هو الذي أشار بالمنجنيق وعمله بيده ، وقيل هو الذي صنع دبابة^(٢) أيضاً . فأمر النبي بذلك فكان أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق . وفي غضون ذلك دخل جماعة من الصحابة تحت دبابة ثم زحفوا لينقبوا جدار الحصن ، فلفظهم أهل الحصن بالحديد الحمى ، واضطروهم إلى الخروج من تحتها ، ثم رموهم بالسهم فقتلوا رجلاً منهم . فلما لم تجد هذه الوسائل معهم أمر النبي بأن تقطع أعناقهم ليغيظهم .

(١) آلة من آلات الحصار ترمى بها الحجارة وغيرها من القذائف .

(٢) آلة تتخذ لثقوب الحصون يدخل في جوفها الجنود ويضربون في أصل حائط الحصن حتى ينقبوه .

وهى أعتاب لم يكن يجزيرة العرب مثلها . فلما انقض الناس عليها يقطعونها ، ناداهم أهل ثقيف : لا تفسدوا الأموال فلإنها لنا أو لكم . ثم إنهم ناشدوا النبي بالله وبالرحم أن يتركها فتركها .

وكان منادى النبي ينادى « بأن من خرج إلينا فهو آمن » فخرج إليه جماعة ، علم منهم أن بالحصن فى الحقيقة مؤن كثيرة تكفى أهل الطائف مدة طويلة ، فلما رأى امتناع ثقيف ، استشار نوفل بن معاوية الديلى فى المقام أو الانصراف ، فقال : يارسول الله ، ثعلب فى حجر ، إن أقمت أخذته ، وإن تركته لم يضرك . فأمر عمر بن الخطاب أن يؤذن بالرحيل ، وذلك بعد حصار استمر نحواً من شهر . فلما سمع عيينة بن حصن بذلك قال : أجل ، والله مجدة كراماً . فقال له رجل من المسلمين : قاتلك الله يا عيينة ! أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد جئت تنصره ؟ فقال : إني والله ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم ، ولكن أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أطوها لعلها تلد لى رجلاً ، فإن ثقيفاً مناكير (أى ذوى دهاء) . وفى هذا القول دليل على الخطر الذى كان يتعرض له هذا الجيش على ضخامته ، وذلك لاحتوائه عدداً كبيراً من أمثال هذا الضعيف الإسلام ، فضلاً عن المشركين .

رجع النبي معتمراً إلى الجعرانة حيث كان قد ترك السبى والغنائم ، فأحصى ذلك كله وخمسه (أى فصل الخمس لنفسه حسب الشرع) ووزع ما بقى على أصحابه حسب ما تراءى له . وبينما هو فى الجعرانة أدركه وفد هوازن وقد أسلموا وشهدوا شهادة الحق وقالوا له : يا رسول الله إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا من الله عليك . وقام حطيبهم زهير بن صرد أبو صرد فقال : « يا رسول الله إنما فى الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، ولو أنا ملحننا لابن أبى سمر الغصافى أو النعمان بن المنذر . ثم أصابنا منها مثل الذى أصابنا منك رجونا عائدتها وعطفهما . وأنت رسول الله خير المكفولين » . فقال :

« نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ » . فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا ؟ بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا . فقال : « أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا أنا صليت بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبنائنا ونسائنا ، فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » .

فلما صلى بالمسلمين قاموا فقالوا ما أمرهم به ، فقال : « أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم » . وعندئذ وافق المهاجرون والأنصار على التنازل عن حقوقهم في النساء والذرية . غير أن عدداً من رؤساء قبائل الأعراب لم يوافقوا ، فهض الأقرع بن حابس فقال : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا . وقال العباس بن مرداس السلمى : أما أنا وبنو سليم فلا . غير أن بنى سليم خالفوه وقالوا : بل ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال العباس لهم : وهتيموني . فلما رأى محمد تمسك بعض الناس بحقهم في السبي قال لهم : « من أساك منكم بحقه فله بكل إنسان ستة فرائض^(١) من أول غنيمة نصيبها . فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم . » فردوا النساء والأبناء .

فلما رد السبي قام النبي فركب دابته ، فتدافع من حوله الأعراب وتزاحوا وجعلوا يهتفون به أن اقسم علينا غنيمتنا ، وكأنهم خشوا أن يرد إلى هوازن الأموال كما رد إليهم النساء والأطفال ، وبلحوا في السؤال وأفرطوا في تزاحمهم حتى دفعوه إلى شجرة فانزعجت رداءه ، فوقف وصاح بهم مغضباً : « رُدُّوا عليَّ ردائي أيها الناس ، فوالذي نفسى بيده لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما ألفتيموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً » . وقام فأخذ من سنامة بعير وبرة فجعلها بين

(١) الفريضة : الحصة المفروضة .

لأصبعيه ثم رفعها فقال : « أيها الناس والله ما لي من غنيمةكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم . فإن الخيانة في المغنم عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة » . وشرع في قسمة الغنائم فأصاب الرجل أربعة من الإبل ، وأربعون شاة . والدارس ثلاثة أمثال ذلك . وعندئذ قال رجل من المنافقين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فغضب النبي حتى احمر وجهه وقال : ويحك من يعدل إذا لم أعدل ؟ فقام عمر وخالد بن الوليد وقالوا : دعنا يا رسول الله نضرب عنقه . فقال : لا لعله أن يكون يصلي . فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه . فقال : إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق عن بطونهم .

وقد يكون السبب الذي ألجأ جفاة الأعراب إلى هذا التكالب أن محمداً أثر أناساً في القسمة من رؤساء القبائل وأمرائهم ، أراد أن يتألف قلوبهم إلى الإسلام بالمال . فأعطى أناساً من ضعيفي الإسلام ، منهم أبو سفيان وابناه معاوية ويزيد . أعطى كلا منهما أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل ، وأعطى حكيم بن حزام مثل ما أعطى لأبي سفيان . وأعطى كلا من عيينة بن حصن والعباس بن مرداس مائة من الإبل . ثم إنه أعطى لغيرهم ممن لم يسلموا بعد ليحبب الإسلام إلى قلوبهم ، فأعطى صفوان بن أمية شعباً مملوءاً نعماً وشاء كان يراه يرمقه فقال له : هل يعجبك هذا ؟ فقال : نعم . قال : هو لك . ثم إن مالك بن عوف سيد هوازن ، وقد عليه تائباً طائعاً مسلماً . فرد عليه أهله وأعطاه مائة من الإبل ، وكان قد قال لوفد هوازن عند ما علم منهم أن مالكاً لا يزال مقيماً بالطائف : « أخبروه إنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وأعطيته مائة من الإبل » .

والحق أن جفاة الأعراب لم يكونوا وحدهم الذين لم يدركوا المقصد من إعطاء أمثال هؤلاء أكثر من غيرهم . فإن الأنصار قد غضبوا في أنفسهم عند ما لم يقسم لهم شيئاً . وتحدث بعضهم إلى بعض : أما من قاتله

فيعطيه ، وأما من لم يقاتله فلا يعطيه ؟ ! وغضب بعضهم ، وقال : إن هذا هو العجب ، يُعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دماهم ! وقال من قال منهم : لقي والله رسول الله قومه ! .

ثم إن سعد بن عبادَةَ مشى إليه ، وقال له : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد غضبوا في أنفسهم . فقال : فيم ؟ قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء . فقال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : ما أنا إلا امرؤ من قومي . فلما رأى منه ذلك أمره بأن يجمع له الأنصار في حظيرة كانت هناك .

فاما اجتمعوا خرج إليهم ، وقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » . قالوا : بلى . ثم قال : « ألا تحببون يا معشر الأنصار ؟ » قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ وبماذا نجيبك ؟ المن لله ولرسوله . قال : « والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم : جئتنا طريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، وخائفاً فأمنّاك ، وغذولاً فنصرتك » . فقالوا : المن لله ولرسوله .

فقال : « أغضبتكم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لُجعة^(١) من الدنيا تألفتُ بها قوماً أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعر وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ، فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » . لم يمالك القوم أنفسهم فبكوا حتى بللوا لحاهم وقالوا : رضينا بالله رباً ورسوله قسماً . ثم انصرفوا وتفرقوا .

(١) اللجعة : القليل من كل شيء .

ومما لا شك فيه أن محمداً استطاع في كل هذه الظروف والملايسات التي أحاطت بهذه الغزوة ، بما أوتي من شجاعة ، وحسن سياسة ، وحكمة ، ونورانية ، أن ينتصر في جميع الحالات ، وأن يتألف قلوب الناس أجمعين ، كل حسب الطريقة المثلى التي تؤثر في نفسه .

ومن أطرف ما يروى أنه بينما محمد مقيم في الجعرانة ظفر المسلمون برجل من بني سعد بن بكر يقال له نجاد ، كان محمد قد أمرهم بالقبض عليه لحدث أحدثه . فلما ساقوه وأهله إليه ، ساقوا معه الشيء بنت الحارث وهي من بني سعد بن بكر أيضاً . فلما عنفوا عليها في السوق قالت لهم : تعلمون والله أني لأخت صاحبكم من الرضاعة ، فلم يصدقوها حتى مثلت بين يديه فقالت : يا رسول الله إني أختك من الرضاعة . فقال لها : « إن تكوني صادقة فلن بك مني أثراً لا يبلى » . فكتشفت عن عضدها وقالت : نعم يا رسول الله ، وأنت صغير عضضتني هذه العضة . فلما تيقن من صدقها ، حنا عليها وبسط لها رداءه أن تجلس ، وقال : « سلى تعطى واشفعي تشفعي » . ثم قال لها : « إن أحببت فعندى محبة مكرمة ، وإن أحببت أن امتلك وترجعى إلى قومك فعلت » . قالت : بل تمتعني وتردني إلى قومي . ففعل .

ولما فرغ من تقسيم الغنائم وحل المشكلات واسترضاء الأنصار وتأليف قلوب الناس إلى الإسلام ، خرج من الجعرانة معتمراً وأمر بأن يحبس جزء من الغنائم لم يوزع بناحية مر الظهران . والظاهر أنه إنما استبقى بعض الغنائم ليوزعها على الأعراب فيما بين مكة والمدينة في أثناء عودته ، ليتألف به قلوبهم إلى الإسلام . ثم إنه لما انتهى من عمرته خرج راجعاً إلى المدينة ، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد الأموي ، وخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن . وكان قد وكل إليهما هاتين المهمتين قبل خروجه إلى هوازن .

الفصل الرابع والعشرون

غزوة تبوك

كان طبيعياً بعد أن فتح المسلمون مكة ، واستتب لهم الأمر فيها ، ودخل البيت الحرام في حوزتهم ، وطهروه من رجس الأوثان والأصنام ، أن يلي ذلك خطوة أساسية في تحديد علاقة المشركين بهذا البيت ، فنزلت الآية : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا (العام التاسع الهجرى) وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم » (١) . قالت عندئذ قريش إن المتاجر والأسواق سوف تنقطع عنهم أيام الحج ، وأنهم سيجرمون من المغنم التي كانوا يصيبون منها . ثم إنه نزل في أعقاب ذلك الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلّموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (٢) .

من هنا اتجه محمد إلى غزو الروم ، أولاً لأنهم أقرب الناس إليه من أهل الكتاب . وثانياً ، لأنهم أولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلوونكم من الكفار وليجلدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » (٣) .

وكان محمد قسماً ينصح عن الجهة التي يقصدها في سابق غزواته ، وذلك حتى يأخذ عدوه على غيرّة . إلا ما كان من غزوة تبوك . فإنه أفصح

(٢) التوبة ٢٩ .

(١) التوبة ٢٨ .

(٣) التوبة ١٢٣ .

عنها للناس ، وبين لهم مقصده تماماً ، وذلك لبعده الشقة ، وشدة الزمان في ذلك الوقت ، وكثرة العدو وقوته ، حتى يتأهب الناس للأمر عن بيعة ويستعدوا له ويوطدوا العزم على ما هم مقبلون عليه . ثم إنه أمرهم بالجهاد ، وحشهم على التجهز للاقافة الروم ، واستنفر المسلمين من الأعراب ومن أهل مكة وغيرها . وكان ذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجذب من البلاد وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام في ذلك الوقت في ظلالهم وبين أموالهم . ولذلك سمي جيش العسرة ، ومع ذلك اجتمع له ثلاثون ألفاً من المسلمين ، خرجوا معه يضحون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

واقع الأمر أن معظم الناس خرجوا مع النبي عن إيمان صادق ورغبة حقيقية في الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فأنفقوا نفقة عظيمة وخرجوا بأنفسهم . من هؤلاء أو على رأس هؤلاء عثمان بن عفان ، إذ حمل ألف دينار من ماله وجاء محمداً فصبها في حجره ، فسر كثيراً وأخذ يقلبها بين يديه وهو يقول : « اللهم ارض عن عثمان فلاني عنه راض » . هكذا أقدم المسلمون الأصلاء على الجهاد ، كل بما يقدر عليه من النفقة ، فضلاً عن التضحية بالذات . ولم يبق غير سبعة نفر من فقراء المسلمين لم يجدوا من الدواب ما يحملهم ، فلما لم يجدوا عند النبي ما يحملهم عليه ، انصرفوا وهم يبكون ، فسموا بالبكاكين . وهؤلاء وأمثالهم هم الذين نزل فيهم قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » (١) .

وفي حين كان هذا موقف معظم المسلمين الذين آمنوا عن صدق بالله

(١) التوبة ٩١ - ٩٢ .

وبروسوله وبما فرض عليهم من جهاد ، كان جماعة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض يشبطون الناس عن الخروج . فكان جماعة من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يشبطون الناس عن الخروج في هذه الغزوة ، فأرسل إليهم محمد طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، فأحرق طلحة عليهم البيت . وكان الضحاك بن خليفة في البيت ففر من ظهر البيت فانكسرت رجله ، وأفلت أصحابه . وفي ذلك قال الضحاك .

كادت وبيت الله نار محمد يشبط بها الضحاك وابن أبيرق
وظلت وقد طبقت كينس سويلم أنوء على رجل كبيراً ومرفق
سلام عليكم لا أعود لثلها أخاف ومن تشمل به النار يحرق

ومن الناس من تعلق بأسباب مخيفة واستأذن النبي في التخلف ، مثل الجدل بن قيس أحد بني سلمة ، ذلك أن محمداً سأله : « يا جد هل لك العام في جلاذ بني الأصفر ؟ » فقال : يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه ما رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإنني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر . فأعرض عنه وقال : « قد أذنت لك » . ثم نزل في الجدل قوله تعالى : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » (١) .

وكان قوم من المنافقين يقول بعضهم لبعض لا تنفروا في الحر ، زهادة منهم في الجهاد ، وشكاً في الحق ، وإرجافاً بالرسول ، فأنزل الله فيهم قوله : « وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون » (٢) .

وقال جماعة من المنافقين : أتحسبون جلاذ بني الأصفر (الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً ، والله كأنكم بهم غداً مقرنين في الجبال . فلما عاموا

أن قولهم هذا بلغ مسامع محمد جاءوا إليه يعتذرون ، فقال أحدهم : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . فنزل فيهم قوله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين » (١) .

ثم إن محمداً كان إذا جاءه أحد من المنافقين مستأذناً في عدم الخروج معه أذن له حتى يتخفف منهم . فلما جاءه نفر من الأعراب من بني غفار ليأذن لهم في الخلف ، وهم يعتذرون إليه ، لم يعذرهم الله ، فنزل فيهم قوله : « وجاء المعتذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٢) .

ومن الناس من تخلف من غير شك ولا ارتياب ، وكانوا نفر صدق لم يهتموا في إسلامهم ، وإنما أبطأت بهم النية ، فكانوا يوئجلون خروجهم يوماً بعد يوم حتى تأخروا ولم يعد لحاقهم بالخيـش ممكناً . من هؤلاء كعب ابن مالك بن أبي كعب أخو بني سلمة ، ومرارة بن ربيع أخو بني عمرو بن عوف ، وهلال بن أمية أخو بني واقف ، وأبو خيثمة أخو بني سالم بن عوف . أما أبو خيثمة فلحق بالخيـش ، وأما الثلاثة الآخرون فقد ندموا ندماً شديداً وتابوا إلى الله حتى تاب عنهم . وقد خاصمهم محمد والمسلمون بعد عودتهم ، وظلوا فترة لا يكلمهم أحد حتى ضاقت عليهم الأرض ، وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » (٣) .

فلما تجهز هذا الخيـش وهو أكبر جيوش المسلمين حتى ذلك الحين ، وأخطرها شأناً ، إذ اتجه الإسلام عندئذ إلى خارج بلاد العرب ، وإلى جلال

إمبراطورية هي في واقع الأمر أكبر قوة في الدنيا في ذلك الوقت ، خرج به محمد في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية ، وضرب عسكره على ثنية الوداع ، وهي هضبة مشرفة على المدينة على طريق مكة ، وضرب عبد الله بن أبي عسكره على حدة يجلس ذباب ، إلا أنه تخلف عن اللحاق بهم في طائفة من المنافقين وأهل الريب ، عندما سار الجيش إلى مقصده .

استخلف محمد على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري في قول ، أو سباع بن عُرْفُطَة في قول ، وخلف على بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم . وهنا انتهز المنافقون هذه الفرصة وأرجضوا بعلى فقالوا : ما خلفه إلا استثقلاً له وتخففاً منه . وعند ذلك أخذ على سلاحه ثم خرج حتى لحق بابن عمه وهو نازل بالحرف ، فأخبره بما قالوا ، فقال : « كذبوا ، ولكني خلفتك لما تركت ورأى ، فارجع فاختلني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبي بعدي » .

ثم سار النبي بالجيش ميمماً شطر الشام ، وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق . ولا مرية أن في إعطائه لواءه الأكبر لأبي بكر الصديق ، وتخليفه على بن أبي طالب على أهله إشارة لطيفة لا تخفى على اللبيب ولا يفوت مفهومها الحصيف . أما الرايات ففرقها على ثلاثة ، أعطى الزبير بن العوام راية المهاجرين ، وأسيد بن حضير راية الأوس ، والحباب بن المنذر راية الخزرج .

وكان المسلمون في أثناء مسيرهم يبلغون الرسول كلما عرفوا بتخلف رجل له شأن فيقولون : يا رسول الله تخلف فلان ، فيقول لهم : « دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » . وكان أبو خيثمة قد تخلف ، وأبطأ بأبي ذر بعيره . أما أبو خيثمة فإنه رجع إلى أهله في يوم حار بعد أن سار المسلمون أياًماً ،

فوجد امرأتين له في عريشين لهما في بستانه ، وقد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت ماء وهيأت له فيه طعاماً . فلما دخل بستانه ورأى ما صنعت له امرأاته قال : رسول الله صل الله عليه وسلم في الشمس والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء في ماله مقيم ! ما هذا بالنصف . والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهيئتا لي زاداً . فجهزاه فركب بعيره وسار حتى لحق النبي بتبوك . فلما أقبل سلم عليه فقال له : « أولى لك يا أبا خيثمة ! » ثم إنه أخبره خبره ، فقال خيراً ، ودعا له بخير .

أما أبو ذر الغفاري فقد انتظر بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره ثم خرج في أثر المسلمين ماشياً . وبينما هم في بعض منازلهم نظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله إن هذا الرجل ماش على الطريق . فقال : « كن أبا ذر » فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله هو والله أبو ذر . فقال : « يرحم الله أبا ذر ! يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده » .

ولما انتهى إلى تبوك أرسل إلى يوحنا بن ربيعة أمير أيلة (العقبة) أن يذعن أو يغزوه ، فأتاه طائعاً مدعياً وتصالح على إعطاء الجزية . وأتاه أيضاً أهل جرباء وأذرح (من قرى جنوب الشام) وأعطوه الجزية . ولقد كتب ليوحنا بن ربيعة وأهل أيلة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن ربيعة وأهل أيلة : سفنهم وسياراتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر » . ثم إنه فرض على كل من وصل سن البلوغ منهم في السنة ديناراً ، فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار .

وجاءه أهل أذرح وجرباء فكتب لهم كتاباً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لأهل جرباء وأذرح ، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب ، ومائة أوقية طيبة ، وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ، ومن لجأ إليهم من المسلمين » .

وأثناء مقامهم بتبوك ، أرسل خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك ، وهو رجل من كندة كان ملكاً على دومة الجندل . فأتاه خالد ابن الوليد في خيل المسلمين فوجده يصيد البقر الوحشى ومعه نفر من أهل بيته فيهم أخوه حسان ، فهاجمهم خالد وأسر أكيدر وقتل أخاه حسناً ، وكان عليه قباء^(١) من ديباج نخوص بالذهب ، فاستلبه خالد وبعث به إلى محمد قبل قدومه . فلما رآه المسلمون جعلوا يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه ، فقال لهم : « أتعجبون من هذا ، فوالذى نفسى بيده لمتاديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا » . ويروى أن خالد بن الوليد عاد ومعه ثمانمائة من السبى ، وألف بعير ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح . أما أكيدر فأسلم .

أقام محمد بتبوك بضع عشرة ليلة لم يجاوزها ولم يلق حرباً من أحد . فلما استشار أصحابه في مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من ديار الشام ، قال عمر : إن كنت أمرت بالسير فسر . فقال : لو كنت أمرت بالسير لم أستشر . فقال عمر : يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الإسلام ، وقد دنونا منهم ، وقد أفرغهم دنوك ، فلو رجعنا في هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً . فتنبع مشورة عمر ، وأذن مؤذنه في الناس بالعودة ، وقتل راجعاً إلى المدينة . أما أن فكرة غزو الشام ظلت تراوده

(١) القباء ثوب يلبس فوق القميص .

فأمر مؤكده . ذلك أنه أعد جيشاً كبيراً بعد ذلك بإمرة أسامة بن زيد لغزو الشام ، كان على أهبة الخروج إليها عند ما قُبِضَ ، فأنفذه أبو بكر .

ولما قارب المدينة نزل بذي أوان . وهو مكان بينه وبين المدينة ساعة . وفيها نزل عليه الوحي في شأن مسجد الضرار . وهو مسجد بناه اثنا عشر رجلاً . وكان هؤلاء القوم قد أرادوا من النبي وهو ذاهب إلى الشام أن يصلى لهم فيه حتى يروج لهم ما أرادوا من الفساد والكفر والعناد . فعصم النبي من الصلاة فيه . وذلك لأنه كان على جناح سفر إلى تبوك . فلما عاد ونزل بذي أوان نزل قوله تعالى : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين . أفن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين » . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ، (١) .

أما قوله « ضراراً » فلأن الذين بنوه أرادوا مضاهاة مسجد قباء ، و « كفراً » بالله لا الإيمان به ، و « تفريقاً » للجماعة عن مسجد قباء . أما قوله « وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل » وهو أبو عامر الراهب الذي هرب من المدينة على أثر هجرة محمد إليها وألب أهل مكة عليه وقدم معهم يحارب محمدًا والمسلمين في غزوة أحد . وكان نصرانياً ، فلما لم يقدر على حرب محمد بنفسه في بلاد العرب ، هاجر إلى بلاد الروم واستنصر قيسر على المسلمين ، وكان يكتب إلى إخوانه من المنافقين يعدهم ويمنيهم .

فبنوا هذا المسجد وظاهره أنه للإسلام وباطنه دار حرب ومقر لمن يفد إليهم من عند أبي عامر ، ومجمع لمن هو على طريقتهم من المنافقين . وقد نهى الله رسوله عنه بقوله « لا تقم فيه أبداً » وأمره وحته على القيام في مسجد قباء ، وهو المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم هاجر فيه محمد إلى المدينة . ثم إن محمداً دعا مالك بن النخشم ، ومعن بن عديّ — أو أخاه عاصم — وأمرهما بأن يحرقا هذا المسجد ، فحرقاه بالنار ، وتفرقا عنه أهله .

الفصل الخامس والعشرون

وفود العرب وإسلامهم

بدأ العرب بعد فتح مكة يراجعون أنفسهم ، وينظرون للإسلام نظرة جدية . فأى شيء إذن بعد أن أسلمت قريش وهم سدة البيت الحرام وحجابه وحفظته وسادة الناس وأعلمهم بدين العرب ؟ أى شيء بعد أن يهجر هؤلاء دين الآباء والأجداد إلى دين محمد . إلا أن يكون نبياً حقاً ؟ ولا عجب فإن العرب كانوا ينتظرون فتح مكة وهم يقولون : أتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي حقاً . فلما انتصر على قريش وفتح مكة وحطم أصنام الكعبة وطهرها من الشرك وأسلم أهلها ، بادرت قبائل العرب إليه تعلن إسلامها . ويقول الله تعالى في ذلك « إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » (١) .

بدأت وفود القبائل تقدم على محمد في أواخر السنة الثامنة بقدوم وفد تميم ، ثم تزايدت بعد ذلك . وكانت وفود القبائل تباعه على الإسلام ، وتشهد بين يديه شهادة الحق . وتلقى إليه بأزمة قيادتها في أمور دينها ودنياها . ومما يجدر بنا ذكره هاهنا أن محمداً . كان على الرغم مما عرفت جزيرة العرب في ماضى تاريخها الطويل من ممالك وملوك وأمراء أقوياء ، أول عربى استطاع أن يوحد قبائل العرب جميعاً ويخضعهم تحت راية واحدة ، ويجمع صفوفهم في دولة لها نظم وشرائع يخضعون جميعاً لها ، ويوجههم من ثمة نحو هدف مشترك . ولا غرو فإنه أسسدى للإنسانية بهذا الصنيع ماثرة لا تنسى ، إذ جمع هؤلاء الأقوام الأشداء ، وأطلقهم إلى رحاب العالم الفسيح ، بعد أن هداهم وهدبهم وبلور صفاتهم العليا في بوتقة واحدة ،

ونهاهم عن مناقصهم ومثالبهم ، فكونوا دولة الإسلام في القرون الوسطى لتصبح في أيام عزها وسطوتها ومجدها ، نوراً أشرق على الظلمات التي كانت تعمّر وجه الأرض في ذلك الزمان .

تدلنا الحقيقة التاريخية الماثلة أوضح دلالة على أن فتح مكة كان في واقع الأمر كما قدمنا الخطوة الحاسمة التي دت مباشرة إلى دخول العرب في أدين الإسلام . ذلك أنه لم يقع بعد فتح مكة من الأحداث ما يدعو جميع قبائل العرب لأن تندفق طائفة مختارة على محمد لتباعه على الإسلام ، وإن كان لإسلام ثقيف وغزوة تبوك أثر مساعد ولا شك في هذا الموقف .

ونحن إذا حاولنا استعراض الغزوات التي غزاها محمد والسرايا التي أرسلها هنا وهناك بعد فتح مكة ، إذن لازدداً يقيناً بهذه الحقيقة . فإن غزوتي حنين والطائف لم تكونا بينه وبين سائر العرب ، بل كانتا بينه وبين هوازن وثقيف . أما غزوة تبوك فكانت ضد قبائل صغيرة في شمالي بلاد العرب ، بعيدة عن الأحداث التي كانت تجري من قبل . ثم إنه لم يقع فيها قتال ، وإن كان لضخامة الجيش الإسلامي أثر كبير في النفوس . أما السرايا التي أرسلها بعد فتح مكة فقليلة نلخصها فيما يأتي : بعث في أواخر سنة ثمان سرية بقيادة قيس بن سعد في أربعمئة مقاتل ليدعو صداء وهي قبيلة تسكن اليمن إلى الإسلام ، فجاءت وفود صداء وأسلمت . وأرسل في أعقاب ذلك بشر بن سفيان العدوي إلى بني كعب من خزاعة لأخذ الصدقات فنعهم جيرانهم بنو تميم ، فأرسل لهم عيينة بن بدر في خمسين فارساً ، فأسر منهم أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيّاً . ثم بعث الوليد بن أبي معيط لأخذ صدقات بني المصطلق ، فتوهم أنهم ممنعون ، فلما علم محمد بذلك أرسل لهم خالد بن الوليد ، فسار إليهم في عسكره حتى أتاها فلم ير منهم إلا الطاعة . وبعث علقمة بن مجذر في ثلاثمئة مقاتل لجمع من الأجباش بلغه أنهم تجمعوا في جزيرة إزاء جدة للإغارة عليها . وفي ربيع الأول من

السنة التاسعة أرسل على بن أبي طالب في خمسين فارساً لهدم الفلس (صنم لطيف) فسار إليه فهدمه وأحرقه . وفي رمضان من السنة العاشرة أرسل على بن أبي طالب أيضاً إلى بني مذحج وهم قبيلة يمانية يدعواهم للإسلام فقاتلهم حتى قبل رؤسائهم الإسلام :

وبعث خالد بن الوليد في ستة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران فأسلموا بغير قتال . وبعثوا بوفدهم للدخول في الإسلام . وبعث على ابن أبي طالب إلى همدان ، فلما قرأ عليهم كتاب محمد أسلموا جميعاً ولم يقاتلوا .

وكان النبي يبتى رؤساء القبائل إذا ما أسلموا في مناصبهم ، فكانت هذه السياسة الحكيمة سبباً كبيراً في إقدام الكثيرين منهم على الإسلام طائعين مختارين . بعد ما تبين لهم الحق من الباطل .

يتضح لنا إذن من استعراض الأحداث التي وقعت فيما بين فتح مكة ، وقتلهم وفود العرب من مختلف أنحاء الجزيرة يمثلون مئات الآلاف من المقاتلين المبرزين ، طائعين مختارين ، أن الأثر الأكبر لهذا التصرف كان نتيجة لما أحدثه فتح مكة وإسلام قريش من أثر عميق في نفوس العرب أجمعين .

أما الكلام في ذكر كل ما وقع من أحداث ومناقشات وروايات تتعلق بعشرات من الوفود فأمر بطول شرحه ، ولذلك سوف نقتصر هنا على ذكر جملة من الأحداث الشهيرة . والوقائع اللطيفة التي ذكرت بهذه المناسبات .

ذكرنا فيما سبق أن عيينة بن بدر أسر من تميم أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً . فقدم رؤسائهم بسببهم ، وفيهم عطار بن حاجب بن زرارة ، والزبير بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهتم ، والأقرع بن حابس وغيرهم . فلما دخلوا المسجد نادوا النبي من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا محمد نفاخرك . فإن مدحنا زين وإن ذمنا

شين ، فقال النبي « ذاك الله عز وجل » ، ثم إنه تأذى من صياحهم ، وفيهم نزلت الآية « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيم » (١) . فلما خرج إليهم تعلقوا به وقالوا : يا محمد جئنا نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فقال : « ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا » . ثم أذن بلال لصلاة الظهر ، فصلى ثم جلس إليهم ، وأذن لخطيبهم وشاعرهم .

فقام عطار بن حجاب بن زرارة فقال : الحمد لله الذى له علينا الفضل والمِنَّة وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظيماً نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عدة . فن مثلنا فى الناس . ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم ؟ فن فآخرننا فليعدد مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، وإكن نخشى من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك . أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا . ثم جلس .

فقال محمد لثابت بن قيس بن شماس أخى بنى الحارث بن الخزرج : « قم فأجب الرجل فى خطبته » .

فقام ثابت فقال : الحمد لله الذى السماوات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسيع كرسيه علمه ، ولم يك شئ قط إلا من فضله . ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خيرته رسولا ، أكرمه نسباً ، وأصلقه حديثاً ، وأفضله حسباً ، فأنزل عليه كتاباً واثمنه على خلقه ، فكان خيرة الله فى العالمين . ثم دعا الناس إلى الإيمان به فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرمُ الناس أحساباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخير الناس فعلاً ، ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ،

نقاتل الناس حتى يؤمنوا ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً . وكان قتله علينا يسيراً . أقول هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم .

ثم قام شاعر تميم الزبرقان بن بدر فقال ما قال ، ثم أمر الرسول شاعره حسان بن ثابت أن يرد عليه فأجابه حسان . فلما فرغ حسان قال الأقرع ابن حابس : وأبي إن هذا الموتى له ! لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا . ثم أسلم القوم فرد عليهم النبي أسراهم وأجزل لهم العطاء . وأقاموا عنده مدة يتعلمون القرآن ويتفقهون في الدين ثم عادوا فأسلمت تميم .

وفي رمضان من سنة تسع قدم وفد ثقيف . وكان عروة بن مسعود أحد سادتها قد قدم قبل ذلك وأسلم بين يدي محمد ، واستأذنه أن يعود إلى قومه ليهديهم إلى الإسلام . فخاف عليه لما عرف فيهم من نخوة الامتناع ، وقال له : « إنهم قاتلوك » غير أن عروة أجابه بقوله : يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبصارهم . وكان فيهم محبباً مطاعاً . فأذن له فرجع إلى ثقيف ، ودعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه . فلما أصبح قام فوق عليّة له يؤذن للصلاة ، فتحققت عند ذلك براءة النبي إذ لم يطق قومه ذلك فرموه بسهام فقتلوه . فلما جاءه أهله قال لهم وهو يستلم الروح : كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها إلى . فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم . وطلب منهم أن يدفنوه مع هؤلاء الشهداء ففعلوا .

ثم إن ثقيفاً أقامت بعد مقتل عروة شهراً ، ثم ائتمروا فيما بينهم وانتهوا إلى أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا . وذلك أن مالك بن عوف النصري سيد هوازن ، كان قد أسلم بعد غزوة حنين وأمره محمد على قومه . فكان يغزو بلاد ثقيف ويضيق عليهم حتى صاروا لا يأمنون على أموالهم وأنفسهم . ثم إنهم أجمعوا على أن يرسلوا كبيرهم

عبد ياليل إلى محمد ليعرض عليه صلح ثقيف ويأخذ منه كتاباً . غير أنه رفض خشية أن يصيبه ما أصاب عروة من قبل ، فأرسلوا معه خمسة آخرين ، فيهم عثمان بن أبي العاص وكان أصغرهم سناً .

فلما دنوا من المدينة قابلوا المغيرة بن شعبة وهو يرعى ركاب أصحاب الرسول ، فأسرع إلى المدينة ليبلغ النبي بمقدم وفد ثقيف ، فلقه أبو بكر الصديق فأخبره عن ركب ثقيف وأنهم قدموا يريدون البيعة والإسلام بأن يشترط لهم الرسول شروطاً ويكتب لهم كتاباً في قومهم . فقال أبو بكر للمغيرة : أقسمت عليك لا تسبقني إلى رسول الله حتى أكون أول من يحدثه . ودخل أبو بكر فأخبره بقدمهم . وعاد المغيرة فرد ركبهم إلى المراح ، وعلمهم كيف يحيون النبي بتحية الإسلام ، غير أنهم كانوا قوماً عنيدين فلم يحويه إلا بتحية الجاهلية .

ضربت لهم قبة في ناحية من المسجد حتى يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا ، فتلين قلوبهم . وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يقوم بينهم وبين محمد بالمفاوضات ، وهو الذي يأتيهم بطعامهم ، إلا أنهم كانوا لا يأكلون منه شيئاً حتى يأكل خالد منه قبلهم . وكان من ضمن شروطهم على محمد أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين . فأبى عليهم أشد الإباء ، فما برحوا ينتقصون من هذه السنين حتى سألوه شهراً واحداً بعد عودتهم إلى أهاليهم حتى يتألفوا سفاءهم ، فأبى عليهم أن يدعها مدة محددة .

ثم إنهم سألوه أيضاً ألا يصلوا ، وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم ، فقال « أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك ، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه . » فقالوا : سنؤتيكها وإن كانت دناءة . كذلك اشترطوا ألا يُحجَّوا ، ولا تؤخذ عشر أموالهم ، ولا يجبوا ، ولا يستعمل عليهم غيرهم . فأجابهم محمد إلى ذلك ، وكان يقول « سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا . » فأسلموا وكتب لهم كتاباً ، أمر عليهم عثمان بن أبي العاص :

وكان أصغرهم سنّاً : وإمكّنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن . ذلك أنهم كانوا يتركونه في رحالهم إذا أتوا محمداً ، فإذا رجعوا وسط النهار قام هو فجاءه فسأله عن العلم واستقرأه القرآن ، فإن وجده نائماً ذهب إلى أبي بكر الصديق ، فلم يزل كذلك حتى تعلم كثيراً من أصول الإسلام ، وأحبه الرسول حباً شديداً . ومن وصاياه لعثمان قوله : « يا عثمان تجوز في الصلاة ، وتخفف عن الناس ، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة » .

فلما فرغ اللقوم من أمرهم استأذنوا النبي أن يسبقوا رسله الذين سيهدمون الربة إلى قومهم . واتفقوا فيما بينهم ، خشية ما قد يحدث من رد فعل عند الناس أن يكتسبوا أمرهم حتى يتأكدوا من قبول الناس الإسلام . فلما سألوهم : ما وراءكم ؟ أظهروا الحزن وأنهم إنما جاءوا من عند رجل فظ غليظ قد ظهر بالسيف ، يحكم ما يريد ، وقد دوّخ العرب . قد حرم الربا والزنا والخمر ، وأمر بهدم الربة . فنفر الناس وقالوا : لا نطيع لهذا أبداً . وتأهبوا للقتال ومكثوا على ذلك يومين أو ثلاثة ، ثم تابوا إلى رشدهم وعلموا أنه لا طاقة لهم بحرب محمد ، فرجعوا عن غيهم وأتابوا وقالوا للوفد : ارجعوا فشارطوه على ذلك وصالحوه عليه . فقال الوفد : فإننا قد فعلنا ذلك ووجدناه أتقى الناس وأوفاهم وأرحمهم وأصدقهم . وقد بورك لنا وإكم في مسيرنا إليه وفيما قاضيناه عليه ، فافهموا ما في القضية واقبلوا عافية الله . قالوا : فلم كتمتمونا هذا أولاً ؟ قالوا : أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان . ثم لأنهم أسلموا جميعاً .

وبعد أيام قدم عليهم رسل محمد على رأسهم خالد بن الوليد ، وفيهم أبو سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، فعمدوا رأساً إلى اللات ليهدموها . فخرجت ثقيف عن بكرة أبيها : رجالها ونساؤها والصبيان لم يبق فيها أحد منهم ، وكان عامتهم يظنون أنها لا تهلدم ، وأنها سوف تمتنع على الهدم .

فلما تقدم المغيرة بن شعبة وفي يده المعول لهدمها قال لأصحابه : والله لأضحكنكم من ثقيف . وهوى بالمعول فضرب ضربة ثم سقط على الأرض وقام يركض برجله . فصاح أهل الطائف صيحة واحدة وفرحوا فرحاً شديداً وقالوا : أبعد الله المغيرة قتلته الربة ! وقالوا لأصحابه : من شاء منكم فليقترب منها .

فقال لهم المغيرة : والله يا معشر ثقيف إنما هي حجارة وطين ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه . ثم ضرب الباب فكسره ، وعلا سورها وعلا معه الرجال من أصحابه . وهوى عليها بمعاولهم يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض . وكان أبو سفيان يقول كلما ضربها المغيرة بالفأس : واهاً لك ! آهاً لك ! حدث هذا وثقيف مبهوتة كأن على رؤوسهم الطير .

وأقى وفد بني حنيفة ، وكان معهم مسيلمة بن حبيب الملقب بالكذاب ، إلا أنهم خلفوه في رحا لهم عند ما دخلوا على محمد في المسجد . فلما أسلموا ذكروا مكانه فقالوا : يا رسول الله إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحا لنا وفي ركائبنا يحفظها لنا ، فقال : « أما إنه ليس بشركم مكاناً » وأمر له بمثل ما أمر لأصحابه . فلما انصرفوا وعادوا إلى اليمامة فسر مسيلمة قوله محمد « أما إنه ليس بشركم مكاناً » على أنه دليل على أنه أشرك معه في النبوة . وأخذ من ثمة يسجع لقومه السجعات مضاهاة للقرآن . وكان فيما يقول : لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى . من بين صفاق^(١) وحشا^(٢) . ولقد صدقته بنو حنيفة وشاع أمره بينهم وشاعت تقليداته للقرآن حتى لقد كان المار بذيابهم يسمع ببعض مساجد بني حنيفة قراءة ما أنزلها الله على محمد ، كقول مسيلمة : والطاحنات طحناً والعاجنات عجنناً . والخابزات خبزاً . والثارذات ثرداً . واللاقمات لقمناً . ولا عجب فأمر مسيلمة وارتداد بني حنيفة معروف . وقد قتله في حروب الردة زيد بن الخطاب .

(٢) الحشا : ما في جوف البطن .

(١) الصفاق : جملة البطن .

ومن الوفود وفد نصارى نجران . وكان محمد قد كتب إلى أسقف نجران كتاباً « باسم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران ، فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم آذنتكم بحرب والسلام » . فلما قرأ الأسقف هذا الخطاب ذعر وفزع فزعا شديداً ، واستشار مستشاريه ، وقر الرأي على إرسال وفد لمحمد . فأتاه وفد نجران من ستين راكباً ، ودخلوا عليه المسجد وهم يلبسون ثياب الحرير مختمين بالذهب ، وقدموا له بسطاً فيها تماثيل ومسوحاً^(١) فلم يقبل البسط وقبل المسوح . ولما جاء وقت صلاتهم صلوا في المسجد مستقبلين بيت المقدس . فلما أتموا صلاتهم دعاهم النبي للإسلام فأبوا وقالوا كنا مسلمين قباكم . فقال : « بمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن الله ولد » . قالوا فمن مثل عيسى لا أب له ؟ وما تقول فيه ؟ فقال : « ما عندي فيه شيء يوحى هذا ، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى » .

فأنزل الله في ذلك سورة آل عمران ، فلما أصبح الغد قرأ عليهم « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين »^(٢) . فأبوا أن يقرؤا بذلك ورفضوا الإسلام ورضوا بالجزية ، وكانت ألف حلة في صفر ، وألف حاة في رجب ، مع كل حاة أوقية من ذهب . ثم طلبوا منه أن يرسل معهم أميناً فأرسل معهم أباً عبيدة عامر بن الجراح ، فلذلك سمي أمين هذه الأمة .

(١) المسح : الثوب من شعر .

(٢) آل عمران ٥٩ - ٦١ .

وقدم وفد بنى عامر وفيهم عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس ، وحيان ابن سلمى ، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء قومهم ودهاتهم . وكان بنو عامر قد أجمعوا على الإسلام وقالوا لعامر : يا عامر إن الناس قد أسلموا فاسلم ، غير أن العزة أخذته وغره بالله الغرور فقال : والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قریش . فلما جلسوا إلى محمد قال عامر : يا محمد ما تجعل لى إن أسلمت ؟ فقال « لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم » قال عامر : أتجعل لى الأمر إن أسلمت من بعدك . قال : « ليس ذلك لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل » . فقال : أنا الآن فى أعنة خيل نجد ، اجعل لى الوبر^(١) وللك المدار^(٢) . فلم يقبل محمد ، فانصرف عنه عامر غاضباً وهو يقول : أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالا . فقال محمد : اللهم اكفنى عامر بن الطفيل .

فلما خرجوا ثارت حمية عامر فقال لأربد : يا أربد نعود إلى محمد فأشغله بالحديث وأنت فاضربه بالسيف ، فإن الناس إذا قتلت محمداً لم يزيذوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب ، فسنعطيهم الدية . ثم إنهما قفلا راجعين إليه ، فقال له عامر : يا محمد قم معى أكلمك . فقام معه إلى الجدار ووقف يكلمه ويقول له : يا محمد صادقنى ، فيقول له : « لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » . ثم إن أربد حاول عندئذ أن يستل السيف ، غير أن شجاعته خانتته ، ففطن محمد إلى ما يريد أربد فانصرف عنهما . فلما تنحيا ، قال عامر لأربد : أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل أخوف على نفسى منك ، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً .

فقال أربد : لا أبأ لك ! لا تعجل على ، والله ما هممت بالذى أمرتنى به إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟

(١) الهدى . (٢) المدن والقرى .

ثم إن وفد بنى عامر خرجوا عائدين إلى بلادهم . وبينما هم في بعض الطريق أصيب عامر بالطاعون في عنقه فنزل في بيت امرأة من بنى سلول ، غير أنه كره أن يموت في بيت سلولية للوهمهم ، فخرج من بيتها ، فوثب على فرسه وأخذ رحمه وأقبل يحول وهو يرغب أن يموت موة الفرسان ، لا حتف أنفه وهو يقول : غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية ! ولم يزل كذلك حتى سقط عن فرسه ميتاً .

أما أربد فإنه لما عاد إلى بنى عامر سألوه : ما وراءك يا أربد ؟ فقال : لا شيء والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله الآن . ثم إنه خرج بعد ذلك بيوم أو يومين ومعه جمل له يريد بيعه ، فانقضت عليهما صاعقة فأحرقتهما . أما بنو عامر فقد أسلموا . ولقد أنزل الله تعالى في عامر وأربد قوله « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال »^(١) إلى قوله « ويرسل الصواعق فيبصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال »^(٢) .

وقدم ضمام بن ثعلبة وافداً عن قومه بنى سعد بن بكر ، وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ، ودخل المسجد ومحمد جالس في أصحابه . وكان ضمام رجلاً جليداً أشعر ذا غدبرتين ، من أهل البادية جهورى الصوت لا يفقه ما يقول ، فأقبل يقول : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال محمد : « أنا ابن عبد المطلب » .

فقال : يابن عبد المطلب إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تغضبني فى نفسك . قال : « لا أغضب فى نفسى فسل ما بدا لك » .

فقال : أنشدك إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ،
 آله بعثك إلينا رسولا ؛ قال : « اللهم نعم » .
 قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ،
 آله أمرك أن تصلى هذه الصلوات الخمس ؛ قال : « نعم » .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة ، الزكاة ، والصيام ،
 والحج ، وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده
 في التي قبلها . حتى إذا فرغ قال : فاني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن
 محمداً رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم
 لا أزيد ولا أنقص . وعاد إلى قومه فأخبرهم بما أمرهم به وما نهاهم عنه ،
 فأسلموا وبنوا المساجد وأذنوا بالصلاة .

وقدم وفد طى وفيهم زيد الخيل ، وهو زيد بن مهلهل بن زيد ،
 وسمى زيد الخيل لخمس أفراس كن له ، وكان من أحسن العرب وسيماً
 طويلاً . فأسلموا بين يدي محمد وحسن إسلامهم ، وقد قال محمد في زيد
 الخيل : « ما ذكر رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه ،
 إلا زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ كل الذي فيه » . وسماه زيد الخير .

ومن الوفود وفد كندة ، قدم في ثمانين راكباً ، فدخلوا على النبي
 مسجده وعليهم جُسيبُ الخبرة قد كففوها بالحرير ، فقال لهم : « ألم تسلموا ؟ »
 قالوا : بلى . قال : فما بال الحرير في أعناقكم ؟ فشقوه منها فألقوه . ثم قال
 له الأشعث بن قيس : يا رسول الله نحن بنو آكل المُرار ، وأنت ابن آكل
 المُرار . فتبسم وقال : « ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب ، وربيعه
 ابن الحارث » . وذلك أن العباس وربيعه كانا تاجرين إذا سألهما أحد من
 العرب ممن أنتم ، قالوا : نحن بنو آكل المُرار ، يريدان الانتساب إلى كندة
 ليعزا في تلك البلاد ، لأن كندة كانوا ملوكاً ، فاعتقدت كندة أن قريشاً
 منهم لقول العباس وربيعه « نحن بنو آكل المُرار » . ثم إن محمداً قال لهم :

« لا ، نحن بنو النضر بن كنانة لا نهم أمنا بالفجور ، ولا نفتنى من أبينا » .
وقدم عليه كتاب ملوك حمير ورسولهم بإسلامهم في أثر عودته من تبوك ،
وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال . والنعمان قيل ذى
رعين ، ومعاقر . وهمدان . وبعث إليه زرعة ذو وزن بن مرة الرهاوى
بإسلامهم ومفارقةهم الشرك وأهله .

فكتب إليهم كتاباً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى
الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل ذى رعين ،
ومعاقر ، وهمدان ، أما بعد ذاكم فإني أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ،
فإنه قد وقع بنا رسولاكم منقلبنا من أرض الروم ، فلقينا بالمدينة فبلغ
ما أرسلتم به وخبرنا ما قباكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وأن الله
قد هداكم بهداه ، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة
وأعطيتم من المغنم خمس الله وسهم النبي صلى الله عليه وسلم وصفيه وما كتب
على المؤمنين فى الصدقة ، من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء وعلى
ما سقى الدلو نصف العشر ، وأن فى الإبل فى الأربعين ابنة لبون ، وفى
ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر ، وفى كل خمس من الإبل شاة ، وفى كل
عشر من الإبل شاتان ، وفى كل أربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين
تبيع جذع^(١) أو جذعة ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة^(٢) وحدها شاة ،
لأنها فريضة الله التى فرض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيراً فهو
خير له .

ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه
من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم وله ذمة الله وذمة رسوله ، ولأنه من
أسلم من يهودى أو نصرانى فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم .
ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُرد عنها ، وعليه الجزية

(١) الجلع من الحيوان الصغير . (٢) السائمة : الماشية التى ترسل لترعى .

على كل حالم ذكر وأنثى حر أو عبد دينار وافر من قيمة المعافر أو عوضه ثياباً ، فمن أدى ذلك إلى رسول الله فإن له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله .

أما بعد ، فإن رسول الله محمداً النبي أرسل إلى زرة ذى يزن : أن إذ أتاك رسل فأوصيكم بهم خيراً ، معاذ بن جبل ، وعبد الله بن زيد ، ومالك بن عباد ، وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والحزيرة من مخالفينكم وأبلغوها رسل ، وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضياً .

أما بعد فإن محمداً يشهد أنه لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله ، ثم إن مالك بن مرة الرهاوى قد حدثني أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين ، فأبشر بخير ، وأمرك بحمير خيراً ، ولا تخونوا ولا تحاذلوا فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم ، وإن الصدقة لا تحل لحمد ولا لأهل بيته ، وإنما هي زكاة يُزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل . وإن مالكاً قد بلغ الخبر وحفظ الغيب فأمركم به خيراً ، وإنى قد أرسلت إليكم من صالح أهلى وأولى دينهم وأولى علمهم ، فأمركم بهم خيراً فإنهم منظور إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

الفصل السادس والعشرون

أبو بكر أميراً على الحج

حدث في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الإسلام . وهى الفترة التى استقر فيها الدين الجديد بعد فتح مكة وإسلام قريش وثقيف ومعظم قبائل الحجاز . وانتهت المواقع الحربية الكبيرة . وبدأت وفود القبائل ترد على المدينة خاضعة لحكم الإسلام . تطور هام جداً فى تحديد علاقة الإسلام النهائية بالمشرىكين فى جزيرة العرب . وكان المشركون حتى هذه السنة ، أى السنة التاسعة الهجرية ، لا يزالون أحراراً كاملي الحرية فى الحج إلى بيت الله الحرام ، وإقامة شعائرهم الوثنية فى حماية العهد العام الذى قطعه محمد للجميع بالأبى يَصَدَّ عن البيت العتيق أحد جاءه ، وألا يخاف أحد فى الأشهر الحرام ، فضلاً عن اليهود التى كانت بينه وبين بعض قبائل المشركين إلى آجال مسماة . وكان حج أبى بكر بالناس فى هذه السنة حداً فاصلاً بين الإسلام والوثنية فى جزيرة العرب من جميع الوجوه ، وعلامة واضحة على الطريق الذى انبغى للعرب أن يسلكوه .

بعث محمد أبى بكر الصديق فى أخريات ذى القعدة للحج بالناس . فخرج من المدينة على رأس ثلاثمائة من حجاج المسلمين ، ومعه من الهدى عشرون بدنة أهداها النبى وخمس أهداها هو . غير أنه حدث بعد أن خرج أبو بكر بقليل أن نزل على النبى صدر سورة براءة ، وفيه تحديد كامل وشامل وتام لعلاقة المسلمين بالمشرىكين فى جزيرة العرب . فقليل له : لو بعث بها إلى أبى بكر ؟ فقال : « لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى » .

ودعا على بن أبى طالب فقال : « اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذّن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : ألا إنه لا يدخل الجنة كفر ،

ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته .

فخرج على بن أبي طالب على ناقة محمد العصباء ، حتى أدرك أبا بكر ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور .

فلما كان يوم النحر واجتمع الناس بمنى ، تقدم على فقرأ على الناس صدر سورة براءة : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذلهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة رضونكم بأفواههم ونابى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أنخشوهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » (١) .

الفصل السابع والعشرون

حجة الوداع

ما إن آذنت شمس السنة العاشرة الهجرية بالمغيب حتى كانت جزيرة العرب عن بكرة أبيها تدين بالإسلام . وكان طبيعياً وضرورياً أن يحج رسول الله بالمسلمين ليأخذوا عنه مناسك الحج . ولقد سميت هذه الحجة بحجة الوداع ، لأن النبي ودع الناس فيها ولم يحج بعدها ، وسميت حجة الإسلام أيضاً لأنه لم يحج من المدينة غيرها ، وسميت حجة البلاغ كذلك لأنه بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وفعلًا ، ولم يكن قد بقى في ذلك الوقت من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه وعلمه للناس . فلما بين لهم شريعة الحج ومناسكه ليأخذوها عنه نزل عليه وهو واقف بعرفة قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » (١) .

لما ترامت الأنباء بأن النبي خارج للحج أقبلت عشرات الألوف من المسلمين من كل حذب ونصب على المدينة يريدون الخروج معه لقضاء هذه الفريضة التي فرضها عليهم الله . فتجمع في المدينة نحو من مائة ألف أو أكثر ، وضربوا خيامهم حولها انتظاراً للخروج في صبة نبيهم ، وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة من السنة العاشرة أذن النبي بالخروج ، فركب ناقته القَصْواء ، ومعه نساؤه كل منهن في هودجها ، وسار على رأس هذا الجمع الذي لم تشهد جزيرة العرب مثله من قبل ، واستخلف على المدينة أبا دجانة . فلما بلغوا ذا الحليفة أقاموا ليلتهم ، ولما أصبحوا صلى بهم الصبح ،

ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن وسلت الدم وقلدها نعلين ، وتولى لإشعار بقية الهدى وتقليده غيره . ثم أحرم وأحرم المسلمون ، ثم ركب راحته حتى إذا استوت به البيداء أهل بالحلج (مفرداً أو مقروناً بعمره في قول البعض) فقال : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك ، والملايك لك ، لا شريك لك » . ولبي الناس ، وكان يدعو ربه ويكرر الدعاء في أثناء مسيره فيقول : « اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة » . ولما بلغوا سرف (مكان في الطريق بين المدينة ومكة) قال لهم : « من لم يكن منكم معه هدى فأحب أن يجعلها عُمره فليفعل ، ومن كان معه هدى فلا » .

وفي اليوم الرابع من ذى الحجة وصل الركب الكبير إلى مكة فحل^(١) كل من لم يكن معه هدى ، وحل نساؤه بعمره . ودخل النبي مكة ضحى ذلك اليوم من الثنية العليا وهي ثنية كداء ، وهو على ناقته القصواء ومن تحته رحل رث عليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم . فلما بلغ باب بني شديبة ورأى بيت الله الحرام رفع يديه وقال : « اللهم زد هذا البيت تشريقاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من شرفه وعظمته ممن حجه واعتمره تشريقاً وتكريماً ومهابة وتعظيماً وبراً » . فلما أتى الكعبة طاف بها سبعاً ، رمى ثلاثة ومشى أربعة ، وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم ثم قرأ : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى »^(٢) . ثم استلم الحجر الأسود ، أى قبله ، ثم قرأ : « إن الصفا والمروة من شعائر الله »^(٣) . ثم قال : « نبدأ بما بدأ الله به » فصعد على الصفا وهو راكب راحلته ، فنظر إلى البيت وكبر ثم قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده . أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » . ثم سعى بين المصفا والمروة سبعاً ، وكان إذا رقى المروة قال كما قال على الصفا . فلما

(١) أى خرج من إحرامه وجاز له ما كان ممنوعاً .

(٢) البقرة ١٥٨ .

(٣) البقرة ١٢٥ .

كان السابع عند المروة قال : أيها الناس إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدى ولجعلتها عمرة ، فمن لم يكن معه هدى فليحل وليجعلها عمرة . فأحل كل من لم يكن معه هدى وقصروا ، وحل نساء النبي وحلت ابنته فاطمة ، ولم يبق على إحرامه إلا كل من كان معه هدى .

ولما كان يوم التروية ، الثامن من ذي الحجة ، ذهب النبي والمسلمون إلى منى وأهلوا بالحج ، وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلا بعد الفجر حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة له من شعر فضربت له بنميرة . وسار وقريش لا تشك في أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت تصنع قريش في الجاهلية ، غير أنه تجاوزها حتى جاء عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنميرة . ولما مالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت ، وركبها حتى أتى بطن الوادي ، فوقف هناك يخطب في الناس خطبة الوداع ، وكان يلقيها بصوت جهورى قوى ، ويردها من بعده ربيعة بن أمية بن خلف . قال :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » .

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحسبكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير » .

« أما بعد أيها الناس . اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقعي هذا » .

« أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . إن ربا الجاهلية

موضرغ ، وإن أول رباً أبدأ به رباً عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود (قصاص) وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

« أيها الناس : إن الشيطان يشن أن يُعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم » .

« أيها الناس إن النسيء^(١) زيادة في الكفر يفضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض . وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض منها أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان » .

« أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكن عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرر هونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة . فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن^(٢) وتهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان ولا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله . فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً .

« أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعن بعدى كفاراً

(١) تأجيل شهر من الأشهر الحرام إلى السنة التالية ، وذلك أنهم كانوا إذا استعطلوا الأشهر الحرام وتعجلوا الحرب أجلوا المحرم وحرموا صفراً من عامهم المقبل .
(٢) أ تحبسوهن وتضيّقون عليهن .

يضرب بعضكم رقاب بعض فأني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعدى ، كتاب الله ، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال وهو يرفع إصبعه السبابة إلى السماء ثم يشير بها إلى الناس : « اللهم اشهد اللهم اشهد اللهم اشهد » ثلاث مرات . وكان ربيعة بن أمية بن خلف يردد بعده مقطوعاً مقطوعاً ، وهو يسألهم بين هذا وذاك سوألاً ليحتفظ بيقظتهم ، فيأمر ربيعة أن أسألهم هل تدرّون أى يوم هذا . فيقول ربيعة : إن رسول الله يقول : هل تدرّون أى يوم هذا ؟ فيقولون : يوم الحج الأكبر . فيقول النبي ويردد بعده ربيعة : « إن الله قد حرم عليكم دماءكم . . . » ثم يقول لربيعة : « قل هل تدرّون أى بلد هذا ؟ » فينادى فيقول الناس : البلد الحرام . فيقول مقطوعاً آخر من خطبته ويردده بعده ربيعة . وهكذا حتى انتهى من خطبته .

وفى ذلك اليوم وبعد أن ألقى خطبة الوداع نزل عليه قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » (١) . فلما سمعها أبو بكر تحادرت على خديه الدموع ، فقد أحس عند ذاك قلبه أن أجل النبي قد حان وأنه سيلقى ربه غن قريب .

غادر النبي بعد ذلك عرفات وقضى ليلته بالمزدلفة ، ثم قام فصلى الفجر حتى إذا تبين له الصبح ركب ناقته القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ودعا الله عز وجل وكبره وهلله ووحدته عملاً بقوله تعالى : « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » (٢) . ولم يزل واقفاً هناك حتى أضاء الصبح ثم رحل عنه قبل أن تطلع الشمس . ثم توجه إلى منى وهو لا يزال يلبي حتى رمى جمرة العقبة ، وهو يكبر مع كل حصاة ، ثم قطع التلبية مع آخر حصاة . وكان يقول للناس : « لتأخذوا مناسككم فأني لا أدري لعلى لا أحج بعد حجتي هذه » . ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين ناقة بيده ، وذلك مناسب لعمره . ثم أعطى علياً فنحر بقية

(١) المائدة ٣

(٢) البقرة ١٩٨ .

- ٣٩٣ -

الهدى وجملة مائة وأشركه فيه ، ثم حلق وأتم حججه . وأمر بأن يؤخذ من كل ذبيحة قطعة فتوضع سوياً في قدر فتطبخ ، ليأكلوا منها ويشربوا مرقها . وقسم لحومها وجلودها على الناس .

ثم لبس ثيابه بعد أن رمى الجمرات ونحر هديه وحلق وطيبته عائشة ، وذلك قبل أن يطوف بالبيت . ثم ركب وأتى البيت الحرام فطاف به سبعا وهو راكب ، وصلى الظهر . ولم يطف بين الصفا والمروة هذه المرة ، واكتفى بطوافه الأول . ورجع إلى منى فمكث بها ليالى أيام التشريق يرمى الجمرة إذا زالت الشمس ، كل جمرة بسبع حصيات ، ويكبر مع كل حصاة . فلما كان ثالث أيام التشريق ، ركب والمسلمون معه . وغادر منى إلى المحصب وهو واد بين مكة ومنى فصلى العصر به . ثم ركب إلى البيت فطاف به طواف الوداع . ثم خرج من أسفل مكة من الثنية السفلى أى من كُدّى ، وقفل راجعا إلى المدينة .

الفصل الثامن والعشرون

أهل البيت

زوجات النبي وخطيباته وسراريه وأولاده

يختلف كتاب السيرة في تحديد عدد زوجات النبي ، فقال بعضهم لأنهن خمس عشرة امرأة ، وقال آخرون ثمانى عشرة امرأة . أما ما لا خلاف فيه فهو أنه دخل بإحدى عشرة امرأة ، توفيت اثنتان في حال حياته ، ومات عن تسع ، ولم يتزوج غير بكر واحدة .

تزوج خديجة بنت خويلد وهو في الخامسة والعشرين وهى في مثل هذه السن أو أكبر قليلا ، وإن اختلفت أقوال كتاب السيرة كثيراً في تحديد عمر كل منهما عند الزواج .

وكانت قد تزوجت قبله برجلين ، الأول منهما عتيق بن عائد بن مخزوم ولها منه ابنة . والثانى أبو هالة التيمى فولدت له هند بن أبى هالة الصحابى . وهى أم أولاده ما عدا إبراهيم ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت في السنة العاشرة من مبعثه ، وهو ابن خمسين سنة .

وبعد وفاة خديجة بقليل تزوج عائشة بنت أبى بكر التيمية وهى بنت سبع سنين ، ولم يدخل بها إلا بعد الهجرة وهى بنت تسع سنين . ولم يتزوج بكراً غيرها . ويقال بأنها أسقطت منه والمدآ سماء عبد الله ، ذلك أنها كانت تكنى بأم عبد الله . وقيل إنما كانت تكنى بعبد الله ابن أختها أسماء من الزبير بن العوام .

وتزوج قبل الهجرة أيضاً سودة بنت زمعة العامرية ، وكانت قبله زوجة

السكران بن عمرو أخى سهيل بن عمرو . مات عنها زوجها مسلماً بعد رجوعه وإياها من أرض الحبشة .

وتزوج بعد الهجرة حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية ، وكانت قبله زوجة خنيس بن حذافة بن عدى ، مات عنها مؤمناً .

وتزوج أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية ، وكانت قبله زوجة لابن عمها أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد .

وتزوج أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب الأموية ، وكانت قبله زوجة لعبيد الله بن جحش بن رثاب ، مات بأرض الحبشة نصرانياً ، فبعث إليها عمرو بن أمية الضممرى فخطبها عليه وزوجها منه عثمان بن عفان وكان لا يزال مهاجراً بالحبشة ، وأصدقها عنه النجاشى أربعمئة دينار .

وتزوج زينب بنت جحش الأسدية ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمته ، وكانت قبله زوجة مولاه زيد بن حارثة فطلقها . وهى التى تولى الله عقد زواجها . وكانت أول نساؤه لحوقاً به ، وأول من عمل لها النعش ، صنعتها أسماء بنت عميس على طريقة أهل الحبشة .

ثم تزوج زينب بنت خزيمة ، وهى من بنى عبد مناف ، ويقال لها أم المساكين ، وكانت قبله زوجة عبد الله بن جحش بن رثاب قتل يوم أحد ، ولم تلبث عنده إلا قليلاً حتى توفيت .

وتزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوجت قبله رجلين أحدهما ابن عبد ياليل الثقفى . ويقال إنها هى التى وهبت نفسها ، والأصح أنه خطبها ، وكان السفير بينهما أبو رافع .

وسبى جويرية بنت الحارث المصطلقية يوم المريسيع ، فأعتقها وتزوجها . ويقال بل قدم أبوها ، وكان ملك خزاعة ، فأسلم ثم تزوجها منه . وكانت قبله زوجة ابن عمها صفوان بن أبي الشغر .

وسبى صفية بنت حيى بن أخطب من يهود بنى النضير وهى يومئذ

حروس لبيكانة بن أبي الحقيق ، فأعتقها وجعل عتقها صداقها وتزوجها .
اجتمع عنده من زوجاته تسع نساء في وقت واحد . هن من ذكرن
آتماً فيما عدا خديجة ، وزينب بنت خزيمة . وهن اللاتي توفي عنهن ، وهن
حرام على الناس من بعده بالإجماع المحقق ، وعدتهن بانقضاء أعمارهن عملاً
بالآية « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من
بعده أبداً إن ذاكم كان عند الله عظيماً » (١) .

أما القول بأنه اجتمع عنده إحدى عشرة امرأة ، فيراد به أولاء التسع ،
وسرياته مارية القبطية ، وريحانة اليهودية .

أما اللاتي تزوجهن ولم يدخل بهن فليس عليهن إجماع من كتاب
السيرة . نذكر منهن عمرة بنت يزيد الغفارية ، وكان بها برص عند ثديها .
فلما جردها من ثيابها ورأى هذا البرص ، أمرها أن تلبس ثيابها ثم ردها
إلى أهلها ، وأوجب لها الصداق وحرمت على غيره .

ثم الشبابة وقد قاومته عند ما أدخلت عليه فتركها ينتظر بها اليأس ،
فلما مات ابنه إبراهيم على بغتة قالت : لو كان نبياً لم يميت ابنه ، فطلقها
وأوجب لها الصداق وحرمت على غيره . أما العالية بنت ظبيان فطلقها قبل
أن يحرم الله نساء النبي . ثم أميمة أو أمينة وهي امرأة من بنى الجحون ،
رفضته لما دخل عليها وقال لها : « هبي لي نفسك » فقالت : وهل تهب
الملك لنفسها لسوقة ؟ فأهوى بيده عليها لتسكن ثأرتها فقالت : أعوذ بالله
منك . فقال : « عُدَّتْ بعظيم ، الحق بأهلك » . وتزوج قتيلة بنت قيس
أخت الأشعث بن قيس ، وزعم بعض كتاب السيرة أنه تزوجها قبل وفاته
بشهرين . وزعم بعض آخر أنه تزوجها في مرضه ، ولم تكن قدمت عليه
ولا رآها . وزعم غيرهم أنه أوصى أن تخيّر قتيلة فإن شاءت يضرب عليها
الحجاب وتُحَرَّم على المؤمنين . وإن شاءت فلتتزوج من تشاء ، فاختارت

الزواج فنزوجهما عكرمة بن أبي جهل . وذكر كتاب السيرة غير أولاء
عدة نسوة أخر .

ثم إنه خطب عدة نسوة ولم يعقد عليهن . خطب أم هانئ فاختة بنت
أبي طالب ، فاعتذرت إليه بأن لها صبية صغيراً فعذرهما . وروى أبو ليلى
بنت الخطيم أقبلت إليه وهو مول ظهره إلى الشمس فضربت منكبه ، فقال :
« من هذا » قالت : أنا بنت مطعم الطير ، ومبارى الريح ، أنا ليلى بنت
الخطيم ، جئت لك لأعرض عليك نفسى ، تزوجنى ؟ قال : « قد فعلت » .
فرجعت إلى قومها فقالت : قد تزوجت النبى ، فقالوا : بئس ما صنعت ،
أنت امرأة غيرى ورسول الله صاحب نساء تغارين عليه ، فيدعو عليك ،
فاطلبى منه فسخ الخطبة ، فلما طابت منه ذلك فعل . وخطب ضباعة بنت عامر
من ابنها فسكت عن إجابته إذ كانت قد طعنت فى السن ، فسكت عنها .
وخطب صفيية بنت بشامة العنبرى ، وكان أصابها فى سبي ، فخيرها فقال :
« إن شئت أنا وإن شئت زوجك » فقالت : بل زوجى ، فأطلقها أزوجهما ،
فلعنهما بنو تميم . وخطب حبيبة بنت العباس بن عبد المطلب فوجد أباهما
أخاه من الرضاعة ، أرضعتهما ثوية مولاة أبى لهب .

أما من تسرى بهن فائنتان على التحقيق ، هما مارية القبطية المصرية ،
وريحانة اليهودية ، قيل من بنى قريظة وقيل من بنى النضير . أما مارية
فأهداها له المقوقس أسقف الأسكندرية ونائب إمبراطور الروم على مصر .
وأهدى له معها أختها سيرين التى وهبها لحيان بن ثابت ، وغلاماً يدعى
مأبور كان خصياً ، وكان يدخل على مارية وشيرين بلا إذن كما
جرت العادة فى مصر . وكانت مارية جميلة بيضاء أعجب بها النبى وأحبها
وحظيت عنده ولا سيما بعد أن ولدت لإبراهيم . أسكنها فى مال له بالعالية
من أموال بنى النضير ، وكان يأتيها هناك ، فولدت منه غلاماً سماه إبراهيم .
ولقد سر سروراً كبيراً عند ذاك وقال : « أعتقها ولدها » . وكان ميلاد

لإبراهيم والحظوة التي نالتها مارية عنده سبباً في تألب نساءه عليه وتآمرهن عليها ، مما أدى إلى تنغيص حياته في أخريات أيامه . وجاءته مارية يوماً وهي تحمل إبراهيم على عاتقها فقال : « يا عائشة كيف ترين الشبه ؟ » قالت : أنا وغيرى ما أرى شهماً . فقال : « ولا اللحم » قالت : لعمرى من تغذى بألبان الضأن ليحدثن لحمه . وكان قد اشترى لمارية شاة لبوناً لتغذى منها الصبي . ثم لمنه أكثرن الكلام في حق مارية واتهمنها مع مأبور ذلك القبطى الذى جاء معها من مصر ، وكان يزورها ويختلف إليها ويدخل عليها بلا إذن .

فلما كثر القيل والقال واستاء محمد من هذا الوضع ، نادى علياً وقال له : « نخل هذا السيف فانطلق فإن وجدته عندها فاقتله » . فامثل على للأمر ، ولكنه استأذنه : أكون في أمرك لا يثنينى شيء حتى أنفذ ما أمرتنى به ، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ؟ فقال : « بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب » .

فانطلق على متوشحاً السيف فوجد مأبوراً عند مارية فاستل السيف ، فلما رآه مأبور خشيته وأدرك ما يريد ، فرمى بنفسه على الأرض وشال رجليه ، فإذا به خصى أمسح ليس له ما للرجال لا قليل ولا كثير . فتركه على ورجع إلى محمد فأخبره فقال : « الحمد لله الذى صرف عنا أهل البيت » .

ثم إن مارية كانت سبباً في إشعال فتنة في بيت محمد ، بسبب ما حدث بينها وبين حفصة ذات يوم . ولقد زادت هذه الفتنة اشتعالاً غير عائشة من زينب بنت جحش ، وغيره بقية زوجاته من عائشة ، وغيرهن جميعاً من مارية . وذلك أن حفصة ذهبت يوماً إلى أبيها تزوره ، فلما عادت وجدت محمداً في حجرتها ومعه مارية . فانتظرت حتى يخرجها ، وطال انتظارها والغيرة تمزق قلبها ، فلما خرجت مارية دخلت حفصة مغضبة

على محمد فقالت : لقد رأيت من كان عندك ، والله لقد سببتني ، ما كنت لتصنعها لولا هواني عليك . وأدرك محمد ما قد يحدث إشاعة ما حدث بين زوجاته من فتنة ، فأقبل على حفصة يلاطفها ويترضاها حتى لقد حلف لها أن مارية عليه حرام إن هي لم تذكر لأحد مما رأت شيئاً . فوعده بالكمئان ، غير أنها لم تستطع أن توفى بهذا الوعد ، فباحث بالسر لعائشة ، وهذه أشارت إليه بأنها علمت من حفصة قصة ما حدث . فغضب وطلق حفصة ثم راجعها إكراماً لأبيها . وفي ذلك نزل قوله تعالى : « وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير » (١) .

ولم تنته الفتنة عند هذا الحد ، بل لقد تجاوزت حدود ما كان يحدث بين محمد وأزواجه من قبل كثيراً . وتطور الأمر حتى لقد صارحنه بأنه لا يعدل بينهن ، وتناولت زينب بنت جحش على عائشة أمامه ، وكرزن الشكوى من قلة النفقة وخشونة العيش . فلما أكثرن من لجاجتهن ورأى أنهن ماثرات على هذه اللجاجة ، قرر أن يهجرهن شهراً وأن يهددهن بالطلاق إن لم يثنى إلى نفوسهن ويعدن إلى رشادهن . وانقطع في مشربة بجوار المسجد . كان يرقى إليها على جذع من جذوع النخل . غير أنه عفا عنهن أخيراً وعادت حياته معهن إلى سابق عهدها . ونزل في ذلك قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحكن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » (٢) .

أما أولاده فكلهم من خديجة فيما عدا إبراهيم من مارية القبطية . ولدت له خديجة القاسم وهو أكبر ولده مات قبل النبوة ، ثم عبد الله ويقال له الطيب والطاهر ، مات بعد النبوة . وقد ماتا طفلين رضيعين .

(١) التحريم ٣ .

(٢) الأحزاب ٢٨ - ٢٩ .

فلما مات عبد الله قال العاص بن وائل : قد انقطع نسبه فهو أبتري .
فأنزل الله على نبيه قوله : « إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن
شأنك هو الأبتري » (١) . أى أن مفضلك هو الأبتري من كل خير . وولدت
له خديجة من البنات زينب . ورقية ، وأم كلثوم . وفاطمة . زينب أكبر
بناته وفاطمة أصغرهن وأحبهن إلى قلبه ، تزوجت زينب قبل الهجرة أبا العاص
ابن الربيع فولدت له علياً وأمامة ، وهى التى يذكر أنه كان يحملها
فى الصلاة ، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها . وأغلب الظن أن ذلك كان
بعد موت زينب سنة ثمان من الهجرة . وقد تزوجها على بن أبى طالب بعد
وفاة فاطمة .

أما رقية فكان قد تزوجها ابن عمها عتبة بن أبى لهب ، وتزوج أختها
أم كلثوم أخوه عتيبة بن أبى لهب . غير أنهما طلقاهما قبل أن يدخلها بهما
بغضة فى النبى حينما ثار النزاع بينه وبين عمه أبى لهب ، ونزل قوله تعالى :
« ثبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات
لهب . وامرأته حاملة الحطب . فى قيدها جبل من مسد » (٢) . ثم تزوج عثمان بن
عفان رقية ، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة ، ويقال إنهما أول من هاجر
إليها . ثم رجعا إلى مكة ، وهاجرا إلى المدينة . وولدت له رقية ابنه عبد الله ،
حتى إذا بلغ ست سنين نقره ديك فى عينه فمات ، وبه كان يكنى ، ثم
اكتفى بابنه عمرو . وتوفيت رقية يوم التقي الجمعان فى بدر سنة اثنين من
الهجرة ، وهى التى جاء البشير بالنصر زيد بن حارثة فوجدهم قد ساووا
على قبرها التراب . وكان عثمان قد تخلف عن بدر بأمر محمد ليتوم
بتمريضها ، فضرب له بسهمه وأجره . ثم زوجه بأختها أم كلثوم أيضاً ،
ولهذا كان يقال له ذو النورين . ومات أم كلثوم عند عثمان فى شعبان
سنة تسع ولم تلد .

(٢) المسد ١ - ٤ .

(١) الكوثر ١ - ٤ .

وتزوج فاطمة ابن عمها علي بن أبي طالب في صفر سنة اثنتين ، فولدت له الحسن ، والحسين ، ويقال ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب . وقد تزوج عمر بن الخطاب في أثناء ولايته بأم كلثوم بنت علي وأكرمها إكراماً زائداً . فلما قتل عمر تزوجها ابن عمها عون بن جعفر ، فلما مات تزوجها أخوه محمد ، فمات عنها ، فتزوجها أخوها عبد الله بن جعفر فمات عنده . أما إبراهيم فمن مارية القبطية . ولدته في ذي الحجة سنة ثمان . ومات وهو ابن ثمانية عشر شهراً . فلما مات أرسل محمد علي بن أبي طالب إلى أمه مارية وهي في مشربة لها ، فوضعه علي في قفصة ووضعه بين يديه على الفرس ، ثم جاء به إلى أبيه ، فغسله وكفنه وخرج به وخرج الناس معه ، فدفنه في الزقاق الذي يلي دار محمد بن زيد ، وسوى على قبره التراب ، ثم رشه بالماء ، ثم بكى وقال : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يغضب الرب ، ولنا عليك يا إبراهيم لحزونون » .

ومما يؤثر عنه أنه لما كسفت الشمس ذلك اليوم ، فقال الناس كسفت لموت إبراهيم ، قام فخطب فيهم فقال في خطبته : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » .

الفصل التاسع والعشرون

مرض النبي ووفاته

عاد النبي من حجة الوداع إلى المدينة راضى النفس مرضياً . فها هم عشرات الألوف من المسلمين صادق الإسلام يصاحبونه إلى حج البيت الحرام ، وها هي قبائل العرب في كل أنحاء الجزيرة قد طأطأت الرؤوس ودانت بدين الحق ، واستتب الأمر للدين الجديد ، ولم يعد ليخشى من شيء على دينه ، وهذه الألوف المؤلفة التي جمع قلوبها الإسلام تلتف من حوله وتدين بتعاليمه وتجاهد في سبيل نصرته بما لها ودمها .

كان الإسلام عندئذ قد استقر استقراراً نهائياً في جزيرة العرب ، وإن تخلل هذا الاستقرار ارتداد قبيلة هنا أو عصيان قبيلة هناك ، ذلك أن قوة الإسلام كانت قد طغت وغلبت ولم يعد لأحد قبيل بمعارضتها أو صد تيارها الجارف . عندئذ كان طبعياً أن يتطلع محمد إلى ما وراء حدود جزيرة العرب . وكان طبعياً أن يتطلع إلى الشام بالذات . ونحن نعلم مما سبق أنه عند ما خرج في غزوة تبوك إنما كان يريد الشام ، ولكنه عاد بدون قتال ومن غير أن يتجاوز حدود جزيرة العرب إلى أرض الشام ، مكتفياً بمصالحة بعض الأمراء على الجزيرة ، وأجل هذا الغزو إلى فرصة أخرى . فأى شيء إذن يمنع جيوش الإسلام الآن ، وقد اختلف الوضع اختلافاً كبيراً جداً عما كان عليه في أواخر السنة التاسعة الهجرية ؟ لقد أسلمت جزيرة العرب الآن عن بكرة أبيها ، وأصبحت جميع قبائلها وفيها من جنود الله عشرات الآلاف ، بل مئات الآلاف ناصراً ومؤزرراً ومعيناً . لم يعد من شيء في واقع الأمر ليحول دون تنفيذه لأوامر ربه عملاً بآية القتال : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون

دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون^(١)،
 جهز محمد جيشاً كبيراً فيه كبار المهاجرين الأولين ، وأمر عليه أسامة
 ابن زيد بن حارثة ، وأمره أن يوطئ الخيل نخوم البلقاء والداروم من أرض
 فلسطين . فتجهز أسامة والمسلمون وتجمعوا وخيموا بالحرف على فرسخ
 من المدينة استعداداً لإيذان الرسول لهم بالمسير . وانصاع المسلمون كبيرهم
 وصغيرهم لأوامر نبيهم وقائدهم الأعلى ، إلا أن بعض أصوات ارتفعت
 عندئذ بالظعن في إمارة أسامة لصغر سنه . فخرج النبي إليهم وخطب فيهم
 فقال : « إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل ،
 وأيم الله إن كان خليفاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلى ، وإن هذا
 لمن أحب الناس إلى بعده . »

وفي تلك الأثناء وقبل أن يأمر الجيش بالمسير بدأ مرضه الذي قبض
 فيه . ويختلف كتاب السيرة في تحديد المكان واليوم الذي بدأ فيه المرض ،
 ولكن اختلافهم لا يتعدى أياماً . والمؤكد أنه مرض في أواخر صفر من
 السنة الحادية عشرة الهجرية ، وتوفي في أوائل ربيع الأول ، ولم يطل به
 المرض أكثر من عشرة أو ثلاثة عشر يوماً ، ولا خلاف على أنه توفي يوم
 الاثنين . وكان حينئذ قد أتم عشر سنين في المدينة ، وبلغ من العمر ثلاثاً
 وستين سنة .

أرق في ليلة من أواخر شهر صفر ، فخرج من جوف الليل إلى بقيع
 الغرقاء حيث مدافن المسلمين ، واضطحب معه أبا موهبة ، فقال له :
 « يا أبا موهبة إنى أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي » . فلما
 وقف بين أظهرهم قال : « السلام عليكم يا أهل المقابر ، لين لكم ما أصبحتم
 فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يقتبع آخرها أولها ،
 الآخرة أشد من الأولى » .

وفي الغداة انطلق فصلى على شهداء أحد ، ثم أقبل على دار عائشة وهو يشعر بصداغ شديد ، ووجدتها هي الأخرى تعاني صداعاً وتقول :
وارأساه ! فقال لها : « بل أنا والله يا عائشة وارأساه ! » .

ثم أقبل عليها يداعبها فقال : « وما عليك لو ميتٌ قبلي فوليت أمرك وكفتنك وصليت عليك ودفنتك ؟ فقالت ترد عليه دعابته : والله إني لأحسب لو كان ذلك لقد خلوت ببعض نسائك في بيتي من آخر النهار .
فصحك .

وظل أياماً بعد ذلك يؤم المسلمين في الصلاة ، ويقاوم المرض بقدر ما يستطيع . وكان يطوف على نسائه كعادته ، حتى إذا كان يوماً في بيت ميمونة اشتد به الوجع فاجتمع إليه أهله . ولما تشاوروا في علاجه وكان قد أغمى عليه ، قال عمه العباس : إنا نرى برسول الله ذات الجنب فهلما فخللده^(١) . فقاموا فلدوه ، فلما أفاق قال : « من فعل هذا ؟ » . قالوا : عملك العباس تخوف أن يكون بك ذات الجنب . فقال : « ما كان الله ليسلطها علي ، لا يبق في البيت أحد إلا لددتموه إلا عمي العباس » . فلد أهل البيت كلهم حتى ميمونة وكانت صائمة ، وهو ينظر إليهم .

ثم إنه استأذن أزواجه أن يمرض في بيت عائشة ، فأذن له ، فتحامل على نفسه وخرج مستنداً إلى العباس وعلى وهو يحرجه جراً لا يقوى على المسير . فلما دخل بيت عائشة واشتد به وجعه قال : « صبوا علي سبع قرب من آبار شتى لعل أعهد إلى الناس » . فأجلسه تساؤه في طست لحفصة وصبب عليه مياه القيرب السبع حتى أشار إليه ببيده أن كفى . ثم عصب رأسه بخرقه وخرج إلى الناس فصلى بهم ، ثم حمد الله وأثنى عليه واستغفر للناس ودعاهم ثم قال : « يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون والأنصار على هبئها لا تزيد . وإنهم عييت التي أويت إليها ، فأكرموا كريمهم

(١) الله : هو صب الدواء بالمسحط في أحد شقي القم .

وتجاوزوا عن مسيئتهم . أيها الناس ، إن عبداً من عباد الله قد خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله . وهذا فطن أبو بكر لما يعنى فبكى وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا . فقال : « على رسلك يا أبا بكر » ، ثم استطرد يقول : « انظروا إلى هذه الأبواب الشارعة في المسجد فسدوها إلا ما كان من بيت أبي بكر ، فإنى لا أعلم أحداً عندي أفضل في الصحبة منه » .

ثم إن الوجع والحمى اشتدتا به بعد ذلك حتى لقد شعر بالعجز عن الصلاة بالناس ، فلما أذن بلال للصلاة ، أمر أن يصلى أحد بالناس ، وكان عنده نفر من المسلمين فيهم عبد الله بن زمعة ، فخرج فإذا عمر في الناس وأبو بكر غائب ، فقال لعمر : قم يا عمر فصل بالناس . فلما كبر عمر وسمع النبي صوته الجمهورى ، قال : « فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون » . فبعث الناس إلى أبي بكر فجاء وصلى بالناس . وفى هذا إشارة يستبان منها أنه كان يفضل أبا بكر لخلافته وإن لم يشأ أن يوصى بذلك صراحة حتى يظل الأمر شورى بين المسلمين في مستقبل عهودهم .

حدث هذا على الأرجح في يوم الأربعاء أو الخميس السابق على وفاته . والظاهر أنه وجد خفة بعد أن صلى أبو بكر بالناس صلاة أو صلاتين ، فخرج متحاملاً على العباس ورجل آخر فدخل المسجد ، فلما رآه أبو بكر أراد أن يتأخر فأوماً إليه أن لا يتأخر ، وأمرهما فأجلساه إلى جنبه ، فصلى أبو بكر وهو قائم مقتدياً به ، والناس يصلون بصلاة أبي بكر . وهذه آخر صلاة صلاها مع الناس .

وحدث في أثناء ذلك اليوم الذى اشتد عليه فيه المرض أن قال لأصحابه وفيهم عمر : « اثبتوني أكتب لكم كتاباً لاتضلوا بعده أبداً » . فقالوا : ما شأنه أهجر ؟ أى هل يختلف كلامه وتغير واختلط بسبب المرض . وقال عمر :

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسينا كتاب الله . وتنازع القوم فهذا يقول قول عمر ، وذلك يقول بل يكتب لنا ما أراد ، حتى إذا كثر لغظهم قال لهم : « قوموا عني » ، وعأوده الإنعفاء . ثم لأنه انقطع عن الناس قبل وفاته ثلاثة أيام كوامل ، لا يقوى على الخروج ، وهي الجمعة والسبت والأحد . وكانت حُمَاه شديدة ، وكان وجعه أشد ، فضلا عن إنعفاء كان يعأوده بين الحين والحين . وكان إذا أفاق أقبل على من حضر عنده ينصحهم فيقول : « الله الله فيما ملكت أيماكم ، ألبسوا ظهورهم وأشبعوا بطونهم ، وألينوا لهم القول » أو يقول لابنته فاطمة ولعمته صفية : « يا فاطمة بنت محمد ، ويا صفية عمة رسول الله ، اعملا لما عند الله ، فإنني لا أغني عنكما من الله شيئا » . ومما كان يردد في أثناء تلك الصحوات قوله : « أحسنوا الظن بالله » . ومن آخر ما تكلم به في أيامه هذه قوله : « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، لا يقين دينان بأرض العرب » .

ولما أفاق مرة في اليوم السابق على وفاته لم ينس أمر ستة دنائير كانت كل ما بيده عنده ما دهمه المرض ، وكان قد أعطاها لعائشة لتصدق بها ، فسألها : « ما فعلت الستة ؟ » . قالت : ما تزال عندي . فأمرها بإحضارها فوضعها في كفه وقال : « ما ظن محمد بربه أن لولتي الله وعنده هذه ؟ » . ثم قسم خمسة منها على خمسة بيوت من فقراء الأنصار وأمرها أن تنفق الدينار الباقي وقال : « الآن استرحت » .

وفي صبيحة يوم الاثنين أفاق إفاقة حسنة من غمرة ذلك الوجع الذي أصابه . فتحامل على نفسه حتى باب الحجرة وكشف سترها ونظر إلى المسلمين وهم يعملون صلاة الصبح ساعتئذ خلف أبي بكر ، فهم المسلمون أن يتركوا صلاتهم لفرحهم به ، وهم أبو بكر أن يتأخر ليخلى له مكانه ، فأشار إليهم أن يمشوا كما هم وأرخى الستار . فكان آخر العهد به . لم يكن أحد يدرى أنها صحوة الموت . بل ظنوا أنه برئ من علته فاغتبط أهله

وفرح المسلمون . وأقبل أبو بكر بعد الصلاة منشراحاً فقال لعائشة : ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قد أقلع عنه الوجع ، وهذا يوم بنت خارجة ، يعنى إحدى زوجتيه ، وكانت تسكن بالسُّنْح شرقى المدينة . ثم ركب على فرس له وذهب إلى منزله .

وما هى إلا لحظات حتى انتابت النّبي سكرات الموت ، فكان يغشى عليه ساعة ويفيق ساعة ، وعائشة أخذته به فى حضنها ورأسه الشريف على صدرها حيناً ، وحيناً على فخذه . فكان إذا أفاق أشخص بصره إلى سقف الحجرة وقال : « اللهم الرفيق الأعلى » . ومن آخر ما نطق به يومذاك قوله : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » حتى جعل يُغَرِّغُ بها وما يفصح بها لسانه . وكان إلى جواره قدح فيه ماء فيدخل يده فى القدح ثم يمسح وجهه بالماء ويقول : « اللهم أعنى على سكرات الموت » ، وبينما هو يعانى هذه السكرات وهو مسند رأسه إلى صدر عائشة دخل عبد الرحمن بن أبى بكر وفى يده سواك ، فلما رآته ينظر إلى السواك ، وهى تعرف أنه يحبه قالت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أى نعم . فليته له فأمره لإمرارة على فيه . ثم أخذ يدخل يده فى قدح الماء فيمسح بها وجهه وهو يقول : « لا إله إلا الله إن للموت لسكرات » . ثم نصب لإصبعه اليسرى وجعل يقول : « فى الرفيق الأعلى فى الرفيق الأعلى » . ومالت يده فى الماء .

قبض النّبي والشمس بعد لا تزال تعتلى كبد السماء ، فى حوالى الظهر أو بعد ذلك بقليل . أما عائشة فإنها من حداثة سنّها حينذاك وضعت رأسه على وسادة وقامت تضرب صدرها وتلطم وجهها مع النساء . وجعلت فاطمة تبكى وتقول : يا أبتاه أنجاب رباً دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ينعاه ، يا أبتاه من ربه ما أدناه .

وتناقل الناس خبر موت النّبي ، فاجتمعوا فى المسجد ، بعضهم هنا يقول مات ، وبعضهم هناك يقول لم يمّت ، وآخرون لا يحIRON قِيلا ولا

قالاً ، قد أحرسهم المصاب . أما عمر بن الخطاب فانتابته حالة ذعر شديد وذهول ، فأخذ يتوعد من قال مات بالقتل والضرب ، ويقول : لا أسمع أحداً يقول إن محمداً قد مات ، ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى بن عمران ، فلبث عن قومه أربعين ليلة ، وإلى الله لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات .

وفى تلك الأثناء وصل أبو بكر ، فدخل على النبي فكشف عنه الثوب ونظر إليه وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم انحنى عليه من قبل رأسه فقبل جبهته ثم قال : وا نبياه ! ثم رفع رأسه وانحنى مرة ثانية وقبل جبهته ثم قال : وا صفياه ! ثم رفع رأسه وانحنى مرة ثالثة وقبل جبهته ثم قال : وا خليلاه ! مات رسول الله صلى الله عليه وسلم . وخرج إلى المسجد فوجد عمر بن الخطاب لا يزال في ذهوله ، يقول للناس : إن رسول الله لا يموت حتى يُقتل المنافقين . فأمرع أبو بكر يتخطى رقاب الناس حتى أتى المنبر ، فأمر عمر أن اجلس فجلس ، ثم نادى الناس فاجلسوا وأنصتوا ، فقال بعد أن تشهد : أما بعد ، فن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال الله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (١) .

فلما نلى أبو بكر هذه الآية أفاق الناس من ذهول الصدمة التي تلقوها عند خبر وفاته ، وكأنهم كانوا لا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية ، وراحوا هنا وهناك يتأولونها ويترحمون . أما عمر فقال : هذه الآية في القرآن ؟ والله ما علمت أن هذه الآية أنزلت قبل اليوم . وقد قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : « إنك ميت وإنهم ميتون » (٢) . وقال تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » (٣) . وقال : « كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك

(٢) الزمر ٣٠ .

(١) آل عمران ١٤٤ .

(٢) القصص ٨٨ .

ذو الجلال والإكرام»^(١) . وقال «كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة»^(٢) .

وتحقق الناس من موت النبي ، فعاد أسامة بن زيد بجيشه المعسكر في أطراف المدينة ، وركز رايته عند باب عائشة حيث يرقد محمد مسجى في فراش الموت . وما لبث الناس ساعة بعد أن هدأت الجلبة والبلبل التي حدثت في أعقاب الوفاة ، حتى بدأ صراع على السلطة .

تجمع الأنصار حول سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا سعداً . فلما علم عمر بأمرهم اجتمع إلى أبي بكر ، واجتمع إليهما المهاجرون ، وتخلف على بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، ومن تخلف معهم في بيت فاطمة . وانطلق عمر وأبو بكر على رأس المهاجرين إلى سقيفة بني ساعدة خشية أن يتفاقم الأمر إذا قرأ رأى الأنصار على أمر لم يجمع عليه المسلمون ، ورسول الله لا يزال في بيته لم يفرغ من جهازه ودفنه .

وبينا وفد المهاجرين منطلق صوب سقيفة بني ساعدة لقيهم رجلان صالحان فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قالوا : نريد إخواننا من الأنصار . فقالا : لا عليكم إلا تقرّبوهم واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين . فقال عمر : والله لنأتينهم .

فلما جاءوهم في السقيفة وجدوهم مجتمعين حول سعد بن عباد ، وهو مريض قد التفت في ثوبه . فلما جلسوا قام خطيب الأنصار فأثنى على الله وقال : أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط نبينا ، وقد بدرت بادرة منكم يريدون أن يحتزلونا من أصلنا ويمنعونا من الأمر .

(١) الرحمن ٢٦-٢٧ .

(٢) آل عمران ١٨٥ .

فلما سكت همَّ عمر بأن يتكلم فخشى أبو بكر حدثه فبادره قائلا :
على رسلك يا عمر . فامتثل عمر لما يعلم من حكمة أبي بكر ووقاره ، وفضل
السكوت ، فقال أبو بكر : أيها الناس ، نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً ،
وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة
في العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله . أسلمنا قباكم ، وقُدُّمنا في القرآن
عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار
والذين اتبعوهم بإحسان »^(١) . فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا في
الدين ، وشركاؤنا في النِّىء ، وأنصارنا على العدو . أما ما ذكرتم فيكم من
خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً . فأما العرب
فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، ففنا الأمراء ومنكم الوزراء .
عندئذ قام الحباب بن المنذر منفعلاً فقال : أنا جُذِّلها المحمَّدُك وعُدِّيها
المرجَّب ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش .

فقال عمر لما لك : ما يعنى : أنا جُذِّلها المحمَّدُك وعُدِّيها المرجَّب ؟
قال : كأنه يقول أنا داهيتها .

وكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشي العقلاء مغبة الاختلاف ،
فنادى عمر بأعلى صوته : ابدط يدك يا أبا بكر . فبسط أبو بكر يده فبايعه
عمر وهو يقول : ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت بالمسلمين ؟ فأنت خليفته ،
ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً . فما أن رأى ذلك
الناس ، وقد وعوا ما قال عمر وأدركوا مغزاه حتى أقبلوا على أبي بكر
ببايعونه .

فلما كان الغد صبيحة يوم الثلاثاء اجتمع الناس في المسجد وتمت بيعة
العامة من المهاجرين والأنصار جميعاً . وكان ذلك قبل تجهيز الرسول .
حث عمر أبا بكر على أن يصعد المنبر ، ولم يزل به حتى صعد ، ثم

تكلم عمر فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إني قد كنت قلت لكم
بالأمس مقالة ما كانت ، وما وجلتها في كتاب الله ، ولا كانت عهداً
عهده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكني كنت أرى أن رسول الله
سيدبر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا ، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هو
به هدى رسوله ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه الله له ، وإن الله
قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثاني
لاثنين إذ هما في الغار ، فقوموا فبايعوه .

فقام الناس فبايعوا أبا بكر ببيعة العامة بعد بيعة السقيفة .

ونهض أبو بكر فوق المنبر فحمد الله وأثنى عليه وألقى في الناس خطاباً
يعتبر دستوراً ينبغي أن يأخذ به الحكام في كل زمان ومكان ، قال :

« أما بعد ، أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت
فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف
فيكم قوى عندي حتى أزيح عيلته إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى
أأخذ منه الحق إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله
بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعوني
ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ،
قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

فلما تمهدت الخلافة وتوطدت واستقر أمر المسلمين واطمأنوا على
إجماع كلمتهم ولم شملهم . وحسناً ما صنعوا ، شرعوا من ثمة في تجهيز
النبي . وكانوا قد شغلوا بالبيعة بقية يوم الاثنين وبعض يوم الثلاثاء .
تشاوروا في أين يدفن ؟ واستقر رأيهم على دفنه في المدينة . ثم تشاوروا
في أي مكان يدفن بالمدينة ؟ واتفقوا على دفنه حيث قبض بناء على مقالة

أبى بكر أنه سمعه يقول : ما قُبِضَ نبيّ إلا دُفِنَ حيث يُقْبَضُ . أما كيفية دفنه فقد استقر الرأي على أن تكون إما على طريقة أهل مكة وإما على طريقة أهل المدينة أيهما استخارها الله . فأرسل العباس رسولين أحدهما لأبى عبيدة بن الجراح وكان يصرح كحفر أهل مكة ، والثاني لأبى طلحة زيد ابن سهل وكان يلحد لأهل المدينة ، فوجد الثاني صاحبه فجاء ولحد له كأهل المدينة .

واجتمع الناس لغُسله ، فقام به أهله ، عمه العباس بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، والفضل ، وقُشِمَ ابنا العباس ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، وصالح موله . فلما هموا بغسله نادى أوس بن خولى الأنصارى الخزرجى وكان بدرياً ، أن يا على نُنشِدُك الله وحظنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأدخله على فحضر الغسل ولم يَلِ من غُسله شيئاً . أسنده على إلى صدره وعليه قميصه لم يجردوه منه ولم ير أحد منه ما يرى من الميت ، وكان العباس والفضل وقُشِمَ يقلبونه ، وعلى يغسله ، وأسامة بن زيد وصالح موله يصبان الماء . وكانوا يغسلونه بالماء والسُدُر . ثم جففوه ، ثم صنع به ما يصنع بالميت ، ثم أدرجوه في ثلاثة أثواب يمانية بيض من القطن ليس فيها قميص ولا عمامة .

فلما فرغوا من تكفينه وضعوه على شفير قبره ، ثم صلى عليه أهل بيته ، ثم دخل أبو بكر وعمر والمسلمون فصلوا عليه لا يؤثمهم أحد في صلاتهم هذه . ثم دخل الرجال أفواجا حتى فرغوا ، ثم دخل النساء أفواجا فصلين عليه ، ثم أدخل الصبيان فصلوا ، ثم أدخل العبيد فصلوا ، وكانوا يدخلون من باب ويخرجون من الباب الآخر . ثم دفن في حوالى منتصف الليل من ليلة الأربعاء . وولى دفنه وقبره أربعة ، على ، والعباس ، والفضل ابن العباس . وصالح موله . لُحِدَ له كما قدمنا وبني فوقه باللبن ثم أهالوا التراب .

وارتد محمد إلى أمنا الأرض ، التي منها أتينا وإليها نعود . أما إذا كان كل إنسان في هذه الدنيا إنما يخلف من بعده أثراً ، قد يزول بعد لحظات أو أيام أو سنين أو آلاف السنين ، كل حسب ما أوتي من قوة عقلية وقدرة نفسية ، وما ترك للأجيال من بعده ، فإن الأثر الذي خلفه محمد رسول الله ، ذلك النبي الأمي ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، سوف يبقى خالداً على الدهر ، وعلامة على الطريق في حضارة الإنسان . فإلى الفصل التالي .

الفصل الثاني

أثر الإسلام في الحضارة

ظهر محمد في أوئل القرن السابع الميلادي ، في عصر كان عالم الحضارة قد انحدر فيه إلى أقصى دركات الانحذار ، وأسس ديناً ودولة ، فكان الدين لله والدولة للجميع . وانتصر المسلمون في حروبهم الأولى على أكبر إمبراطوريتين في العالم المعروف في ذلك الوقت ، وأقاموا دولة كبرى كان أهم خصائصها أنها دولة علمية حمت جميع رعاياها بغض النظر عن معتقداتهم الدينية أو سلالاتهم ، واستطاعت بفضل المفاهم التي أرساها مؤسسها الكريم أن تضع أصول حضارة مميزة الطابع يحق لنا أن نسميها بالحضارة الإسلامية العلمية ، وهي حضارة حققت في واقع الأمر إنجازات علمية ضخمة جداً يدين لها عالم الحضارة في كل مكان .

ولما كانت دولة الإسلام هذه قد تأسست في واقع الأمر على أشلاء الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية من حيث رقعة الأرض التي اكتسبتها ، وعلى بقايا الحضارة العلمية القديمة التي عرفها حوض البحر الأبيض المتوسط ، والتي قوضتها الدولة الرومانية أولاً ، ثم آباء الكنيسة المسيحية ثانياً ، كان التزاماً علينا إذا أردنا أن نتكلم عن الدور الذي أداه الإسلام للحضارة الإنسانية ، أن نلم ولو على عجل بالحالة التي أحدثتها الإمبراطورية الرومانية أولاً ، ثم المسيحية ثانياً ، في عالم الحضارة القديم ، وكيف أنهارت هذه الحضارة القديمة ، وكاد كل أثر لها أن يزول ويضيع تماماً لولا ظهور الإسلام وتأسيس الدولة الإسلامية التي انطبعت بطابع علمي أصيل ، وأخذت على عاتقها انتشال العلوم القديمة من وهدة الضياع التي ألقها فيها المسيحية ،

وكيف وضعت علوم جديدة كانت الأساس الذى بنيت عليه الحضارة الحديثة فى أوربا .

وأعتقد أنه ينبغى لنا قبل أن نتكلم فى أثر الرومان والمسيحية فى الحضارة أن نذكر باختصار كيف انتقلت الحضارة القديمة من الشرق ومصر خاصة إلى اليونان ، وكيف طبعوها باسمهم ، حتى نستطيع - اعتماداً على أوثق المراجع الحديثة - أن نصحح بعض الأوضاع العجيبة التى سادت قروناً طويلة فى هذا الشأن . ذلك لأن معرفتنا الصحيحة بهذه الحقائق ضرورة قومية لا ينبغى الاستهانة بها . وفضلاً عن هذا فقد حاول كتاب الغرب بكل طاقتهم أن يعمموا القول بأن الحضارة اليونانية حضارة تابعة من الوسط اليونانى وحده ، وأنها لم تتأثر بمؤثرات خارجية ، وعملوا من ثمة إلى ربطها بحضارة غربى أوربا متناسين حضارة الإسلام باعتبارها دوراً من أدوار الحضارة مميز الطابع ، وعندئذ يكونون فى ظنهم وتحقيقاً لإسرافهم فى وطنيتهم العمياء وغرورهم ، قد تمكنوا من الادعاء بأن أوربا لا تدبى الحضارة أخرى خارجية غير حضارتها هى التى نشأت على الأرض الأوربية . وهذا منهج وإن ساد فى عصر الاستعلاء الأوروبى فى القرن التاسع عشر ، فقد بدأ ينهار تحت وطأة البحوث الحديثة ، وعلى الأخص تلك التى ساعدت عليها المستكشافات التى عثر عليها المنقبون فى خلال ذلك القرن فى حفائر مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين . ولا عجب أن نرى أكبر كاتب غربى معاصر فى تاريخ العالم يهزأ من هذا المنهج فيقول : « إنه من سداجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ فى بلاد الإغريق ، لأن المعجزة اليونانية سبقتها آلاف الجهود العلمية فى مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما من البلدان . أما العلم اليونانى فكان لإحياء أكثر منه اختراعاً . وكفانا (أى الغربيين) سوء أننا أخفينا الأصول الشرقية التى لم يكن التقدم الهلنى مستطاعاً بدونها » (١) .

والحق أن العلم اليوناني لم ينتعش إلا بعد هجرة اليونان إلى وادي النيل كما يقول الأستاذ ملهود . ليس هذا فقط ، بل إن معظم المآثر العلمية اليونانية لم تتحقق في بلاد اليونان ، وإنما حققها علماء من أصل يوناني تعلموا في الجامعات المصرية وعاشوا في الإسكندرية ، وكتبوا مؤلفاتهم فيها ، مثل إقليدس ، وبطلميوس ، وديوفانتس وغيرهم . وقصة هذا كله أن مصر عند ما سمحت لليونان بدخول معاهدها العلمية ، كانت في آخر عهودها بالاستقلال . فلما قضى على استقلالها في أعقاب السماح لليونان بالهجرة إليها ودراسة علومها ، لم يكن هناك في واقع الأمر مصريون قادرون على الدفاع عن علومهم . وأما اليونان أنفسهم فدخلوا دنيا العلم المصري وكأنها لم يعد لها صاحب فنسبوه إلى أنفسهم .

غير أن الحقيقة التي لا زالت تثير فكر الباحث في أصول الحضارة اليونانية ، إنما تنحصر في عجزه عن التمييز تمييزاً نهائياً بين ما هو يوناني أصلي ، وما هو مصري ، أو بابلي ، أو شرقي عموماً . والسبب في ذلك كما قال الأستاذ تشارلز سنجر : « لأنه لم يصلنا إلا نادراً اسم مستكشف أو مخترع من علماء الحضارات القديمة فيها عدا الحضارة اليونانية فقط ، لأن طابع الإنتاج الثقافي للعصر السابق كان جماعياً لا فردياً . وعلى هذا كان الحظ حليف علماء المدن اليونانية عند ما وضعوا أيديهم على هذا الإرث الشرق الذي لا صاحب له ، وأنهم كثيراً ما يثيرون شكاً مريباً حول إخفاء الدين الذي في عنقهم للحضارات القديمة . ومن سوء الحظ أن ضاعَت الأخبار والمؤلفات التي يمكن الاعتماد عليها في تحديد أصول العلم اليوناني ، مثل تاريخ الرياضيات ليوديموس تلميذ أرسطو . ثم إن اليونان عند ما ورثوا هذه المادة العلمية طبعوها بطابعهم الفردي وبطريقتهم الشخصية . ولقد أشار البعض إلى خلقهم المركز حول ذواتهم . وهذا أمر لاحظته اليونان أنفسهم . لقد كانوا يفكرون باعتبارهم أفراداً لا جماعة . ولذلك فإن العلوم التي

ورثوها من الحضارات القديمة انقلبت في أيديهم من علوم جماعية لا صاحب لها بذاته ، إلى علوم أصبحت تعرف بأسمائهم ، وهذا طابع احتفظت به حضارتهم منذ ذلك الحين» (١) .

مثال ذلك ما أحيط به أبقرات في عالم الطب حتى أواخر القرن التاسع عشر . لقد سمي هذا الطبيب الشهير بأبي الطب ، وظل هذا اللقب يتناقل عبر العصور حتى عصر قريب جداً ، عند ما اكتشف المنقبون عن الآثار المصرية القديمة في أواخر القرن التاسع عشر بردية مصرية ، فيها بحث طبي كامل ، هو عبارة عن دراسة تشريحية لجسد الإنسان من قمة الرأس إلى أخمص القدمين . وعندئذ بدأت منزلة أبقرات تراجع كثيراً ، بل كثيراً جداً ، من رأس القائمة في عالم البحث الطبي العلمي ، إلى مجرد منتصف القائمة بيننا وبين محتب الطبيب المصري الذي كتب هذه الرسالة الطبية في مصر القديمة . ونحن على أية حال لا نعوزنا أمثلة أخرى ، ولكن نكتفي بهذا القدر في هذه السجالة .

بدأ الرومان في خلال القرن الأول قبل الميلاد يستولون على عالم الحضارة القديم في حوض البحر الأبيض المتوسط ، حتى تم لهم إخضاع هذا العالم إخضاعاً نهائياً لسلطانهم . أما إذا نظرنا في العلم اليوناني القديم الذي تركزت فيه جميع الجهود العلمية السابقة التي خلفتها حضارة مصر القديمة ، وحضارة بلاد ما بين النهرين ، لعلمنا أنه كان قد فقد عندئذ نصارته ، وبدأ في أواخر القرن الثاني الميلادي وكأنه يختصر .

واقع الأمر أن الرومان بخطرستهم الوطنية ، ونظام استعبادهم البغيض ، وقسوتهم ، وظلمهم ، واضطهادهم وكبحهم للشعوب التي حكموها والتي كانت موئل الحضارة القديمة ، قد حطموا فيها روح الخلق والابتكار ، والشعور بالاستعلاء ، وقضوا بهذا على شعوب البحر المتوسط وعلى رغبتها

فى التطلع إلى ما هو أحسن . والحق أن تلك الرغبة الجائعة التى تتملك الشعوب فى بعض الفترات التاريخية وتدفعها إلى النهوض والاستعلاء والعظمة ، لا تظهر إلا فى عصور الرخاء والحرية والنجاح والمثل الأعلى . أما هذه الشعوب أى شعوب شرق البحر المتوسط التى كانت تحمل الحضارة القديمة وتحافظ عليها وتنمىها وتطورها ، فأصبحت تحت عسف الحكم الرومانى الغشيم مخدولة بائسة منكودة لا حول لها ولا قوة . ومن ثمة خبت فيها تلك العزيمة الجبارة والرغبة الجائعة التى سيطرت عليها فى الماضى ودفعها للاستعلاء ، بل كادت تنطفئ شعلتها التى تلاحبت بها تلك الرياح العاصفة التى هبت عليها من روما . وهذا حطمت روما حضارة العصور القديمة — ولو عن غير قصد منها — ولم تعوض عالم الحضارة عنها شيئاً . وإنما الحقيقة التاريخية ذات بال ، هى أن الرومان لم يكونوا فى الحقيقة مؤهلين للعلم . فروما لم تكن فى أى من عصور ازدهارها مركزاً من مراكز الثقافة العلمية ، مثل أثينا ، أو الإسكندرية ، أو بغداد ، أو القاهرة ، أو قرطبة ، أو باريس ، أو أكسفورد .

ضعف العلم اليونانى بالتدريج ، واختتم بطليموس وجالينوس فى القرن الثانى الميلادى قوته الابتكارية ، ولم يظهر بعدهما عالم يونانى واحد نستطيع أن نصفه بأنه كان ذا أثر فى تاريخ العلم . وظل العلم اليونانى ينحدر فى خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين فى ظل الحكم الرومانى . ولم تستطع روما بكل جلالها وبِعَظَمِ إمبراطوريتها أن تعوض عالم الحضارة عنه شيئاً كما قلنا . يقول الأستاذ دامبير قوله صدق : « ابتعدت الفلسفة والعلوم فى ذلك العصر شيئاً فشيئاً عن أن تكون طبيعية وتجريبية ، وارتبطت شيئاً فشيئاً بالأفكار الغامضة . ذلك أن الأفلاطونية الجديدة قد تبنت وامتصت كل خرافة شعبية وكل ما يتعلق بالتنجيم والشعوذة والسحر ، وكل ميل نحو الباطنية والتصوف ، مما أصبح يبشر بعصر انحلال قريب » . أما الضربة القاضية فجاءت على أيدي رجال اللاهوت المسيحى .

ونحن إذا نظرنا في انتشار المسيحية ، وفي الآثار التي أحدثتها في عالم الحضارة ، إذن لعلمنا أولاً أن هذا كله لم يحدث مباشرة بعد ظهور المسيح عليه السلام . ذلك أن المسيحية لم تنتشر فوراً ، وإنما انتشرت ببطء شديد وبالتدريج ، وفي خلال ثلاثة قرون ، لم يكن للمسيحيين فيها قوة مادية تذكر . فقد اعتبرتهم سلطات الإمبراطورية الرومانية طوال هذه القرون طائفة منبوذة خارجة على القانون ، ولاحقهم بالوان من الاضطهاد والتعذيب والتنكيل حتى أوائل القرن الرابع الميلادي . فحتى سنة ٣٠٣ م . كان لا يزال الإمبراطور ديوكلشيان يصدر الأوامر بتدمير كنائس المسيحيين وحرق كتبهم . غير أنه حدث تغير شامل في موقف السلطات الرومانية من المسيحيين في عهد الإمبراطور قسطنطين الأكبر . فقد أصدر الإمبراطور في السنة التالية لجلوسه على العرش (٣١٣ م) مرسوماً يأمر فيه بالتسامح مع المسيحيين : « نقرر أنه من الأوفق لحكم العقل ألا يحرم أحد من الارتباط بشعائر المسيحيين أو أى شعائر دينية أخرى يقوده إليها عقله . وبناء على ذلك فإن ممارسة الشعائر الدينية جميعاً بحرية وعلنية أصبح ممنوحاً للجميع بما فهم المسيحيون ، ذلك أنه من الأفضل لاستقامة الأمور ولاستقبال الهدوء الذي نشده لحكمتنا ، أن يُسمح لكل فرد وبناء على اختياره أن يعبد ربه »

غير أن الأمور لم تستتب للمسيحية بمجرد ظهور هذا المرسوم ، ذلك أن الإمبراطور قسطنطين نفسه لم يعتنق المسيحية إلا في أواخر حكمه ، أى بعد ذلك بأكثر من عشرين سنة ، وظلت الدولة الرومانية دولة وثنية . ثم جلس على عرش الإمبراطورية إمبراطور وثني هو جوليان الذي ظل يحارب المسيحية حتى أواخر عهده في سنة ٣٦٣ م ، ويحاول جاهداً إعادة الوثنية وإحياء الفلسفة القديمة . ثم تمكنت المسيحية بعد ذلك ابتداء من عهد الإمبراطور ثيودوسيوس (المتوفى في سنة ٣٩٥ م) وأصبحت ديناً رسمياً للدولة الرومانية .

وكان هذا الإمبراطور نفسه الذى مكن للمسيحية ، أول من اعتمدته السلطات الإكليروسية وأخضعته لحكمها ، ومن ثمة أفتح الباب على مصراعيه لسيطرة رجال الدين المسيحى سيطرة تامة على مجريات الأمور فى الإمبراطورية فأخضعوا السلطات الحاكمة وشعوب الإمبراطورية للعقائد اللاهوتية التى استمدوها من الكتاب المقدس . وبدأ من ثمة مع ميلاد القرن الخامس الميلادى عصر عجيب لم يشهد التاريخ البشرى له مثيلاً ، انطبع بطابع نسيج وحده من النظريات التحكيمية ، والعقائد الغريبة اللاعقلية التى أخذ آباء الكنيسة المسيحية ورجال اللاهوت - بعد أن تمكن لهم سلطان دينى ودينوى باخضاع الأباطرة لهم - يفرضونها فرضاً على الجماهير ، بقوة الإقناع تارة وبقوة السلاح أخرى ، وبالتعذيب والإحراق والشق ومختلف وسائل الاضطهاد فى معظم الأحيان .

تناول آباء الكنيسة وعلماء اللاهوت المسيحى نصوص الكتاب المقدس ، وآمنوا أول شيء بأن هذه النصوص لا يمكن أن يأتيا الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وأنها بكل ما تحمل من تفسيرات حرفية إنما تعبر تعبيراً صادقاً وحقيقياً عما تشير إليه وما تجربنا به صراحة ، وأن الكتاب المقدس قد حوى بين دفتيه كل ما يمكن للإنسان أن يعرفه أو يبتغيه سواء فى هذه الدنيا أو فى الآخرة . ومن ثمة وضعوا نظرياتهم اللاهوتية وبنوا عقائدهم الدينية على هذا الأساس . واثبتوا إلى أن هذه النظريات والعقائد المستمدة من النصوص الصريحة للكتاب المقدس ، هى وحدها التى ينبغى للناس أن يؤمنوا بها ، وأن الذين يعارضونها أو يشكون فى صحتها إنما يستحقون اللعنة والعذاب والهلاك ، وبرروا لأنفسهم اتخاذ أقصى ضروب القهر والتنكيل بمن يعارضهم ، مستمدين هذا التبرير من نظرية توهموها هى أنهم طالما كانوا الممثلين لله فى الأرض ورعاة كنيسة ، فلماذا لا يقلدونه إذ يعذب المارقين من دينه تعذيباً أبدياً فى مدته رهيباً فى قسوته ، ويفعلون بعباده كما يفعل هو هم .

ثم إن هؤلاء اللاهوتيين اعتقدوا أنه من واجبهم المقدس ، وانطلاقاً من إيمانهم بكتاب الله وأوامره ، وباعتبارهم ممثلين لله في الأرض ، أن يعملوا بكافة الوسائل على فرض هذه المعتقدات التي استملوها من الكتاب المقدس ، وآمنوا بأنها كلمة الله النهائية في كل شئون الإنسان والكون . فها هي إذن طبيعة النظريات والأصول التي وضعها علماء اللاهوت المسيحي والتي بنى عليها هؤلاء التفقة الورعون هذا النسيج كله ؟ ثم ما هي طبيعة النظريات والأصول الإسلامية التي بشرت بمبادئ وعقائد جد مختلفة ، كان لها الأثر الأكبر في وضع حد لعصور الظلام في القرون الوسطى ، وفي إرساء قواعد الحضارة الحديثة العلمية ؟

الأصل الأول^(١) الذي حدثنا عنه علماء المسيحية هو المعجزات وخوارق العادات ، بمعنى أن الدليل الذي قدمه المسيح على صدقه هو ما كان يصنع من الخوارق والمعجزات ، وهي كثيرة جداً تفيض بها صفحات الأناجيل . ومن ثمة جعلت هذه الخوارق والمعجزات دليلاً على صحة الدين للآتين من بعده . ولما كانت خوارق العادات أموراً مخالفة لقوانين الطبيعة وسنن الكون وشرائعه ، فإنها كانت من ثمة مضادة لكل علم من العلوم التي اكتشف العلماء قوانينها الطبيعية كالفلك مثلاً ، وهي علوم لا بد فيها ما يخالف هذه الخوارق . ومن هنا وقف هذا الأصل عائقاً كبيراً جداً في وجه العلوم وصدها عن الانطلاق في مجراها الطبيعي . وبرر لرجال اللاهوت المسيحي مواقفهم المعروفة ضد العلم ، والتي لم يتنازلوا عنها تنالاً نهائياً إلا في أواخر القرن التاسع عشر .

أما الإسلام فليس فيه ما يجعل من المعجزات دليلاً على صحة الدين ، ولا يعول في الدعوة إلى الحق على غير الدليل ، وليس فيه من معجزة على صديق مؤسسه سوى القرآن . ولقد تمسك نبي الإسلام تمسكاً شديداً بأنه

(١) راجع الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للشيخ محمد عبده .

ليس له معجزات غير القرآن . ومصدق ذلك ما أفصح عنه في كثير من المواقف . احتاج جيش المسلمين في يوم حار إلى ماء للشرب وكان النبي على رأس هذا الجيش ، فلما أمطرت السماء وارتوى الناس ، زعم بعضهم أنها معجزة . ولكن محمداً نهاهم عن مثل هذه التهويمات ، ورفض هذا القول وقال بمتى البساطة : « إنها سخاية مارة » . ولما كُشفت الشمس يوم وفاة ولده إبراهيم ، قال الناس إنها إنما كُشفت حزناً عليه ، وظنوا أن كسوفها معجزة ، ولكن النبي هنا أيضاً نهاهم عن مثل هذا التفكير وخطب فيهم فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته » .

والأصل الثاني من أصول المسيحية هو السلطة الدينية لروساء الدين على المؤمنين في عقائدهم وما تكنه ضمائرهم . جاء في الإصحاح السادس عشر من إنجيل متى : « أعطيت مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات » . وجاء في الإصحاح الثامن عشر من نفس الإنجيل : « الحق أقول لكم : كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء . »

من هنا تأسست في المسيحية طبقة رجال الدين التي تتدرج في نظام هرمي من أصغر القسيس إلى الحبر الأعظم المعصوم من الخطأ مثل المسيح في العالم وهو البابا . وهذه الطبقة من رجال الدين في المسيحية ركن ركين من أركانها ، ذلك أنها موكلو إليها أمر المسيحيين في دنياهم وأخراهم ، ترشدتهم وترعاهم وتفرض عليهم ما تراه ضرورياً لحفظ الدين وحفظ أرواحهم ذاتها من الهلاك . معنى هذا أن الشخص في المسيحية إنما يصير مسيحياً من خلال التعمية ويقول القسيس له إنه أصبح مسيحياً . كذلك يستطيع القسيس أن يحكم على شخص بأنه لم يعد مسيحياً فيصير كذلك .

ولإذن فالشخص في المسيحية ليس حراً كاملاً الحرية الشخصية في اعتقاده بما يرشده إليه عقله ، بل إن كونه مسيحياً أو غير ذلك مربوط بما يتفوه به رئيسه الديني . ولقد جرت المسيحية على هذا الأصل طوال تاريخها ، ولم ينازع فيه بعض النصارى إلا أخيراً . والحق أن الشعوب المسيحية تحملت نتيجة لهذا الاعتقاد آلاماً تفوق الوصف^(١) أحدثها كثير من البابوات والأساقفة والقساوسة وقضاة محاكم التفتيش طوال قرون عديدة لم تنته إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، وذلك بما وضعوا من نظريات دينية وعلمية وهمية فرضوها فرضاً على المؤمنين ، وتصلبوا لمن قاومها من العلماء بالحديد والنار .

ثم إنه سار إلى جانب هذه السلطة الدينية المسيحية غير المحدودة على ضمائر الناس ومكنونات نفوسهم ، سلطة مدنية أخرى استمدت شرعيتها من نصوص الكتاب المقدس التي جاءت على لسان القديس بولس . يقول القديس في رسالته إلى أهل رومية : « باركوا على الذين يضطهدونكم ، باركوا ولا تلعنوا » . ويقول في نفس الرسالة : « لتخضع كل نفس للسلطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلطين الكائنة هي مرتبة من الله ، حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة » . ولا يخفى بطبيعة الحال ما كان لمثل هذه التعاليم من آثار وخيمة .

يقابل هذه التعاليم في الإسلام تعاليم واضحة جداً تحث الناس على عدم الخضوع للسلطين إذا رأوا أنهم لم يهتجوا السبيل القويم في حكم الناس بما جاء في القرآن والسنة . ولا عجب إذن أن نسمع أبا بكر أول خليفة للمسلمين يقول للناس في أول خطبة له بعد أن ولوه شئونهم : « أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فلم أعصيته فلا طاعة لي عليكم » . ويأتى من بعده عمر بن الخطاب فيؤكد هذه الروح فيقول : « من رأى منكم في أعوجاجاً

(١) راجع A. D. White : A History of the warfare of Science with Theology in Christendom.

فليقومه . فيقوم له رجل من عامة الناس فيقول له : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا .

ولقد وقف الإسلام على طرفي نقيض مع المسيحية هنا أيضاً . فليس في الإسلام سلطة دينية ، ولا رجال دين ، ولا أحد على الإطلاق بين الإنسان وخالفه . فليس لأحد سلطان على عقائد الناس ولا سيطرة على إيمانهم ، ذلك أن أحداً لا يمكن أن يعرف دخائل الناس إلا الله . ولقد نهى رسول الإسلام عن أخذ الناس بالشبهات ، ويؤثر عنه قوله إنه لم يؤمر بأن يفتش عما في قلوب الناس . وجاء في الحديث قوله : « إن الله بعثني بالحنيفية السمحة ولم يعثنى بالرهبانية المتبدعة » . والإيمان في الإسلام يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده . وليس لأحد في الإسلام مهما علت منزلته ، على آخر ، مهما انحطت منزلته ، إلا حق النصيحة والإرشاد . وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (١) . ويقول : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (٢) . ويقول : « فلولوا نحر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » (٣) .

المسلمون إذن ينصَحون ويقيمون أمة تدعو إلى الخير ، وأما المتفقهون في الدين فليس لهم على الأمة الإسلامية إلا الدعوة والتذكير والإنذار والتحذير بالمعروف ، وليس لأحد من الناس أبداً أن يكشف عن عورة أحد أو يتجسس عليه في عقيدته . ولا ينبغي للمسلم أن يتلقى عقيدته أو يأخذ أضوئها عن أحد إلا عن كتاب الله الذي هو القرآن ، ثم سنة رسوله . أما خليفة المسلمين فرجل منهم ينتخبونه بالشورى ، ليس معصوماً ،

(٢) العنبر ٣ .

(١) آل عمران ١٠٤ .

(٢) التوبة ١٢٢ .

ولا هو مهبط الوحي ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة .
يطيعه المسلمون ما دام على محجة الصواب ونهج الكتاب والسنة ، فإذا انحرف
انبغى لهم أن يكونوا له بالمرصاد يقومون عوجته ويردونه إلى الصواب ،
فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . فإذا لم يرعوا فلهم أن يسحبوا عنه بيعتهم
ويستبدلوه بغيره .

والأصل الثالث للمسيحية هو ترك الدنيا وانتظار ملكوت السماء ، أى
التجرد من الدنيا والانقطاع للآخرة . جاء في الإصحاح السادس من إنجيل
متى قوله : « لاتقدرون أن تخدموا الله والمال . . . لذلك أقول لكم لاتفكروا
فى حياتكم ، وفيما تأكلون ، وفيما تشربون ، ولا تفكروا فى أبدانكم ، وفيما
تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ؟ . . .
ولكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه تزداد لكم . . . فلا تهتموا للغد
لأن الغد يهتم بما لنفسه ، يكفى اليوم شره » . وجاء فى الإصحاح التاسع عشر
من نفس الإنجيل : « الحق أقول لكم إنه لأيسر للجمل أن يدخل فى ثقب إبرة
من أن يدخل الرجل الغنى مملكة السماء » . وجاء فى الإصحاح العاشر :
« لاتقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم . . . ولا مزوداً للطريق ولا
ثوبين ولا أحذية ولا عصا إلخ » . وفى الإصحاح التاسع عشر من إنجيل
متى أيضاً حث صريح على الرهبانية وترك الزواج إطلاقاً ، يقول : « ويوجد
خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات من استطاع أن يقبل
فليقبل » .

أما النتائج المباشرة لمثل هذه التعاليم التى تلقاها آباء الكنيسة الأوائل
باعتبارها أوامر لا يأتىها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فكانت عجيبة
جداً . فقد شاع فى طول عالم النصرانية وعرضه روح تهدف إلى ترك الدنيا
وما فيها والانقطاع إلى الآخرة ، حتى لقد شاع القول بأنه طالما سبهلك هذا
العالم ويزول ، فلماذا إذن التفكير فيه وفى أموره ؟ . ثم إنه ساد جو عجيب

من الزهد . ويدلنا التاريخ على كثيرين من القديسين الذين تركوا أجسادهم
 نهياً للحشرات والموام تدنياً . ولا عجب فقد امتنع بعضهم عن الاستحمام
 أو غسل الأيدي والأطراف طوال حياته . وشاع المثل القائل بأن القذارة
 من الإيمان ، وظلت البيوت في أوروبا تبنى بدون حمامات حتى القرن العشرين ،
 ولسنا نعلم أن أحداً في العالم المسيحي الأوربي نادى بأن النظافة من الإيمان
 قبل جون وزلى في أواخر القرن الثامن عشر .

ومن ناحية أخرى وبناء على النص السابق ذكره الذى يتحدث عن
 الجمعيان الذين خصوا أنفسهم ، تكونت في أعقاب انتشار المسيحية
 جماعات دينية يعرفها التاريخ من رجال خصوا أنفسهم اختياراً عملاً بهذا النص .

ثم إننا لا ينبغي أن ننسى أنه لما كان الهم الأكبر للمسيحيين في هذا
 العصر العجيب قد وُجِّهَ للعبادة وللعمل على انتظار ملكوت السماء دون أي
 شيء آخر ، كان لزماً على عالم كهذا أن ينظر نظرة شلئ إلى العلم والعلماء .
 وإننا لنقع على نصوص صريحة تقف حجرة عثرة ضد العلم والعلماء ، أدت
 في النهاية إلى وقوف عالم النصرانية كله موقفاً عدائياً من العلم . جاء في
 رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس في الإصحاح الثالث : « لا يتخذ من
 أحد نفسه ، إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر فليصر جاهلاً
 لكي يصير حكيماً . لأن حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله لأنه مكتوب
 الآخذ الحكماء بمكرهم . وأيضاً الرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة . إذن
 لا يفتمخرون أحد بالناس » . وجاء في هذه الرسالة أيضاً : « اختار الله جهلاء
 العالم ليخزي الحكماء . واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء » . وجاء
 في الرسالة إلى كورنثوس : « انظروا ألا يكون أحد بسببكم بالفلسفة وبغورور
 باطل حسب تقليد الناس حسب أركان العالم وليس حسب المسيح » وفي
 الرسالة الأولى إلى تيموثاوس : « يا تيموثاوس احفظ الوديعة معرضاً عن
 الكلام الباطل الدنس ومخالفات العلم الكاذب الإسم » .

وبناء على هذا كله شاع في عالم المسيحية المثل القائل بأن « الجهالة أم التقوى ورأس العبادة ». وبرر آباء الكنيسة وزعماء اللاهوت المسيحي الحرب ضد العلم والعلماء مما سيأتى بيانه فيما بعد . ولا ينبغي إذن والحال كذلك أن نستغرب قول القديس أوغسطين : « أى شأن لى فى أن أعرف إذا كانت السماوات كرة تتضمن الأرض ، معلقة فى وسط الكون ، أم أنها تشرف مرتكزة عليها من كلا الجانبين » . أو قول القديس أمبروز : « إن البحث فى الطبيعة ومركز الأرض أمور لا تساعدنا فى آمالنا فى الحياة الأخرى » أو موقف البابا جريجورى الأكبر الذى كان من أكبر المتحمسين المفسرين للمثل الكنسى القائل بأن « الجهالة أم التقوى ورأس العبادة » والذى كان يباهى بأنه لا يعبأ بقواعد الكتابة ، والذى نجح فى استئصال شأفة كل أثر للعلوم من إيطاليا .

وبينما كان هذا هو موقف المسيحية من هذه الدنيا ، كان الإسلام على نقيض ذلك تماماً . فقد حض الإسلام المؤمنين على أن يتمتعوا بهذه الدنيا وبطيقات ما رزقهم الله . ويؤثر عن النبى قوله : « سننى الصلاة والنوم والإفطار والصوم فمن رغب عن سننى فليس منى » . وقوله : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . هذا فضلاً عن أحاديث نبوية كثيرة تحض على العلم وتشيد بالعلماء كقوله عليه السلام : « الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج » . و « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » . و « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . و « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » . و « اطلب العلم ولو فى الصين » . و « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ، ولما ما جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء فى سبيل الله » .

وكان طبيعياً أن يشيع فى عالم الإسلام نتيجة لهذه المفاهيم التى تحض على الإقبال على الدنيا بأقصى ما يستطيع الإنسان ، وعلى التمتع بما فيها من

طبيات ، الثلاث : « النظافة من الإيمان » و « الكتابة أشرف المراتب بعد الخلافة » وأن يحاول الناس من ثمة بلوغ أقصى درجات الرقي ، وأن يحصلوا أقصى ما يستطيعون من علم . وكان نتيجة ذلك انقلاب جذري في عالم الحضارة أدى إلى أسعد النتائج .

والأصل الرابع الذى تمسك به علماء اللاهوت المسيحي والذى يعيننا في هذه الدراسة هو أن الكتاب المقدس قد حوى كل ما يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد ، وأن الله لم ينزل على أنبيائه ورسله وحياً يقتصر على هداية البشر إلى الدين فحسب ، وإنما أنزل عليهم كل ما أراد أن يعلمه البشر من شئون الكون ، وأن الكتاب المقدس يحوى من المعارف الدينية والدينية كل ما قدر الله للبشر أن يعرفوه . إذن فجميع ما جاء في الكتاب المقدس من شئون السماء وما فيها ، والأرض وما بجوفها وما عليها ، وما ذكر فيه من تاريخ الأمم والشعوب ، ينبغى أن يكون في الدرجة الأولى ما يُعول عليه المؤمنون ، والمصدر الذى يستمدون منه كل علومهم التى يحتاجون إليها ، لأن الكتاب المقدس صدق ولأن الله لم ينزل على رسله وأنبيائه هذه التعاليم هباء . ومن هنا عمد آباء الكنيسة وعلماء اللاهوت بعد أن قضوا قضاء مبرماً على كل أثر للعلم اليونانى القديم سواء في الجغرافيا أو الطب أو الفلك أو غير ذلك ، وحرموه بتاتاً ، إلى وضع علوم جديدة في الجغرافيا والطب والفلك والجيولوجيا والتاريخ والحيوان إلخ ، واستمدوا أسسها مما جاء في الكتاب المقدس وفرضوا هذه العلوم على عالم النصرانية في القرون الوسطى ، وصارعوا العلم والعلماء الذين رجعوا إلى العلوم الدنيوية أو نظروا نظرة حرة في الكون صراعاً شديداً استمر حتى أواخر القرن التاسع عشر وتجلي بصورة أو بأخرى^(١) .

(١) يقع القارئ على شرح واف ومفصل لجميع النظريات والعلوم التى وضعها آباء الكنيسة وعلماء اللاهوت في القرون الوسطى ولمراحل الصراع بين اللاهوت المسيحي والعلم في هذه العصور وحتى أواخر القرن التاسع عشر في كتاب الأستاذ الكبير أندرو ديكسون وايت : **A History of the warfare of Science with Theology in Christendom**

أما الإسلام فليس في نصوصه ولا في روجه شيء يمنع المسلمين من حرية النظر في الـكون وكيف خلق وكيف تسير شئونه . وقد حث الإسلام المسلمين على العلم وعلى التفاضل بالعلم في قوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . ثم إن علماء الإسلام اتفقوا على أنه إذا تعارض الدليل العقلي القطعي مع ظاهر الشرع غير القطعي ، وجب تفضيل الدليل العقلي والأخذ به . ومن هنا اتسع المجال أمام العلماء ووجدوا مجالاً فسيحاً لتأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل . وبهذا لم يبق من عقبة في سبيل العقل لينطلق إلى أقصى حدوده باحثاً عن الحقيقة . والحق أن شيئاً من مثل هذه التهورات التي أشاعها رجال الكنيسة في القرون الوسطى لم يقف أمام العقل الإسلامي ولم يصده عن الانطلاق ، فاعتمدت حضارة الإسلام أول ما اعتمدت على العقل ، وعلى العلم ، وعلى ما تثبته التجربة ، فكانت بحق حضارة علمية في المقام الأول .

نضرب هنا مثلاً نبين به كيف نظر كل من المسيحيين والمسلمين إلى حقائق الأشياء ، وكيف تصرف كل فريق لإزاء النصوص المقدسة . وضع الراهب المصري قزماس في القرن السادس الميلادي نظرية في جغرافية الـكون استمدتها من الكتاب المقدس ، وقيل في ذلك الوقت إنها نظام كامل مفصل عن الـكون . ولقد قبلت نظرية قزماس كما لو كانت حياً منزلاً ، واعتبرها اللاهوتيون في الشرق والغرب حصناً حصيناً من حقائق الكتاب المقدس . ومما جاء في هذه النظرية أن الملائكة لا يدفعون الأجرام السماوية ويجذبونها لتتبر الأرض فحسب ، وإنما يفتحون ويقفلون طاقات السماء أيضاً ليندفع منها الماء على الأرض ليرويها . واعتمد قزماس في هذا القول على نص سفر التكوين القائل : « انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء » (١) . وهذا مثال من نوع التفكير الذي سيطر على عقول علماء اللاهوت المسيحي

(١) سفر التكوين : ٧ : ١٢ .

وجعلهم يستمدون العلم من ظاهر نصوص الكتاب المقدس ونتيجة لتفسيرها تفسيراً حرفياً لا غير . والحق أنهم تمسكوا بالتفسير الحرفي لنصوص الكتاب المقدس في مختلف مجالات العلوم التي استخرجوها من هذا الكتاب ، وأكثروا صحتها ، وظلوا يتمسكون بها قروناً طويلة ويصدون بها كل علم حقيقى بالحديد والنار ومحاكم التفتيش ، وما أدراك ما محاكم التفتيش .

ضربت هذا المثل بالذات لأن في القرآن آية مشابهة لهذا النص الذي استشهد به قزماس هي قوله تعالى : « ففتحن أبواب السماء بماء منهمر » ، لنرى كيف وقف المسلمون منها ، وكيف استطاعوا أن يقرروا الحقيقة العلمية اعتماداً على المبادئ السابق ذكرها ، من غير أن يحدث صراع بين علماء الدين المسلمين حول تفسير الآية والحقائق التي قال بها العلماء . فبينما قال قوم إن الله خلق في السماء جبلاً من برد وبحاراً ، قال آخرون إنه قد يراد هنا الحقيقة وقد يراد المجاز . فإذا كان يراد الحقيقة يكون إذن في السماء كظاهر الآية أبواب تغلق وتفتح ، وأما إذا أريد الاستعارة فيكون ذلك بمثابة قول القائل في المطر الوابل : « جرت ميازيب السماء وفتحت أفواه القرب » . وهؤلاء لا يستبعدون أن يكون هذا هو المراد (٢) . ومن هنا استطاع جغرافيو العرب أن ينطلقوا بحرية في تقرير الحقيقة العلمية كما ثبتت لهم . فقالوا إن الأنهار تبتدئ من الجبال وتنتهى إلى البحار في جريانها ، وإلى البطائح والبحيرات ، وتسقى في ممرها المدن ، والقرى ، والسودات ، وما يفضل من مائها ينصب إلى البحار ، ويختلط بماء البحر ، ثم يصير بخاراً ويصعد في الهواء ، وتتراكم منه الغيوم ، وتسوقه الرياح إلى رؤوس الجبال والبراري ، ويمطر هناك ويسقى البلاد ، وتجري الأودية والأنهار ، ويرجع إلى البحار من الرأس ، وذلك دائماً في الشتاء والصيف (٣) .

(١) للقمر ١١ . (٢) انظر تفسير الفخر الرازي .

(٣) رسائل إخوان الصفا : رسالة الجغرافيا .

انطبع تاريخ المسيحية من ثمة طوال قرون بطابع الإصرار العنيد على تفسير نصوص الكتاب المقدس تفسيراً حرفياً لا غير . وكانت حججهم في ذلك أن الله لم يكلم موسى بالحجاز ولا بالاستعارة . وأدى هذا الموقف غير المرن إلى أوحى النتائج بالنسبة لتقدم العلوم . وأما تاريخ الإسلام فانطبع بطابع النظر العقلي في حقائق الأشياء ، وبالعامل على التوفيق بين ما يتوصل إليه العلماء من حقائق وبين ظاهر النص الديني ، كما رأينا في المثال السابق ، وهو مثال واضح جداً . ويكشف لنا هذا المثال بجلاء عن حقيقة هامة جداً ، هي أن فارقاً جوهرياً في الرجال ذاتهم الذين قادوا المسيحية ، والرجال الذين قادوا الإسلام ، كان من أهم العوامل التي أدت إلى وقوف هؤلاء أو أولئك هذه المواقف المختلفة .

يتبين جلياً مما سبق أن المبادئ والمفاهيم التي سيطرت على دنيا المسيحية وحكمتها ، كانت مخالفة للمبادئ والمفاهيم التي سيطرت على دنيا الإسلام وحكمتها ، بل لا نكون مغالين البتة إذا قررنا أن مفاهيم الإسلام كانت على طرفي نقيض مع مفاهيم المسيحية . ومما لا مرية فيه ولا نزاع من حوله ، أن كلا من هذه المفاهيم والتطبيقات أحدث أثراً واضحاً جداً في مجرى التاريخ الحضاري للإنسانية كلها . نشأت الحضارة وتطورت في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتوالت دوراتها في مصر القديمة ، وبلاد ما بين النهرين ، واليونان ، إلى أن توقفت بعد انتشار المسيحية ، ثم استأنفت المسير بقدوم العرب وانتشار حضارة الإسلام حتى استقرت في الأندلس وصقلية تحت الحكم العربي الإسلامي ، ثم انتقلت إلى غربي أوروبا .

أما ما يهمننا فتلک الفترة التي توقفت فيها الحضارة نتيجة لانتشار المسيحية ، ثم الفترة التي تلتها بظهور الدور العربي الإسلامي من الحضارة ، وكيف كان هذا الدور في واقع الأمر الأساس الذي بنت عليه أوروبا حضارتها الحديثة . كانت النتيجة الطبيعية لسيطرة رجال الدين المسيحي على مقدرات

الإمبراطورية الرومانية ، وحصولهم على هذا السلطان الدينى والدنيوى ، مع عدم قدرتهم على النظر نظرة عقلية فى نصوص الكتاب المقدس التى فسروها تفسيراً حرفياً لا غير ، أن يحدث صراع عنيف بين الدين الذى يمثله هؤلاء الرجال الأتقياء الورعون الجامدون ، والعلم الذى يمثله الفلاسفة والعلماء الذين ينظرون فى الكون والطبيعة نظرة حرة ، ويبحثون بحثاً علمياً لا يمكن أن يتوافق منهجه مع التفسيرات الحرفية لنصوص الكتاب المقدس .

عند ما استقر للمسيحية سلطان القوة المادية وخضع أباطرة الرومان أخيراً لسلطان الكنيسة ، لم يستطع آباء الكنيسة الأوائل وعلماء اللاهوت فيها أن يدركوا معنى العلم أو الفلسفة ، ولم يسيطر على أذهانهم إلا أفكار استمدوها من النصوص الدينية ، هى أن هذا العالم سوف لا يلبث أن يهلك ويذول ، وأن أعمال الفلاسفة والعلماء باطلة ، وأن الجهالة أم التقوى ورأس العبادة . ومن ثمة أمعنوا فى القضاء على كل مظاهر العلم القديم والفلسفة ، وغالوا فى اضطهاد العلماء والفلاسفة . وبدأ عصر عجيب انهارت فيه كل أسس الحضارة القديمة التى بذل فى وضعها قدماء المصريين والبابليين واليونان آلافاً من السنين .

وبدأت الكنيسة عملية تخريب هذا العلم القديم الذى سموه آنذاك بالعلم الوثنى ، واثارت فى طول العالم المسيحى وعرضه موجة عارمة محمومة من الاضطهاد والبطش ضد العلماء وكلامهم الباطل الدنس كما قال القديس بولس ، وضد العلم الكاذب الاسم كما وصفه أيضاً . أحرق الأسقف ثيوفيل بطريق الأسكندرية فى سنة ٣٩٠ م . جزءاً من مكتبة الأسكندرية ، وفى سنة ٤١٥ م . انقضت جماعة من الرهبان على العالمة الجليلة هيباشيا ابنة الفلكى ثيون وآخر أستاذة للطب والرياضيات بجامعة الأسكندرية ، وجردوها من ثيابها وقادوها مكشوفة العورة إلى كنيسة فى الأسكندرية ومزقوا جسدها لإرباً . وكان هذا العمل كما يذكر المؤرخون بتحريض من كيرلس بطريق الأسكندرية الذى كان يغار من شعبيتها ، والذى أراد أن يضع حداً للعلم

الوثني في مدينته . وفي سنة ٤٨٩ م هاجر جماعة من العلماء إثر موجة من الاضطهاد إلى فارس فسمح لهم الإمبراطور الفارسي باللاجوء إليها وأكرم وفادتهم ، وظلت موجات الاضطهاد ضد العلم والعلماء تتكرر حتى شهدت أرض أوربا في القرن السادس آخر فلاسفتها بوثيوس (٤٨٠ - ٥٢٤ م) وهو يعدم بتهمة المروق من الدين والمهرطقة . وكان كل اضطهاد من هذا القبيل يبعده عن دنيا المسيحية عدداً من أحسن الرجال الذين كانوا يقتلون أو يفرون إلى الشرق ، ليحل محلهم على رأس المجتمع أجهل الرجال وأسوأ المثل^(١) ، وأما النهاية فجاءت على يدى الإمبراطور جوستينيان الذى أمر في سنة ٥٢٩ م . بإغلاق أكاديمية أفلاطون بأثينا ، وكانت حينئذ آخر معقل للعلوم الدنيوية في العالم المسيحي الرومانى كله .

ولقد قصد بهذا العمل بطبيعة الحال القضاء على آخر أثر للعلوم والفلسفة القديمة ، أو العلوم والفلسفة الوثنية كما سماها رجال الكنيسة آنذاك . وظلت أوربا منذ ذلك الوقت وحتى مقدم المسلمين إلى أسبانيا وصقلية بلا مدرسة واحدة في أى جزء من أجزائها غير المدارس الدينية . وبذلك « لم تتخرب روما وأثينا باعتبارهما السياسى والاجتماعى فقط ، وإنما بادت أيضاً السلالة اليونانية التى أخرجت الفنانين والعلماء والفلاسفة ، والسلالة الرومانية التى أخرجت المحامين والإداريين ولم يعد لهما وجود »^(٢) .

وعند هذا الحد من التخريب غرقت أوربا في عصور ظلامها الدامس ، واقتصرت جميع الكتابات في عصور الظلام هذه على النظريات التى استمدتها علماء اللاهوت من الكتاب المقدس ، أو على الأمور والاحتياجات الدينية ، فكانت المدارس الأسقفية مثلاً تلقن أبسط قواعد الرياضيات اللازمة للتجارة ، أو للمحاسبة ، أو لتحديد مواعيد الاحتفالات الدينية لا غير .

G. Sarton : Ancient Science and Modern Civilization P. 115 (١)

W. C. Dampier : A History of Science and its Relationship to (٢)

Philosophy and Religion P. 6.

ماتت الحضارة القديمة وتلاعبت بها رياح الكنيسة ، وحرمت دراسة العلوم الدنيوية في طول العالم المسيحي وعرضه ، وحل محلها العلوم التي استمدتها علماء اللاهوت من نصوص الكتاب المقدس ، فوضعت علوم جديدة ، جغرافية ، وطبية ، وفلكية ، ونبولوجية ، وحيوانية ، وتاريخية ، إلخ . وتنافس علماء اللاهوت المسيحي في استخراج كنوز الكتاب المقدس العلمية كما صور لهم فكرهم الديني ولنضرب الآن مثلاً نستعين به على فهم الطريقة التي تناول بها آباء الكنيسة العلم ، نستقيه من بين أمثلة كثيرة ضربها الأستاذ أندرو ديكسون وايت .

اختمرت في عقول الفلاسفة مع تقدم الحضارة وارتقاها ، وبخاصة فلاسفة اليونان أفكار حول كرية الأرض . ولقد اتجه بعض آباء الكنيسة من أصحاب العقول الأقوى والأرجح إلى الأخذ بهذا الرأي . غير أن الغالبية العظمى منهم فزعت في الحال من هذا الاتجاه ، ولاح لهم أن هذا الرأي مضم بأشد المخاطر التي تهدد الكتاب المقدس . وما كان ذلك بغير شك إلا تفسيرهم الحرفي للكتاب المقدس لاغير . وكان يوسابيوس القيصرى من أوائل الذين هاجموا هذا الرأي ، إذ سعى آنذاك بنصوص العهد الجديد التي تشير إلى قرب فناء العالم ، إلى القضاء على هذه الفكرة من طريق تحقير الدراسات العلمية . فنراه إذ يتحدث عن الباحثين في العلم يقول : « إنما لا نهتم بمثل هذه الأمور التي يستحسنها العلماء بلهولنا بها ، وإنما احتقاراً لشأنها ، إذ هي أمور باثرة عديمة الجدوى ، وإنما نحن نتجه بأرواحنا إلى أمور أهم نفعاً » . وتكلم بازيل القيصرى عن هذه الفكرة فأعلن أنه « لا يعيننا كثيراً ولا قليلاً أن تكون الأرض كرة أو أسطوانة أو قرصاً مسطحاً أو مقعراً كالمروحة » . وأشار لكتانثيوس إلى أفكار الذين يدرسون الفلك على أنها « قبيحة عديمة المعنى » وعارض نظرية كرية الأرض باعتبارها مناقضة للكتاب المقدس ومنافية للعقل . واستغل القديس يوحنا كريسستوم نفوذه في معارضة هذا المعتقد العلمى . كذلك لم تكن معارضة أفرام كيرلس أكبر آباء الكنيسة

السورية القديمة الذى اشتهر بأنه « قيثارة الروح القدس » أقل حماسة .
غير أن المتعصبين للعلم الكتابي ، أى لعلم الكتاب المقدس ، وعلى الأخص كبار الآباء والأساقفة مثل ثيوفيل الأنطاكي في القرن الثاني ، وكليمنت الإسكندري في القرن الثالث ، وغيرهم في القرون التالية ، لم يكتفوا بمجرد معارضة الفكر العلمى الذى وصموه بأنه نظرية وثنية قديمة ، وإنما استمدوا من كتبهم المقدسة نظرية مسيحية جديدة ، أضاف إليها هذا الأب فكرة ، وذلك فكرة أخرى ، حتى اكتملت قسماتها . فقد تناولوا بقايا المأثورات القديمة المختلفة التى ذكرت في الآية السابعة من الإصحاح الأول من سفر التكوين ، وأصروا على الأخذ بهذا البيان الجلى الواضح الذى ذكره السفر المقدس ، الذى يبين لنا أن الأرض غطيت عند خلق الكون بقبة صلبة هي « السماء » . وأضافوا إلى هذه الآية الآيات الأخرى المذكورة في سفرى أشعياء والزمير ، والتي تقضى بأن السماوات منبسطة « كسرادق » أو « كخيمة للسكن » . وإذن يكون العالم بناء على هذا التصور بمثابة منزل ، الأرض طابقه السفلى ، والسماء سقفه . ذلك السقف الذى يعلو فيه الواحد القهار الشمس لتحكم النهار والقمر والنجوم لتحكم الليل . وهذا السقف أيضاً بمثابة أرضية للطابق الذى فوقه ، ومن ثمة يكون صهريجاً كبيراً ، وصفه أحد اللاهوتيين بأنه « يشبه حوض الحمام » وهو يحتوى « المياه التى توجد فوق القبة الزرقاء »^(١) وهى المياه التى يطلقها الله وملائكته على الأرض من خلال « طاقات السماء »^(٢) . ثم لأنهم لما أرادوا تفسير حركة الشمس استشهدوا بفقرات مختلفة من سفر التكوين امتزجت بتأملات غيبية مختلفة ، وظنوا أنها دليل قاطع من الكتاب المقدس على أن الأرض لا يمكن أن تكون كرية الشكل .

غير أن فكرة كرية الأرض لم تمت تماماً ، وإنما ظلت أصداؤها تتجاوب في جنبات الكنيسة وظل بعض آباء الكنيسة يجنحون إلى الاعتقاد

(١) فسر الله الجلد وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد . سفر التكوين

(٢) سفر التكوين ٧ : ١٢ . ٧ : ١

بها . ولكن هنا أيضاً أقام اللاهوتيون الدنيا وأقعدوها حول فكرة القول بالسكان الذين يقطنون الجانب المقابل لنا من كرة الأرض على افتراض أنها كرة . تساءل لكتانشيوس « أوجد فعلاً إنسان فقد الشعور بحيث يعتقد بإمكانية وجود بشر تكون مواطئ أقدامهم أعلى من رؤوسهم ؟ وأن النباتات والأشجار تنمو إلى أسفل ؟ وأن المطر والثلج والبرد تساقط على الأرض من أسفل إلى أعلى ؟ ثم استطرد يقول : « إني لني حيرة من أمر هؤلاء الذين إذا أخطأوا مرة استمروا في غيهم مدافعين عن الباطل بباطل آخر ! » .

أما المدافع الأكبر عن المعتقد الكنسي الصحيح الذي قرره آباء الكنيسة وآمنوا به فالقديس أوغسطين . لقد حارب القديس أوغسطين على الرغم من أنه جنح بعض الشيء إلى الاعتقاد بكورية الأرض ، فكرة وجود أناس يعيشون على الجانب المقابل لنا منها ، قال : « إن الكتاب المقدس لم يحدثنا عن أمثال هؤلاء من أبناء آدم » . ثم إنه أصر على أن الله العزيز القدير لا يمكن أن يكون قد قدر للبشر أن يعيشوا في تلك البقاع ، ما دام أنهم سوف لا يرون المسيح في أثناء عودته الثانية إلى الأرض وهو هابط من السماء . غير أنه استقى أقوى حجة استشهاد بها — تلك الحججة التي تردد صداها من لاهوتي إلى آخر خلال ألف من السنين بعده — من المزمور التاسع عشر ، ومما جاء في رسالة بولس إلى أهل رومية تأييداً لهذا المزمور ونصه : « في كل الأرض خرج منطقتهم وإلى أقصى المسكونة كلماتهم » . وأصر على رأيه بعناد معتمداً على أن القديس بولس وضع برهاناً من أقوى براهينه استناداً على هذا النص الخاص بالمبشرين بالإنجيل ، وأنه أعلن قائلًا بمزيد من الوضوح : « بلى إلى كل الأرض خرج صوتهم وإلى أقصى المسكونة أقوالهم » . ومنذ ذلك الحين أكد اللاهوتيون دائماً أنه ما دام هؤلاء المبشرون لم يذهبوا إلى سكان الجانب المقابل لموضعنا من كرة الأرض ، فعنى هذا أن هؤلاء لا يوجدون على إطلاق القول ، ومن ثمة يكون أولئك الذين يؤيدون هذه

النظرية الجغرافية « قد كذبوا مباشرة الملك داود والقديس بولس وبالتالي الكتاب المقدس ذاته ». وبذلك فرض القديس أوغسطين على عالم النصرانية أكثر من ألف من السنين تعاليمه القائلة بأنه ما دام لم يحدث تبشير بالإنجيل في الجانب المقابل لموضعنا من الأرض ، إذن لا يمكن أن يكون هناك بشر يعيشون في تلك البقاع .

ويلوح أن الحقيقة العلمية اختفت تماماً تحت وطأة هذا الضغط اللاهوتي قرابة قرنين من الزمان ، غير أن كرية الأرض أصبحت في القرن الثامن من الأمور التي يقبلها ويعترف بها جلة المفكرين من رجال الكنيسة على وجه العموم . ومع إحياء نظرية كرية الأرض ، انتعشت النظرية القائلة بالبشر الذين يعيشون على الجهة المقابلة من كرة الأرض ، غير أنها ظلت محرمة . ذلك أنه عندما جسر الأسقف فرجيل السالسيرجي بالقول بصحة النظرية القائلة بالبشر الذين يعيشون على الجانب الآخر من الأرض ، انزعج بونيفاس لهذه الهرطقة وأهاب بالبابا زخارى أن يساعده على مقاومة فرجيل ، فاستجاب البابا معلم المسيحية المعصوم من الخطأ لهذا النداء استجابة قوية ، واستشهد بقررات من سفر أيوب ، وبحكم من حكم سليمان ، يناقض بها نظرية سكان الجانب المقابل لموضعنا من الأرض . وأعلن أن هذه النظرية « فاسدة مُضللة أئيمة مفسدة لنفس فرجيل ذاتها » . وأشار إلى عزمه على طرده من أسقفيته . وتدعم هذا الرأي اللاهوتي بمقتضى ما للبابا من عصمة أضفتها عليه وحماتها العناية القدسية . ومضى اللاهوتيون متعصبين للنظرية القائلة بأن الأرض مأهولة بالسكان من جانب واحد فقط ، حتى لقد أصبحت نظرية ثمينة عزيزة عليهم أكثر من أى وقت مضى . واشتد ساعد النظرية ولاح في القرن الرابع عشر أن ضرورة مقاومة الفكر العلمى إنما تقتضى من رجال الكنيسة أن يعاملوا المارقين بالخلعة والسندان . ولم تنته هذه الحرب التي استمرت اثني عشر قرناً من الزمان إلا في القرن السادس عشر عند ما دار ماجلان حول الأرض فعلا ، وأثبت صحة نظرية السكان

الذين يعيشون في الجهة المقابلة من الأرض ، وشاهدتهم رفاقه البحارة بأعينهم ، ثم شاهدتهم فيما بعد المبشرون الأوروبيون أنفسهم .

أكتفى هنا بهذا المثال الذى يبين لنا بوضوح الطريقة التى تناول بها آباء الكنيسة ، وعلماء اللاهوت المسيحى ، الختاتق العلمية التى كانت حضارة الدنيا القديمة قد بدأت تكشف عنها ، ثم أماتوها وأحلوا محلها نظريات دينية لا تمت للعلم بصلة ، استمدوها من نصوص الكتاب المقدس باعتبار أن كل كلمة فيه إنما وردت لتعبر تعبيراً صادقاً وصحيحاً وحرفياً عن الأمور التى تشير إليها . ولقد لجأ علماء اللاهوت المسيحى إلى مثل هذا التفكير الذى استخلموه هنا عند معالجتهم لمختلف العلوم الأخرى . ولا يخفى بطبيعة الحال ما فى هذا المنهج من مضار شديدة على البحث العلمى الصحيح . ولا غرابة إذن فى أن كل أثر للعلم الحق قد تبخر من الأرض المسيحية فى ذلك العصر العجيب . والحق أن أوربا لم تبدأ فى الانتعاش والتفكير الجدى فى تناول العلوم الدنيوية إلا بعد أن استتبّت الحضارة الإسلامية فى أسبانيا وصقلية ، وبدأت تؤثر تأثيرها الفعال فى العناصر الأوروبية الممتازة التى بدأت تتأثر بها وتحاول إدخال هذه الحضارة العلمية إلى دنيا المسيحية فى أوربا .

أما الاتجاه إلى التعليم فبدأ فى الإسلام منذ أوائل الهجرة ، ذلك أن محمداً اشترط على من كان يعرف القراءة والكتابة من أسرى بدر أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة فى نظير فدائه ، وكان فدء الأسير أربعة آلاف درهم . ولقد تبلور هذا الاتجاه الحميد فى أحاديث كثيرة ذكرنا شيئاً منها فيما سبق . لذلك لم يكن غريباً أن يعتمد المسلمون إلى تعليم أبنائهم القراءة والكتابة كلما سبغت فرصة إلى ذلك . ولقد أصبح الاتجاه إلى التعليم طابعاً عاماً اتجهت إليه حضارة الإسلام منذ بداياتها الأولى . والحق أن المسلمين ما لبثوا أن استقروا بعد الفتوحات الأولى حتى شرعوا يفتحون المدارس على نطاق واسع . وربما اقتصر الغرض من ذلك فى هذا

العصر المبكر على مجرد القراءة والكتابة بالقدر الكافي على الأقل للتمكن من الاطلاع على القرآن .

ثم تطور الحال الى ضرورة نشوء علوم جديدة ، فنشأت علوم اللغة والتفسير والحديث . فلما اتسعت دائرة العلوم وظهر الحديد منها على هذه الصورة ، كان طبيعياً في بيئة تبجل العلم والعلماء أن يتسع مجال التدريس ويشمل هذه العلوم . ومن هنا بدأت نهضة أدبية كبيرة جداً في العالم الإسلامي . ثم أخذت دائرتها تتسع شيئاً بعد شيء حتى شملت - فيما عدا علوم الدين واللغة - مختلف فروع العلوم الأخرى التي خلفها الحضارة القديمة .

كان الأمير خالد بن يزيد بن معاوية الأموي أول من اتجه إلى فتح الباب الموصل ، أي الباب المؤدى إلى العلوم القديمة التي سبقتها المسيحية وقضت على كل أثر لها . وكانت الكيمياء التي خلفها قدماء المصريين قد انقلبت في أيدي اليونان والرومان إلى مجرد خرافة وهم - انحصرت في محاولة تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة - إن لم تكن قد أصبحت فعلاً من وسائل الغش والاحتيال^(١) . وأصبحت من علوم السحر والتهويمات المبهمة وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالتنجيم . وهذه هي الصورة التي كانت الكيمياء قد وصلت إليها في الأسكندرية عند ما فتحها العرب . ولقد قام في وهم خالد ابن يزيد أن تحويل المعادن الرخيصة كالرصاص إلى معادن نفيسة كالذهب والفضة أمر ممكن ، فاستدعى راهباً رومياً اسمه مارينوس كان يلم بشيء من هذا العلم ، وتعلم منه الصنعة وأمره أن ينقل ما تحت يده من كتبها إلى العربية ، فعمد إلى رجل اسمه اصطفان فنقلها ، فكان هذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة . ويقال إن خالد بن يزيد أمر أيضاً بنقل كتب في الطب والفلك ، ولكن لم يصلنا منها شيء . وقيل أيضاً إنه أسس مدرسة في

مصر . ويلوح بأن شيئاً من كتابات خالد بن يزيد في الكيمياء قد بقي معروفاً ومتداولاً عدة قرون من بعده - وإن لم يبق منها شيء الآن - ذلك أن الأستاذ سارتون^(١) ذكر أن رسالة في الكيمياء كانت منسوبة إلى خالد بن يزيد وقد ترجمت إلى اللاتينية تحت عنوان *De Compositione alchimiae* وكانت لإحدى الكتب التي تدرس في الغرب اللاتيني في أواخر القرن الثالث عشر ..

هكذا بدأت أولى محاولات المسامحين نحو الاتجاه إلى العلوم القديمة والعمل على ترجمتها إلى العربية . ونحن على أية حال لا نستطيع أن ندعي أن الجهود التي بذلها خالد بن يزيد قد أحدثت أثراً استمر في التاريخ العلمي الإسلامي . ولكنها كانت في الحقيقة بمثابة تحسس الطريق نحو العلم ، ومحاولة لفتح الباب الموصد ، وهذا عمل في حد ذاته عظيم ، لأن خالد بن يزيد كان وحيد زمانه بين العرب ، وإذن يكون فضاه أكبر واسمه أبقى وأخلد .

أما البداية الحقيقية للحركة العلمية الإسلامية التي عنها استمرت هذه الحركة وازدهرت ، فكانت على يدي الخليفة العباسي المنصور ، الذي أمر في سنة ٧٧٣ م بترجمة رسالة في الفلك حملها إليه عالم هندي يدعى مانكا أو كانكا وفد عليه ضمن السفارة الهندية ، فترجمها الفزاري ويعقوب ابن طارق ، وسميت في ترجمتها العربية « كتاب السند هند » . ولقد اهتم المنصور ذاته بتعلم العلوم الفلكية ، وأمر بإنشاء مدارس لتعليم الشريعة والطب . ثم انعمشت هذه الحركة في عهد حفيده الرشيد الذي أمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها . وبلغ النشاط العلمي أوجه في عصر الخليفة المأمون بن الرشيد نابعة العرب . فأخذ بيت الحكمة أو مدرسة الترجمة التي أسسها الرشيد صورة أكاديمية في عصره ، ووضع المأمون على

رأسها يوحنا بن ماسويه ، وأمر بترجمة جميع ما تصل إليه أيدي القائمين بشئون بيت الحكمة من علوم الأسبقين . ومما يذكّر على مبلغ حرص المأمون على الحصول على العلوم التي خلفها اليونان أنه اشترط في صلحه مع الإمبراطور ميشيل الثالث إمبراطور بيزنطة أن يعطيه مكتبة من مكاتب الآستانة . ولقد قامت هذه المؤسسة في عهد المأمون الذهبي بأكبر مجهود في ترجمة علوم الأسبقين إلى العربية . فما هي إلا سنوات قلائل حتى كانت جميع المعارف العلمية السابقة تحت أيدي العرب في ترجمات جيدة . وكان المأمون يدفع رواتب خيالية لكبار المترجمين ، فيقال إن راتب حنين بن إسحق ، أو حنبل الأعسم ، أو ثابت بن قرة كان خمسمائة دينار شهرياً . ويقال أيضاً إنه كان يجتمع كل ثلاثاء إلى أهل العلم والأدب ويوزع على المتفوقين منهم جوائز ثمينة . ولا عجب إذن أن تصبح الكتابة والاشتغال بالكتابة وبالعلم والأدب في دولة الإسلام من أعظم المهن وأرقاها ، حتى لقد ذاع المثل القائل إن الكتابة أشرف المهن بعد الخلافة .

نقل العرب أهم كتب اليونان في الرياضيات ، والطب ، والفلك ، والجغرافيا الرياضية ، ونقلوا عن الهنود كتباً هامة في الطب ، والرياضيات ، والفلك . هذا فضلاً عما نقلوا أيضاً عن اليونان والفرس والهنود من كتب الأدب والفلسفة والقصص ، ولكن نركز هنا على الكتب العلمية فحسب لأن الحضارة الإسلامية العلمية هي التي تعيننا في المقام الأول . ولم يكن منتصف القرن التاسع الميلادي حتى كان تحت يد العرب التراث العلمي القديم كله في الرياضيات ، والفلك ، والجغرافيا الرياضية ، والطب ، مع كتب الكيمياء التي وجدت بالأسكندرية وترجمت أيضاً إلى العربية في عصر سابق .

بدأ المسلمون من ثمة عصر حضارتهم العلمية ، فتناولوا هذه العلوم بمنتهى التسامح ونظروا فيها نظرة مختلفة تماماً عن نظرة آباء الكنيسة المسيحية لها ،

ذلك أن رائدهم كان العقل والتوفيق بين العلم وظاهر النصوص الدينية ، بما لا يكون من شأنه قضاء أحدهما على الآخر كما رأينا فيما سبق . ثم إن المسلمين في هذا العصر الزاهر لم يقتصروا على تعلم هذه العلوم فحسب ، وإنما عمدوا منذ بداية عصر اشتغالهم بها إلى تعديلها وتصحيحها بالقدر الذى سمح به التقدم فى عصرهم ، فضلاً عن ابتكارهم لعلوم جديدة لم يعرفها اليونان ، ولا الأقدمون من قبل ، فأخذت حضارتهم العلمية من ثمة طابعاً جديداً مميزاً ، وكانت بحق الأساس الذى ارتكزت عليه الحضارة الحديثة فى أوربا^(١).

تناول المسلمون هذه العلوم بمنتهى التسامح كما قلنا ، ولم ينظروا فيها نظرة شك أو ريبة ، بل لأنهم عكفوا منذ بداية اشتغالهم بها على التحقق مما جاء فيها بأنفسهم . كالف الخليفة المأمون علماء بقياس الأرض والتحقق من صحة القياسين السابقين الذين أجراهما فى العصر اليونانى لإراتوستينس أولاً ، ثم بطليموس السكندرى ثانياً . فقام علماء المأمون فى سنة ٨٢٧ م . بقياس درجة من خط منتصف النهار ، وأجروا التجربة فى أرض سنجار بالجزيرة العراقية بين درجتى عرض ٣٥ ، ٣٦ شمالاً . فإذا عرفنا كما يقول الأستاذ كراتشكوفسكى^(٢) أن أكثر المقاسات انتشاراً فى القرن التاسع عشر كان مقياس بيسيل الذى قدر الدرجة بمقدار ١١٠٩٣٨ متراً ، تبين لنا جلياً أن الخطأ فى مقياس العرب يقل عن الكيلومتر ، والحق أن القياس المأمونى لدرجة خط منتصف النهار كان أصح من القياسين اليونانيين السابقين وأكثرها ذبوعاً وانتشاراً فيما بعد . هذا فضلاً عن تصحيح المسلمين لخريطة العالم التى ورثوها عن بطليموس ، ووضعهم خرائط جديدة ، واستعمالهم لخطوط الطول والعرض . وتصحيحهم لكثير من مواضع المدن وأوضاع البحار

(١) راجع كتابنا : أثر العرب فى الحضارة الأوروبية - نهاية عصر الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة .

(٢) أغناطيوس نوليانوفتش كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ص ٨٣ - ٨٤ ترجمه صلاح الدين عثمان هاشم .

والبحيرات وأطوالها وعروضها ، ثم جغرافيتهم الوصفية التي لولاها لضاع كثير جداً من معالم القرون الوسطى .

وفي الرياضيات^(١) تقدم المسلمون خطوات هائلة عن رياضيات اليونان أو الهنود ، ومن أهم مآثر العرب طريقة الإحصاء العشري واستعمال الصفر لنفس الغاية التي نستعملها الآن ، ومزايا هذا النظام أنه يقتصر على تسعة أعداد فقط وصفر ، في حين كانت الأرقام اليونانية والغربية القديمة القائمة على حساب الجمل تشتمل على عدد من الأرقام يقدر بعدد الحروف . ولا يخفى بطبيعة الحال الأثر الحاسم لهذه الطريقة في تقدم العلوم الرياضية . ثم إن العرب طوروا مختلف فروع الرياضيات ، ووضعوا علوماً جديدة مثل الجبر وحساب المثلثات المسطحة والكروية . وأصبحت كتبهم في هذا الميدان المعول الوحيد لعلماء أوروبا في القرون الوسطى . ولا غرابة أن يقول الأستاذ كارا دى فو إن مكتشفات المسلمين في العلوم الرياضية إنما تكن في أساس الحضارة الحديثة .

وفي الفلك تقدم المسلمون تقدماً ملموساً وظهر عدد من كبار الفلكيين الذين أخذوا على عاتقهم تصحيح أخطاء اليونان منذ أوائل اشتغالهم بهذا العلم ، وعلى رأسهم أبو الوفا ، وثابت بن قرة ، والبتاني ، والفرغاني ، الذين تعلمت أوروبا منهم الفلك ، وظلت أسماؤهم ترد في قاعات العلم الأوروبية قروناً طويلة استمرت حتى القرن التاسع عشر .

وفي الكيمياء كانت الطريقة التي انتهجها المسلمون أعظم العمليات في القرون الوسطى كما يقول الأستاذ ديورانت . وكانت أهم مآثرهم في هذا الميدان أنهم أدخلوا التجربة الموضوعية في دراسة الكيمياء والعلوم الطبيعية ، وهذه خطوة حاسمة نحو التقدم عما كان عند اليونان من فروض مبهمة في هذا الموضوع^(٢) . وانحصرت المبادئ الأساسية التي أرسى قواعد

(١) انظر تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك الأستاذ قدرى حافظ طوقان .

(٢) Ph. Hitti : History of the Arabs P. 380

علماء المسلمين في أنهم لا يقبلون شيئاً باعتباره حقيقة ، ما لم تؤيده الملاحظة أو تحققه التجربة العلمية^(١) . والكيمياء في صورتها العلمية كما يقرر الأستاذ ديورانت^(٢) إنجاز حققه المسلمون ، إذ أدخلوا الملاحظة الدقيقة والتجربة العلمية المتقنة ، واخترعوا الأنبيق وأعطوه هذا الاسم (أنبيق Alembic) ، وفرقوا بين الحوامض والقلويات ، واكتشفوا العلاقة بينهما ، ودرسوا ووصفوا مئات من العقاقير . وكان جابر بن حيان أبا الكيمياء العربية والكيمياء الحديثة على السواء^(٣) . وهو ذلك العالم الجليل الذي ألقى بظله على العالم في القرون الوسطى في الشرق وفي الغرب^(٤) .

أما علم الصيدلة فاختراع عربي أصيل^(٥) . والحق كما تقول الموسوعة البريطانية^(٦) « أن كثيراً من أسماء الأدوية وكثيراً من تركيباتها المعروفة حتى يومنا هذا ، وفي الحقيقة المبني العام للصيدلة الحديثة — فيما عدا التعديلات الكيميائية الحديثة بطبيعة الحال — فقد بدأه العرب » .

ونبع المسلمون في الطب نبوغاً عظيماً وتفوقوا فيه على اليونان وكانت كتبهم الطبية أساساً للدراسة في جامعات أوروبا عدة قرون ، وعلى الأخص كتب الرازي وابن سينا . وأما طب العيون فيكاد يكون علماً عربياً صرفاً ، ولقد نبغ في هذا الفرع من الطب عمار الموصلي وعلي بن عيسى ، ولقد ترجم كتاباهما إلى اللاتينية وظلا يستخدمان متنين تعليميين في طب العيون في جامعات أوروبا المختلفة حتى بدأت نهضة طب العيون في فرنسا في القرن الثامن عشر^(٧) . وفي الجراحة ظل الفصل الأخير الذي كتبه أبو القاسم

E. J. Holmyard : Makers of Chemistry P. 60 (١)

W. Durant : The Story of Civilization vol. IV P. 244 (٢)

Ch. Singer : A short History of Scientific Ideas P. 132 (٣)

M. Meyerhof : The Legacy of Islam P. 314 (٤)

G. Le Ben : La Civilisation des Arabes P. 513 (٥)

Encyclopaedia Britannica vol. 18 P. 46 Edition 1911 (٦)

M. Meyerhof : The Legacy of Islam P. 331 (٧)

الزهرائى عن الجراحة فى كتابه التصريف أول متن تعليمى فى الجراحة فى أوروبا زهاء خمسة قرون (١) .

أما علم البصريات الذى وضعه ابن الهيثم فجديد تماماً وليس له نظير بين مؤلفات اليونان جميعاً (٢) . وقد انتشر كتاب المناظر لابن الهيثم فى القرون الوسطى انتشاراً كبيراً فى خمس ترجمات لاتينية ، وعدة ترجمات إلى اللغات المشتقة من اللاتينية ، وكان أساساً للدراسة فى أوروبا ، واستقى منه ونقل عنه جميع كتاب أوروبا فى هذا الموضوع فى القرون الوسطى . وظل هذا الكتاب فى مستواه العلمىسمى كثيراً — كما يقرر الأستاذ مصطفى نظيف — من كثير من الكتب العلمية التى ألفها الغربيون فى هذا الموضوع بعد القرون الوسطى ومنها بعض مؤلفات كبلر ذاته (٣) .

ثم إن المسلمين كانوا أول من استعمل الورق فى الأعمال الأدبية ، وأول من أسس صناعات للورق فى أنحاء العالم الإسلامى كله وفى صقلية وأسبانيا . وانتشرت الكتب فى كل مكان وبصورة لم يعهدها العالم من قبل ، وانتشر التعليم انتشاراً واسعاً جداً . ولا شك فى أن استعمال الورق وانتشاره بهذه الصورة فى قارات ثلاث ، وظهور أنواع جيدة رخيصة ، إنما كان بداية لعصر جديد فى تاريخ الحضارة .

كذلك كان المسلمون أول من صنع أنواعاً من السكر تتحمل مشاق الرحلات التجارية والانتقالات البعيدة ، وأول من أنشأ فى حوض البحر الأبيض المتوسط صناعات لتكرير السكر ، ومزارع لزراعة قصب السكر ، ولا يخفى بطبيعة الحال الأثر الهائل الذى أحدثه السكر فى الصيدلة وفى تركيب الأدوية ، ذلك أن عالم الحضارة القديم بما فى ذلك عالم اليونان لم يعرف غير

Encyclopaedia Britannica : Abul - Kasim. (١)

Ch. Singer : A Short History of Scientific Ideas 153 (٢)

(٣) الدكتور مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية جزء ١ ص ٣ .

عسل النحل . والحق أن تعميم استعمال السكر ، كان من أهم الأسباب التي أدت إلى انتعاش الصيدلة في أيدي العرب .

وفضلاً عن هذا كله عرف العالم في إبان ازدهار الحضارة الإسلامية أنواعاً من المصنوعات والمنتجات المختلفة لم يكن لها نظير في أى مكان آخر . وفي النهاية توج المسلمون عصر حضارتهم باختراعاتهم للبارود ، ذلك المارد الذي أحدث انقلاباً هائلاً في عالم الحضارة .

انتقلت هذه الحضارة إلى أوروبا عن طريق المسلمين في صقلية وأسبانيا على الأخص . وسوف نتكلم هنا باختصار عن المراحل التي مرت بهذه الحضارة حتى انتقلت إلى أوروبا في القرون الوسطى .

انتقلت حضارة الإسلام إلى أوروبا على مراحل ثلاث . مرحلة كان التأثير فيها غير مباشر ، ومرحلة ثانية ترجمت فيها العلوم الإسلامية من العربية إلى اللاتينية ، ومرحلة ثالثة استغرقت فيها أوروبا في دراسة هذه العلوم وتدريسها وتفهمها وتعميمها حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حضارتها ، وعرف هذا العصر بعصر الاستعراب الأوربي .

بدأت المرحلة الأولى في أعقاب الفتح الإسلامي لأسبانيا في أوائل القرن الثامن الميلادي . ولم يكن تأثير المسلمين في ذلك الوقت المبكر علمياً ، ذلك أن المسلمين أنفسهم كانوا حتى ذلك الوقت لم يدخلوا دنيا العلم ، وإنما كان التأثير أخلاقياً ، وعلى الأخص عن طريق مثل التسامح التي ضربها حكام المسلمين للشعوب المسيحية التي غزوها والتي كان طابعها التعصب الشديد . ثم مبادئ الفروسية العربية التي بهرت هذه الشعوب والتي نشأت عنها فيما بعد مبادئ الفروسية الأوروبية . وهنا لا ينبغي أن ننسى أيضاً مآثرة من أعظم مآثر المسلمين على أوروبا في ذلك العصر . وهى الموسيقى العربية ، والشعر العربي وهما المقومان اللذان نشأ عنهما شعراء التروبادور في القرن الحادى عشر ليكونوا آباء للأدب الأوربي الحديث .

وفي القرن العاشر كان المسلمون قد حققوا كثيراً جداً من مآثرهم العلمية ، وكانت جامعة قرطبة الإسلامية في الأندلس في ذلك الوقت هي الجامعة الوحيدة في أوروبا . وكانت أسبانيا الإسلامية قد أصبحت أرض الأعاجيب حقاً من جميع نواحي النشاط الإنساني . وكان طلاب العلم والمعرفة والرحالة يقدمون إلى أسبانيا الإسلامية من جميع أنحاء غربي أوروبا . وكان كثيرون من هؤلاء الذين ألحت عليهم الرغبة في التوجه إلى أرض العلم والفن والشعر والأدب والحضارة الراقية بأكل معانيها من الرهبان الذين جذبهم مظاهر القوة التي اتصفت بها أسبانيا الإسلامية ، والذين رغبوا في أن يكتشفوا بأنفسهم أسباب عظمة المسلمين وانتصاراتهم المتوالية . ولقد عاش كثيرون من هؤلاء الرهبان بين المسلمين وتعلموا في مدارسهم وعرفوا عن كتب أنهم قوم موحدون خيرون أتقياء فضلاء ، وليسوا هؤلاء الوحوش الذين كان يصورهم لهم رؤسائهم .

ولا غرابة أن يدرك هؤلاء الرهبان عن حق أن المسيحية سوف لا تستطيع أن تضارع الإسلام ، أو تصل إلى مستوى يمكنها من منافسته وتحديه ، إلا إذا اتبع المسيحيون نفس الطريق الذي سار فيه المسلمون ووجدوا فيه قوتهم وعظمتهم . واقتنع هؤلاء الرهبان الذين تمردوا على تعاليم كنيساتهم أن طلب العلم وحب المعرفة وضرورة الاستزادة من العلوم الدنيوية - تلك الأشياء التي كانت على طرفي نقيض مع المعتقد المسيحي السائد آنذاك - إنما هي أهم مطلب ينبغي أن تسعى إليه الشعوب المسيحية جاهدة بكل قواها . وكان الراهب جريير الذي أجلسه الإمبراطور أوتو الثالث في عرش البابوية (٩٩٩ - ١٠٠٣) واحداً من هؤلاء الرهبان الذين تعلموا في أسبانيا وعادوا بثورة عارمة تملأ رؤوسهم على جميع مناحي التفكير في العالم المسيحي . ولكن كان جريير متقدماً عصره بكثير ، ولذلك لم يسلم من دسائس التعصبيين والرجعيين ، فمات مسموماً قبل أن يتمكن من تحقيق أى عمل إيجابي نحو تعميم الدراسات العلمية . ولكنه على أية حال كان بداية الطريق .

ومع مرور الزمن كثرت طبقة الرهبان الذين يطالبون بإدخال العلوم في مناهج التدريس ، والذين يعلنون العصيان على الجحود الذي انطبعت به دنياهم . وأما النتيجة الباهرة لحركة العصيان هذه التي تمت داخل جدران الكنيسة وبرجالها الأفذاذ ذاتهم ، فانتهت بقبول آباء الكنيسة لإدخال الفلسفة والعلوم الدنيوية إلى مناهج التعليم في المدارس الأستفية . ولقد أدى هذا الموقف مباشرة إلى نشوء الجامعات الأوربية . ونحن لا يسعنا هنا إلا أن نقرر أن النهضة العلمانية التي شهدتها العالم اللاتيني المسيحي في ذلك الوقت ، إنما كانت نتيجة لعمل جماعة من قساوسة الكنيسة ذاتها ، الذين تأثروا بالمسلمين والذين استطاعوا أن يحرروا أفكارهم من الجحود والتعصب والجهل الذي انطبعت به دنياهم . ثم إنه لا ينبغي لنا أن ننسى أيضاً أن الكنيسة مع قبولها مضطرة لإدخال العلوم والفلسفة في مناهج التعليم ، قد ظلت تصارع العلم والفلسفة حتى أواخر القرن التاسع عشر . ومعنى ذلك أن العلم الذي دافع عنه وتبناه وتعلمه وعلمه جماعة من الرهبان ، ولم يروا فيه شيئاً يناقض المسيحية ، كان في كثير من مفاهيمه لا يزال في عقول الفئة الغالبة في الكنيسة من الأشياء المحرمة والتي لا ينبغي للكنيسة أن تتساهل فيها . والأمثلة على ذلك كثيرة جداً تملأ صفحات التاريخ الأوربي .

وعندئذ كثر الطلب على كتب المسلمين فبدأت من ثمة في القرن الثاني عشر حركة عظيمة جداً لترجمة العلوم الإسلامية إلى العربية ، وسارت معها أيضاً حركة ترجمة علوم اليونان التي كان العرب قد ترجموها في بداية حركتهم العلمية . ولقد ترجمت هذه الكتب اليونانية من العربية أيضاً إلى اللاتينية ، ذلك أن أوربا لم تحصل على الأصول اليونانية لهذه الكتب إلا في القرن الخامس عشر . وعاصر هذه الحركة نشوء الجامعات الأوربية الأولى في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا .

ينجبرنا الأستاذ لكثير^(١) في كتابه القيم تاريخ الطب العربي أنه أحصى

الكتب التي ترجمت من العربية إلى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فلم يجدها أقل من ثلاثمائة كتاب ، مع العلم أنه لم يحص كتب الكيمياء . ويقول : وهذه كمية هائلة من الوثائق الجديدة انتشرت في أنحاء أوروبا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فلأت بحق فراغاً كبيراً ، وحفزت على انتشار التعليم ، ولذلك لا ينبغي لنا أن ندهش من الحماسة العلمية التي صبغت القرن الثالث عشر بصيغتها ، فظهر فيه كثير من الرجال البارزين الذين تهاوتوا على الاستفادة من العلم العربي . ويستطرد الأستاذ لكبير فيقول : « إن علوم اليونان عموماً كانت ممثلة في هذه القائمة بمائة مؤلف فقط ، وعلوم العرب ممثلة بمئتين . وأمام هذه الحقائق نستطيع أن ندرك أية ثورة فكرية بعثتها في الغرب حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ، وأية فائدة جناها علماء أوروبا اللاتين منها ، فكانت هذه الترجمات أداة جوهرية للتقدم وانتشاراً للعلم العربي المنتعش بجانب الغرب » .

ويقول الأستاذ سيدويو^(١) : « وهكذا نرى أن التأثير الذي بثه العرب في الغرب قد عبر عن نفسه وابتدت مظاهره في جميع فروع الحضارة الحديثة ، ولقد رأينا أنه قد تكون من القرن التاسع حتى القرن الخامس عشر مجموعة من أكبر المعارف الأدبية والعلمية في التاريخ ، وظهرت مصنوعات ومنتجات متنوعة ، واختراعات ثمينة ، تشهد بالنشاط الذهني المدهش في هذا العصر . وجميع ذلك تأثرت به أوروبا بحيث يؤكد القول بأن العرب كانوا أساتذتها في جميع فروع المعرفة » .

وهنا ينبغي أن نشير إلى حقيقة هامة جداً ، هي أن كتب اليونان لم تُترجم في ذلك العصر ، للاستفادة بالمادة العلمية التي كانت تحتوى عليها ، فإن كتب العرب كانت قد تفوقت عليها بمراحل بعيدة جداً وجعلتها غير

L. Sédillot : Histoire Générale des Arabes vol. II P. 131 (١)

صالحة بالمرة ، وإنما لأن العرب مجدوا اليونان تمجيذاً عظيماً ، وكانوا دائماً الإشادة بهم ، فمن هنا طلبت كتبهم وترجمت . ولا تزال الحقيقة الماثلة تخبرنا بأن كتب العرب هي التي كانت الأساس الذي اتخذته أساتذة أوربا في هذا العصر للتعليم ، والنبع الذي استقوا منه في تأليف كتبهم ، وأن الكتب التي ألفها بعض الأساتذة الأوربيين في القرون الوسطى ورجعوا في تأليفها إلى المؤلفات اليونانية فقط سقطت سقوطاً فاحشاً ولم تتخذ أساساً للتعليم . ويستبين ذلك جلياً إذا نحن عقدنا مقارنة سريعة بين العلوم التي خلفها اليونان والعلوم التي خلفها العرب .

ترجم العرب أهم كتب اليونان في الرياضيات والفلك والطب والجغرافيا . وترجموا عن الهنود أهم كتبهم في الفلك والطب والرياضيات . وترجموا بعض المباحث الكيماوية المصرية . وهذا هو مجمل الميراث العلمي الذي ورثه العرب عن الدنيا القديمة . فإذا نظرنا في الميراث الذي خلفه العرب لأوربا ، والذي ترجم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، إذن لوجدنا أن العرب فضلاً عن تصحيحاتهم لما ورثوا عن اليونان والهنود ، قد أضافوا عدة علوم جديدة لم تكن معروفة لليونان أو الهنود ، كان لها أكبر الأثر في وضع حجر الأساس للحضارة الحديثة ، وهي الجبر ، وحساب المثلثات الكروى والمسطح ، والكيمياء في صورتها العلمية ، والبصريات ، والصيدلة ، وطب العيون ، وأسس الهندسة التحليلية ، والحساب الجديد . هذا ولا ينبغي أن ننسى الصناعات الهامة التي نشرها في ربوع إمبراطوريتهم وأدخلوها إلى أوربا ، مثل صناعة الورق ، وتكرير السكر ، والبارود . وكل هذا ولا شك يجعل من دنيا العرب الحضارية دنيا جديدة بكامل معنى الكلمة ، وهذا أمر جعل كثيرين من الكتاب الأوربيين يقررون بلا أدنى حرج أن حضارة الإسلام هذه كانت الأساس الحقيقي الذي ترتكز عليه الحضارة الحديثة .

وحقيقة أخرى لا ينبغي أن نهملها هي أن الأساتذة الأوربيين الذين

ظهروا في القرون الثاني عشر ، والثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، كانوا مجرد تلاميذ وناقلين عن حضارة الإسلام ، ولم يضيفوا إليها شيئاً ، واقتصر دورهم على تفهم هذه الحضارة وتدريسها وتعميمها ، مقاومين عقلية زملائهم الرجعيين من آباء الكنيسة . والحق أن أحداً من الأوروبيين لم يصف شيئاً يستحق الذكر في تاريخ العلم قبل ليوناردو دا فنشى في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . وإن في كلمات ليوناردو دا فنشى ذاته التي لام بها إخوانه الذين لا يتجهون إلى التجديد والاعتماد على النفس لأوضح مثال ، يقول : «إنهم (أى المستعربين) يحتقروننى أنا المكتشف المخترع ، في حين كم يستحقون هم أنفسهم من الذم والتقريع ، أولئك الذين لم يكتشفوا شيئاً قط ، وإنما عمدوا إلى إذاعة وتكرار أعمال الآخرين (أى علماء المسلمين) إن هؤلاء الذين يدرسون فقط أعمال القدماء ، ولا يتوجهون بجهودهم إلى درس أعمال الطبيعة ذاتها ، ليسوا الأبناء الأصلاء للطبيعة ، التي هى أم المؤلفين النابغين جميعاً » .

خلاصة القول أن الإسلام ظهر في أوائل القرن السابع الميلادى في عصر عرف في التاريخ بعصر الظلام ، وكان من نتائج ظهوره كما رأينا أن تغيرت المفاهيم التي كانت سائدة في عصر الظلام هذا تغيراً تاماً وشاملاً ، واستحدثت دولة الإسلام حضارة علمية مميزة الطابع أنقذت الحضارة من الضياع والاندثار ، ووضعت أصول علوم جديدة ، انتقلت إلى أوربا فبددت عنها تلك الظلمات التي خيمت عليها قرونًا طويلاً ، ووضعت بحق حجر الأساس في الحضارة الحديثة .

هذه إذن قصة الحضارة التي انتهقت عن هذا النبي الأسمى ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، ومعجزة الإنسانية ، محمد بن عبد الله .

مراجع الكتاب

- ابن كثير : السيرة النبوية .
ابن هشام : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم .
إنحوان الصنف : رسائل إنخوان الصنف .
أغناطيوس كراتش، كوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم .
البخاري : صحيح البخاري .
جلال مظهر : الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث .
جلال مظهر : أثر العرب في الحضارة الأوربية - نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة .
حبیب زیات الدمشقی : المرأة في الجاهلية .
عبد العزيز خير الدين : السيرة العطرة .
الفخر الرازي : مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير .
قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك .
محمد أحمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي .
محمد أحمد الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي .
محمد حسين هيكل : حياة محمد .
محمد الحضري : نور اليقين في سيرة سيد المرسلين .
محمد رشدي : مدنية العرب في الجاهلية والإسلام .
محمد عبده : الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .
عمودشكري الألوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب .

مسلم : صحيح مسلم .
مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية .
نورى حمودى القيسى : الفروسية فى الشعر الجاهلى .
النورى : نهاية الأرب فى فنون الأدب .

Arnold. Th. and A. Guillaume : The Legacy of Islam
Dampier W.C. : A History of Science and its relationship
to Philosophy
Durant W. : The Story of Civilization
Encyclopaedia Britannica
Hitti Ph. : History of the Arabs
Holmyard E.J. : Makers of Chemistry
Le Bon G. : la Civilisation des Arabes
Le Clerc : Histoire de la Médecine Arabe
Sarton G. : Ancient Science and Modern Civilization
Sarton G. : Introduction to the History of Science
Sédillot. L. : Histoire Générale des Arabes
Singer Ch. : A short History of Scientific Ideas
Singer Ch. : Greek Science and Modern Science
White A.D. : A History of the Warfare of Science with
theology in Christendom

فهرس محتويات الكتاب^(١)

صفحة

•	مقدمة	
١١	الفصل الأول - الجاهلية أو فترة ما قبل الإسلام	١١
	معنى الجاهلية ١١ - افتخار الرسول بعروبته ١٢ - تشويه	
	الكتاب القدماء والشعوبيين والمستعمرين لحقيقة الشعب العربي	
	قبل الإسلام (تمسكهم بالقشور دون اللب) ١٣ - ميل ميزان	
	الفكر الحديث لتصحيح الوضع ١٣ - المقومات الأخلاقية لعرب	
	الجاهلية ١٤ - أسباب النصر ١٥ - العرب الذين ظهر فيهم	
	الرسول أرقى أخلاقياً من الشعوب المحيطة بهم ١٧ - الإسلام	
	لم يهدم المجتمع الجاهلي هدماً تاماً ١٧ - رفض كثيرين من زعماء	
	الجاهلية للعادات القبيحة التي نهى عنها الإسلام ١٧ - الترقى في	
	جزيرة العرب قديم جداً ١٩ - وضع المرأة في المجتمع ١٩ -	
	المرأة العربية الجاهلية أرقى من جميع النساء المعاصرات لها فيما	
	عدا المصرية ٢٠ - المرأة العربية الجاهلية لم تكن في حضيض	
	الذل ٢٠ - شجاعته الأدبية واستقلالها في الرأي ٢١ -	
	استقبالها للضيوف وإكرامهم ٢١ - إيجارتهما للمستجير بها	
	واحترام الرجال لها ٢١ - اشتراكها في الأحلاف والمعاهدات	
	٢٢ - حياتها في الأدب ٢٢ - حرصها على الكفاءة في الزواج ٢٣ -	
	حظوة المرأة عند زوجها ٢٣ - اعتداد الأب برأى ابنته	
	واستشارتها ٢٤ - تكنى العرب بيناتهم ٢٤ - وصف ابن المقفع	
	للعرب ٢٤ - عظمة اللغة العربية ٢٥ - التنظيم السياسي ٢٥ -	

(١) نرجو ملاحظة أننا لم نشر في هذا الفهرس إلى جميع رؤوس الموضوعات التي جاءت

في هذا الكتاب ، إنما أشرنا إلى أهمها وأشهرها فحسب .

صفحة

المساواة بين الناس ٢٦ — تحاربهم ليس بدعة اتصفوا بها
 وحدهم بين الشعوب القديمة ٢٦ — النسب عندهم بمثابة القومية
 والوطنية ٢٧ — سوق عكاظ وأثرها في توحيد اللغة والأفكار ٢٧ —
 أثرها في السياسة ونشر الفكر ٢٨ — مكة تصبح قبلة العرب
 ٢٨ — البيت الحرام ٢٨ — العرب لم يكونوا مجرد وثنيين لا غير
 ٢٩ — اعترفهم بالله وإيمانهم به وبصفاته وقدرته ٢٩ —
 القرآن يذكّرهم بهذا ٢٩ — سبب اتخاذهم للأصنام ٣٠ —
 عبادات العرب الأخرى ٣١ — اليهودية والنصرانية ٣٢ —
 العرب لم يكونوا معزولين عن عالم الحضارة ٣٤ —
 التجارة الدولية القديمة بين أيديهم ٣٤ — نشوء مكة ومنزلة
 قريش ٣٤ — قصي بن كلاب أشهر المكيين ٣٥ — قصي يلى
 أمر الكعبة ويحلى خزاعة عن البيت ٣٦ — قصي يرأس قريش
 ويجمع شملهم ٣٦ — أبناء قصي وأخبارهم ٣٧ — شرف
 بنى عبد مناف ٣٧ — سيادة عبد المطاب وشرفه في قريش ٤٠ —
 عبد الله الذبيح الثاني ، زواجه ووفاته ٤٠ — مولد محمد
 عليه السلام ٤١ — إرضاعه من ثوية جارية عمه أبي لهب ٤١ —
 حليمة السعدية وحضانتها له ٤١ — عودته إلى أمه آمنة
 بنت وهب ٤١ — كفالة جده عبد المطلب له وإيثاره إياه ٤٢ —
 كفالة عمه أبي طالب له ٤٢ — خروجه مع عمه أبي طالب إلى الشام
 ٤٢ — مشاركته لأعمامه في الحياة العامة ٤٣ — اشتراكه في حرب
 الفجّار الرابعة ٤٣ — حضوره حلف الفضول ٤٤ — اشتهاره
 بالصدق والأمانة ٤٤ — بعده عن اللهو ٤٤ — خروجه بتجارة
 خديجه ومقابلته للربان ٤٤ — زواجه منها ٤٥ — رعاية خديجة
 له وحديثها عليه ٤٥ — قلة ما يعرف عنه في الفترة بين زواجه
 ومبعثه ٤٧ — اختلافه إلى الأسواق والمتنديات ٤٧ — التحنّف
 أو التحنّث في غار حراء ٤٧ — نزول الوحي ٤٨ — عودته

صفحة

• مضطرباً إلى خديجة ٤٨ — تصديقها له وتبشيرها إياه بالنبوة ٤٨

٤٩ الفصل الثاني — التبشير بالرسالة في مكة

ورقة بن نوفل يبشر محمداً بالنبوة ويجذره من قريش ٤٩ —
اعتقاد أهل مكة في الله وإشراكهم الأوثان في عبادته ٥٠ —
رفض النبي شفاعة الأصنام ٥٠ — علي بن أبي طالب أول من
آمن من الرجال ٥١ — أبو طالب يحمي النبي ٥١ — خروج
النبي مستخفياً للصلاة في شهاب مكة ٥١ — أبو بكر لم يتردد
في قبول الإسلام ٥٣ — النبي وأبو بكر يدعوان للدين الجديد
سرّاً ٥٣ — المسلمون الأولون ٥٣ — أولى محاولات التصدي
للسلام ٥٤ — سعد بن أبي وقاص أول من أراق دمماً في
سبيل الإسلام ٥٤ — جهر النبي بدعوته ٥٤ — رفض عشيرته
الأقربين للدعوة ٥٤ — متابعة الرسول للدعوة وسبه آلهة قريش
٥٥ — غضب قريش لسب الآلهة وبداية الصراع ٥٥ — سادة
قريش يطلبون من أبي طالب أن يكف ابن أخيه عنهم وعن
آلهم ٥٥ — تهديد قريش لأبي طالب ٥٦ — النبي يرفض التهديد
وأبو طالب يؤيده ٥٦ — عرض قريش على النبي أن يدعهم
وآلهم وأن يدعوهم وإلهه ٥٧ — رفض النبي لهذا الطلب وتحديه
لهم ٥٧ — بنو هاشم يحمون النبي ٥٨ — تحاشي الطرفين أعمال العنف
٥٩ — النبي لم يهدم دينهم من أساسه ٥٩ — تذكير القرآن لقريش
بأنهم يؤمنون بالله ٦٠ — حرية الفكر وحرية الدعوة للدين ٦٠ —
بداية قريش عصر اضطهاد للمسلمين ٦٠ — الاضطهاد لم
يرق إلى درجة إسالة الدماء ٦٠ — التعذيب الجسدي اقتصر على
العبيد ٦١ — لم يمت من التعذيب غير امرأة واحدة ٦١ — أقصى
ما تعرض له النبي والمسلمون ٦١ — إسلام حمزة بن عبد المطلب
٦٣ — الهجرة الأولى إلى الحبشة ٦٣ — أثر الهجرة في قلوب
القرشيين ٦٣ — عودة المهاجرين وقصة الغرانيق ٦٥ — الهجرة

صفحة

الثانية إلى الحبشة ٦٥ - إرسال قريش مندوبين للنجاشي
 ليرد المهاجرين ٦٦ - رفض النجاشي ٦٨ - إسلام عمر بن
 الخطاب ٦٩ - عتبة بن ربيعة يعرض على النبي عرضاً فيرفضها
 ٧٢ - صحيفة المقاطعة ٧٦ - انحياز بني هاشم وبني المطلب لأبي
 طالب في شعبه ٧٦ - ثبات الرسول وبني هاشم مسلمهم ومشرِكهم
 ضد قريش ٧٨ - إجابة بعض المشركين لنفر من المسلمين ٧٩ -
 نقض نفر من المشركين لصحيفة المقاطعة ٨٢ - عودة
 بني هاشم إلى الحياة العامة وتمزق الحصار الاقتصادي ٨٤ -
 وفاة خديجة ٨٤ - قريش عند أبي طالب وهو على فراش
 الموت ٨٤ - محاولتهم الأخيرة معه ليكف ابن أخيه عنهم وليأخذ
 لهم منه عهداً ٨٤ - رفض النبي لمقترحاتهم وإصراره على دعوته
 وعلى عدم الكف عن سب آلهم ٨٤ - موت أبي طالب ٨٥ -
 اشتداد المشركين على النبي بالأذى ٨٦ - خروج النبي إلى
 الطائف وحيداً ٨٨ - إيذاء أهل الطائف له ٨٨ - دعوة النبي
 لسادات القبائل ومناقشاته معهم ٨٩ - الإسراء والمعراج ٩٥ -
 ارتداد بعض المسلمين على أثره ٩٦ - تصديق أبي بكر للقصة
 ٩٦ - لقاء النبي ببعض أهل يثرب ٩٧ - وقعة بعاث مقدمة
 لتهاادن الأوس والخزرج ٩٨ - بيعة العقبة الأولى ١٠٠ -
 بيعة العقبة الثانية ١٠٣ - انتشار الإسلام في المدينة انتشاراً
 واسعاً ١٠٦ - أثر بيعة العقبة الثانية في موقف قريش ١٠٧ -
 يوم الرِّحمة وتأمير قريش على قتل النبي ١٠٨

الفصل الثالث - الهجرة ١١٠ ١١٠

المعنى التاريخي للهجرة ١١٠ - على في فراش النبي ١١٠ -
 النبي في دار أبي بكر ١١٠ - عائشة وأسماء تُستودعان السرَّ
 ١١١ - تجهيز أسماء زاداً للمهاجرين العظيمين ١١١ -

صفحة

دعاء النبي ربه عند ساعة الانطلاق ١١٢ — اختفاؤهما في غار بجبل ثور ١١٢ — مطاردة قريش لهما ١١٣ — خروجهما بعد ثلاث ليال من الغار ١١٤ — سراقه بن مالك يدركهما في الطريق ١١٥ — ارتداد سراقه وتضليله قريش ١١٦ — وصول المهاجر العظيم ١١٦ — بناء مسجد قُبَاء أول مسجد في الإسلام ١١٧ — أول خطبة للنبي في المدينة ١١٧ — نزوله بدار أبي أيوب ١١٩

الفصل الرابع — بداية الدولة الإسلامية ١٢١

صفات الرسول وخصاله وسجاياه ١٢١ — المثل الأعلى للناس ١٢٤ — إقامة شعائر الدين بحرية تامة لأول مرة ١٢٤ — بناء المسجد ومساكن الرسول ١٢٥ — الهجرة لإيدان ببداية صراع ساخن ١٢٦ — التنظيمات الاجتماعية الأولى ومشكلات الاستقرار الأول ١٢٦ — المؤاخاة بين المسلمين ١٢٧ — تنظيم علاقة المسلمين باليهود ١٢٨ — عقد حلف بين المهاجرين والأنصار واليهود واستقرار الحياة في المدينة ١٢٨ — اتخاذ الأذان للدعوة للناس للصلاة ١٣٢ — بداية حرب الفتنة والتشكيك ١٣٣

الفصل الخامس — القتال ومشروعيته ١٣٨

حرية الفكر في جزيرة العرب ١٣٨ — الإسلام لم يشذ عن القواعد التي حكمت حرية الفكر عند العرب ١٣٩ — الدعوة السلمية في مكة ١٣٩ — إصرار قريش على منع المسلمين من الكعبة ١٤١ — نزول آيات القتال ١٤١ — ضد قريش ١٤١ — ثم ضد المشركين ١٤٢ — ثم ضد أهل الكتاب ١٤٢ — القتال لم يشرع في الإسلام للعدوان ١٤٣ — الروح العامة للإسلام ١٤٤

الفصل السادس — بدء القتال ١٤٥

بدء المناوشات وسرايا الاستطلاع ١٤٥ — سرية حمزة بن عبد المطلب ١٤٦ — سرية عُبَيْدَةَ بن الحارث ١٤٦ — سرية سعد

ابن أبي وقاص ١٤٧ — غزوة ودّان وهي غزوة الأنواء ١٤٧ —
غزوة بُواط ١٤٧ — غزوة العُشيرة ١٤٧ — غزوة بدر
الأولى ١٤٨ — سرية عبد الله بن جحش ١٤٨ — أول قتيل بين
المسلمين وقريش في الشهر الحرام ١٤٩ — القرآن يبرر قتل
المشركين في الشهر الحرام ١٤٩ — تحويل القبلة من القدس إلى
مكة ١٥٠ — فرض الصيام ١٥٠ — الأمر بزكاة الفطر ١٥١

١٥٢ ... الفصل السابع — غزوة بدر العظمى ...

عودة القافلة التي اعترضها الرسول في غزوة العُشيرة ١٥٢ —
خروج الرسول لاعتراضها ١٥٢ — علم أبي سفيان بذلك ١٥٣ —
استنفاذه أهل مكة لحمايتها ١٥٣ — خروج قريش في تسعمائة
وخمسين مقاتلا ١٥٥ — خروج الرسول على رأس المسلمين ١٥٥ —
استشارته أصحابه ١٥٦ — نجاة أبي سفيان بتجارته ١٥٩ —
تحصن المسلمين ببدر ١٦٠ — عتبة بن ربيعة يريد العودة
فيفسد أبو جهل هذا الرأي ١٦١ — الاستعداد للمعركة ١٦٢ —
بداية الهجوم ١٦٣ — الرسول يخرض المسلمين ويبشرهم بنزول
الملائكة ١٦٤ — الآيات الكريمة في ذلك ١٦٥ — أثر هذا في
نفوس الطرفين ١٦٥ — نهى الرسول عن قتل أحد من بني هاشم
وبعض المشركين ١٦٧ — مقتل أبي البختري بن هشام ١٦٨ —
أسر أمية بن خلف وابنه ومقتلهما ١٦٨ — مقتل أبي جهل بن
هشام ١٦٩ — قسمة الغنائم ١٧٠ — دفن القتلى ١٧١ — تبشير المسلمين
في المدينة بالنصر ١٧٢ — قتل أسيرين ١٧٥ — العودة إلى المدينة
١٧٦ — فداء الأسرى ١٧٧ — محاولة قتل النبي ١٨٢ — النهي
عن أخذ الأسرى بعد ذلك ١٨٤ .

١٨٥ ... الفصل الثامن — تجمع العاصفة قبل أحد ...

آثار غزوة بدر ١٨٥ — قتل المسيئين للرسول والإسلام ١٨٦ —

صفحة

مقتل كعب بن الأشرف ١٨٧ — إهدار دماء اليهود ١٨٩ —
 تحذير النبي لبني قَيْنُقَاع ١٩٠ — إحصاء بني قَيْنُقَاع ١٩٢ —
 إغارة أبي سفيان على أطراف المدينة ١٩٣ — غزوة السَّوِيق ١٩٣ —
 غزوة ذي أمر ١٩٣ — غزوة بني سليم ١٩٤ — أول الغنائم
 الكبيرة ١٩٥ — زواج الرسول بخصمة ١٩٥

الفصل التاسع - غزوة أحد ١٩٦

متجه الأحداث ١٩٦ — تحريض قريش القبائل ضد محمد ١٩٧ —
 خروج قريش في ثلاثة آلاف مقاتل ١٩٧ — العباس يخبر
 الرسول بأمر قريش ١٩٨ — استشارة الرسول أصحابه ١٩٩ —
 خروج المسلمين ورجوع عبد الله بن أبي وجاعة ٢٠١ — دقة
 الموقف لقاء عدد المسلمين ٢٠٣ — النبي يعطى سيفه لأبي دُجَانَةَ
 ٢٠٤ — التقاء الجمع ٢٠٤ — أبو دُجَانَةَ وحمزة يقاتلان قتالا
 شديداً ٢٠٥ — مصرع حمزة بن عبد المطلب ٢٠٦ — قصة قُزَيمان
 ٢٠٦ — هزيمة قريش في البداية ٢٠٧ — مخالفة حماة الشعب لأمر
 النبي ٢٠٧ — خالد بن الوليد ينتهز الفرصة ٢٠٨ — هزيمة المسلمين
 ٢٠٨ — إشاعة مقتل النبي ٢٠٨ — البلبة التي حدثت في صفوف
 المسلمين ٢٠٨ — جماعة من المسلمين فيهم امرأة يدافعون عن
 النبي دفاعاً مجيداً ٢٠٩ — عمر يجلى خالداً عن الجبل ٢١١ — أبو سفيان
 يواعد النبي على اللقاء في بدر العام المقبل ٢١١ — حزن النبي على
 عمه حمزة ٢١٣ — دفن القتلى ٢١٣ .

الفصل العاشر — غزوة حراء الأسد ٢١٥

تأهيم المنافقين بالمسلمين بعد عودتهم من أحد ٢١٥ — أخبار
 عن عزم أبي سفيان على العودة ٢١٥ — قرار النبي بالخروج
 لملاقاته ٢١٦ — تحايل كل من الطرفين على إقناع الآخر بالارتداد
 ٢١٧ — العودة إلى المدينة بغير قتال ٢١٨ .

صفحة

٢١٩ ... الفصل الحادى عشر - من أحد إلى الخندق

آثار الهزيمة ٢١٩ - مقتل عاصم بن ثابت وأصحابه ٢٢٠ -
أبو سفيان يتأمر على قتل النبي ٢٢٢ - لإرسال النبي عمرو بن أمية
وسلمة بن أسلم لقتل أبي سفيان ٢٢٣ - إرسال القراء إلى أهل
نجسد ٢٢٣ - أهل نجد يقتلونهم جميعاً ٢٢٣ - تأمر بنى النضير
على النبي لقتله ٢٢٥ - النبي يأمرهم بالخروج من بلاده ٢٢٥ -
خروج بنى النضير ٢٢٧ - غزوة ذات الرقاع ٢٢٨ - غزوة
بدر الآخرة ٢٢٩ - رجوع أبي سفيان ٢٢٩ - غزوة دومة
الجندل ٢٣٠ - استعادة المسلمين لهيبتهم ٢٣٠ .

٢٣١ ... الفصل الثانى عشر - غزوة الخندق وهى غزوة الأحزاب

تدهور العلاقات بين المسلمين واليهود ٢٣١ - تأليب زعماء
اليهود العرب على المسلمين ٢٣٢ - تجمع أحزاب العرب لغزو
المدينة ٢٣٣ - حفر الخندق ٢٣٤ - الرسول يحفر بنفسه فى
الخندق ٢٣٥ - نبوءة تحققت ٢٣٥ - نجاح فكرة الخندق ٢٣٦ -
تأمر بنى قريظة على المسلمين ونقضهم العهد ٢٣٧ -
حرج موقف المسلمين ٢٣٨ - هبوب العاصفة ٢٤٣ - ارتداد
الأحزاب ٢٤٤ .

٢٤٥ ... الفصل الثالث عشر - غزوة بنى قريظة

الأمر بالتوجه إلى بنى قريظة ٢٤٥ - الحصار يدوم خمسة
وعشرين يوماً ٢٤٦ - تشاور اليهود فيما بينهم ٢٤٦ - نزولهم على
حكيم سعد بن معاذ ٢٤٨ - الحكم بقتل المقاتلة وسبى النساء
والأطفال وقسمة الأموال ٢٤٨ - شجاعة بنى قريظة فى مواجهة
الموت ٢٤٩ .

٢٥٢ ... الفصل الرابع عشر - زواج النبي بزینب بنت جحش

التي ولى الله عقد زواجها ... ٢٥٢ ...

زینب وكرامتها لزيد وطلاقهما ٢٥٢ - نزول الآية الكريمة

صفحة

بمنع النبي ٢٥٣ - دخول النبي بزيب بلا عقد ولا شهود من
البشر ٢٥٤ - نزول آية الحجاب صبيحة عرس زيب ٢٥٤ .

الفصل الخامس عشر - من غزوة بني قريظة إلى غزوة الحديبية ٢٥٦

الطابع الحربي للإسلام ٢٥٦ - هل الحرب طبيعة في الدين
الإسلامي ؟ ٢٥٦ - سياسة الردع وإلقاء السيف لإحلال السلام ٢٥٧ -
غزوة بني الحياض ٢٥٩ - غزوة الغابة ٢٦١ - مقتل سلام بن
أبي الحقيق ٢٦٢ - أسر أبي العاص بن الربيع زوج زيب بنت
محمد ٢٦٣ - غزوة بني المصطلق ٢٦٤ - أسر جويرية بنت
الحارث وزواجها بالرسول ٢٦٧ - تخلف عائشة وحديث الإفك
٢٦٨ - براءة عائشة تثبت بالقرآن ٢٧٣ - معاقبة المرتد ٢٧٣ -
قصة جماعة عكك وعثرينة ٢٧٤ .

الفصل السادس عشر - غزوة الحديبية ٢٧٥

نزول آية الحج ٢٧٦ - خروج المسلمين للحج ٢٧٧ - إصرار
قريش على منعهم من الكعبة ٢٧٨ - مفاوضات الصلح ٢٧٩ -
صلح الرضوان ٢٨٢ - عقد الصلح ٢٨٤ .

الفصل السابع عشر - دعوة الملوك والأمراء للإسلام ... ٢٩٠

كتاب الرسول إلى النجاشي ٢٩١ - كتابه إلى قيصر الروم ٢٩١ -
كتاب به إلى أمير بصرى ٢٩٣ - كتابه إلى أمير دمشق ٢٩٤ -
كتاب به إلى المقوقس ٢٩٤ - كتابه إلى كسرى ٢٩٥ - كتابه إلى
ملك البحرين ٢٩٥ - كتابه إلى ملكي عمان ٢٩٦ - كتابه إلى
ملك اليمامة ٢٩٧ .

الفصل الثامن عشر - غزوة خيبر ... ٢٩٨

حصون خيبر ٣٠٠ - الاستيلاء على الحصون واحداً بعد الآخر
٣٠١ - مقتل النبي أبي الحقيق ٣٠٥ - مصالحة اليهود على أن يتركوا
أراضيهم وأموالهم ٣٠٥ - خيانتهم وتحلل الرسول من عهده ٣٠٥ -

صفحة

- لإقرارهم على العمل في أراضيهم مزارعة بالنصف ٣٠٦ -
- قسمة الغنائم ٣٠٦ - النبي يعتق صفية بنت حبي ويتزوجها ٣٠٧ -
- قصة الشاة المسمومة ٣٠٨ - رجوع مهاجرى الحبشة ٣٠٨ .

الفصل التاسع عشر - عمرة القضاء ٣٠٩

- الخروج لعمرة القضاء ٣٠٩ - دخول المسلمين مكة وخروج
- قريش منها ٣١١ - بلال يؤذن في الكعبة ٣١٢ - الرسول يخطب
- ميمونة بنت الحارث ويتزوجها ٣١٢ - إقامة الرسول والمسلمين
- بمكة ثلاثة أيام ٣١٢ .

الفصل العشرون - إسلام خالد بن الوليد وصاحبيه عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة ٣١٤

- أثر عمرة الحديبية في النفوس ٣١٤ - خالد يعلن إسلامه في
- مكة ٣١٥ - خالد وأبو سفيان ٣١٦ - خروج خالد إلى المدينة
- ٣١٦ - عثمان بن طلحة يخرج معه ٣١٧ - مقابلتهما لعمرو بن
- العاص في بعض الطريق ٣١٧ - قدوم الثلاثة سوياً إلى المدينة ٣١٧ -
- إسلامهم بين يدي الرسول ٣١٧ .

الفصل الحادى والعشرون - سرية مؤتة وما أعقبها من سرايا ٣١٩

- سبب بعث هذه السرية ٣١٩ - جموع الروم وعرب الشمال
- تصدى للسرية بما لا قبل لها به ٣٢٠ - تشاور المسلمين للعودة
- ٣٢١ - عبد الله بن رواحة يشجعهم على لقاء العدو ٣٢١ -
- مقتل زيد بن حارثة ٣٢١ - مقتل جعفر بن أبي طالب ٣٢١ -
- تردد عبد الله بن رواحة ثم مقتله ٣٢٢ - خالد بن الوليد يناور
- مناورة ماهرة ٣٢٣ - انسحاب الجيش بأقل الخسائر ٣٢٣ -
- الرسول يثنى على براعة خالد ٣٢٤ .

صفحة

الفصل الثاني والعشرون — غزوة الفتح الأعظم — فتح مكة ٣٢٧

قريش تنتفض عهد الحديبية ٣٢٧ — أبو سفيان يحاول الاعتذار
وينشأ — ٣٢٩ — التجهز لغزو مكة ٣٣١ — خروج النبي في عشرة
آلاف مقاتل ٣٣٣ — المسلمون يوقدون عشرة آلاف نار بمر
الظهران ٣٣٤ — فزع قريش ٣٣٥ — العباس يتناوض مع أبي
سفيان ٣٣٥ — العباس يصحب أبا سفيان للنبي ٣٣٦ — خضوع
أبي سفيان وإسلامه وتسليمه مكة ٣٣٧ — دخول جيوش الإسلام
مكة من أربع جهاتها ٣٣٩ — دخول النبي الكعبة ٣٤٠ — الأمر
بتكسير الأصنام ومحو الصور ٣٤٠ — خطبة الرسول على باب
الكعبة ٣٤١ — عنوه عن أهل مكة ٣٤١ — بلال يؤذن في الكعبة
٣٤١ — مبايعة الناس للرسول ٣٤٢ — الذين أهدر الرسول دماءهم
٣٤٣ — بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ٣٤٦ .

الفصل الثالث والعشرون — غزوتنا حنين والطائف ٣٤٩

خروج هوازن وثقيف لحرب النبي ٣٤٩ — المسلمون يخرجون
للقائهم في جمع تعجبهم كثرت ٣٥٠ — انهزام المسلمين في بداية
المعركة ٣٥١ — ثبات الرسول وجماعة من أهل بيته والصحابة
٣٥٢ — تجمع المسلمين حوله بعد فرارهم ٣٥٣ — اشتداد القتال
وانتصار المسلمين ٣٥٤ — فرار زعماء هوازن وثقيف ٣٥٤ —
استيلاء المسلمين على آلاف من النعم والأسرى والسبايا ٣٥٤ —
مطاردة النبي لفلول المهزمين ٣٥٥ — حصار الطائف ٣٥٦ —
الرجوع عن الطائف إلى الجعرانة ٣٥٨ — إسلام وفد هوازن
ورد السبي ٣٥٨ — قسمة الأموال ٣٦٠ — غضب الأنصار
٣٦١ — استرضاء الرسول لهم ٣٦١ — حل المشكلات والعودة إلى
المدينة ٣٦٢ .

صفحة

٣٦٣ ... الفصل الرابع والعشرون - غزوة تبوك ...

نزول آية قتال أهل الكتاب ٣٦٣ - الاستعداد لغزو الروم
٣٦٤ - تفاني المسلمين في بذل النفقة للتجهز ٣٦٤ - المتخلفون
والمنافقون ٣٦٥ - السير بأكبر جيش إسلامي إلى الشام ٣٦٦ -
التوقف عند تبوك ومصالحته بعض الأمراء على الجزية ٣٦٨ -
بعث خالد إلى ملك دومة الجندل ٣٦٩ - استشارة الصحابة ٣٦٩ -
إشارتهم بالعودة وعدم التوغل في أرض الروم ٣٦٩ - هدم
مسجد الضمير في أثناء العودة ٣٧٠ .

٣٧٢ ... الفصل الخامس والعشرون - وفود العرب وإسلامهم ...

أثر فتح مكة في موقف العرب ٣٧٢ - وفد تميم يفاخر النبي
٣٧٤ - إسلام وفد تميم ٣٧٦ - وفد ثقيف ٣٧٦ - هدم اللات
ربة ثقيف ٣٧٩ - وفد نصارى نجران ٣٨٠ - وفد بني عامر
٣٨١ - وفد بني سعد بن بكر ٣٨٢ - وفد طي ٣٨٣ - وفد
كندة ٣٨٣ - وفد ملوك حمير ٣٨٤ .

٣٨٦ ... الفصل السادس والعشرون - أبو بكر أميراً على الحج ...

أبو بكر أميراً على الحج ٣٨٦ - بعث على للحاق بأبي بكر
لتلاوة صدر سورة التوبة ٣٨٦ - التلاوة على الناس يوم النحر
وتحريم مكة على المشركين ٣٨٧ .

٣٨٨ ... الفصل السابع والعشرون - حجة الوداع ...

انتشار الإسلام في كل ربوع الجزيرة ٣٨٨ - خروج مائة
ألف أو أكثر مع النبي للحج ٣٨٨ - وصول النبي إلى مكة ٣٨٩ -
بداية مناسك الحج ٣٨٩ - خطبة الوداع يوم التروية ٣٩٠ -
مغادرة عرفات واستكمال مناسك الحج ٣٩٢ - العودة إلى
المدينة ٣٩٣ .

صنفه

الفصل الثامن والعشرون - أهل البيت ، زوجات النبي وخطيباته

وسراريه وأولاده ٣٩٤

اختلاف كتاب السيرة في تحديد عدد زوجاته ٣٩٤ - زوجاته
 اللائي دخل بهن ٣٩٤ - زوجاته اللائي توفي عنهن ٣٩٦ - زوجاته
 اللائي تزوجهن ولم يدخل بهن ٣٩٦ - خطيباته اللائي لم يعقد عليهن
 ٣٩٧ - سراريه ٣٩٧ - قصة مارية ومأبور ٣٩٨ - مارية وحفصة
 ٣٩٨ - فتنه في بيت الرسول ٣٩٩ - الرسول يهجر زوجاته شهراً
 ثم يعفو عنهن ٣٩٩ - أولاد الرسول ٣٩٩ .

الفصل التاسع والعشرون - مرض النبي ووفاته ٤٠٢

العودة من حجة الوداع بعد إتمام الدين ٤٠٢ - التجهيز لبعث
أسامة لغزو الشام ٤٠٣ - بداية المرض ٤٠٤ - اشتداد المرض
في بيت ميمونة ٤٠٤ - استئذانه زوجاته في أن يمرض ببيت
عائشة ٤٠٤ - اشتداد المرض وعجزه عن الصلاة بالناس ٤٠٥ -
تكليف أبي بكر بالصلاة بالناس ٤٠٥ - انقطاع الرسول عن
الناس ثلاثة أيام ٤٠٦ - وصاياه وهو في النزاع الأخير ٤٠٦ -
سكرات الموت ٤٠٧ - وفاته على صدر عائشة يوم الاثنين
٤٠٧ - الدهشة التي أصابت الناس بوفاة ٤٠٧ - اختلاف
المسلمين على الخلافة ٤٠٩ - قصة سقيفة بني ساعدة ٤٠٩ -
عمر يبايع أبا بكر فيبايعه الناس ٤١٠ - بيعة العامة يوم الثلاثاء
١١٤ - أهل النبی بجهزونه ويدفونونه ٤١٢ .

الفصل الثلاثون - أثر الإسلام في الحضارة ٤١٤

حقائق تاريخية ٤١٤ - انتقال علوم الدنيا القديمة لليونان ٤١٥ -
اليونان يطبعون هذه العلوم باستهم ٤١٥ - بداية عصر الخطاط
علمي وفكري تحت النفوذ الروماني ٤١٧ - آثار انتشار المسيحية
٤١٩ - النظريات والأصول التي وضعها علماء اللاهوت المسيحي

صفحة

ونتايجها ، ومقابلاتها في الإسلام ونتائجها ٤٢١ - صراع اللاهوت
والعلم في المسيحية ٤٣٢ - تحريم العلوم الدينية في العالم المسيحي
٤٣٢ - اتجاه الإسلام إلى التعليم ٤٣٨ - بداية الجهود العلمية في
الإسلام ٤٣٩ - ترجمة علوم الأقدمين ٤٤٠ - تسامح المسلمين
إزاء العلم وتشجيعهم للعلماء ٤٤٢ - تفوق المسلمين العلمي ٤٤٢ -
انتقال علوم المسلمين إلى أوروبا ٤٤٦ - الرهبان الأوروبيون يتأثرون
بالمسلمين ٤٤٧ - قبول الكنيسة إدخال العلوم إلى مناهج المدارس
الأسقفية ٤٤٨ - حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ٤٤٨ -
علوم المسلمين أساس التقدم ٤٤٩ .

فهرس الأعلام

- | | |
|-------------------------------------|-------------------------------------|
| ابن عباس (عبد الله) : ١٦٦ | (أ) |
| ابن الغيطلة : ٨٧ - ٨٦ | آدم عليه السلام : ١٢ - ٩٦ - |
| ابن قمئة : ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١١ | ٢٤١ - ٣٨٠ - ٤٣٦ |
| ابن المقفع (عبد الله) : ٢٤ | آمنة بنت وهب : ٤٠ - ٤١ - ٤٢ |
| ابن الهيثم : ٤٤٥ | أبان بن سعيد بن العاص : ٢٨٢ |
| أبو أحويحة = سعيد بن العاص | إبراهيم عليه السلام : ١٢ - ١٧ - |
| أبو أسيد : ١٦٦ | ٢٨ - ٣٥ - ٤٧ - ٥١ - ٩٦ - |
| أبو أيوب (خالد بن زيد) : ١١٩ - | ١٢٦ - ١٣٨ - ١٧٧ - ٢٣٢ - |
| ١٢٠ - ١٣٦ - ٣٠٧ | ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٣٤٠ - ٣٨٠ |
| أبو البخترى بن هشام : ٧٧ - | إبراهيم بن محمد : ٢٩٥ - ٣٩٤ - |
| ٨٣ - ١٥٥ - ١٥٨ - ١٦٧ - ١٦٨ | ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨ - ٣٩٩ - |
| أبو براء = عامر بن مالك | ٤٠١ - ٤٢٢ |
| أبو بصير (عتبة بن أسيد الشقي) : ٢٨٧ | أبقراط : ٤١٧ |
| أبو بكر الصديق : ٧ - ١٤ - ٥٣ - | ابن أبي الحقيق = سلام بن أبي الحقيق |
| ٦١ - ٧٩ - ٨١ - ٨٢ - ٨٧ - | ابن أبي سلمى = كعب بن زهير |
| ٩١ - ٩٢ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - | ابن أبي شمر الغساني : ٣٥٨ |
| ١١٠ - ١١١ - ١١٢ - ١١٤ - | ابن أبي العوجاء السلمي : ٣١٩ |
| ١١٥ - ١١٦ - ١٢٥ - ١٢٧ - | ابن أبي قحافة = أبو بكر الصديق |
| ١٣٤ - ١٣٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - | ابن أزهري بن عبد عوف : ٧١ |
| ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٧٧ - | ابن أم مكتوم = عبد الله بن أم مكتوم |
| ١٧٨ - ١٨٤ - ٢٠٠ - ٢٠٨ - | ابن الحضرمي = عمرو بن الحضرمي |
| ٢١٠ - ٢٢٥ - ٢٦٤ - ٢٧٨ - | ابن الحنظلية = أبو جهل |
| ٢٨٠ - ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٧ - | ابن الدغنة : ٧٩ - ٨١ - ٨٢ |
| ٣٠٠ - ٣٠٩ - ٣٢٥ - ٣٢٩ - | ابن سلامة = ساكان بن سلامة بن وقش |
| ٣٣١ - ٣٤٠ - ٣٤٢ - ٣٥١ - | ابن سنيمة : ١٩٠ |
| ٣٥٢ - ٣٦٧ - ٣٧٠ - ٣٧٧ - | ابن سينا : ٤٤٤ |

أبو دهبل : ٢٣
 أبو ذر الغفاري : ٢٢٨ - ٢٦٤ -
 ٣٦٨ - ٣٦٧ - ٣١٠
 أبو رافع = سلام بن أبي الحقيق
 أبو رافع (مولى الرسول) :
 ٣٩٥ - ٣١٣
 أبو سبرة بن أبي رهم : ٦٥
 أبو سعد بن وهب : ٢٢٧
 أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب :
 ٣٥٣ - ٣٣٣
 أبو سفيان بن حرب : ٥٥ - ٧٣ -
 ٨٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٥٢ -
 ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٧٣ -
 ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨٧ -
 ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٦ - ١٩٧ -
 ١٩٨ - ٢٠٨ - ٢١١ - ٢١٢ -
 ٢١٥ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢٢١ -
 ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٨ - ٢٢٩ -
 ٢٣٣ - ٢٤٢ - ٢٤٤ - ٢٨٢ -
 ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٣١٦ - ٣٢٨ -
 ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣٥ - ٣٣٦ -
 ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٤٢ - ٣٥١ -
 ٣٥٧ - ٣٦٠ - ٣٧٨ - ٣٧٩ -
 أبو سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد :
 ٦٤ - ٨٠ - ١٤٧ - ٢١٩ - ٣٩٥
 أبو سنان الأسدي : ٢٨٢
 أبو صفوان = أمية بن خلف

٣٧٨ - ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٣٩٢ -
 ٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٨ - ٤٠٩ -
 ٤١٠ - ٤١١ - ٤١٢ - ٤٢٣ -
 أبو جندل بن سهيل بن عمرو :
 ٢٨٥ - ٢٨٧
 أبو جهل بن هشام : ٥٥ - ٥٧ -
 ٦١ - ٦٣ - ٧٠ - ٧٣ - ٧٧ -
 ٧٨ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ -
 ٨٧ - ٩٥ - ٩٦ - ١٠٩ -
 ١١٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ -
 ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦١ - ١٦٢ -
 ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ -
 ١٨٥ - ٣١٢
 أبو حذيفة بن عتبة : ٦٤ - ١٧١
 أبو الحقيق : ٣٠٥
 أبو الحكم بن هشام = أبو جهل
 أبو حكيم (زمعة بن الأسود بن
 المطالب) : ١٧٤
 أبو حنظلة = أبو سفيان
 أبو حيسر (أنس بن رافع) : ٩٨
 أبو الحنساء : ٢٤
 أبو خيثمة : ٢٠٢ - ٣٦٦ -
 ٣٦٧ - ٣٦٨
 أبو دجاجة (سماك بن خرشة) :
 ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢١٠ - ٢٢٧ -
 ٣٠٣ - ٣٨٩
 أبو ديمة = وحشي

أبو صيفى بن هاشم بن عبد مناف :
٣٩
أبو طالب بن عبد المطلب : ٤٠ -
٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٥١ -
٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ -
٥٩ - ٧٦ - ٨٠ - ٨١ - ٨٤ -
٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ١٦٤ -
أبو طلحة (زيد بن سهل) : ٢١٠ -
٣٣٤ - ٣٥٤ - ٤١٢ -
أبو العاص بن الربيع : ٤٧ - ١٢٠ -
١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ - ٢٦٣ -
٣٣٠ - ٤١٠ -
أبو عامر الأشعري : ٣٥٥ -
أبو عامر (عبد عمرو بن صيفى)
المسمى بالراهب : ١٩٧ - ٢٠٤ -
٢٠٩ - ٣٧٠ - ٣٧١ -
أبو عبد شمس = الوليد بن المغيرة
أبو عبيدة : ٢٠٩ -
أبو عبيدة بن الجراح : ٢١٩ - ٣٢٥ -
٣٣٩ - ٣٦٣ - ٣٨٠ - ٤١٢ -
أبو عتبة = أبو لهب :
أبو عزة (عمرو بن عبد الله) الشاعر :
١٨٢ - ١٩٧ - ٢١٤ - ٢١٨ -
أبو عريز (أخو مصعب بن عمير) :
١٧٤ -
أبو غنم : ١٨٦ -
أبو غنمارة = حمزة بن عبد المطلب
أبو عياش : ٢٦٠ -
أبو عيسى بن جبر : ١٨٨ -
أبو غبشان (حليل بن حبشية) : ٣٦ -

أبو الغيداق : ٢٠٦ -
أبو الفضل = العباس بن عبد المطلب
أبو القاسم الزهراوى : ٤٤٤ -
أبو قتادة : ٢٦٠ - ٢٦١ -
أبو قحافة : ١١٢ -
أبو قيس بن الأسلت : ٩٩ -
أبو كعب : ١٩٨ -
أبو لبابة (بشير بن عبد المنذر) :
١٥٥ - ١٥٦ - ١٧٣ - ١٩٣ -
٢٤٧ -
أبو لهب (عبد الازى بن عبد المطلب) :
٤٠ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٩ - ٧٦ -
٧٧ - ٨١ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٩ -
٩٠ - ١٥٣ - ٤١٠ -
أبو محمد (مسعود بن أوس) : ١٣٦ -
أبو مرثد الغنوى : ١٤٦ -
أبو موسى الأشعري : ٣٠٨ -
٣٥٥ - ٣٥٦ -
أبو مويهبة (مولى الرسول) : ٤٠٣ -
أبو نائلة = ساكان بن سلامة
أبو هالة التميمي : ٣٩٤ -
أبو هريرة : ٣٢١ -
أبو الهيثم بن التيهان : ١٠٤ -
أبو الوفا : ٤٤٣ -
أبو وهب = صفوان بن أمية
أبو الوليد = عتبة بن ربيعة
أبو يزيد = سهيل بن عمرو
أبو اليسر = كعب بن عمرو
أبو يوسف : ٢٧٢ -
أبي بن خلف : ٧٨ - ٢١٠ -

أحمد (الإمام) : ١٢
الأخفيس بن شريق بن عمرو : ١٥٩
إدريس (عليه السلام) : ٩٦
أربد بن قيس : ٣٨١ - ٣٨٢
أرسطو : ٤١٦
أروى بنت عبد المطالب : ٤٠
أسامة بن زيد : ١٧٣ - ٢٠١ -
٢٧١ - ٣٤٠ - ٣٥٢ - ٣٧٠
٤٠٣ - ٤٠٩ - ٤١٢
إسحق (عليه السلام) : ١٧ - ٣٨٠
أسد بن سعدة : ٢٣٧
أسد بن هاشم بن عبد مناف : ٣٩
أسعد بن زرار : ١٠٠ - ١٠١ -
١٠٢ - ١٠٥
أسلم (غلام بني الحجاج) : ١٥٧
أسماء بنت أبي بكر : ١١٠ - ١١١ -
١١٢ - ١١٣ - ١١٤
أسماء بنت عميس : ٣٢٤ - ٣٩٥
إسماعيل (عليه السلام) : ١٢ -
١٧ - ٢٨ - ٣٥ - ١٣٩ - ٣٤٠
الأسود بن رزن : ٣٢٨
الأسود بن عبد الأسد المخزومي : ١٦٣
الأسود بن المطالب : ١٧٣ - ١٩٤
أسيد بن حضير : ١٠٠ - ١٠١ -
١٠٢ - ١٠٥ - ١٧٦ - ٢٠٠ -
٢٠١ - ٢١٩ - ٢٢٢ - ٢٦٥ -
٢٦٦ - ٢٧١ - ٣٦٧
أسيد بن سعدة : ٢٣٧
أسيد بن ظهير : ٢٠١
أشجع : ٣٣١
الأشعث بن قيس : ٣٦٩ - ٣٨٣
الإصمعي بن عمرو النصراني : ٢٦٤
أصطفان : ٤٣٩
الأعشى : ٢٣
أفرايم كيرلس : ٤٣٤
أفلاطون : ٤٣٣
الأفوه الأودي : ٢٥
الأقرع بن حابس : ١٨ - ٣٥٩ -
٣٧٤ - ٣٧٦
إقليدس : ٤١٦
أكثم بن صيفي : ١٨ - ٢٣ - ٢٦
أكيل بن عبد الملك : ٣٦٩
أم أيمن : ٤٢ - ١٢٠
أم جندب : ٢٣
أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان)
أم المؤمنين : ٢٩١ - ٣٠٨ -
٣٢٩ - ٣٩٥
المختب : ٤١٧
أم حكيم بنت الحارث بن هشام
ابن المغيرة : ١٩٧
أم حكيم بنت الحويرث : ٣٤٣
أم حكيم بنت عبد المطالب : ٢٢ - ٤٠
أم رومان : ٩٤ - ١٣١
أم سلمة (هند بنت أبي أمية) أم
المؤمنين : ٢٧٧ - ٢٨٦ -
٣١٣ - ٣٣٣ - ٣٥٧ - ٣٩٥
أم سليم بنت ملحان : ٣٠٧ - ٣٥٤
أم صفوان (زوج أمية بن خلف) :
١٥٤
أم عبد الله = عائشة أم المؤمنين

أحمد (الإمام) : ١٢
الأخفيس بن شريق بن عمرو : ١٥٩
إدريس (عليه السلام) : ٩٦
أربد بن قيس : ٣٨١ - ٣٨٢
أرسطو : ٤١٦
أروى بنت عبد المطالب : ٤٠
أسامة بن زيد : ١٧٣ - ٢٠١ -
٢٧١ - ٣٤٠ - ٣٥٢ - ٣٧٠
٤٠٣ - ٤٠٩ - ٤١٢
إسحق (عليه السلام) : ١٧ - ٣٨٠
أسد بن سعدة : ٢٣٧
أسد بن هاشم بن عبد مناف : ٣٩
أسعد بن زرار : ١٠٠ - ١٠١ -
١٠٢ - ١٠٥
أسلم (غلام بني الحجاج) : ١٥٧
أسماء بنت أبي بكر : ١١٠ - ١١١ -
١١٢ - ١١٣ - ١١٤
أسماء بنت عميس : ٣٢٤ - ٣٩٥
إسماعيل (عليه السلام) : ١٢ -
١٧ - ٢٨ - ٣٥ - ١٣٩ - ٣٤٠
الأسود بن رزن : ٣٢٨
الأسود بن عبد الأسد المخزومي : ١٦٣
الأسود بن المطالب : ١٧٣ - ١٩٤
أسيد بن حضير : ١٠٠ - ١٠١ -
١٠٢ - ١٠٥ - ١٧٦ - ٢٠٠ -
٢٠١ - ٢١٩ - ٢٢٢ - ٢٦٥ -
٢٦٦ - ٢٧١ - ٣٦٧
أسيد بن سعدة : ٢٣٧
أسيد بن ظهير : ٢٠١
أشجع : ٣٣١

أم عبيد الله بن عامر : ٦٤
 أم عمارة (نسيبة بنت كعب) : ٢٠٩
 أم الفضل بن الحارث (زوج العباس) :
 ١٨٨ - ٣١٢
 أم كلثوم بنت علي : ٤٠١
 أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط :
 ٢٨٦
 أم كلثوم بنت محمد : ٤٧ -
 ١٢٠ - ١٩٥ - ٣٤٥ - ٤٠٠
 أم المساكين (زينب بنت خزيمة)
 أم المؤمنين : ٣٩٥
 أم مسطح بنت أبي رهم بن
 عبد المطالب : ٢٧٠
 أم هاني (فاخرة بنت عبد المطالب) :
 ٢١ - ٣٤٤ - ٣٩٧
 أمبروز (القديس) : ٤٢٧
 أمامة بنت أبي العاص بن الربيع : ٤٠٠
 امرؤ القيس : ٢٣
 أميمة بنت عبد المطالب : ٤٠ -
 ٢٥٢ - ٣٩٥
 أميمة (أمينة) الجونية : ٣٩٦
 أميمة (أميمة) الجونية : ٣٩٦
 أمية بن خلف : ٦١ - ٨٥ - ١٤٧ -
 ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٨ -
 ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧١ - ١٧٢
 أمية بن عبد شمس : ٣٨
 أمية بن المغيرة : ٤٦
 نلدرو ديكسون وايت : ٤٣٤
 نس بن فضالة : ١٩٨
 نس بن مالك : ٢٠٨ - ٣٠٧ - ٣٣٤
 أنس بن النضر : ٢٠٨
 أوتو الثالث : ٤٤٧
 أوس بن خولي : ٤١٢
 أوس بن قبيط : ٢٣٨
 أوغسطين (القديس) : ٤٢٧ -
 ٤٣٦ - ٤٣٧
 إلياس بن معاذ : ٩٨
 إراتوستينس : ٤٤٢
 أيمن بن أم أيمن : ٣٥٢
 أيوب (عليه السلام) : ٤٣٧
 (ب)
 باذان : ٢٩٥
 بازيل القيصري : ٤٣٤
 البتاني : ٤٤٣
 البخاري : ١٢ - ١٣١ - ١٥٣
 بختنصر : ٣٢
 بديل بن ورقاء : ٢٧٩ - ٢٨٠ -
 ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٣٥
 البراء بن عازب : ٢٠١
 البراء بن معمر : ١٠٤ - ٢٣٥
 برة بنت عبد المطالب : ٤٠
 برة بنت قصي : ٣٥
 بريرة : ٢٧١
 بسبس بن عمرو : ١٥٨
 بشر بن البراء بن معمر : ٣٠٨
 بشر بن سعد : ٣١٠
 بطلميوس (الغالبكي) : ٤١٦ -
 ٤١٨ - ٤٤٢

أم عبيد الله بن عامر : ٦٤
 أم عمارة (نسيبة بنت كعب) : ٢٠٩
 أم الفضل بن الحارث (زوج العباس) :
 ١٨٨ - ٣١٢
 أم كلثوم بنت علي : ٤٠١
 أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط :
 ٢٨٦
 أم كلثوم بنت محمد : ٤٧ -
 ١٢٠ - ١٩٥ - ٣٤٥ - ٤٠٠
 أم المساكين (زينب بنت خزيمة)
 أم المؤمنين : ٣٩٥
 أم مسطح بنت أبي رهم بن
 عبد المطالب : ٢٧٠
 أم هاني (فاخرة بنت عبد المطالب) :
 ٢١ - ٣٤٤ - ٣٩٧
 أمبروز (القديس) : ٤٢٧
 أمامة بنت أبي العاص بن الربيع : ٤٠٠
 امرؤ القيس : ٢٣
 أميمة بنت عبد المطالب : ٤٠ -
 ٢٥٢ - ٣٩٥
 أميمة (أمينة) الجونية : ٣٩٦
 أميمة (أميمة) الجونية : ٣٩٦
 أمية بن خلف : ٦١ - ٨٥ - ١٤٧ -
 ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٨ -
 ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧١ - ١٧٢
 أمية بن عبد شمس : ٣٨
 أمية بن المغيرة : ٤٦
 نلدرو ديكسون وايت : ٤٣٤
 نس بن فضالة : ١٩٨
 نس بن مالك : ٢٠٨ - ٣٠٧ - ٣٣٤

— ٤٧٣ —

(ج)

جابر بن حيان : ٤٤٤
 جابر بن عبد الله : ٢٠٢ — ٢١٦
 ٢٨٢ — ٣٣٤
 جالينوس : ٤١٨
 جبير بن مطعم : ١٠٦ — ١٩٨
 ٢٠٦
 جحدم الجذمي : ٣٤٧
 جحل بن عبد المطلب : ٤٠
 الجلد بن قيس : ٢٨٢ — ٣٦٥
 الجداء (ناقة الرسول) : ١١٤
 جريير : ٤٤٧
 جريجورى الأكبر : ٤٢٧
 جعفر بن أبى طالب : ٦٧ — ٦٨
 ١٢٧ — ٣٠٨ — ٣١٢ — ٣١٣
 ٣١٩ — ٣٢١ — ٣٢٢ — ٣٢٣
 ٣٢٤
 جميل بن معمر الجمحي : ٧١
 جهجهاه بن مسعود : ٢٦٥
 جورج سارتون : ٢٥ — ٤٤٠
 جوستينيان : ٤٣٣
 جوليان : ٤١٩
 جون وزلى : ٤٢٦
 جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار
 (أم المؤمنين) : ٢٦٤ — ٢٦٧
 ٣٩٥
 جيفر بن الجلمندى : ٢٩١ — ٢٩٦
 ٢٩٧

(ح)

الحارث بن أبى زينب : ٣٠٢

بنت خارجة (زوج أبى بكر) : ٤٠٧
 بلال (مؤذن الرسول) : ٦١ —
 ١٣٢ — ١٦٨ — ١٦٩ — ٢٤٥
 ٢٦١ — ٣١١ — ٣١٢ — ٣٤١
 ٣٤٢ — ٣٧٥ — ٤٠٥
 بوثيوس : ٤٣٣
 بولس (التديس) : ٤٢٣ — ٤٢٦
 ٤٣٢ — ٤٣٦ — ٤٣٧
 بونيفاس : ٤٣٧
 ببحرة بن فراس : ٩١
 بيسيل : ٤٤٢
 البيهقى : ١٦٦

(ت)

تخمر بنت قصي : ٣٥
 تشارلز سنجر : ٤١٦
 تماضر بنت الإصبع بن عمرو : ٢٦٤
 تيموثاوس : ٤٢٦

(ث)

ثابت بن أرقم : ٣٢١ — ٣٢٢
 ثابت بن قرة : ٤٤١ — ٤٤٣
 ثابت بن قيس بن شماس : ٢٤٩ —
 ٢٥٠ — ٢٦٧ — ٣٧٥
 ثعلبة بن سعة : ٢٣٧
 ثمامة بن أثال : ٢٥٨ — ٢٥٩
 ثوبية (مولاة أبى لهب) : ٤١ — ٣٩٧
 ثيودوسيوس : ٤١٩
 ثيوفيل الأنطاكي : ٤٣٢ — ٤٣٥
 ثيون (الناكي) : ٤٣٢

٢٩٥ — ٣٧٦ — ٣٩٧
 حسان بن عبد الملك : ٣٦٩
 الحسن بن علي بن أبي طالب :
 ٣٢٩ — ٤٠١
 الحسين بن علي بن أبي طالب : ٤٠١
 حفصير (رئيس الأوس) : ٩٩
 حفصة بنت عمر بن الخطاب (أم
 المؤمنين) : ١٩٥ — ٣٩٥ — ٣٩٨
 ٣٩٩ — ٤٠٤
 الحكم بن كيسان : ١٤٩ — ١٥٠
 حكيم بن حزام : ٥٢ — ١٥٨
 ١٦١ — ١٦٢ — ١٨٥ — ٣٦٠
 الحليس بن علقمة : ٢٧٩
 حليل بن حبشية : ٣٦
 حليمة بنت ذؤيب السعدية : ٤١
 حمزة بن عبد المطلب : ٤٠ — ٤١
 ٦٣ — ٦٩ — ٧٠ — ٧٢
 ٧٦ — ٨٥ — ١٢٧ — ١٤٦
 ١٤٧ — ١٦٣ — ١٦٤ — ١٦٨
 ١٧٧ — ١٩٨ — ٢٠٠ — ٢٠٥
 ٢٠٦ — ٢١٢ — ٢١٣ — ٢٤٧
 ٣٤٢
 حمزة بنت جحش : ٢٧١ — ٢٧٣
 حنظلة بن أبي سفيان : ١٧٨
 حزن بن إسحق : ٤٤١
 الحويرث بن ثقيف : ٣٤٥
 حويصة بن مسعود الأوسي : ١٩٠
 حويطب بن عبد العزى : ١٥٢ —
 ٣١٢
 حيان بن سادى : ٣٨١

الحارث بن أبي شمر : ٢٩١ —
 ٢٩٤
 الحارث بن أبي ضرار : ٢٦٤
 الحارث بن الأسود بن المطلب :
 ١٧٤
 الحارث بن أوس بن معاذ : ١٨٨
 الحارث بن حرب بن أمية : ١٠٦
 الحارث بن الصحة : ٢١١ — ٢٢٧
 الحارث بن عامر بن نوفل : ١٥٨
 الحارث بن عبد كلال : ٣٨٤
 الحارث بن عبد المطلب : ٤٠ — ٤١
 الحارث بن عمرو : ١٣٦ — ٣١٩
 الحارث بن عمر الأزدي : ٢٩٣
 الحارث بن عوف : ٢٣٣ — ٢٣٩
 الحارث بن هشام : ١٩٧ — ٣٤٢
 ٣٤٤
 حاطب بن أبي بلتعة : ٢٩٤ —
 ٣٣١ — ٣٣٢
 حاطب بن عمرو بن عبد شمس : ٦٥
 حام (بن نوح) : ١٩٧
 الحباب بن المنذر : ١٥٥ — ١٦٠
 ١٩٨ — ٢٠١ — ٣٠٣ — ٣٦٧ — ٤١٠
 حبي بنت حليل بن حبشية : ٣٥
 حبيب بن عمرو : ٨٨
 حبيبة بنت العباس بن عبد المطلب :
 ٣٩٧
 حبيش الأعشى : ٤٤١
 حذيفة : ٢٤٤
 حزام بن خويلد : ١٧٧
 حسان بن ثابت : ٢٧٣ — ٢٧٤

خنيس بن حذافة : ١٩٥ — ٣٩٥
خوات بن جبير : ٢٣٧
خولة بنت حكيم : ٩٤ — ٩٥

(د)

دامير : ٤١٨
دحية الكلبي : ٢٩١ — ٣٠٧
دختنوس بنت لقيط بن زرارعة : ٢٤
دريد بن الصمة : ٢١ — ٣٤٩ —
٣٥٠ — ٣٥٦ — ٤٣٧
دعشور بن الحارث : ١٩٣
الدلدل (بغلة النبي) : ٢٩٥
ديورانت (ول) : ٤٤٣ — ٤٤٤
ديوفانتيس : ٤١٦
ديوكليسيان : ٤١٩

(ذ)

ذات النطاقين = أسماء بنت أبي
بكر
ذكوان بن قيس : ٢٠١
ذو النورين = عثمان بن عفان .
ذويب بن كنانة : ٣٢٨

(ر)

الرازي : ٤٤٤
رافع بن خديج : ٢٠١
ربيعة بن أمية بن خلف : ٣٩٠ —
٣٩٢
ربيعة بن الحارث : ٣٨٣
ربيعة بن ربيع بن أهان السلمي :
٣٥٦

حية بنت هاشم بن عبد مناف : ٣٩
حي بن أخطب : ٢٢٦ — ٢٣٢ —
٢٣٦ — ٢٣٧ — ٢٤٩ — ٢٥٠ —
٣٠٥

(خ)

خارجة بن زيد : ١٢٧ — ٢٠٨
خالد بن أسيد : ٣١٢
خالد بن سعيد بن العاص : ٣٧٧
خالد بن الوليد : ١٤ — ٢٠٤ —
٢٠٨ — ٢١١ — ٢٧٨ —
٣١٤ — ٣١٥ — ٣١٦ — ٣١٨ —
٣٢٣ — ٣٢٤ — ٣٢٩ — ٣٤٠ —
٣٤٦ — ٣٤٧ — ٣٤٨ — ٣٥١ —
٣٥٤ — ٣٥٦ — ٣٥٧ — ٣٦٠ —
٣٦٩ — ٣٧٨
خالد بن يزيد بن معاوية : ٤٣٩ —
٤٤٠
خالدة بنت هاشم بن عبد مناف :
٣٩
خباب بن الأثرث : ٦٩ — ٧٠
خبيب بن عسي : ٢٢٠ — ٢٢١
خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين) :
٢٢ — ٤٤ — ٤٥ — ٤٦ — ٤٧ —
٤٨ — ٤٩ — ٥١ — ٥٢ —
٥٣ — ٧٧ — ٨٤ — ٨٦ —
٩٤ — ١٧٩ — ٣٩٤ — ٣٩٩
خراش بن أمية : ٢٨١
الخطاب : ٦٤ — ٣٣٦
خلاد بن سويد : ٢٥٠
الخنساء : ٢٣

زيد بن حارثة : ٥١ — ٥٢ —
 ٥٣ — ٥٨ — ١٢٠ — ١٢٧ —
 ١٤٨ — ١٧٢ — ١٧٣ — ١٨٠ —
 ١٨٧ — ١٩٥ — ٢٣٨ — ٢٥٢ —
 ٢٥٣ — ٢٦٣ — ٢٥٤ —
 ٣١٣ — ٣٢١ — ٣٢٣ — ٣٩٥ —
 ٤٠٠

زيد بن الخطاب : ٣٧٩
 زيد الخيل (زيد بن مهمل بن
 زيد) : ٣٨٣

زيد بن الدثنة : ٢٢٠ — ٢٢١ —
 زيد بن سهل (أبو طلحة) : ٤١٢
 زيد بن الصليت : ١٣٦
 زيد بن عمرو : ١٣٦
 زيد بن محمد = زيد بن حارثة ..
 زينب بنت جحش (أم المؤمنين) :
 ٢٥٢ — ٢٥٣ — ٢٥٤ — ٢٧١ —
 ٣٥٧ — ٣٩٥ — ٣٩٨ —
 زينب بنت الحارث اليهودية :
 ٣٠٨

زينب بنت خزيمة : ٣٩٥
 زينب بنت علي : ٤٠١
 زينب بنت محمد : ٤٧ — ١٢٠ —
 ١٧٩ — ١٨٠ — ١٨١ — ٢٦٣ —
 ٣٣٠ — ٤٠٠

زوى بن الحارث : ١٣٧

(س)

سارة (مولاة لبعض بني عبدالمطلب) :
 ٣٣١

رزاح بن ربيعة : ٣٦
 الرشيد : ٤٤٠
 رفاعة بن المعلى : ٢٠٨
 رقية بنت محمد : ٤٧ — ٦٤ —
 ١٢٠ — ١٩٥ — ٤٠٠
 رقية بنت هاشم بن عبدمناف : ٣٩
 ريحانة بنت عمرو بن خنافة اليهودية :
 ٢٥١ — ٣٩٦ — ٣٩٧
 ريطة بنت جادل الطعان : ٢١

(ز)

الزرقان بن بدر : ٣٧٤ — ٣٧٦ —
 الزبير بن باطا : ٢٤٩ — ٢٥٠ —
 الزبير بن عبدالمطلب : ٤٠ — ٤٣ —
 الزبير بن العوام : ٥٣ — ٦٤ —
 ١٥٥ — ١٥٧ — ٢٠٤ — ٢٠٥ —
 ٢٠٧ — ٢١٠ — ٢١٣ — ٢٤٧ —
 ٣٠٢ — ٣٠٥ — ٣١٣ — ٣٣٢ —
 ٣٣٩ — ٣٦٧ — ٤٠٩

زخاري (البابا) : ٤٣٧
 زرة ذو وزن بن مرة الرهاوى :
 ٣٨٤ — ٣٨٥

زمنة بن الأسود : ٨٣ — ٩٥ —
 ١٥٨ — ١٧٢ — ١٧٤

زهير بن أبي أمية : ٨٢ — ٨٣ —
 ٣٤٤

زهير بن أبي سلمى : ٢٩ — ١٠٨ —
 زهير بن ضرر أبو ضرر : ٣٥٨
 زيد = قصي بن كلاب ..

زيد بن أرقم : ٢٦٥
 زيد بن ثابت : ٢٠١ — ٢٢٨

سارتون = جورج سارتون :
 سالم بن عمر : ١٨٦
 السائب بن أبي حبيش : ١٦٦
 السائب بن عثمان بن مظعون : ١٤٧
 سباع بن عبد العزى : ٢٠٦
 سباع بن عرفة الغفارى : ٢٩٩ - ٣٦٧
 سبيعة بنت عبد شمس : ٢٨٠
 سراقه بن مالك : ١١٣ - ١١٥ - ١١٦
 سعد بن أبى : ١٩٨
 سعد بن أبى سرح : ٣٤٣
 سعد بن أبى وقاص : ١٤ - ٥٣ - ٥٤ - ٦١ - ١٤٦ - ١٤٧
 ١٤٨ - ١٥٠ - ١٥٧ - ٢١٠ - ٢١٩
 سعد بن الربيع : ١٢٧
 سعد بن زيد : ٢٠٢ - ٢٦٠ - ٣٤٦
 سعد بن عباد : ١٠٤ - ١٠٦ - ١١٩ - ١٤٧ - ٢١٠ - ٢٣٤
 ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٦٤
 ٢٧١ - ٣١٢ - ٣٣٩ - ٣٦١ - ٤٠٩
 سعد بن معاذ : ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٤٧ - ١٥٣ - ١٥٤
 ١٥٥ - ١٥٧ - ١٦٠ - ١٦٣ - ٢٠٠ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩
 ٢٤٨ - ٣٦٩
 سعد بن النعمان بن أكال : ١٧٩
 سعيد بن زيد : ٦٩ - ٢٥١

سعيد بن العاص (أبو أحيحة) : ٦٥
 سفوان : ١٤٨
 سفيان بن خالد بن نبيح : ٢٢٠
 سفيان بن عبد شمس : ٢٣٣
 السكران بن عمرو : ٣٩٥
 سلام بن أبى الحقيق : ٢٣٢ - ٢٦٢ - ٣٠٥ - ٣٠٧
 سلام بن مشكم : ٣٠٨
 سلكان بن سلامة بن وقش : ١٨٨ - ١٨٩
 سلمان الفارسي : ٢٣٣ - ٣٥٧
 سلمة بن أبى سلمة : ٣١٣
 سلمة بن أسلم : ٢٢٣ - ٢٣٨
 سلمة بن خويلد : ٢١٩
 سلمة بن سلامة بن وقش : ١٥٦
 سلمة بن عبد الأسد : ٧٩
 سلمة بن عمرو بن الأكوع : ٢٦٠ - ٢٦١
 سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة : ٦٤
 سلمى بن كنانة : ٣٢٨
 سلمى بنت عمرو بن زيد : ٣٩
 سلمى بنت عيسى : ٣١٣
 سليط بن عمرو : ٢٩٧
 سليط بن النعمان : ١٩٥
 السليك بن السلكة : ٢١ - ٢٢
 سليم بن عمرو : ٣٦
 سليم بن منصور : ٣٤٦
 سليمان (عليه السلام) : ٤٣٧
 سماك بن خرشة = أبو دجاجة :
 سمرة بن جندب : ٢٠١

شبية بن هاشم = عبد المطلب بن
هاشم .
الشيء بنت الحارث : ٣٦٢

(ص)

صالح (مولى الرسول) : ٤١٢
صفوان بن أبي الشجر : ٣٩٥
صفوان بن أمية : ١٨٢ - ١٨٣ -
١٨٤ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ -
٢٢١ - ٣١٢ - ٣١٦ - ٣٣٩ -
٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٥٠ - ٣٥١ -
٣٥٢ - ٣٦٠

صفوان بن المعطل : ٢٦٨ - ٢٦٩
صفية بنت بشامة الغنبري : ٣٩٧
صفية بنت حي بن أخطب (أم
المؤمنين) : ٣٠٥ - ٣٠٧ -
٣٠٨ - ٣٩٥

صفية بنت عبد المطلب : ٤٠ -
٢٠٥ - ٢١٣ - ٣٠٢ - ٤٠٦
صهيب : ١٢٦

(ض)

ضباعة بنت عامر : ٣٩٧
الضحاك بن خليفة : ٣٦٥
ضرار بن الخطاب : ٢٤٠
ضرار بن عبد المطلب : ٤٠
ضميفة بنت هاشم بن عبد مناف :
٣٩

ضمام بن ثعلبة : ٣٨٢
ضمضم بن عمرو الغفاري : ١٥٣

سهل بن حنيف : ٢٢٧
سهل بن عمرو النجاري : ١١٩
سهلة بنت سهيل : ٦٤
سهيل بن عمرو : ١٥٥ - ١٥٨ -
١٧٢ - ١٧٧ - ١٧٨ - ٢٨٣ -
٢٨٤ - ٣١٢ - ٣٣٩ - ٣٥٢ -
٣٩٥

سهيل بن عمرو النجاري : ١١٩
سهيل بن وهب بن ربيعة : ٦٥
سنان بن وبر الجهني : ٢٦٥
سواد بن غزية : ١٦٢
سواع (صنم) : ٣٤٦
سودة بنت زمعة (أم المؤمنين) :
٩٤ - ٩٥ - ١٢٠ - ١٧٧ -
٣٩٤

سويد بن الصامت : ٩٧ - ٩٨
سويام اليهودي : ٣٦٥
سويدو : ٤٤٩
سيرين : ٢٩٥ - ٢٩٧

(ش)

شاس بن قيس : ١٣٤
شجاع بن وهب : ٢٩٤
شرحبيل بن عمرو الغساني : ٢٩٣ -
٣١٩ - ٣٢١
الشفاء بنت هاشم بن عبد مناف : ٣٩
شقران (مولى الرسول) : ١٧٧
الشيء : ٣٩٦
شبية بن ربيعة : ٥٥ - ٨٥ -
٨٨ - ١٥٥ - ١٥٨ - ١٦٣ -
١٦٤ - ١٧١ - ١٧٢

عامر بن ربيعة بن الحارث : ٦٤ -

٣٩١

عامر بن صعصعة : ٩٠

عامر بن الطفيل : ٢٢٤ - ٣٨١ -

٣٨٢

عامر بن الظرب : ٢٤

عامر بن فهيرة : ١١٣ - ١٤٤

عامر بن مالك ملاعب الأسنة :

٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٣

العالية بنت ظبيان : ٣٩٦

عائشة (أم المؤمنين) : ٢٢ - ٤٦ -

٩٤ - ١١٠ - ١١١ - ١١٣ -

١٢٠ - ١٣١ - ٢٥٠ - ٢٥٤ -

٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٧١ - ٢٧٢ -

٢٧٣ - ٢٧٤ - ٣٠٦ - ٣٣١ -

٣٩٣ - ٣٩٤ - ٣٩٨ - ٣٩٩ -

٤٠٤ - ٤٠٦ - ٤٠٧

عباد بن بشر : ١٨٨ - ٢٦٥

عبادة بن الصامت : ١٠٠ - ١٠٥ -

١٩٢

العباس بن عبد المطلب : ٥١ -

٧١ - ١٠٤ - ١٥٥ - ١٦٧ -

١٧٤ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٩٨ -

٣١٢ - ٣٣٣ - ٣٣٥ - ٣٣٦ -

٣٣٧ - ٣٤١ - ٣٥٢ - ٣٥٣ -

٣٨٣ - ٣٩١ - ٤٠١ - ٤٠٥ -

٤١٢

العباس بن مرداس : ٣٥٩ - ٣٦٠ -

عبد بن الحنن : ٢٩١ - ٢٩٦ - ٢٩٧ -

عبد بن قصي : ٣٥

(ط)

طالب بن أبي طالب : ١٥٩

الظاهر بن محمد = عبد الله بن محمد

طرفة بن العبد : ٢١

طعيمة بن عدى : ١٥٨ - ١٩٨ -

٢٠٦

طلحة بن أبي طلحة العبدري : ٢٠٧

طلحة بن عبيد الله : ٥٣ - ٢٠٩ -

٢١٠ - ٢١١ - ٢٦٠ - ٣٦٥ -

٤٠٩

طليحة بن خويلد : ٢١٩ - ٢٣٣ -

٢٤٤

الطيب بن محمد = عبد الله بن

محمد .

(ع)

عاتكة بنت أبي العيص بن أمية :

١٨٧

عاتكة بنت عبد المطلب : ٢٢ - ٤٠ -

عاتكة بنت مرة بن هلال : ٢٢

العاص بن هشام بن المغيرة : ١٥٣

العاص بن وائل : ٥٥ - ٧٢ -

٧٣ - ٨٢ - ٣٢٤ - ٤٠٠ -

عاصم بن ثابت : ١٧٥ - ٢٢٠ -

٢٢٥ - ٢٥٩

عاصم بن عدى : ١٧٢ - ٣٧١ -

عامر بن جشم : ١٨

عامر بن الحضرمي : ١٥٣ - ١٦٢ -

١٨٥

١٤٩ -- ١٥٠ -- ٢١٣ -- ٢٥٢ --
 ٢٩١ -- ٣٩٥ --
 عبد الله بن جدهان : ٤٣ -- ٦٣ --
 ١٦٩
 عبد الله بن جعفر بن أبي طالب :
 ٣٢٤ -- ٤٠١ --
 عبد الله بن حمادة السهمي : ٢٩٥
 عبد الله بن شهاب : ٣٤٥
 عبد الله بن ربيعة : ٦٦ -- ٦٨ --
 عبد الله بن رواحة : ١٠٥ -- ١٦٣ --
 ١٧٢ -- ١٨٧ -- ٢٣٧ -- ٣١١ --
 ٣٢٠ -- ٣٢١ -- ٣٢٢ -- ٣٢٣ --
 عبد الله بن الزبير بن العوام : ٣٩٤
 عبد الله بن زهرة : ٤٠٥
 عبد الله بن زيد : ١٣٢ -- ٣٨٥
 عبد الله بن شهاب الزهري : ٢٠٩
 عبد الله بن طارق : ٢٢٠
 عبد الله بن عبد الله بن أبي : ٢٢٩ --
 ٢٦٦ -- ٢٦٧ --
 عبد الله بن عبد المطلب : ٤٠ -- ٤١ --
 عبد الله بن عثمان بن عفان : ٤٠٠
 عبد الله بن عمر : ٢٠١ -- ٣٠٦ --
 ٣٢٢ -- ٣٤٧ --
 عبد الله بن عمرو الأنصاري : ١٠٣ --
 ١٠٥ -- ٢٠٢ --
 عبد الله بن قيس : ٢٠٩
 عبد الله بن محمد : ٤٧ -- ٣٩٩
 عبد الله بن مسعود : ١٦٩ --
 ١٧٠ -- ٣٣٤ --
 عبد الله بن مغفل المزني : ٣٠٤

عبد الدار بن قصي : ٣٥ -- ٣٧ --
 عبد الرحمن بن أبي بكر : ٤٠٧
 عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : ٢٩٥
 عبد الرحمن بن عوف : ٥٣ --
 ٥٤ -- ٦٤ -- ١٢٧ -- ١٦٦ --
 ١٦٨ -- ١٦٩ -- ٢٦٤ --
 عبد شمس بن عبد مناف : ٣٨
 عبد العزيز بن عبد المطلب = أبو طالب
 عبد العزيز بن قصي : ٣٥
 عبد الكعبة بن عبد المطلب
 (المزوم) : ٤٠
 عبد الله بن أبي أمية : ٧٥ -- ٣٣٣ --
 عبد الله بن أبي بكر : ١١٣ --
 ١٢٠ -- ٣٥٧ --
 عبد الله بن أبي حنيفة الأسدي : ٣٥٠
 عبد الله بن أبي ربيعة : ١٩٦
 عبد الله بن أبي بن ساول : ٩٩ --
 ١١٩ -- ١٩١ -- ١٩٢ -- ١٩٩ --
 ٢٠١ -- ٢٠٢ -- ٢٠٨ -- ٢١٦ --
 ٢٢٦ -- ٢٤٧ -- ٢٤٨ -- ٢٦٥ --
 ٢٦٦ -- ٢٧١ -- ٣٦٧ --
 عبد الله بن أبي طلحة : ٣٥٤
 عبد الله بن أرقط : ١١١ -- ١١٤ --
 عبد الله بن أم كلثوم : ١٥٢ --
 ١٩٤ -- ٢٠١ -- ٢١٦ -- ٢٢٦ --
 ٢٣٤ -- ٢٤٥ -- ٢٥٩ -- ٢٦٠ --
 ٢٧٧ -- ٣٣٢ --
 عبد الله بن أنيس الجهمي : ٢٢٠
 عبد الله بن جبير : ٢٠٣ -- ٢٠٧ --
 عبد الله بن جحش بن رثاب : ١٤٨ --

- عثمان بن عبد الله بن المغيرة : ١٤٨
 عثمان بن عفان : ٥٣-٦٤-١٢٠-
 ١٢٥-١٩٣-١٩٥-٢٠٨-
 ٢٨٢-٢٨٣-٢٨٦-٣٤٣-
 ٣٦٤-٣٩٥-٤٠٠
 عثمان بن مظعون : ٦٤-٧٩-
 ٨٠-٩٤
 عدي بن أبي الزغباء : ١٥٨
 عرابية بن أوس بن قيطي : ٢٠١
 عروة بن مسعود : ٢٨٠-٢٨١-
 ٣٧٦-٣٧٧
 عروة بن الورد : ٢٩
 عريض أبو يسار : ١٥٧
 عزال بن شموأل : ٢٥٠
 عزال اليهودي : ٣٠٣
 عزول اليهودي : ٣٠٣
 العزى (صنم) : ٢٨-٦٥-
 ٣١٦-٣٤٦
 عصماء بنت مروان : ١٨٦-١٨٧-
 العضباء (ناقة الرسول) : ٣٨٧
 عطار بن حاجب بن زرار :
 ٣٧٤-٣٧٥
 عقبة بن أبي معيط : ٧٨-٨٧-
 ١٥٣-١٧٤-١٧٥
 عقبة بن نمر : ٣٨٥
 عقيل بن أبي طالب : ٥١-١٧٧
 عقيل بن الأسود بن المطالب : ١٧٤
 عقيل بن عبد المطالب : ١٧٨
 عكاشة بن محصن : ٢٦٢
 عكرمة بن أبي جهل : ١٤٦-
 عبد المطالب بن هاشم : ١٨-٣٩-
 ٤٠-٤١-٤٢-٥٥-٧٩-
 ٨٥-٨٦-٨٧-٢٢٢-
 ٢٥٤-٣٨٢
 عبد مناف بن قصي : ٢٢-٣٥-
 ٣٧-٩١-٢٤٠
 عبد مناف بن عبد المطالب =
 أبو طالب بن عبد المطالب .
 عبد ياليل : ٨٨-٣٧٧-
 ٣٥٧-٣٩٥
 عبيد الله بن جحش بن رثاب : ٣٩٥
 عبيدة بن الحارث : ١٤٦-١٦٤
 عتاب بن أسيد : ٣٥١
 عتبة بن أبي لهب : ٤٧-٤٠٠
 عتبة بن أبي وقاص : ٢٠٩
 عتبة بن أسيد الثقفي = أبو بصير
 عتبة بن ربيعة : ٥٥-٦٣-٧٢-
 ٧٣-٧٤-٨٥-٨٨-١٥٥-
 ١٥٨-١٦٢-١٦٤-١٧١-
 ١٧٢-١٨٥-١٩٨
 عتبة بن عمرو : ١٧٨
 عتبة بن غزوان : ١٤٦-١٤٨-١٥٠
 عتيبة بن أبي لهب : ٤٧-٤٠٠
 عتيق بن عائذ بن مخزوم : ٣٩٤
 عثمان بن أبي العاص : ٣٧٧-٣٧٨
 عثمان بن الحويرث : ٣٣
 عثمان بن طلحة بن أبي طلحة : ٢٣٣-
 ٣١٤-٣١٦-٣١٨-٣٤٠-
 ٣٤١
 عثمان بن عبد الله : ١٤٩-١٥٠

عمر بن الخطاب : ٧ — ١٤ —
 — ٦٩ — ٦٨ — ٦٤ — ٢١ —
 — ٧٦ — ٧٢ — ٧١ — ٧٠ —
 — ١٧٧ — ١٥٦ — ١٢٥ — ٨٥ —
 — ٢٠٤ — ٢٠٠ — ١٨٣ — ١٧٨ —
 — ٢٢٥ — ٢١١ — ٢١٠ — ٢٠٨ —
 — ٢٦٥ — ٢٦٤ — ٢٥٤ — ٢٤١ —
 — ٢٨٤ — ٢٨٣ — ٢٨٢ — ٢٦٦ —
 — ٣١١ — ٣١٠ — ٣٠١ — ٢٨٥ —
 — ٣٣٦ — ٣٢٩ — ٣٢٥ — ٣١٩ —
 — ٣٤٣ — ٣٤٢ — ٣٤٠ — ٣٣٩ —
 — ٣٦٠ — ٣٥٨ — ٣٥٢ — ٣٤٧ —
 — ٤٠٦ — ٤٠٥ — ٤٠١ — ٣٦٩ —
 — ٤١١ — ٤١٠ — ٤٠٩ — ٤٠٨ —
 ٤٢٣ — ٤١٢

عمر بن أبي سلمة : ٣١٣

عمرة الجمحية : ٢٣

عمرة بنت عامر بن الظرب : ٢٤

عمرة بنت علقمة الحارثية : ٢٠٧

عمرة بنت يزيد : ٣٩٦

عمرو = هاشم بن عبد مناف .

عمرو بن أبي سنيان : ١٧٨ — ١٧٩

عمرو بن أسد : ٤٥

عمرو بن أمية : ٢٢٣ — ٢٢٤

٢٢٥ — ٢٩١ — ٣٩٥

عمرو بن الأهم : ٣٧٤

عمرو بن الجموح : ١٠٦ — ١٠٧

١٩٦ — ١٩٧ — ٢٠٤ — ٢٠٨ —
 — ٣١٦ — ٣١٢ — ٢٤٢ — ٢٤٠ —
 — ٣٥٢ — ٣٤٤ — ٣٤٣ — ٣٣٩ —
 ٣٩٧

العلاء بن الحضرمي : ٢٩٥

علقمة الفحل : ٢٣

علي بن أبي طالب : ١٤ — ٢١ —

— ٩١ — ٥٤ — ٥٣ — ٥١ —

— ١٢٧ — ١٢٣ — ١١٧ — ١١٠ —

— ١٦٤ — ١٥٧ — ١٥٥ — ١٤٨ —

— ٢١٠ — ٢٠٩ — ١٩٥ — ١٧٥ —

— ٢٣٩ — ٢٢٦ — ٢٢٥ — ٢١٢ —

— ٢٤٧ — ٢٤٥ — ٢٤١ — ٢٤٠ —

— ٢٩٥ — ٢٨٤ — ٢٧١ — ٢٦٤ —

— ٣٣٠ — ٣٢٩ — ٣١٣ — ٣٠١ —

— ٣٤٧ — ٣٤٥ — ٣٤٤ — ٣٣١ —

— ٣٨٦ — ٣٦٧ — ٣٥٤ — ٣٥٢ —

— ٤٠٠ — ٣٩٨ — ٣٩٢ — ٣٨٧ —

٤١٢ — ٤٠٩ — ٤٠٤ — ٤٠١

علي بن أبي العاص بن الربيع : ٤٠٠

علي بن عيسى : ٤٤٤

علي بن أمية بن خلف : ١٦٨

عمار الموصل : ٤٤٤

عمارة بن حزم : ١٣٦

عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب :

٣١٣

عمارة بن الوليد بن المغيرة : ٥٧

عمينة بن حصن : ٢٣٣-٢٣٩ -
٢٥٩ - ٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠

(غ)

غالب بن عبد الله الليثي : ٣١٩
غورث بن الحارث : ١٩٣
الغيداق بن عبد المطلب (نوفل) : ٤٠

(ف)

فاطمة بنت الخطاب : ٢١ - ٦٩
فاطمة بنت محمد : ٤٧ - ٦١ -
١٢٠ - ١٧٥ - ١٩٥ - ٣١٣ -
٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٤٥ - ٣٩٠ -
٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٦ - ٤٠٧ -
٤٠٩

فاطمة بنت الوليد بن المغيرة : ١٩٧
الفاكهة بن المغيرة : ٣٤٧
الفخر الرازي : ٤٣٠
فرجيل السالزبرجي : ٤٣٧
فرات بن حيان : ١٩٤ - ١٩٥
الفرغاني : ٤٤٣
الفزاري : ٤٤٠
الفضل بن العباس : ٤١٢
فكهة بنت قتادة : ٢١ - ٢٢
الفلس (صنم) : ٣٧٤
فناص اليمودي : ١٣٤ - ١٣٥

(ق)

القاسم بن محمد : ٤٧ - ٣٩٩
قتيلة بنت الحارث : ١٧٥
قتيلة بنت قيس : ٣٩٦

عمرو بن الحضرمي : ١٤٨ -
١٤٩ - ١٥٣ - ١٦١ - ١٦٢ -

١٨٥

عمرو بن زيد : ٣٩
عمرو بن سالم : ٣٢٧ - ٣٢٨
عمرو بن سعد : ٢٣٧
عمرو بن العاص : ٦٦ - ٦٨ -
١٥٢ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٣١٤ -
٣١٧ - ٣١٨ - ٣٢٤ - ٣٢٥ -
٣٢٦ - ٣٤٦

عمرو بن عبد مناف = هاشم بن
عبد مناف

عمرو بن عبد ود : ١٥٨ - ٢٣٩ -
٢٤٠ - ٢٤١

عمرو بن عثمان بن عفان : ٤٠٠
عمرو بن قيس : ١٣٦
عمرو بن لحي : ٣٠
عمير بن الحمام : ١٦٧
عمير بن عوف : ١٨٧
عمير بن وهب الجمحي : ١٦١ -
١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ٣٤٤

عوذ بن عفراء : ١٧٧
عوف (مسطح) بن أثانة : ٢٧٠
عوف بن الحارث : ١٦٣
عون بن جعفر : ٤٠١

عيسى بن مريم (عليه السلام) : ١٧ -
٦٨ - ٩٦ - ١٣٣ - ١٧٧ -

٢٩١ - ٢٩٤ - ٣٨٠

عمينة بن بدر : ٣٧٣ - ٣٧٤

١٨٧ — ١٨٨ — ١٨٩ — ٢٦٢
 كعب بن زهير : ٣٤٣ — ٣٤٤ — ٣٤٥
 كعب بن زيد : ٢٢٤
 كعب بن عمرو الغفاري : ٣٠٤ —
 ٣١٩
 كعب بن مالك : ٢٠٥ — ٢١٠ — ٣٦٦
 كلاب بن ربيعة : ٣٥
 كلثوم بن كنانة : ٣٢٨
 كليب : ٣٣
 كليمنت السكندري : ٤٣٥
 كنانة بن أبي الحقيق : ٢٩٦
 كنانة بن الربيع : ١٨٠
 كيرلس : ٤٣٢

(ل)

اللات (صنم) : ٢٨ — ٦٥ —
 ٣١٦ — ٣٧٧ — ٣٧٨ — ٣٧٩
 لبيد بن ربيعة : ٨٠
 لكبير : ٤٤٨ — ٤٤٩
 لقمان الحكيم : ٩٧
 لقيط بن زرارعة : ٢٤
 لكثانثيوس : ٤٣٤ — ٤٣٦
 ليري : ٨
 ليلى بنت أبي نخثمة : ٦٥
 ليلى بنت الحطيم : ٣٩٧
 ليوناردو دا فنشي : ٤٥١

(م)

مأبور : ٢٩٥ — ٣٩٧ — ٣٩٨
 ماجلان : ٤٣٧
 مارية القبطية : ٢٩٥ — — ٣٩٦

قثم بن انعباس : ٤١٢
 قلدي حافظ طوقان : ٤٤٣
 قزماس (الراهب المصري) :
 ٤٢٩ — ٤٣٠
 قزمان : ٢٠٦
 قس بن ساعدة : ١٨ — ٢٨ —
 ٣٤ — ٦٠ — ١٣٨
 قسطنطين الأكبر : ٤١٩
 القصواء (ناقة الرسول) : ١١٤ —
 ٢٧٨ — ٣٨٨ — ٣٨٩ — ٣٩٠ —
 ٣٩٢

قصي بن كلاب : ٣٥ — ٣٦ —
 ٣٧ — ٧٤ — ١٠٨
 قيس بن سملة بن عبادة : ٣٣٩
 قيس بن عاصم : ١٨ — ٣٧٤
 قيس بن عمرو : ١٣٦
 قيصر (ملك الروم) : ٢٣٠ —
 ٢٣٨ — ٢٩١ — ٢٩٢ — ٢٩٤ — ٣٧٠

(ك)

كارا دي فو : ٨ — ٤٤٣
 كانكا الهندى : ٤٤٠
 كبلر : ٤٤٥
 كراتشكوفسكى : ٤٤٢
 كرز بن جابر الفهرى : ١٤٨ — ٢٧٤
 كسرى (ملك الفرس) : ٩٣ —
 ٢٣٨ — ٢٨١ — ٢٩٠ — ٢٩٢ — ٢٩٥
 كعب بن أسد : ٢٣٦ — ٢٣٧ —
 ٢٤٦ — ٢٤٩ — ٢٥٠
 كعب بن الأشرف : ١٧٦ —

مرارة بن ربيع : ٣٦٦ .
 مربع بن قيطي : ٢٠٢
 مرثد بن أبي مرثد الغنوي : ٢٢٠
 مرحب اليهودي : ٣٠٢ - ٣٠٨
 مريم العذراء : ٦٨ - ٢٩١
 مسطح بن أثاثة : ١٤٦ - ٢٧٠ -
 ٢٧١ - ٢٧٣
 مسعر بن ربيعة : ٢٢٣
 مسعود بن عمرو : ٨٨
 مسلم (صاحب الصحيح) : ١٢
 المسيح (عليه السلام) : ٤٢١ -
 ٤٣٦ (انظر عيسى بن مريم)
 مسيلمة بن حبيب (الكذاب) :
 ٢٥٩ - ٣٧٩
 مصطفى نظيف : ٤٤٥
 مصعب بن عمير : ٦٤ - ١٠٠ -
 ١٠١ - ١٠٢ - ١٥٥ - ١٧٤
 ١٧٥ - ٢٠١ - ٢٠٨ - ٢٠٩
 المطعم بن عدي : ٥٧ - ٨٢ -
 ٨٣ - ٨٤ - ٩٤ - ٩٥
 المطلب بن أبي وداعة بن ضبيعة
 السهمي : ١٧٨ - ١٨٧
 المطلب بن عبد مناف : ٣٨ -
 ٣٩ - ٤٠
 معاذ بن جبل : ١٠٦ - ١٢٧ -
 ٣٦٧ - ٣٨٥
 معاذ بن الحارث : ١٦٣
 معاذ بن عفراء : ١٧٧
 معاذ بن عمرو بن الجموح : ١٠٦
 معاذ بن ماحص : ٢٦٠

٣٩٧ - ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٠١
 مازينوس : ٤٣٩
 مالك بن الدخشم : ٣٧١
 مالك بن عباد : ٣٢٨
 مالك بن عباد : ٣٨٥
 مالك بن عوف : ٣٤٨ - ٣٤٩ -
 ٣٥٠ - ٣٥١ - ٣٥٤ - ٣٥٥ -
 ٣٥٦ - ٣٦٠ - ٣٧٦
 مالك بن مرة الرهاوي : ٣٨٥
 المأمون : ٤٤٠ - ٤٤١ - ٤٤٢
 مانكا الهندي : ٤٤٠
 المتلمس : ٢٤
 المنفى بن حارثة : ٩٣
 مجدي بن عمرو الجهني : ١٤٦ -
 ١٥٨
 المجذو بن زياد الباهلي : ١٦٧ -
 ١٦٨
 محسن بن علي : ٤٠٠
 محمد بن جعفر : ٤٠١
 محمد بن زيد : ٤٠١
 محمد بن مسلمة : ١٨٨ - ٢٠١ -
 ٢٢٥ - ٢٢٧ - ٢٥٨ - ٢٦٣ -
 ٣٠٠ - ٣٠٢ - ٣١٠ - ٣٦٧
 محمود بن مسلمة : ٣٠٠ - ٣٠٢
 محيصة بن مسعود الأوسي : ١٩٠
 مخزومة بن نوفل : ١٥٩ . ١٥٢
 مخشي بن عمرو الضمري : ٣٤٧
 مدليج بن مرة : ٣٤٦
 مذكور : ٢٣٠

ميسرة (غلام خديجة) : ٤٤
 ميشيل (إمبراطور بزنطة) : ٤٤١
 ميمونة بنت الحارث (أم المؤمنين) :
 ٣١٢ - ٣٩٥ - ٤٠٤

(ن)

الناطقة الذبياني : ١٠٨
 نبيه بن الحجاج : ١٥٥ - ١٥٨ -
 ١٧٢
 نجاد البكري : ٣٦٧
 النجاشي الأكبر : ٣٨ - ٦٦ - ٦٧ -
 ٦٨ - ٧٦ - ٢٨١ - ٢٩٠ -
 ٢٩١ - ٣٠٨ - ٣١٥ - ٣٩٥
 نسيبة بنت كعب : ٢٠٩
 نسطاس (مولى صفوان بن أمية) :
 ٢٢١
 النضر بن الحارث : ١٥٨ - ١٧٤ -
 ١٧٥ - ١٧٦

النضر بن كنانة : ٣٨٤
 فضلة بن هاشم بن عبد مناف : ٣٩
 النعمان (ملك رعين ومعافر
 وهمدان) : ٣٨٤
 النعمان بن شريك : ٩٣
 النعمان بن المنذر : ٣٥٨
 نعيم بن عبد الله : ٦٩
 نعيم بن عبد كلال : ٣٨٤
 نعيم بن مالك بن ثعلبة : ٢٠٠
 نعيم بن مسعود الأشجعي : ١٩٥ -
 ٢٢٩ - ٢٤١ - ٢٤٣
 نفيسة بنت منية : ٤٥

معاوية بن أبي سفيان : ٢٢١ -
 ٣٦٠
 معبد بن معبد الخزاعي : ٢١٦ -
 ٢١٧
 معتب بن قشير : ٢٣٨
 معن بن عدى : ٣٧١
 معوذ بن عفراء : ١٧٧
 المغيرة بن شعبة : ٢٨٠ - ٢٨١ -
 ٣٧٧ - ٣٧٨ - ٣٧٩
 المغيرة بن عبد المطلب : ٤٠
 مفروق بن عمرو : ٩١ - ٩٢
 المقداد بن الأسود : ١٤٦ - ١٤٧ -
 ١٥٥ - ١٥٦ - ١٧٥ - ٢٦٠
 المقوقس : ٢٩١ - ٢٩٤ - ٣٩٧
 المقوم بن عبد المطلب : ٤٠
 مقيس بن صبابه : ٣٤٥
 مكرز بن حفص : ١٤٦ - ١٧٨ -
 ٣١٠
 ملهود : ٤١٦
 مناة (صنم) : ٢٨ - ٦٥ - ٣٤٦
 منبه بن الحجاج : ١٥٥ - ١٥٨ - ١٧٢
 المنذر بن ساوى : ٢٩١ - ٢٩٥ -
 ٢٩٦
 المنذر بن عمرو : ١٠٦ - ٢٢٣ - ٢٢٤
 المنصور (الخليفة العباسي) : ٤٤٠
 موسى بن عمران (عليه السلام) :
 ١٧ - ٤٩ - ٩٦ - ١٣٣ - ١٥٦ -
 ١٧٧ - ٢٣٢ - ٣٦٧ - ٤٠٨ - ٤٣١
 موسى بن محمد بن إبراهيم : ١٦٦
 مؤنس بن فضالة : ١٩٨

هودة بن قيس : ٢٣٢
 هيباشيا : ٤٣٢
 (و)
 واقد بن عبد الله التميمي : ١٤٩
 الواقدى : ١٦٦
 وحشى الحبشى (مولى جبير بن
 مطغم) : ١٩٨ - ٢٠٥ - ٢٠٦
 ورقة بن نوفل : ٣٣ - ٤٩ - ٦٠
 الوليد بن أبي معيط : ٣٧٣
 الوليد بن عتبة بن ربيعة : ١٦٣ - ١٦٤
 الوليد بن عقبة : ٢٠٨
 الوليد بن المغيرة : ١٨ - ٦٢ -
 ٦٥ - ٧٣ - ٧٩ - ٨٠ - ٨٢
 الوليد بن المغيرة : ٣١٧
 وهب بن عمير الجمحي : ١٨٢
 (ى)
 ياسر (أخو مرحب اليهودي) : ٣٠٢
 يامين بن عمرو : ٢٢٧
 يحيى (عليه السلام) : ٩٦
 يزيد بن أبي سفيان : ٣٦٠
 يسير بن رزام اليهودي : ٣٠٩
 اليغفور (حمار النبي) : ٢٩٥
 يعقوب (عليه السلام) : ١٧ - ٣٨٠
 يعقوب بن طارق : ٤٤٠
 يعمر بن عوف بن كعب : ٣٦
 يوحنا بن رؤبة : ٣٦٨
 يوحنا كريستوم : ٤٣٤
 يوحنا بن ماسويه : ٤٤١
 يوديموس : ٤١٦
 يوسابيوس القيصري : ٤٣٤

نخيلة بن عبد الله الليثي : ٢٤٥ -
 ٢٦٤ - ٢٧٧ - ٢٩٩
 نوح : ١٧٧
 نوفل بن خويلد : ١٥٨
 نوفل بن عبد الله : ١٤٩
 نوفل بن عبد المطلب (الغيداق) :
 ٤٠ - ١٧٨
 نوفل بن عبد مناف : ٣٨
 نوفل بن معاوية الديلي : ٣٢٨ - ٣٥٨
 نيكلسون : ٩
 (ه)
 هارون (عليه السلام) : ٣٦٧
 هاشم بن عبد مناف : ٣٨ - ٣٩
 هالة بنت خويلد : ١٧٩
 هاني بن قبيصة : ٩٢ - ٩٣
 هبار بن الأسود : ١٨٠
 هبل (صنم) : ٢١١ - ٣٤٠
 هبيرة بن أبي وهب : ٢٤٠
 هرقل (ملك الروم) : ٢٩٠ -
 ٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٤ - ٣٢٠
 هشام بن صبابه : ٢٦٤
 هشام بن عمرو بن الحارث : ٧٧ -
 ٨٢ - ٨٣
 هلال بن أمية : ٣٦٦
 همبولد : ٨
 هند بن أبي هالة : ٣٩٤
 هند بنت عتبة : ١٧٣ - ١٩٧ -
 ١٩٨ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢١٢ -
 ٣٣٠ - ٣٣٨ - ٣٤٢
 هودة بن علي : ٢٩١ - ٢٩٧

فهرس الشعوب والقبائل والفرق والطوائف

٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٧ -	(أ)
٤٠٤ - ٤٠٦ - ٤٠٩ - ٤١٠ -	الآشوريون : ٣٤
أهل أذرح : ٣٦٩	آل أبي بكر : ١١٣ - ٢٧٢
أهل أيلة : ٣٦٨	آل جعفر بن أبي طالب : ٣٢٤
أهل البحر : ٣٦٨	آل عبد مناف : ٣٨
أهل البحرين : ٢٩٦	آل عفراء : ١٧٧
أهل بدر : ٣٣٢	آل محمد : ١٠٣
أهل البيت : ٢٩٤ - ٣٩٨	آباء الكنيسة : ٤٢٠ - ٤٢٥ -
أهل تهامة : ٢٧٨	٤٢٧ - ٤٢٨ - ٤٣٢ - ٤٣٤ -
أهل ثقيف : ٣٥٨	٤٣٥ - ٤٣٨ - ٤٤١ - ٤٤٨ -
أهل جرباء : ٣٦٩	٤٥١
أهل الحرم : ٢٧	الأحباش = بنو المصطلق .
أهل خيبر : ٢٩٩	أخبار اليهود : ٤٣ - ٤٧ -
أهل رومية : ٤٢٣ - ٤٣٦	١٣٨ - ١٣٤
أهل الشام : ٤٠ - ٣٦٨	الأحباش : ٣٣
أهل الشق : ٢٠٣	إرم : ٩٩
أهل الصفة : ١٢٥	الأشعريون : ٣٠٨
أهل الطائف : ٣٥٨	أصحاب الرجيع : ٢٣٨ - ٢٥٩
أهل قریش : ٥٣	الإمبراطورية الرومانية : ٤١٤ -
أهل الكتاب : ١٤٢ - ١٤٤ -	٤١٩ - ٤٣٢
٢٤٩ - ٢٢٦ - ٢٩٢ - ٢٩٤ -	إمبراطورية الفرس : ٥٤ - ٤١٤
٣٦٣	الأعاجم = العجم .
أهل كورنثوس : ٤٢٦	الأمم المتحدة : ٢٥٨
أهل المدينة : ١١٦ - ١٧٩ - ٤١٢	الأنصار : ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٨
أهل مكة : ٣٧ - ٥٠ - ٥٣ -	١٦٣ - ١٧٤ - ١٨٣ - ١٨٤ -
٥٥ - ٦٠ - ١١٩ - ٢١٦ -	١٩٣ - ٢٢٧ - ٢٦٥ - ٢٧٢ -
٣٦٤ - ٣٧٠ - ٤١٢	٣٣٧ - ٣٤١ - ٣٤٥ - ٣٥٣ -

بنو بلي : ٣٢٤
 بنو تميم : ٢٢٩-٢٣٠-٣٥٩ -
 ٣٧٣-٣٧٩
 بنو تيم : ٤٣-٥٥
 بنو ثعلبة : ١٣٠-١٣٦-١٩٣ -
 ٢٢٨-٢٦٣
 بنو جذيمة : ٣٤٦-٣٤٧
 بنو جشم : ١٢٩-١٣٠-٣٤٩
 بنو جعفر بن أبي طالب : ٣٢٤
 بنو جهم : ٦٤
 بنو الحارث بن الخزرج : ١٣٠-٣٧٥
 بنو الحارث بن عبد مناة : ٢٧٩
 بنو الحارث بن عامر بن نوفل : ٢٢٠
 بنو الحارث بن فهر : ٦٥-١٧٨
 بنو حارثة : ١٠١-١٠٢-١٨٨
 بنو الحجاج : ١٥٧
 بنو جذيفة : ٣٤٧
 بنو الحضرمي : ٣٢٨
 بنو حنيفة : ٢٥٨
 بنو خدر : ١٣٦
 بنو الخزرج = الخزرج .
 بنو خطمة : ١٨٧
 بنو الدليل : ٣٢٨
 بنو زهرة : ٤٣-٥٥-٦٤-١٥٩
 بنو ساعدة : ١٢٩-١٣٠-٢٠٤ -
 ٢٢٣
 بنو سالم بن عوف : ٢٠٠-٣٦٦
 بنو سعد بن بكر : ٤١-٢٦٤ -
 ٣٤٩-٣٦٧-٣٨٢
 بنو سحنة : ٢٣٧

أهل مؤتة : ٣١٩
 أهل نجد : ٢٣٦-٣٣١
 أهل النطاة : ٣٠٣
 أهل يثرب : ٢٣٩
 أهل انمن : ٣٦٨
 الأوس : ٩٧-٩٨-٩٩-١٠٠-
 ١٠٢-١٠٤-١٠٥-١٢٦-
 ١٢٨-١٣٣-١٣٤-٢٠١-
 ٢٠٥-٢٣٧-٢٣٩-٢٤٧-
 ٢٤٨-٢٤٩-٢٦٢-٢٧١-
 ٣٤٠-٣٦٧
 إباد : ٣٣

(ب)

الباياون : ٣٤-٤٣٢
 بكر بن وائل : ٩٠
 بلي : ٣٢٤
 بنو آكل المرار : ٣٨٣
 بنو أبي طلحة : ٢٠٧
 بنو أسد : ٤٣-٥٥-٦٤-
 ٢١٩-٢٣٣-٢٦٢
 بنو إسرائيل = اليهود
 بنو إسماعيل : ١٢
 بنو الأسود بن رزن السؤلي : ٣٢٨
 بنو أشجع : ٢٣٣
 بنو الأصغر (الروم) : ٢٩٣-
 ٣٣١-٣٦٥
 بنو أمية : ٥٩-٦٤-١٤٠
 بنو أمية بن زيد : ١٨٧
 بنو الأوس : ١٣٠
 بنو بكر : ١٩٤-٢٥٨-٢٦٤-
 ٢٨٥-٣٢٧-٣٢٨

بنو سائمة : ١٠٦-١٠٧-٢٠٢ —
 ٢٦٢ — ٢٨٢ — ٣٦٦-٣٦٥
 بنو سلول : ٣٨٢
 بنو سليم : ٣٣ — ١٩٤ — ٢٢٤ —
 ٢٣٣ — ٢٦٣ — ٣١٩-٣٥١ —
 ٣٥٩
 بنو الشطيبة : ١٣٠
 بنو شيان بن ثعلبة : ٩١
 بنو شيبة : ٣٨٩
 بنو ضمرة : ١٤٧
 بنو طالب : ٥٥
 بنو ظفر : ١٠٠ — ٢٠٦ —
 بنو العاص بن سعيد : ١٥٧
 بنو عامر : ٢٢٤ — ٢٢٥ — ٣٨١ —
 ٣٨٢
 بنو عامر بن صعصعة : ٩٠
 بنو عامر بن أوى : ٦٥ — ٢٤٠ —
 بنو عبد الأشهل : ٩٨ — ١٠٠ —
 ١٠٢ — ١٨٨ — ٢٠٢ — ٢١٦ —
 ٢٢٢ — ٢٤٨ —
 بنو عبد الدار : ٣٨ — ٤٦ — ٦٤ —
 ٢٠٤
 بنو عباد شمس : ٦٤ — ١٩٢ — ٢٥٢ —
 بنو عبد الله : ٣٤٠
 بنو عبد المطالب : ٥٨ — ٥٩ — ٧٦ —
 ٧٨ — ٩١ — ٣٥٩ —
 بنو عبد مناة : ١٩٧
 بنو عبد مناف : ٣٨ — ٣٩ — ٥٥ —
 ٦٠ — ٦٩ — ٨٢ — ٨٦ — ١٠٩ —
 ٣٦٦ — ٣٩٥ —
 بنو عبيد الله : ٣٤٠
 بنو العجلان : ٣٢٢
 بنو عدى : ١٥٩ — ٢٨٢
 بنو عدى بن النجار الخزرجي :
 ٣٩ — ٤١ — ١٦٢ —
 بنو عدى بن كعب : ٤٦ — ٦٤ —
 ٧٢ — ٣٣٦ —
 بنو عذرة : ٣٥ — ٢٣٠ —
 بنو عمرو بن عوف : ١١٧ — ١٢٩ —
 ١٣٧ — ١٧٩ — ١٨٦ — ٢٠٣ —
 ٢٢٤ — ٢٣٨ — ٢٤٧ — ٣٦٦ —
 بنو عمرو بن قريظة : ٢٥٠ — ٢٥١ —
 بنو عمرو بن معاوية : ٩٠
 بنو عواد : ٣١٩
 بنو عوف : ١٣٠ — ٢٢٦ — ٢٦٥ —
 بنو غفار : ٢٦٠ — ٢٦٤ — ٣٠٦ —
 ٣٣١ — ٣٦٦ —
 بنو فراس : ٢١
 بنو فزارة : ٢٣٣ — ٢٦٣ — ٣٠٩ —
 ٣٥٩
 بنو قريظة : ١٣١ — ١٤٥ — ٢٣٤ —
 ٢٣٦ — ٢٣٧ — ٢٣٨ — ٢٤١ —
 ٢٤٢ — ٢٤٣ — ٢٤٤ — ٢٤٥ —
 ٢٤٦ — ٢٤٨ — ٢٤٩ — ٢٥٠ —
 ٢٥١ — ٢٥٢ — ٢٥٦ — ٢٥٨ —
 ٢٧٧ — ٢٩٨ — ٣٠٧ — ٣٩٧ —
 بنو قيلة = الأوس والخزرج :
 ١٣٤ — ٢٠٣ —
 بنو قينقاع : ١٣١ — ١٩٠ — ١٩١ —
 ٢٣١ — ٢٣٢ — ٢٤٧ —

بنو سائمة : ١٠٦-١٠٧-٢٠٢ —
 ٢٦٢ — ٢٨٢ — ٣٦٦-٣٦٥
 بنو سلول : ٣٨٢
 بنو سليم : ٣٣ — ١٩٤ — ٢٢٤ —
 ٢٣٣ — ٢٦٣ — ٣١٩-٣٥١ —
 ٣٥٩
 بنو الشطيبة : ١٣٠
 بنو شيان بن ثعلبة : ٩١
 بنو شيبة : ٣٨٩
 بنو ضمرة : ١٤٧
 بنو طالب : ٥٥
 بنو ظفر : ١٠٠ — ٢٠٦ —
 بنو العاص بن سعيد : ١٥٧
 بنو عامر : ٢٢٤ — ٢٢٥ — ٣٨١ —
 ٣٨٢
 بنو عامر بن صعصعة : ٩٠
 بنو عامر بن أوى : ٦٥ — ٢٤٠ —
 بنو عبد الأشهل : ٩٨ — ١٠٠ —
 ١٠٢ — ١٨٨ — ٢٠٢ — ٢١٦ —
 ٢٢٢ — ٢٤٨ —
 بنو عبد الدار : ٣٨ — ٤٦ — ٦٤ —
 ٢٠٤
 بنو عباد شمس : ٦٤ — ١٩٢ — ٢٥٢ —
 بنو عبد الله : ٣٤٠
 بنو عبد المطالب : ٥٨ — ٥٩ — ٧٦ —
 ٧٨ — ٩١ — ٣٥٩ —
 بنو عبد مناة : ١٩٧
 بنو عبد مناف : ٣٨ — ٣٩ — ٥٥ —
 ٦٠ — ٦٩ — ٨٢ — ٨٦ — ١٠٩ —
 ٣٦٦ — ٣٩٥ —

بنو هلال : ٣٤٩	بنو كعب بن قريظة : ٣٣١-٢٥٠
بنو واقف : ٣٦٦	بنو كلاب : ٣١٩
بنو وائل : ٢٣٢	بنو كلب : ٢٦٤
(ت)	بنو كنانة : ١٢ - ٢٩ - ٦٥ -
التروبادور : ٤٤٦	١٩٧ - ٢٣٥ - ٢٤٠ - ٣٣٠ -
تميم : ٣٣ - ٣٧٤ - ٤٧٦	٣٤٦
(ث)	بنو لحيان : ٢٢٠ - ٢٥٩
ثقيف : ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٣٤٩ -	بنو لؤى : ٣٦
٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٥٨ - ٣٧٣ -	بنو مالك : ٢١
٣٧٦ - ٣٧٧ - ٣٨٦	بنو مالك بن النجار : ١١٩
الثويون : ١٣٨	بنو محارب : ٢٢٨
(ج)	بنو مخزوم : ٥٥ - ٦٣ - ٦٤ - ٨٠ -
جذام : ٣٢٥	بنو مدلج : ١٤٨
جرهم : ٣٥ - ٤٠	بنو مرة : ٢٣٣
جشم = بنو جشم .	بنو المصطلق : ٢٢ - ١٤٥ - ١٩٧ -
جهينة : ١٤٧ - ٢٣١	٢٠٠ - ٢٠٥ - ٢٣٥ - ٢٦٤ -
(ح)	٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٧٩ - ٢٨٠ -
الحميريون : ٣٥	٢٨١ - ٣٧٣
(خ)	بنو المطلب : ١٩٢
خدرة = بنو خدرة .	بنو نيهان : ١٨٧
خزاعة : ٣٠ - ٣٥ - ٣٦ - ٢٢٠ -	بنو النبيت : ١٢٩
٢٢٦ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٥ -	بنو النجار : ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣٢ -
٣٧٣	بنو النضير : ١٣١ - ١٤٥ - ١٨٧ -
الخزرج : ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ -	٢٢٥ - ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٦ -
١٠٠ - ١٠٢ - ١٠٤ - ١٠٥ -	٢٣٨ - ٣٠٥ - ٣٠٧ - ٣٩٧ -
١١٩ - ١٢٦ - ١٢٨ - ١٣٣ -	بنو نوفل : ١٩٢
١٣٤ - ١٩١ - ٢٠١ - ٢٣٧ -	بنو هاشم : ١٢ - ٤٣ - ٥١ -
	٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٧٦ - ٧٧ -
	٧٨ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ١٠٠ -
	١٤٠ - ١٥٩ - ١٦٧ - ١٩٢ -

(س)
 سعد بن بكر = بنو سعد بن بكر
 سليم = بنو سليم
 (ش)
 شوكة : ١٥٦
 (ص)
 الصابئة : ٣١ — ١٣٨
 صباء : ٣٧٣
 (ط)
 طى : ٣٣
 (ع)
 عبد القيس : ٢١٨
 عبدة الأوثان : ١٩
 عبادة الأصنام : ١٣٨
 عبدة الجن : ١٣٨
 عبدة الشمس : ١٣٨
 عبدة القمر : ١٣٨
 عبدة الكواكب : ١٣٨
 عبدة النار : ١٣٨
 عبدة النجوم : ١٣٨
 المعجم : ٥٧ — ٥٨ — ٢٧٠ — ٣١٦
 العرب : ١١ — ١٢ — ١٣ — ١٦ —
 ١٧ — ١٩ — ٢٠ — ٢٤ — ٢٥ —
 ٢٧ — ٢٨ — ٢٩ — ٣٢ — ٣٣ —
 ٣٤ — ٣٥ — ٤٠ — ٤٧ — ٤٨ —
 ٥٠ — ٦٠ — ٦٢ — ٧٦ — ٧٨ —
 ٩٩ — ١٠٩ — ١٢٤ — ١٣٨ —
 ١٣٩ — ١٦١ — ١٨٥ — ١٨٧ —
 ١٨٩ — ٢٠٠ — ٢٢٩ — ٢٣٠ —

٢٣٩ . ٢٤٧ . ٢٤٩ — ٢٦٢ —
 ٢٦٦ . ٢٧١ . ٣٢٧ . ٣٢٨ —
 ٣٣٥ . ٣٤٠ — ٣٤٦ — ٣٥٢ —
 ٣٦٧
 خطبة = بنو خطبة .
 (د)
 الدهريون — ١٣٨
 الديبل = بنو الديبل .
 (ذ)
 ذكوان : ٢٢٤
 (ر)
 رجال الدين المسيحي : ٤٢٠ — ٤٣١
 رجال الكنيسة : ٤٢٩ — ٤٣٣ — ٤٣٧
 رجال اللاهوت المسيحي : ٤٢٠ —
 ٤٢١
 ربيعة : ٣٣ — ٢١١
 رهبان النصارى : ٣٣ — ٤٣ —
 ٤٧ — ١٣٨
 الروم : ٢٣٠ — ٢٩٠ — ٢٩١ — ٣٢٠ —
 ٣٢١ . ٣٢٢ — ٣٢٤ . ٣٦٣ —
 ٣٦٤ . ٣٦٥ . ٣٦٩ — ٣٩٧ —
 الرومان : ١٩ . ٢٠ — ٢٦ —
 ٣٤ . ٢٣٥ — ٤١٥ — ٤١٧ —
 ٤١٨ . ٤٣٢ . ٤٣٩
 ()
 رهبنة اللاهوت المسيحي : ٤٢٧
 ١٣٨
 زكوان : ٢٢٤

فهر : ٣٦

الفريقون : ٣٤

(ق)

القارة : ٢٢٠ - ٢٢٤ - ٢٣٨

القبط : ٢٩٤

قريش : ١٢ - ١٨ - ٢٩ - ٣٥

٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٤٠ - ٤٢

٤٣ - ٤٤ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٩

٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧

٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢

٦٣ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٨ - ٧١

٧٢ - ٧٣ - ٧٦ - ٨٠ - ٨١

٨٢ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٩١

٩٢ - ٩٣ - ٩٧ - ٩٨ - ١٠٥

١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٨ - ١١٠

١١٣ - ١١٥ - ١٢٥ - ١٢٦

١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٨

١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٤

١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨

١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٢ - ١٥٣

١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨

١٥٩ - ١٦٠ - ١٧٣ - ١٧٥

١٧٦ - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠

١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٥ - ١٨٨

١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٤

١٩٢ - ١٩٤ - ١٩٦ - ١٩٧

١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١

٢٠٧ - ٢١١ - ٢١٨ - ٢٢٠

٢١٣ - ٢٢٢ - ٢٢٩ - ٢٣٢

٢٣٣ - ٢٣٥ - ٢٣٧ - ٢٣٩

٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٤

٢٣٥ - ٢٣٩ - ٢٤٨ - ٢٥٢

٢٥٣ - ٢٦١ - ٢٧٧ - ٢٧٩

٢٨٨ - ٢٩٠ - ٢٩٩ - ٣١٦

٣٢٠ - ٣٢١ - ٣٢٩ - ٣٦٥

٣٧٢ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٦

٣٨١ - ٣٨٣ - ٤٠٢ - ٤١٠

٤٣١ - ٤٤١ - ٤٤٢ - ٤٤٣

٤٤٤ - ٤٤٦ - ٤٤٩ - ٤٥٠

عريضة : ٢٧٤

عصية : ٢٢٤

عضل : ٢٢٠ - ٢٣٨

عكل : ٢٧٤

علماء اللاهوت المسيحي : ٤٢٠

٤٢١ - ٤٢٨ - ٤٣٢ - ٤٣٤

٤٣٨

(غ)

الغساسنة : ٣٣

غطفان : ١٩٣ - ٢٢٨ - ٢٣٣

٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٩ - ٢٤١

٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٦٠

٢٩٩ - ٣٢٦

غفار = بنو غفار .

(ف)

الفرس : ١٨ - ٣٤ - ٥٤ - ٢٣٥

٢٩٠ - ٢٩٢ - ٢٩٥ - ٣٢٤

٤٤١

فزاره = بنو فزاره .

منحج : ٣٣

مزينة : ٣٣١

المسيحيون : ٤٧ — ١٣٢ — ١٣٨

١٤٢ — ١٤٤ — ١٤٥ — ١٩٢

٢٥٧ — ٤٠٦ — ٤٢٢ — ٤٢٩

المشركون : ٥٣ — ٧٦ — ٧٩

١٠٧ — ١٠٨ — ١١٨ — ١١٩

١٢٤ — ١٤٢ — ١٤٣ — ١٤٤

١٤٥ — ١٤٦ — ١٤٩ — ١٦٣

١٦٥ — ١٦٦ — ١٦٧ — ١٦٨

١٧٠ — ١٧٦ — ١٧٧ — ١٨٥

١٩٣ — ٢٠٣ — ٢٠٦ — ٢٠٧

٢٠٨ — ٢١٠ — ٢١٢ — ٢١٤

٢١٧ — ٢٣٦ — ٢٧٨ — ٢٨٤

٢٨٥ — ٣٦٣ — ٣٨٤ — ٣٨٦

٣٨٧

المصريون : ١٩ — ٣٤

المصطلق = بنو المصطلق .

مخير : ٣٣ — ٢١١ — ٣٤٦

المكيون : ٣٤

المناذرة : ٣٣

الهاجرون : ١٢٤ — ١٢٥ — ١٢٦

١٢٧ — ١٢٨ — ١٤٥ — ١٤٧

١٥٢ — ١٩٣ — ٢١١ — ٢٢٥

٢٢٧ — ٢٦٥ — ٣٣١ — ٣٣٢

٣٣٧ — ٣٤٠ — ٣٥٣ — ٣٥٩

٣٦٧ — ٣٧٥ — ٤٠٣ — ٤٠٤

٤٠٩ — ٤١٠

الموحدون العرب : ١٣٨

٢٤١ — ٢٤٢ — ٢٤٣ — ٢٥٩

٢٦٣ — ٢٧٥ — ٢٧٦ — ٢٧٧

٢٧٨ — ٢٧٩ — ٢٨٠ — ٢٨١

٢٨٢ — ٢٨٣ — ٢٨٤ — ٢٨٥

٢٨٧ — ٢٨٨ — ٢٩٠ — ٢٩٢

٣٠٩ — ٣١٠ — ٣١١ — ٣١٤

٣١٥ — ٣١٦ — ٣٢٤ — ٣٢٧

٣٢٨ — ٣٣٠ — ٣٣١ — ٣٣٢

٣٣٣ — ٣٣٥ — ٣٣٧ — ٣٣٩

٣٤١ — ٣٤٢ — ٣٤٦ — ٣٥١

٣٥٢ — ٣٦١ — ٣٦٣ — ٣٧٢

٣٧٤ — ٣٨١ — ٣٨٣ — ٣٨٦

٣٩٠ — ٤١٠ — ٤٣٢ — ٤٣٩

قريظة = بنو قريظة .

قيس النصارى = رهبان النصارى .

قضاة : ٣٣

قيس بن ثعابة : ٣٣

(ك)

كعب : ٣٤٩

كلاپ : ٣٤٩

كلب : ٣٤٦

الكلدان : ٣١

كنانة = بنو كنانة .

كنانة : ٩٠ — ٣٦٩ — ٣٨٣

كهنة النصارى = رهبان النصارى

(ل)

الليط : ٣٣٩

(م)

المجوس : ٢٩٥ — ٢٩٦

١٥٠-١٥٦-١٧٣-١٨٥
١٨٦-١٨٩-١٩٠-١٩١
١٩٢-٢١٥-٢١٩-٢٢٥
٢٢٦-٢٢٧-٢٢٨-٢٣١
٢٣٣-٢٣٦-٢٣٧-٢٢٨
٢٤٢-٢٤٣-٢٤٦-٢٤٧
٢٤٩-٢٩٨-٣٠٠-٣٠١
٣٠٣-٣٠٤-٣٠٥-٣٠٦
٤٠٦

يهود بني الأوس : ١٣٠
يهود بني ثعلبة : ١٣٠
يهود بني جشم : ١٣٠
يهود بني الحارث : ١٣٠
يهود بني ساعدة : ١٣٠
يهود بني الشطيبة : ١٣٠
يهود بني عوف : ١٣٠
يهود بني قريظة : ٢٣٦
يهود بني النجار : ١٣٠
يهود بني النضير : ٣٩٥
يهود تيماء : ٣٠٦
يهود جفنة : ١٣٠
يهود نخير : ٢٦١-٢٩٨-٣٠٦
يهود فذك : ٣٠٦
يهود المدينة : ٢٩٨

(ن)

النبطيون : ٣٤ - ٣٥
النصارى = المسيحيون
نصر : ٣٤٩

(هـ)

هذيل : ٢٢٠ - ٣٤٦
الهنود : ٣٤ - ٤٤١ - ٤٤٣
هوازن : ٤٣ - ٣٠٩ - ٣١٩
٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥١
٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٥٥
٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٥٨ - ٣٥٩
٣٦٠ - ٣٦٧ - ٣٧٣ - ٣٧٦

(ى)

اليمنيون : ٣٤
اليونان : ٢٠ - ٢٦ - ٣٤ - ٤١٥
٤١٦ - ٤٣٩ - ٤٤١ - ٤٤٢
٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٥ - ٤٤٨
٤٤٩ - ٤٥٠
اليهود : ٣٢ - ٣٣ - ٤٧ - ٩٨
١٠٤ - ١١٨ - ١١٩ - ١٢٤
١٢٨ - ١٢٩ - ١٣١ - ١٣٢
١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦
١٣٨ - ١٤٢ - ١٤٤ - ١٤٥

فهرس الأماكن والبلدان

إنجلترا : ٤٤٨	(أ)
أوروبا : ٣٢ — ٤٢٦ — ٤٣١ —	آسيا : ٣٤
٤٤٣ — ٤٤٤ — ٤٤٥ —	أباطح مكة : ٣٦
٤٤٦ — ٤٤٧ — ٤٤٩ — ٤٥٠ —	الأبواء : ٤٢ — ١٤٧٠ — ١٥٥
٤٥١	أبو قبيس (جبل) : ٣١١
أوطاس : ٣٥٦ — ٣٥٥	الأنيل : ١٧٦ — ١٧٥
أولات الجيش : ١٥٥	أثينا : ٤١٨ — ٤٣٣
إيطاليا : ٤٢٧ — ٤٤٨	أحد : ١٩٨ — ٢٠١ — ٢١٤ —
أيلة : ٣٦٨ — ٣٣	٢٣٦ — ٢٣٧
(ب)	أذاخر : ٣٤٠
باب عائشة : ٤٠٩	أذرح : ٣٦٨
باريس : ٤١٨	أذرعات : ١٩٢
البتراء : ٣٤	أرض خيبر : ٢٦٢
البحر الأبيض المتوسط : ٣٤ —	أرض الروم : ٣٨٤
٤١٧ — ٤١٨ — ٤٣١ — ٤٤٥ —	أرض الشام : ٣٠
البحر الأحمر : ٢٣٠	أرض محارب (بنجاب) : ٣٢٦
بهران : ١٩٤	أرض فارس : ٩٣
بحرة الرغاة : ٣٥٦	أرض العرب = بلاد العرب .
البحرين : ٣٣ — ٣٤ — ٢٩١ —	أسبانيا : ٤٣٣ — ٤٣٨ — ٤٤٥ —
٢٩٦ — ٢٩٥	٤٤٦ ٤٤٧
بلد : ١٥٦ — ١٥٧ — ١٥٨ —	الأمم المتحدة : ٢٩٤ — ٤١٦ — ٤١٨ —
١٥٩ — ١٦٠ — ١٧٤ — ١٧٥ —	٤٣٢ ٤٣٩ — ٤٤١ —
١٩١ — ١٩٦ — ٢٢٨ — ٢٢٩ —	أسواق العرب : ٣٢
٢٧٧ — ٣١٦ — ٤٠٠ — ٤٣٨ —	أفريقيا : ٣٤
برك الغساسد : ١٥٦	أكسفورد : ٤١٨
بنستان مربع بن قيطي : ٢٠٢	أم القرى : مكة .
البصرة : ٢٥٨	الأمم المتحدة : ١٦ — ٤٣١ — ٤٤٧ —

٢٨٦-٢٨٥-٢٨٣-٢٨٢
٢١٢-٣١١-٣١٠-٢٨٨
٣٤٠-٣٣٨-٣٣٧-٣٣٤
٣٧٢-٣٦٣-٣٤٢-٣٤١
٣٩٣-٣٨٩-٣٨٧-٣٨٦

٤٠٢

بيت الحكمة : ٤٤١ - ٤٤٠
البيت العتيق = البيت الحرام
بيت الله = البيت الحرام
بيت الله الحرام = البيت الحرام
بيت المقدس : ٣٢ - ٩٥ - ٩٦
٣٨٠ - ١٥٠

بيت ميمونة : ٤٠٤
بيوت العريض : ١٩٣
بئر أنى : ٢٤٦
بئر الروحاء : ١٥٦
بئر معونة : ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٣٣

(ت)

تبوك : ٣٦٨-٣٦٩-٣٧٠-٣٨٤
تربان : ١٥٥
تربة : ٣٠٩
تهامة : ١٩٧-٢٣٥-٢٧٨-٢٧٩
تهاء : ٣٢

(ث)

الثنية السفلى (كلى) : ٣٩٣
الثنية العليا (كداء) : ٣٨٩
ثنية المزار : ٢٧٨
ثنية الوداع : ١١٧-١٧٦-٢٦٠-٢٦٧

(٢٢ - محمد)

بصرى : ٢٩١ - ٢٩٣

بطن رايغ : ١٤٦

بطن ياججج : ٣٠١

بطن يذبع : ١٤٧

بغداد : ٤١٨

بقيع الغرقد : ١٨٩ - ٤٠٣
بككة = مكة

بلاد الإغريق : ٤١٥

بلاد فارس : ٩٣

بلاد اليونان : ٤١٦

بلاد بلقين : ٣٢٥

بلاد بلى : ٣٢٥

بلاد ثقيف : ٣٧٦

بلاد الروم : ٣٧٠

بلاد عنزة : ٣٢٥

بلاد العرب : ١٢-٢٦-٣٣--

٣٤ - ٦٠-٩٣-١٣٩-٢٩٠

٣١٥ - ٣٦٦ - ٣٧٠ - ٣٧٣

٤٠٦

بلاد الكلدان : ٣١

البلقاء : ٣٠-٢٩٣-٣٢٠-٤٠٣

بهاء : ٣٣

بواط : ١٤٧

البيت = البيت الحرام

بيت أنى بكر = دار أنى بكر

البيت الحرام : ٣٥ - ٣٦ -

٣٧ - ٤٣ - ٤٦ - ٧١ - ٧٢ -

٨٣ - ٩٥ - ٩٦ - ١٢٦ - ١٤٠ -

١٤٦ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٣ -

٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٩ -

الحجاز : ٣٣ - ١٥٢ - ١٩٤ -
 ٢٢٢ - ٢٣٠ - ٢٧٧ - ٢٩٥ -
 ٣٨٦
 الحجر الأسود : ٤٦ - ٤٧ -
 ٣٤٠ - ٣٨٩
 حجرات الرسول : ٣٧٤ - ٣٧٥
 حجرة حفصة : ٣٩٨
 الحديدية : ٢٧٨ - ٢٨٧ - ٢٨٩ -
 ٢٩٠ - ٢٩٩ - ٣١٠
 الحرم = البيت الحرام
 حرة بني حارثة : ٢٠٢
 حرة بني سليم : ٢٢٤
 الحرة الشرقية : ٢٣٤
 الحرة الغربية : ٢٣٤
 حصن أوى : ٣٠٠ - ٣٠٣
 حصن البرىء : ٣٠٠
 حصن البرزة : ٣٠٤
 حصن الزبير : ٣٠٣
 حصن السلام : ٣٠٠ - ٣٠٥
 حصن الشق : ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٣
 حصن الصعب بن معاذ : ٣٠٠ -
 ٣٠٣
 حصن قاة : ٣٠٠
 حصن التاموص : ٣٠٠ - ٣٠٥
 حصن الكتيبة : ٣٠٥
 حصن ناعم : ٣٠٠ - ٣٠٣
 حصن النطاة : ٣٠٠ - ٣٠٣ -
 ٣٠٥
 حصن الوضوح : ٣٠٠ - ٣٠٥
 حصون بني قريظة : ٢٣٤

(ج)

جبال جهينة : ١٤٧
 جبل أحد : ١٩٨ - ٢١٠ -
 ٢١١ - ٢٣٦ (وانظر أحد)
 جبل ثور : ١١٢
 جبل ذباب : ٣٦٧
 جبل سلع : ٢٣٤ - ٢٣٦ -
 ٢٤٠ - ٢٦٠
 جبل كداء : ٣٣٩
 جبل كدى : ٣٣٩
 جبل عرنه : ٢٢٠
 جبل هند : ٣٣٩
 الجحفة : ١٥٥ - ٣٣٣
 جسدة : ٣٧٣
 جرباء : ٣٦٨
 الجحرف : ٢٣٥ - ٣٦٧ - ٤٠٣
 الجزيرة = جزيرة العرب
 جزيرة العرب : ١٩ - ٢٧ - ٢٨ -
 ٣١ - ٣٤ - ٣٦ - ٥٩ - ٦٣ -
 ١٣٨ - ١٥٦ - ١٧٢ - ٢٣٠ -
 ٢٣٥ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٥ -
 ٣١٩ - ٣٥٨ - ٣٧٢ - ٣٧٤ -
 ٣٨٦ - ٣٨٨ - ٤٠٢ - (وانظر
 بلاد العرب)
 الجعرانة : ٣٥٨ - ٣٦٧
 الجحوم : ٢٦٣

(ح)

الحبشة : ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ -
 ١٠٧ - ١٩٤ - ٢٩١ - ٣٠٨ -
 ٣٤٣ - ٣٩٥ - ٤٠٠

(د)
 ذات أطلاق : ٣١٩
 ذفران : ١٥٦ — ١٥٧
 ذنب نقمي : ٢٣٦ — ٢٣٧
 ذو أمر : ١٩٣
 ذو أوان : ٣٧٠
 ذو الحليفة : ١٥٥ — ٢٧٨ —
 ٢٨٧ — ٣٨٨
 ذو طوى : ٣١٠ — ٣٣٨
 ذو القصة : ٢٦٢
 ذو قرد (ماء) : ٢٦١
 (ر)
 الربذة : ٢٦٢
 الرجيع : ٢٢٠ — ٢٢٥ — ٢٣٨ —
 ٢٥٩ — ٢٩٩
 رضوى : ١٤٧
 رعين : ٣٨٤
 الركن الأسود : ٣١١
 الركن اليماني : ٣١١
 الروحاء : ٢١٧
 روما : ٤١٨ — ٤٣٣
 رومة : ٢٣٥ — ٢٣٧
 الرهط : ٣١٤
 (ز)
 زغابة : ٢٣٥
 زمزم : ٤٠
 (س)
 سمسج : ١٥٦
 سد الصهباء : ٣٠٧

حصون اليهود : ٣٠٠
 حضرموت : ٣٤
 حمراء الأسد : ٢١٤ — ٢١٦ —
 ٢١٨
 حبر : ٣٣ — ٣٨٤ — ٣٨٥
 حنين : ١٤٥ — ٣٥١
 حن بن سالم بن عوف : ١١٧
 الحيرة : ٣٣
 (خ)
 خليج العرب : ٢٣٠
 خيبر : ٢٦١ — ٢٦٢ — ٢٦٤ — ٢٩٩ —
 ٣٠٠ — ٣٠٢ — ٣٠٤ — ٣٠٦ —
 ٣٠٧ — ٣٠٨ — ٣٠٩
 (د)
 دار ابن أزهري بن عبد عوف : ٧١
 دار أنى أيوب : ١١٩ — ١٢٠
 دار أنى بكر : ١١٠ — ١١١ — ٤٠٥
 دار أنى سفيان : ٣٣٧ — ٣٣٨ —
 ٣٤٠
 دار سعد بن أبي : ١٩٨
 دار عائشة : ٤٠٤
 دار قصي بن كلاب : ١٠٨
 دار محمد بن زيد : ٤٠١
 دار الندوة : ٣٧ — ١٠٨
 الداروم : ٤٠٣
 دمشق : ٢٩٤
 دومة الجندل : ٢٣٠ — ٢٦٤ —
 ٢٢٧ — ٣٦٩
 ديار الشام : ٣٦٩

شمالى أفريقيا : ١٦

الشوط : ٢٠١

(ص)

صحراء العرب : ١٣٣

صحبرات اليمامة : ١٥٥

الصنما : ٥٤-٥٨ - ٦٣ - ٦٩ -

٧٠ - ٣١١ - ٣٤٠ - ٣٤٥ -

٣٨٩ - ٣٩٣ -

صقلية : ٤٣١ - ٤٣٣ - ٤٣٨ -

٤٤٥ - ٤٤٦ -

صياصى يثرب : ٢٠٠

(ض)

ضربة : ٢٥٨

(ط)

الطائف : ٨٨ - ١٤٥ - ١٤٨ -

٣١٤ - ٣٥٥ - ٣٥٦ - ٣٥٧ -

٣٦٠

الطرف : ٢٦٣

(ظ)

ظواهر مكة : ٣٦

ظنمار : ٢٦٩

(ع)

العالية : ٢٩٧

العمدة القصوى : ١٥٨ - ١٦٠ -

العراق : ١٦ - ٧٤ - ١٩٤ -

٢٦٣

عرفات : ٣٩٢

عرفة : ٢٩ - ٣٩٠ -

سرف : ٣١٢ - ٣٨٩

سفوان : ١٤٨

سقيفة بنى ساعدة : ٤٠٩

السلاسل (ماء) : ٣٥٥

سلع = جبل سلع

السماء : ٩٣

سنجار : ٤٤٢

السنج : ٣٩٧ - ٤٠٧

سوق بدر : ٢٢٨ - ٢٢٩

سوق بنى قينقاع : ١٩٠

سوق عكاظ : ٢٧ - ٢٨ - ٤٣ -

٢١٨

سوق المدينة : ١٢٧ - ٢٤٩

سومطرة : ٣٤

السيالة : ١٥٦

(ش)

للشام : ١٦ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ -

٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ -

٤٣ - ٤٤ - ٧٤ - ١٠٨ -

١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ -

١٥٢ - ١٨١ - ١٨٦ - ١٩٢ -

١٩٤ - ٢٣٠ - ٢٣٥ - ٢٥٩ -

٢٦٣ - ٢٧٧ - ٢٨٧ - ٢٩٢ -

٢٩٣ - ٢٩٥ - ٣١٩ - ٣٢٠ -

٣٢٤ - ٣٦٧ - ٣٦٨ - ٣٦٩ -

٣٧٠ - ٤٠٢ -

شبه جزيرة العرب = بلاد العرب

شعاب مكة : ٥١ - ٥٣ -

شعب أبى طالب : ٧٦

شعب العتبة : ١٠٣

(ق)

- القاهرة : ٤١٨
قباء : ١١٦ - ١١٧ - ١٩٨ - ٢٢٥
قديد : ١٥٥ - ٢٦٤ - ٣٤٦
القردة (ماء) : ١٩٥
قرطبة : ٤١٨ - ٤٤٧
قرقرة الكندر : ١٩٣
القرقرة : ٢٢٤
قرن : ٣٥٦
القرى اليهودية : ٣٢
قصور الروم : ٢٣٥
قصور الشام : ٢٣٥
قصور فارس : ٢٣٥
قصور الفرس : ٢٣٥
قلعة الزبير = حصن الزبير .
قاعة سموان : ٣٠٣
قليب بدر : ١٧١ - ١٩٦
(ك)
كثيب العنقل : ١٦٠
كدى = جبل كدى
الكديد : ٣٣٣
الكعبة : ٢١ - ٣٠ - ٣١ - ٣٣ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٤٠ - ٤٢ - ٤٦ - ٤٩ - ٧٤ - ٧٦ - ٨٢ - ٨٤ - ٨٨ - ١٢٦ - ١٣٩ - ١٤١ - ١٤٦ - ١٥٠ - ١٩٦ - ٢٢٣ - ٢٣٥ - ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٨٣ - ٢٨٨ - ٣١١

عرق الظبية : ١٥٦ - ١٧٥

- العريض : ١٩٣
عسفان : ٢٥٩ - ٣٢٨ - ١٥٥
عكاظ = سوق عكاظ .
العشيرة : ١٤٧ - ١٥٢
العنقة : ٣٣ - ١٠٠ - ١٠٣ - ١٤٦ - ١٠٧
العنقة : ٣٦٨
العنقل : ١٦٠
العنق : ١٥٥ - ١٧٢
عالية عمرو بن مسعود : ٣٧٦
عمان : ٢٩١ - ٢٩٦

(غ)

- الغابة : ١٤٥ - ٢٦٠ - ٣٠٩
غار جبل ثور : ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٤
غار حراء : ٤٧ - ٤٩
غدر الأشطا : ٢٧٨
غزة : ٣٩
غميس الحمام : ١٥٥

(ف)

- فارس : ٩٠ - ٩٣ - ٢٣٥ - ٤١٣
فجج الروحاء : ١٥٦ - ٣١٧
فلك : ٢٦٤ - ٣٠٦ - ٣٠٩
الفرع : ١٩٤
فرنسا : ٤٤٨
فلسطين : ٣٢ - ٤٠٣

-٢٧٧- ٢٧٥ - ٢٧٤- ٢٧٠
 -٢٨٧- ٢٨٦ - ٢٨٥- ٢٨٣
 -٣٠٧- ٣٠٦ - ٣٠٥- ٢٩٨
 -٣١٩- ٣١٧ - ٣١٠- ٣٠٩
 -٣٢٧- ٣٢٦ - ٣٢٤- ٣٢٣
 -٣٤٤- ٣٣٢ - ٣٣١- ٣٢٩
 -٣٧١- ٣٧٠ - ٣٦٩- ٣٦٧
 -٣٨٨- ٣٨٦ - ٣٨٤- ٣٧٧
 -٤٠٢- ٤٠٠ - ٣٩٣- ٣٨٩
 ٤١١- ٤٠٩ - ٤٠٧- ٤٠٣
 مر الظهران : ٣١٠ - ٣٣٣ - ٣٦٧ - ٣٣٤
 مربد بنى ثعلبة : ١١٩ - ١٣٦
 المروة : ٣١١ - ٣٤٥ - ٣٨٩ - ٣٩٠
 المريسيع (ماء) : ٢٦٤
 المزدلفة : ٢٨ - ٢٩ - ٣٩٢
 مساكن الرسول : ١١٩ - ١٢٥
 المسجد = البيت الحرام .
 مسجد أبى بكر : ٨١
 المسجد الحرام = البيت الحرام
 مسجد الرسول : ١١٩ - ١٢٥
 -١٩٩- ١٨٣ - ١٣٦ - ١٣٢
 - ٣٧٤ - ٢٤٨ - ٢٤٧ - ٢٢٢
 - ٣٨٢ - ٣٨٠ - ٣٧٩ - ٣٧٧
 - ٤٠٧ - ٤٠٥ - ٣٩٩ - ٣٨٣
 ٤١٠ - ٤٠٨
 مسجد الضرار : ٣٧٠ - ٣٧١
 مسجد الطائف : ٢٥٧

-٣٣٧- ٣٢٨ - ٣١٥- ٣١٤
 ٣٨٩ - ٣٤٢ - ٣٤٠ - ٣٣٩
 كولوسى : ٤٢٦
 (ل)
 لية : ٣٥٦
 (م)
 ما بين النهرين : ٤١٥-٤١٧-٤٣١
 مجتمع الأسياال : ٢٣٥ - ٢٣٧
 المحصب : ٣٩٣
 المدراس : ١٣٤
 المدينة : ٣٢ - ٣٣ - ٣٩
 ٤١ - ٤٢ - ٩٨ - ١٠٠ - ١٠٣
 ١٠٧ - ١٠٨ - ١١٦ - ١١٧
 ١٢٥ - ١٢٧ - ١٢٩ - ١٣١
 ١٣٣ - ١٣٨ - ١٤٥ - ١٤٦
 ١٤٧ - ١٤٨ - ١٥٣ - ١٥٥
 ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٩ - ١٦١
 ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨
 ١٧٩ - ١٨١ - ١٨٥ - ١٩١
 ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٧
 ١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١
 ٢٠٥ - ٢٠٨ - ٢١٢ - ٢١٤
 ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٨ - ٢١٩
 ٢٢٠ - ٢٢٢ - ٢٢٤ - ٢٢٥
 ٢٢٦ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١
 ٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٣٦ - ٢٣٨
 ٢٣٩ - ٢٤٥ - ٢٥٨ - ٢٥٩
 ٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣
 ٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٧ - ٢٦٩

- ٥٠٣ -

٣٢٨ - ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٢
٣٣٣ - ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٧
٣٣٨ - ٣٤٠ - ٣٤٥ - ٣٤٦
٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥١
٣٦٣ - ٣٦٧ - ٣٨٩ - ٣٩٣
٤٠٠

ملل : ١٥٥

المليح : ٣٥٦

المنصرف : ١٥٦

منعرج السوئبان : ٢٤

منى : ٣٧ - ١٠٦ - ٣٩٠

٣٩٢ - ٣٩٣

مؤتة : ٣١٩ - ٣٢٠

(ن)

النازية : ١٥٦

نجد : ٢٥١ - ٢٣٦ - ٣٨١

نجران : ٣٣ - ٣٧٤ - ٣٨٠

نحلة : ٣٤٦ - ٣٥٥ - ٣٥٦

نحلة الجمانية : ٣٥٦

نقب المدينة : ١٥٥

نمرة : ٣٩٠

نيق العقاب : ٣٣٣

(هـ)

الهدنة : ٣١٧

حمدان : ٣٨٤

الهند : ٣١

الحيفاء : ٢٦٣

مسجد قباء : ١١٧ - ١٩٨
٣٧٠ - ٣٧١

مشربة الرسول : ٣٩٩

مشربة مارية التبطية : ٤٠١

المشعر الحرام : ٣٩٠ - ٣٩٢

المشمل : ٣٤٦

مصر : ١٦ - ٣١ - ٢٩١

٢٩٤ - ٢٩٥ - ٤١٥ - ٤١٦

مصر القديمة : ٤١٥ - ٤١٧ - ٤٣١

مقام إبراهيم : ١٢٦ - ٣٨٩

مكة : ٢٨ - ٣٠ - ٣٤ - ٣٥

٣٩ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤

٤٦ - ٤٧ - ٥٣ - ٥٥ - ٥٩

٦٠ - ٦٥ - ٧٣ - ٧٦ - ٧٧

٧٨ - ٨١ - ٩٧ - ٩٨ - ١٠٦

١٠٧ - ١١٠ - ١١٣ - ١١٦

١١٩ - ١٢٥ - ١٢٦ - ١٣٨

١٤٠ - ١٤٤ - ١٤٦ - ١٤٨

١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦

١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٧ - ١٦٨

١٧٠ - ١٧٣ - ١٧٨ - ١٧٩

١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢ - ١٨٧

١٩٢ - ١٩٥ - ٢٠٥ - ٢١٢

٢١٧ - ٢٢٠ - ٢٢٢ - ٢٥٩

٢٦٣ - ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٨

٢٧٩ - ٢٨٢ - ٢٨٤ - ٢٨٧

٢٨٨ - ٢٩٧ - ٣٠٩ - ٣١٠

٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤

٣١٥ - ٣١٦ - ٣٢٦ - ٣٢٧

ودان : ١٤٧	(و)
(ى)	وادی الجمرانة : ٣٥٥
يأجيج : ٣١٧	وادی زانوانا : ١١٧
يُرب = المدينة .	وادی الرجيع : ٢٩٩
الجمامة : ٧٥ - ٩٣ - ٢٩١ - ٢٩٧ -	وادی الصفراء : ١٧٥
٣٧٩	وادی القرى : ٣٢ - ١٩٢ - ٣٢٤
اليمن : ٣٣ - ٣٤ - ٢٩٥ - ٣٧٣	وادی النيل : ٤١٦
اليونان : ٤٣١	الوتير (ماء) : ٣٢٧ - ٣٢٨

فهرس الغزوات والأيام والوقائع

غزوة بدر الأولى : ١٤٨	بعثت = يوم بعثت
غزوة بدر العظمى : ١٤٥-١٤٨	بيعة الرضوان : ٢٨٢ - ٣٥٣
١٥٢ - ١٥٤ - ١٦٦ - ١٦٧	بيعة السقيفة : ٤١٠ - ٤١١
١٧٦ - ١٧٧ - ١٨٢ - ١٨٣	بيعة العامة : ٤١٠ - ٤١١
١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧	بيعة العقبة الأولى : ١٠٠
١٩٣ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧	بيعة العقبة الثانية : ١٠٣ - ١٠٤
١٩٨ - ٢٠٣ - ٢٠٦ - ٢١١	١٠٥ - ١٠٧
٢١٥ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢١	حرب الفجار الرابعة : ٤٣ - ٤٦
٢٢٨ - ٢٣٣ - ٣١٤ - ٣٢١	حلف الأحابيش : ٢٢
٣٣١ - ٣٤٢ - ٣٩٥	حلف الفضول : ٤٤ - ٤٦
غزوة بدر الآخرة : ٢٢٩	حلف المطيبين : ٢٢ - ٣٨
غزوة بنى سليم : ١٩٤	صحيفة المدينة : ١٢٨ - ١٢٩
غزوة بنى قريظة : ١٤٥ - ٢٤٥	١٣٠ - ١٣١
٢٥٢ - ٢٥٦ - ٢٥٨	صحيفة المقاطعة : ٧٦ - ٨٢ - ٨٣
غزوة بنى قينقاع : ١٩١	٨٤ - ٨٦
غزوة بنى الحيان : ٢٥٩	صلح الحديبية : ١٧٩ - ٢٥٦
غزوة بنى المصطلق : ١٤٥ - ٢٦٤	٢٥٧ - ٢٩٠ - ٢٩٩ - ٣١٤
٣٩٥	٣١٥ - ٣١٩ - ٣٢٧ - ٣٣٥
غزوة بنى النضير : ١٤٥ - ٢٢٦	عام الفيل : ٤١
٢٣٨	عهد الحديبية = صلح الحديبية
غزوة تبوك : ٣٦٣ - ٣٧٣ - ٤٠٢	غزوة الأبواء : ١٤٧
غزوة الحديبية : ٢٥٦ - ٢٧٥	غزوة أحد : ١٤٥ - ١٨٢
٢٨٧ - ٢٩٠ - ٢٩٩ - ٣١٤	١٨٥ - ١٩٦ - ٢١٥ - ٢١٦
٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٥٢ (وانظر	٢١٩ - ٢٢٨ - ٢٣٠ - ٢٣٣
الحديبية في الأماكن والبلدان)	٣١٤ - ٣٧٠ - ٣٧١ - ٣٩٥
غزوة حراء الأسد : ٢١٥	٤٠٤
	غزوة الأحزاب : ١٤٥ - ٢٧٧

٣٤٦ — ٣٧٢ — ٣٧٣ — ٣٧٤ —

٣٨٦

غزوة ودان : ١٤٧

وقعة أحد = غزوة أحد .

وقعة حنين = غزوة حنين .

وقعة بدر = غزوة بدر .

وقعة بعاث = يوم بعاث

يوم أحد = غزوة أحد

يوم بدر = غزوة بدر —

يوم بعاث = ٩٨ — ١٢٦ — ١٣٤ —

٢٤٩

يوم بني النضير = غزوة بني النضير .

يوم الخندق = غزوة الخندق .

يوم المريسيع = غزوة بني المصطلق

يوم الفتح = غزوة الفتح الأعظم .

يوم الحديبية = غزوة الحديبية .

يوم خيبر = غزوة خيبر .

غزوة حنين : ١٤٥ — ٣٤٨ —

٣٤٩ — ٣٧٣ — ٣٧٦

غزوة الخندق : ٢١٩ — ٢٢٤ —

٢٣٠ — ٢٣١ — ٢٤٨ — ٢٥٨ —

٢٦١ — ٢٦٣ — ٢٩٨ — ٣١٤

غزوة خيبر : ١٤٥ — ٢٩٨ —

٣٠٠ — ٣٠٨ —

غزوة دومة الجندل : ٢٣٠

غزوة ذات الرقاع : ٢٢٨

غزوة السويق : ١٩٣

غزوة العشرة : ١٤٧ — ١٤٨ — ١٥٢

غزوة الغابة : ١٤٥ — ٢٦٠ — ٢٦١

غزوة غطفان : ١٩٣

غزوة الطائف : ١٤٥ — ٣٤٩ —

٣٧٣

فتح الحديبية = غزوة الحديبية

غزوة الفتح الأعظم (فتح مكة)

٢١ — ١٤٥ — ٣٢٧ — ٣٤٠ —

م : الدجوى - القاهرة

ت : ٩٠٠٤٩٨ - ٩٢٤٢٦٨



الناشر
مكتبة النخاعي بالقاهرة